

الدكتور عبد الوروي

# الفلسفة

بين العلم والعقيدة



800 28 22 6946 F5

AXIELL  
BOOKS LTD



الدكتور عباي الوردي

# الألم

## بين العلم والعقيدة

بحث في الأعلام من حيث تأثرها في عقائد الناس وعاداتهم  
وما توصل إليه العلم الحديث في ذلك من نظريات

المكتبة الإلكترونية الشاملة pdf

لرفع ونشر الكتب

يوسف الرميض





المكتبة الألكترونية الشاملة pdf

لرفع ونشر الكتب

يوسف الرميض

☆ الاعلام بين العلم والعقيدة

☆ د. علي الوردي

☆ الطبعة الثانية 1994

☆ دار كوفان لندن

☆ جميع الحقوق محفوظة

دار كوفان للنشر  
توزيع دارالكنوز الإخبارية  
ص. ب. ١١/٦٢٢٢  
بيروت - لبنان

Second Addition in the United Kingdom in 1994

Copyright Kufaan Publishing

P.O. Box 2320 Kensington

London W8 7ZE U.K.

P.O. Box 5182/13 Hamra

Beirut / Lebanon

ISBN 1 - 898124 - 08 - 6

All rights reserved. No part of this publications may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الثانية 1994

## مقدمة

### كلمة لا بد منها

لهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ قصة لا تظن من طرافة. فقد بدأت بطبع الكتاب في شهر نيسان من عام 1957 ، وكان المقرر الانتهاء من طبعه في صيف ذلك العام. وهنا فقد اعلنت عن قرب صدوره في الصحف المحلية عدة مرات .

والكتاب كما سيرى القارئ مقسم الى ثلاثة اقسام. ولم تكف المطبعة تنتهي من طبع القسمين الأولين منه حتى طلبت منها ان تؤجل إكمال طبعه ، وأن تضع لللازم المطبوعة منه على الرف. ففعلت المطبعة ذلك دون ان تحرف السر فيه. وبقيت لللازم المطبوعة من الكتاب مطروحة في مخازن المطبعة يعلوها الغراب وتلفحها فئسة الشمس.

لست لريد في هذه المناسبة ان ادعي البطولة لنفسى ، او ازعج ان الكتاب يحتوي على معارضة صارخة للوضع السيلسي البائد. الواقع ان الكتاب خالياً من ذلك. وستتضح للقارئ صحة ماقول حين يقرأ الكتاب . اما تاجيل طبع الكتاب فقد حدث من جراء نصيحة ادلى بها صديق نبهني فيها الى امر لم اكن اظن ليه من قبل.

كل من عادي في اواخر العهد للبيد اني لا اخرج كتاباً الى الناس الا بعد ان اعرضه على بعض الاصدقاء من اللين يدركون بوطن الأمور ويعرفون متاخر للسياسة

ومخارجها. وكنت أستمع الى نصيحهم في ذلك لكي لا أتورط في مشكلة أنا في غنى عنها، او ادخل في موضوع يؤدي بي الى السجن.

وذهبت الى احد اولئك الأصدقاء اعرض عليه مواضيع كتابي هذا. فأطلع الصديق عليها ثم رفع حاجبيه وعلى فمه ابتسامة يانسة حيث قال: انصحك يا اخي ان لا تخرج الكتاب في الوقت الحاضر .

وعجبت من نصيحة الصديق هذه. فقد كنت واثقاً بأن الكتاب يبحث في الاحلام وليس فيه دخل بالسياسة من قريب او بعيد. وهو في الواقع أقل للكتبي التي اصدرتها في وختات ولذمات... ولكن الصديق قال عن الكتاب انه يمس بصورة مباشرة عواطف الأسرة المالكة. اذ ان فيه تعريضاً خفياً بـ "الشرفاء" من ذرية النبي . وهذا التعريض سوف يغضب الملك او تقربله، لانهم يستندون في سلطانهم على ما يزعمون لانفسهم من حق موروث باعتبارهم من "اهل البيت" الطاهر.

وخلص الصديق بعد ذلك الى القول بانهم قد يصيرون على النقد الذي يوجه نحو سلسلة الوزراء او الموظفين ولكنهم لا يصيرون على النقد للوجه نحو العائلة المالكة او القوة الخفية التي تدعمها من وراء الستار. فالعائلة المالكة تعتبر رمزاً للنظام القائم، ونقد الرمز هو في نظرهم اشجع جريمة يمكن ان يقترفها انسان في هذا البلد، اذ هو بمثابة الدعوة الى هدم الاساس الذي يقوم عليه كيان النظام.

ولم تمض مدة طويلة على هذا الحديث الذي دار بيني وبين الصديق، حتى اشيرت ضجة مفتعلة في العراق ولبنان والاردن من مقالة نشرها احد الكتاب المصريين لشار فيها الى ان الاسلام يساوي بين الناس فلا فرق بين شريف ومشروف وليس فيه طبقات تمثل على غيرها بالنسب. وانتهز "جلاوزة" العهد البلد هذه الفرصة فآخذوا يصلولون ويجولون زاعمين ان إنكار فضيلة النسب الشريف مروق عن الدين.

وقد وجدت أنا في هذه للضجة المفتعلة عاملاً جديداً يدعوني الى تأجيل إصدار للكتاب مرة أخرى. ولو كنت قد أصدرت الكتاب اثناء الضجة لما تردد بعض المثرفين و المشعورين من قتل قرية الى أنه- كما حاولوا ان يفعلوا إثر صدور كتاب "وعاظ السلاطين".

ولود ان الفت نظر القاريء هنا الى اني لم اقصد في كتابي هذا الحط من شان  
اهل البيت، وان في الواقع من المؤمنين بفضل اهل البيت، وقد ذكرت انهم للجد  
في الاسلام في بعض كتابي لسابقة.

ونكتا ان نقس اهل البيت، لانستند في ذلك على النسب وحده، فالنسب لا يغني  
عند الله شيئاً. وقد ساوى الاسلام بين السيد القرشي والعيد الحبشي كما هو  
معروف، ان مقياس الفضيلة في الاسلام هو العمل الصالح، فما السيد الشريف  
الذي يعترف المنكر ويظلم الناس فلا يشفع له عند الله كونه من ذرية الرسول.  
والثالث عن النبي محمد انه قال لأهل بيته ذات مرة: "اني لا اعني عنكم من الله  
شيئاً".

لقد نال اهل البيت المنزلة الرفيعة في صدر الاسلام لانهم كانوا ثواراً مجاهدين  
قدموا انفسهم واموالهم في سبيل مكافحة الظلمين والظلم، اما من كان مؤيداً  
للظلمة منهم فقد احتقره المسلمون الأولون كما احتقروا اي جلولز يسير في ركب  
الحكام الذين يتخذون مال الله دولاً وعباده خولاً.

كان النبي يحارب الطبقة التعالوية ينسأها على الناس، وليس من الحقول ان  
ان يجعل النبي من اولاده طبقة جديبة تحل محل الطبقة البائدة، لست انكر في  
هذا الصدد ان يكون النبي قد وصى امته باهل بيته خيراً، ولكن هنا لايعني ان  
تنشأ من اهل بيته طبقة تبقى متعالية بنسبها الشريف الى الابد.

لقد وصى النبي باهل بيته لانه ابرك بناقب بصره ان بعض الموتورين منه  
سريقتمون بعد موته من اهل بيته كما كان يفعل اهل الجاهلية بلقوياء الواترين  
عليهم، وقد اوصى النبي خيراً بالانصار وغيرهم لعين السبب الذي اوصى من اجله  
باهل بيته - والله اعلم.

\*\*\*

قد يسألني سائل، ماهي الصلة التي تربط كتابي هذا وهو يبحث في الاحلام،  
بموضوع الشرف والشرفاء من اهل البيت؟

الحقيقة التي يجدر بالقاريء ان يعرفها قبل ان يبدأ بفرعة كتابي هذا هي اني لم  
اكتب فيه عن الاحلام على منوال ما كتب عنها علماء النفس، واعترف بنى لست

من انخفستهم في موضوع الاحلام من الناحية النفسية . إن اختصاصي، كما يعرف للقاريء، هو علم الاجتماع. ولكنني وجدت أن الاحلام تمس موضوع اختصاصي من طريق غير مباشر. وهذا امر قد لايهتم له علماء الاجتماع في البلاد المتقدمة، إذ هم لا يرون للأحلام صلة وثيقة بالمواضيع الاجتماعية في بلادهم. أما في بلادنا فالأمر يجرى على النقيض من ذلك.

استطيع أن أقول بأننا من أكثر الأمم تضرراً بالاحلام من الناحية الاجتماعية. فكثير من عقائدنا وعاداتنا نشأت فينا وتمت من جراء ما نسمي على احلامنا من صبغة قدسية. وبعض رجال الدين عنتنا يعتقدون بأن الاحلام تنطق احياناً بالوحي الذي لايجوز الشك فيه. وقد جرى العوام وراء رجال الدين في هذا الشأن الى درجة كان لها اثر اجتماعي بالغ في السوء.

وتتركز هذه العقيدة فيهم حين يرون في احلامهم النبي او احد الثثة ويقول لهم شيئاً او يامرهم بشيء. وهم عند ذلك يؤمنون بأن رؤياهم كانت صلاحة ولهذا تراهم يندفعون في تحقيق ما قال النبي او الامام لهم في النوم كانه قال لهم ذلك لتناء اليفة.

من الاحاديث التي تروى في هذا الشأن ما نقله اهل السنة في صحيحهم عن النبي انه قال: "من رآني فقد رآني، فإن الشيطان لا يبتكوتني"<sup>(١)</sup>. وكذلك روي الشيعة عن فعتهم منهم قالوا: "من رآنا فقد رآنا حقاً فإن الشيطان لا يعتزل بنا"<sup>(٢)</sup>.

وهناك احاديث نضرى من هذا النوع منتشرة في كتب الحديث. وهي تبطل على ان الطوائف الاسلامية كلها، يستتله المعزلة والزيدية، تذهب الى القول بصحة ما يأتي على لسان النبي او الامام عند ظهوره في النوم. وقد ادى ذلك بالمسلمين الى اعتناق اراء وعقائد ما نزل بها من سلطان.

من هذه العقائد التي نشأت بين المسلمين بسبب الاحلام عقيدة التقديس للشرفاء او السادة من ذرية النبي بغض النظر عما يقومون به من افعال او يتصفون به من اخلاق.

وقد ذكرت في الفصل الرابع من كتابي هذا قصص بعض الأحلام التي رأى احد

المسلمين فيها النبي أو لينته قاطمة زهره أو احد الأئمة من أهل البيت وهم يأمرونه باحترام السيادة وبرعاليقتهم وصاعتهم على الرغم من تسفلهم أو ظلمهم. وقد اعتاد بعض المسلمين أن يتداولوا مثل هذه القصص ويعيدونها من صلب الشريعة الإسلامية مع الأسف الشديد.

سيرى القاريء في الفصل الرابع من هذا الكتاب أني خصصت بالتفكر فيه تلك الاحلام التي فصحها ابن حجر الهيتمي في كتابه "الصواعق المحرقة" . وكتاب ابن حجر هنا له أهمية خاصة بالنسبة لنا نحن العراقيين. فقد كان ابن حجر حين ألف كتابه يعيش في الحجاز تحت وطأة الأسرة لهاشمية التي وقبنا نحن أيضا تحت وطأتها في الدة الاخيرة وعانينا من ظلمها وتسفلها ما عانينا.

والظاهر أن ابن حجر كان من وعاظ السلاطين . ولهذا وجدناه في كتابه يمدح الأسرة الهاشمية الحاكمة ويذكر الاحلام التي روي النبي ولينته الزهراء فيها وهما يأمران المسلمين بحب "الاشراف" وبالرضوخ تحكيمهم وبوجوب إكرامهم واحترامهم.

### اخلاق وعقائد

ولم يقتصر تأثير الاحلام في عقول المسلمين من الناحية لسالفة الذكر وحدها. فهناك تولى عديده اخرى كان للأحلام فيها اثر اجتماعي بالغ. اتيت على ذكر بعضها في هذا الكتاب وقائني أن تذكر البعض الآخر.

عثر في الآونة الاخيرة على كتاب صغير له صلة بموضوعنا وهو يتضمن سيرة الشيخ احمد لأحسناني مكتوبة بقلعه.

والشيخ الأحسناني لا يعرفه كثير من القراء. وهو رجل جليل بأن يعرفوه ويدرسوا آثاره. إنه لسس في اواخر القرن الثاني عشر الهجري طائفة إسلامية خاصة به لها اتباع كثيرون وهم منتشرون اليوم في بعض نواحي العراق وإيران. وقد اشتهرت هذه الطائفة بغلوها المفرط في الأئمة الاثني عشر. ومنها إتبعته أخيراً للطائفة الكشغية والجابية واليهامية وغيرها.

وحيث تدرس سيرة الشيخ احمد الاحسائي نجد انه يستلهم معظم عقائده  
لغالبية من الاحلام، ويستند فيها على الحديث القائل، " من رانا فقد رانا حقاً... "

يقول الشيخ عن نفسه انه في اول مرة رآه في بعض احلامه للحسن بن علي  
عليه السلام، ورجا منه ان يعلمه شيئاً اذا قرأه استطاع ان يراه او يرى غيره من  
الائمة في النوم، فعلمه الحسن بضعة ابواب من الشعر، وكانت هذه الابواب مفتاح  
كنز عظيم من العلوم للشيخ بعد ذلك، حيث استطاع بها ان يرى ابي امام يشاء في  
نومه عند الحاجة.

والي القاريء شيئاً مما ذكره للشيخ احمد عن احلامه بالنصر،

" والحاصل اني رايت اكثر الائمة عليهم السلام، وظنني كلهم الا الجوار عليه  
السلام فإني مشوه في رؤيته، وكل من رايت منهم يجيئني في كل ما طلبت،  
وكنت مدة بقالي سنتين متعمدة ما يشبه شيء علي في اليقظة الا واتاني في المنام،  
واشياء ما اقدر ضبطها لكثرتها، واصعب من هذا، ما لرى في المنام الا على اكمل  
ملايينه في اليقظة بحيث يفتح لي جميع ما يزيد قلبه ويمنع ما يعارضه.. وانا  
اردت ان تعرف صدق كلامي، فانظر في كتيبي الحكيمه فإني في اكثرها، في اغلب  
الاسئلة، خالفت الحكماء والتكلمين، فإذا تأملت في كلامي رايتهم مطابقاً لأحاديث  
ائمة الهدى عليهم السلام، ولا تجد حديثاً يخالف شيئاً من كلامي، وترى كلام  
لكثر الحكماء وللتكلمين مخالفاً لكلامي ولأحاديث الائمة عليهم السلام... فإني  
لا تكلم الا بدليل منهم عليهم السلام ".

ويحدثنا الشيخ انه رأى الحسن في النوم ذات ليلة فسأله عن مسائل فاجبه  
الحسن عليه السلام عنها ثم وضع قدمه الشريف على فم الشيخ وبقي يمسح في فمه  
من ريقه والشيخ يشرب منه قدر نصف ساعة، وكان الريق ساخنأ الا انه كان أهدأ  
من العسل...<sup>(3)</sup>

لا لريد بهذا تفنيد عقائد الطائفة الشيعية او الطوائف الأخرى التي إبتنعت منها،  
فعلى القاريء ان يقرأ كتب هذه الطوائف ليحكم لها او عليها، إنما أريد ان أنكر  
نماذج من تأثير الاحلام في عقائد بعض المسلمين.

واكد اعتقائنا للاحلام اثرأ في الاخلاق وللنظام الاجتماعي كما كان لها اثرأ في

للعقائد والأراء. ويتضح هنا مما ذكرته في الفصل الرابع من قصة ابن عكاشة. فقد رأى هذا الرجل النبي في منامه وقال له فنبي، من جملة ما قاله ابن من اصول السنة للحمدية أن يسهر المسلم تحت لواء السلطان مهما كان ظالماً وأن لا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا... .

معنى هذا أن الثورة على السلطان الجائر مخالفة للشريعة الإسلامية وإن طاعة سلطان من طاعة الله.

ويأتي ابن حجر في كتاب "الصواعق المحرقة" بأحلام "مقدسة" تدل على أن سلطاناً مهما كان عاقباً سفاكاً فإن لله فد يغفر له ظلمه بشفاعة النبي أو أهل بيته. فتقومونك مثلاً، الذي اعترف ابن حجر بأنه كان أظلم خلق الله، روى في النوم وهو مغفور له لأنه كان يحب نرية النبي.

ويحدثنا ابن حجر كذلك أن أحد اليمانيين ذهب إلى مكة للحج مع عياله، فقص عليه في الطريق جلاويزة "الشريف" الذي كان يحكم الحجاز آنذاك. وأخذ اليماني يدعو لله على الشريف، ولكن النبي ظهر له في النوم وقال له، أما رأيت في الظلمة من هو أظلم من ولدي هذا؟ . فاستيقظ اليماني مرعوباً وطلب إلى الله من أن يتعرض لأحد من نرية النبي الذين أوجب الله إحترامهم على العباد.

وفي بعض القصص التي يرويها بعض المؤلفين حول الأحلام "المقدسة" ما يدل على أن شفاعة النبي وأهل بيته قد تنجي المسلم من كل خطيئة إقتربها مهما كانت فظيعة.

وجدت في كتاب صدر في الأسواق قبل بضعة عشرة سنة قصصاً عنيدة من هذا الطراز. والى القارئ نموذجاً منها حيث نكر المؤلف قصة شاعر سكير كان يحب أهل البيت ويمدحهم بشعره. ولما بنت منه الوفاة بسود وجهه وانعقد لسانه. ولكن وفده راه في المنام بعد موته فوجد عليه قلنسوة وشيئاً بيضاء، فسأله عما فعل الله به؟ فأجاب الشاعر، بأن الذي ظهر منه قبيل الموت من بسواد الوجه والتعقد للسنان كان من جراء شربه للخمر في الدنيا. ولكنه بعد الموت رأى رسول الله وفتشده بعض شعره الذي مدح به أهل البيت، فشفخ له النبي وأعطاه شيئاً للبيضاء<sup>(4)</sup>.

إن هذه القصة، كما لا يخفى على شقار، تؤثر في الناس تأثيراً اجتماعياً وإخلاقياً سلبياً. فهي تشجعهم على أن يفعلوا في دنياهم ما يشتهون ثم يأتهم النبي بعد نلوت فيشفع لهم وينقذهم من عذاب الجحيم.

وروى المؤلف قصة أخرى تماثل القصة السابقة في تأثيرها السلبى، وخلصتها ابن شاعرا رأى الامام على ثبن ابن طائب في النوم فانشد بين يديه قصيدة في المدح على المنوال التالى،

ابا حسن انت عين الاله  
فهل عنك تعزب من خافية  
وانت مدير رحى الكائنات  
ولن شنت تشفع بالخاصية  
وانت النى ام الانبياء  
لديك لفا حشرت جائية  
فمن بك قد تم ايمانه  
يساق الى جنة علية  
واما الذين نولوا سواك  
يساقون نغا الى الهاوية

قل الربوي، فتبسم الامام وقل للشاعر "أحسنت"، فبنى الشاعر وقيل يبنى الإمام، ثم استيقظ من النوم وهو يندم للقصيدة واخذ الناس يتناقلونها عنه ويشطرونها ويخمسونها<sup>(45)</sup>.

هنا اود ان اسأل، مانا سيكون تأثير هذه القصيدة على عقول الذين يسمعونها ويصدقون بها؟

إن هذه القصيدة ستقلب ال عقيدة لدى كثير من الناس باعتبار ان الامام قد استحسنها واجازها، وهى كما لا يخفى من الفصاحة العالية التى تجعل للسلم واخفاً من التجاة في الآخرة بمجرد تمسكه مولاية الامام ولا يمس ان يفعل في دنياه ما يشتهى.

### أضرحة وهمية:

لود ان لا تغوتنى الفرصة هنا لأشير الى ظاهرة اجتماعية معروفة لدى المسلمين منذ زمان قديم، ولها صلة كبيرة بالأحلام، هى ظاهرة القبور الوهمية التى يزورها الناس يشركون بها ويندرون لها القنور بينهما هى فى حقيقة امرها لاسند لها من التاريخ.

فقد يرى احد الناس في منامه ما يدل على وجود قبر لبعض الاولياء او قبته  
الأنمة في موضع معين. فيستيقظ الرجل من النوم فرحاً ويعلن أمر القبر الى الناس  
فيصدقونه وينهلون على القبر يشركون به. ويجني الرجل من ذلك نكراً كثيرة  
ومنزلة اجتماعية سامية..

حدثنا الاستلا جعفر الخليلي في احد كتبه عن قصة رجل لسمه "مزعل  
الغضم" وكان هذا لرجل فقيراً كل الفقر يكبح طيلة العام في عمله دون ان يجد  
فيه نفعاً. وثفتق ذهنه اخيراً عن حيلة يدرا بها لعوز عن نفسه وعن عائلته  
اليانسة، فاعلن ذلك يوم بان "الغضم" ظهر له في النوم واخبره بوجود قبر  
بعض الاولياء في بيته في بيت مزعل الغضم:

وشاع خبر الحلم بين الناس، وفرح به سكان القرية التي يقع فيها بيت مزعل  
الغضم حيث ادركوا بان قريتهم ستصبح مزاراً مقدساً. وقد أصبحت القرية بالفعل  
مزاراً كبيراً يحج اليه الناس من كل صوب واضحى مزعل الغضم شيخاً محترماً  
تجبي له الاموال<sup>(٥)</sup>.

ان هذه القصة قد تكون خيالية ولكن لها شياً كبيراً بما يحدث بين الناس  
احياناً من حوادث واقعية في هذا الشأن.

يروي الدكتور مصطفى جواد قصة حلم وقعت في بغداد عام 535 هـ، وانتهت  
اخيراً الى فضيحة عقائدية كبرى. وخالصة القصة ان احد المشعورين الذين  
يتظاهرون بالزهد والتقوى ذهب في الظلام الى قبر صبي كان قد دفن حديثاً فنبشه  
وأخرج جنة الصبي منه ودفنها في موضع آخر، ثم أعلن بعد ذلك بانه رأى في المنام  
عمر بن الخطاب وعلى ابن ابي طالب وقال له ان في هذا الموضع صبياً من اولاد  
امير المؤمنين علي بن ابي طالب.

وانثال الناس الى الموضع تحفروه ووجدوا الصبي فيه... واخذوا يتقاسمون كفته  
للبركة فمن وصلت اليه قطعة من شعر كانه قد ملك الدنيا. وخرج ارباب الدولة  
ولعل بغداد وانقلب البلد وطرح في الموضع نسايج ماء الورد والبخور. وازدحم الناس  
على الموضع حتى لم يصل اليه احد من كثرة القحام، وتنافسوا على اخذ التراب

تبركا. ثم رجع الناس الى المشعوز الذي اكتشف الموضع فصاروا يتهاهتون عليه  
ويقبلون يديه وهو يظهر التمتع والبكاء لشدة زهده.

وبقيت الجثة مكشوفة على الارض اياماً والناس لا ينفكون يقبلونها ويزدحجون  
عليها حتى ظهرت رائحتها. وممن جاء مع الناس والد الطفل اثيث فابصره، وصاح  
فانلأ: "هنا والله ولدى...!" فلما سمع المشعوز ذلك هرب فثحقه الناس وامسكوا  
به وقرروه فآقر بأنه فعل ذلك حيلة. فعوقب بلن لركب حمراًيجرى به في الاسوق  
للتشهير<sup>(7)</sup> .....

ووقعت في بغداد في ايام الخوأل قصة ابشع من هذه التي تحدثنا عنها أنفاً. فقد  
عمد رجل شريف ممن يدعون فنسب العلوي الى لطف فقتله ثم دفنه بقميصه  
وكان في جيبه كعاب مما يلعب به الاطفال. ووضع الرجل تحت رأس القليل ورقة  
كتب عليها، "هنا قبر عمر بن عبد الله". ثم أعلن بعد ذلك بأنه رأى في المنام ما  
يدل على وجود قبر لبعض لبياء الأئمة في الموضع الذي دفن فيه للطفل. فخرج  
الناس الى الموضع وحفروه واخرجوا الجثة. وعند ذلك صرخ أحد الحاضرين وقال،  
"هنا والله ونكى وانى فقدته منذ ايام". ولما سمع صاحب الديوان بذلك عزم على  
قتل الرجل الذي تبين كتبه، ولكن الاكابر والوجهاء شفَعوا له فنسبه لشريف<sup>181</sup>.

هناك حوادث اخرى جرت في بغداد حيث ادعى بعض الناس بانهم راوا في  
احلامهم ما يدل على وجود قبور لأولاد الأئمة. وصبق الناس بها بون ان ينفكشف  
وجه الحيلة فيها. فشيدت فوقها الاضرحة وبذلت فيها الاموال. ولعل بعضها  
لا يزال معموراً الى يومنا هذا.

لست اقصد من هذا ان جميع الذين اكتشفوا قبور الأولياء عن طريق الاحلام  
كانوا كاذبين او مشعوزين. فمن الممكن ان يكون بعضهم صادقاً فيما رأى في  
احلامه. وقد يظهر الانبياء او الأئمة له في النوم فعلاً ويخبرونه بوجود قبر مقدس  
في مكان ما. ولكن ذلك لا يصح ان يكون تلهلاً على صحة وجود القبر من الناحية  
التاريخية.

ان الانسان قد يرى الانبياء والأئمة في منامه كما يرى غيرهم فيه. وقد إتضح  
علمياً بان الانسان كثيراً ما يحلم بالشيء الذي يفكر به او يتعمده في يقظته على وجه

من الوجوه. ولا يجوز إنَّ ان يتخذ لحم دليلاً على شيء حتى لو ظهر في لحم جميع الانبياء والقديسين.

حدثني احد النفاة من التجفيعين ان كثيراً من قبور الانبياء ومقامات الأئمة الموجودة الآن في جامع الكوفة وجامع السهلة هي من صنع الأحلام في ارجح الظن. وقد ظهر قبل مئة سنة تقريباً قبر قرب مدينة الهندية قيل انه لحفيد جعفر الصائغ لسمه صكبان . والغريب ان هذا الاسم اعجمي ومعناه حارس الكلب. ولست ادري كيف يمكن لحفيد جعفر الصائغ ان يسمى بمثل هذا الاسم الغريب. ومهما يكن الحال فقد صدق الناس به وانهاؤا عليه بالشرك واهله للنور. ومما يجدر نكره ان سبب ظهور القبر حلم راه قروي من ابناء تلك المنطقة حينذاك.

وسمعت قصة اخرى من هذا القبيل حدثت قرب التجف قبل لربعين سنة تقريباً. وخلصتها ان فلاحاً من قرية القريشات الواقعة بين الكوفة والسهلة راى في حلم كان ولياً لسمه السيد محمد متخوناً بجوار بيته. ولم تمض ايام على شيوع خير الحلم حتى اقبل الناس على القبر من أنحاء بعيدة يتبركون به. وانرى الفلاح من جراء ذلك معادعا غيره ان يحلم بقبر لخر لولي اسمه السيد ابراهيم. ثم ظهر قبر ثالث ورلع حتى لزحم الكلب بالقبور المقدسة بشكل يدعو الى السخرية.

وفي الاونة الاخيرة قرأت في إحدى الجلات المصرية خير قبر لولي جديد ظهر في مدينة بني سويف حيث لصيح قبره مزلراً عجيباً يزحم عليه الوافدون ويطلبون منه الحاجات. ولتضح من التحقيق لذي قامت به المجلة ان صاحب القبر لم يكن سوى شاب مجنون كان يخاف من الموت خوفاً شديداً ويقمي عليه كلما راى جنازة ماراً به. وعتما مات ظهر لثبه في المنام وطلب منه ان يبني فوق قبره ضريحاً واخذ الناس يلحون من بعهد قولواً تتلألا فوق الضريح. ثم صار بعض المرضى يرونه في احلامهم فيخيل اليهم انه شفاهم من امراضهم وقد يشفى بعضهم فعلاً بتأثير الايحاء النفسى.

وشاهد محرر انجلة شهباً من رجال الدين عند الضريح نفسه عن امره فاجاب: بأنه عندما سمع بكرامات "الولي" الجديد لم يصدق بها اول الامر ولكن الولي ظهر له في المنام وطلب منه ان يزور ضريحه... وهامو نا قد عاهد نفسه ان يزوره كل اسبوع<sup>(9)</sup>.

## نتائج وأسباب:

أود أن ألفت نظر القارئ هنا إلى أن هؤلاء الناس الذين يصدقون بالاحلام ويتهاوتون على القبور الوهمية من جرنها قد يجدون فيها شيئاً من المنفعة النفسية. فالكثيرون منهم فقراء متلون لا يجدون في دنياهم علاجاً لأمراضهم أو حلاً لمشكلاتهم المستعصية. وهم إنَّ بلجأون إلى الأوهام فيجدون فيها عزاءً أو إيحاءً نفسياً. وكثيراً ما يدفعهم هذا الإحياء والعزاء. ولكن ذلك قد يضرُّ بهم من الناحية الأخرى، حيث يؤدي بهم إلى إتخاذ عقائد وعادات سخيفة تُخدر عقولهم وتعرقل عليهم سبل الحياة.

إننا قد نرد عذراً لشيوخ الأوهام في تصور القديسة. ونكتنأ إلى هذا العصر الذي نعيش فيه يجب أن لا نتهاون في أمر مكلفحتها. ونيس في مقدور أمة تعيش في القرن العشرين أن تظل متمسكة بأوهام القرون البليدة.

• • •

قلت فيما مضى أن المسلمين هم أكثر من غيرهم تمسكاً بأوهام الاحلام. وهذا لا يعني أن الامم الأخرى خالية من هذه الأوهام تهنياً. لواقع أن الامم جميعاً قد مرت بعقل ما مرَّ به المسلمون قليلاً أو كثيراً. ولكن المسلمين استأزوا عن غيرهم بكونهم ادخلوا بعض الاحلام في صلب شريعتهم ويديروها بها أوتوا من كتاب أو سنة. فصارت لديهم بمنزلة الوحي المنزل.

قرأت في كتاب الشيخ تقيِّد قولاً أراد به تعنيد رأي المعتزلة والرهبية في إنكارهم لصحة الاحلام. ففي رأي الشيخ أن القرآن نفسه يؤيد صحة الاحلام<sup>(10)</sup>. فما أنا فاعتقد كما اعتقد المعتزلة والزيدية من قبل، أن القرآن أجل ونسعى من أن يعش اتباعه أو يسلك بهم سبيل الأوهام.

• • •

إن الايمان بصحة الاحلام عادة قديمة ورثها الناس من الشعوب البدائية. فقد وجد الباحثون في الشعوب البدائية، كما نشرت اليه في الفصل الأول من هذا الكتاب، أن الانسان البدائي لا يرى فرقاً كبيراً بين ما يراه في المنام أو ما يراه في

المقطة . فالاحلام في نظره إنما تنشأ من جراء خروج الروح من البدن عند النوم، وهي عند تلك تتجول في الأفاق وتكتشف الحقائق القريبة والبعيدة.

والانسان البدائي لا يستطيع ان يكذب الروح فيما تأتي به من اخير اثناء النوم . فإنما ركن في نومه مثلاً انه يمتلك شيئاً يعود لغيره جاز له ان يذهب في الصباح الى صاحب ذلك الشيء يطالبه به . وصاحب الشيء لا يعتنح عن إعطائه إياه .

والبدنيون لايسنغريون من رجل يخاصم رجلاً آخر اويعاتبه على ذنب اقترفه معه في احلام النوم . والذنب المزعوم لايجرا ان ينكر ذنبه . فما دام قد روي في الحلم وهو يقوم بعمل ما فلا بد من ان يعترف بذنبه وان يتحمل مسؤوليته .

يحدثنا الاستاذ هارفيك عن رجل من الهنود الحمر انه ركن في منامه احد البشريين يسرق يقطياً من مزرعته . فاستيقظ الرجل من نومه وهو غضبان وعزم على مطالبة البشر بالتعويض، هذا مع العلم ان البشر كان في مكان بعيد عن مزرعة الرجل الهندى . يمتنى ميل . والتفت للرجل الى مزرعته فرأى قيطيين موجوباً فيها لم يعسه احد . ولكنه اصر على طلب التعويض حيث اعتقد بأن رؤية البشر في الحلم سارقاً لليل قاطع على انه مستعد للسرقه لو كان قريباً من المزرعة . ولم يهن الرجل عن رايه اي لليل مقنع .

ويحدثنا هارفيك أيضاً عن شابة حبيبة العهد بالزواج انها رات في منامها كثر زوجها يغازل لمرقة شغراء . فاستيقظت فرعة حاتفة . واخذت تشاكس زوجها وتتهمه بالخيانة الزوجية . ولما قيل لها بان زوجها بريء مما اتهمته به اجابت : إنلكان زوجي يغازل الشغراوات في احلامي فمانا تراه يفعل في احلامه ؟<sup>(11)</sup>

مما تجدر الاشارة اليه ان هذه الؤهام البدائية في الاحلام تشبه تلك التي تنتشرت بين المسلمين من ناحية . وتختلف عنها من ناحية اخرى . فالبدنيون يصدقون بجميع الاحلام من غير تفریق ، بينما المسلمون يصدقون الاحلام التي يظهر فيها الانبياء او الأئمة فقط . وقد فات المسلمين ان الاحلام كلها سواء لافرق بين ما يظهر فيها فتيسر لو يظهر فيها شيطان ، إذ انها تكتسح عما يخالف ذهن الانسان اثناء يقظته ثم يراه في النوم على وجه من الوجوه .

يقول الشيخ المفيد ، لسنا نثبت الاحكام الدينية من جهة المنامات وإنما نثبت من

تأويلها ما جاء الأثر به عن ورثة الأنبياء عليهم السلام. وهنا القول من الشيخ يمكن أن نعتبره مستدرجاً جميلاً، ولكنه مع ذلك لا يردع العوام عن إندفاعهم في الأوهام والعقائد الباطلة الناتجة عن الأحلام.

إن العوام قد إعتقدوا في جميع العصور أن يأخذوا عقائدهم من مصطلحهم الذي نشأوا فيه. وكثيراً ما تكون عقائدهم باطللة ولكنهم يعتقدون بأنها عقائد حقة يرضى عنها الأنبياء والأئمة ولن جميع الذين يخالفونها كفار مجرمون. وليس من المستبعد أن ينام أحد هؤلاء العوام فيرى في منامه نبياً أو إماماً يؤيده في عقيدته الباطلة. وربما امره النبي في النوم أن يشهر سيفه وينتال على الكفار ذبحاً وسبياً والعياذ بالله! ونحن نستيقظ هذا الزمن من نومه قد لا يجد غلظة في أن يشهر سيفه فعلاً ويضعه في رقاب الناس. وهو إذ يفعل هذا لا يشعر بولخز من ضميره. ولعله على العكس من ذلك يعتقد بأنه مجاهد في سبيل الله وإن الله سمرزقه الجنة على ما سفك من دماء وسلب من أموال.

خلاصة القول: إن الإيمان بالأحلام كثيراً ما يؤدي إلى الضرر من الناحية النفسية والاجتماعية. ولا يفوتني أن أنكر هنا باقي التقيت ببعض الناصحين من رجال الدين أسألهم عن هذا الأمر فرايتهم يذهبون فيه مذهب المعتزلة والزيدية القنامي ويقولون بأن الأحلام كلها لاتصلح دليلاً على شيء.

إني أتمنى أن ينتشر هذا الرأي الرصين بين جمهور المسلمين. وهذا هو مقصدي الأول من تأليف هذا الكتاب.

\*\*\*

### أقسام الكتاب:

اشتمت في أول المقدمة إلى أن الكتاب مقسم إلى ثلاثة أقسام. ومما يجبر ذكره أن المقصد الأول من تأليف الكتاب ينحصر في القسم الأول منه، إذ هو يبحث في الأحلام من الناحية الاجتماعية. ولكنني وجدت عند الفراغ من كتابة القسم الأول أن الموضوع سيغني ناقصاً عالم يعقبه بحث في النظريات والآراء التي ظهرت لغيراً حول الأحلام.

وهذه النظريات والآراء تتفرع إلى فرعين. أحدهما يدرس الأحلام في ضوء علم

التحليل النفسي، والآخر يدرسها في ضوء علم جديد يطلق عليه الآن اسم "البياريسيكولوجي". ولهنا فقد حاولت في القسم الثاني من الكتاب تلخيص النظريات النفسية في الأحلام، ثم حاولت في القسم الثالث تلخيص النظريات البارزية.

ومنا أود أن اعترف بأنني لم أوفق توفيقاً كثيراً في القسم الثاني من الكتاب. فقد كان تلخيصي للنظريات النفسية فيه جزئياً غير شامل، ولعله أقرب إلى النقص منه إلى الكمال. وسبب ذلك إلى اهتمامت فيه بالنظريات التي ظهرت في بلاد الغرب كتنظرية برجنسون وفرويد وابلر ومالشييه دون أن أعني بالنظريات الأخرى التي ظهرت في بلاد الشرق كالصين الشعبية والاتحاد السوفياتي.

وقد علمت أثناء سفرتي الأخيرة إلى الصين وروسيا أن هناك نظريات نفسية في هذا الشأن لا يستهان بها. ولكنني مع الأسف لم أستطع أن أدرسها دراسة وافية لتعصر العدة التي بقيت فيها هناك من جهة، ولجهلي بلغة القوم من الجهة الأخرى. وعساني تتمكن من سد هذا النقص في وقت قريب لو بعيد، لاسيما بعد أن فتحت لتورة ابواب العالم شرقاً وغرباً وجعلتنا قادرين على دراسة جميع النظريات والأراء العلمية من غير حجر أو تحديد.

مهما يكن الحال، فإني أظن بأن القسم الثاني على نقصه قد يكون ذا نفع للتقريء، ولعل القاريء سيجد فيه بعض ما ينوره في موضوع الأحلام أو يخبره الاستزادة منه. وسيهتضح له عندئذ مدى الخطأ الذي تورط فيه الفقهاء حين استمدوا من الأحلام جذور كثير من عقائدهم وعلاقتهم البالية.

\*\*\*

أما القسم الثالث من الكتاب وهو القسم الذي يبيحت للنظريات "البارزية" فسيجد القاريء فيه بعض المعلومات المثيرة عن الأحلام، وكيف أنها تستطيع أحياناً أن تخترق حجاب الزمان والمكان وأن تستنشف شيئاً من حوادث المستقبل.

ولابد لي من أن أقف هنا قليلاً لأجيب على بعض الاعتراضات التي قد تثار حول هذا الموضوع. فقد يقول قائل: كيف جاز لك أن تغتد العقائد القائمة على الأحلام في

القسم الأول من الكتاب ثم تأتي في القسم الثالث منه لتؤيد ما يتشاع عن الاحلام من خوارق عجيبة؟ اليس في هذا تناقض؟

حولي على هذا الاعتراض: ان لدرس في الامر تناقض! فالاحلام التي تستند على مألوفات الناس وعقلانهم الموروثة من شئنها ان تأتي بما يلائم تلك المألوفات والعقائد، وليس فيها ايس من الحقيقة للوضعية نصيب، ولكن الاحلام على الرغم من ذلك قد تكشف احياناً عما في داخل النفس من قوى خارقة او ومضات مبدعة، وهنا امر اقرب البحث التجريبي الحديث الى درجة يصعب الشك فيها.

لايجوز لنا ان نندفع في كراهة الاحلام "العقلانية" وفي الثورة عليها الى ان نتطرف في الجانب المضاد لها تطرفاً غير محمود. وقد اشرت في القسم الثاني من الكتاب الى ان "رد الفعل" دفع بعض الباحثين في العصور الحديثة الى مستنكر كل الآراء التي انتشرت في العصور القديمة من غير استثناء، وهذا امر يخالف طبيعة المنهج العلمي.

إننا يجب ان لا نتطرف في موضوع الاحلام الى حذب الذين يصدقون بها لو ان جانب الذين يكتبونها، ولا بد لنا من ان نتخذ بين هؤلاء وأولئك طريقاً وسطاً لكي نكون في برستقا موضوعيين على قدر الامكان.

ان علم "البارلسيكولوجي" يتبع في دراسة الاحلام هذا الطريق الوسط. فقد عمد الى وضع الاحلام على طاوله البحث التجريبي والاحصائي، ووصل بها الى نتائج موضوعية باردة ليس فيها من التطرف او التمصص شيئاً<sup>(12)</sup>.

\*\*\*

في عام 1945 ظهر في مصر كتاب مسهب عن الاحلام نؤلفه الدكتور توفيق الطويل. وهو كتاب قيم لعله خير ما كتب في اللغة العربية عن الاحلام. واكن المؤلف حين يتطرق الى موضوع الخوارق المسوبة الى الاحلام يتسرع في الحكم عليها ويقول عنها بانها من الامور المنافية للعقل<sup>(13)</sup>.

الظاهر ان الدكتور الطويل لم يدرس ماجاء في علم "البارلسيكولوجي" اخيراً، ولعله لا يدرك بوجود علم بهذا الاسم. هنا مع العلم انه قدم كتابه الى كلية الآداب في

جامعة القاهرة لينال به شهادة الدكتوراه<sup>115</sup>، وكان الوجد عليه ان يبحث في كتبه عن كل ماله صفة بموضوع الاحلام قليلاً او كثيراً.

اكد اعتقد ان الذي حبه بالدكتور الطويل الى نفس الخوارق النسوبة الى الاحلام هو ثلثه بالنزعة اللبية التي كانت تسود عقول العلماء في القرن لتاسع عشر. ويبدو ان كثيراً من المفكرين عندنا لا يزالون منتثرين بهذه النزعة على منوال ملتأثر بها للدكتور الطويل غير بارزين بالتحول العظيم الذي طرأ في القرن العشرين.

لست اريد بهذا ان افند النزعة "الانبية" او اعلن خطاها، والواقع ان هذه لنزعة هي الأساس الذي يقوم عليه العلم الحديث. ولكن الذي اريد قوله هو ان مفهوم "اللادة" قد تغير في القرن للحالي عما كان عليه في القرن الماضي.

كان علماء القرن التاسع عشر يفهمون "اللغة" كما يفهمها الاغريق للقدماء، وهي هذه اللادة المحسوسة التي نراها في كل مكان. وكانوا يعتقدون ان الكون كله مؤلف منها ولا يحتوي على شيء سواها. وقد اصدر بوخنر في منتصف القرن الماضي كتاباً سماه "القوة واللادة" حاول فيه ان يفسر الكون كله من لسط الاشياء فيه بل اكثرها تعقيداً، يتفاعل اللادة والحركة. وقد أصبح هذا الكتاب مرجع الماسين الاكبر في ذلك القرن حيث اعتبروه انجيلهم الذي لا يتطرق اليه الشك. ومن هنا صاروا لا يؤمنون بصحة أي ظاهرة طبيعية ليس لها سبب مادي على النمط الذي يفهمونه من طبيعة اللادة.

ومتد للقرن العشرين شرع العلماء يكتشفون ان الكون سراً اذهلهم وقلب كثيراً من مفاهيمهم القديمة. لقد ابركوا بان الكون مؤلف من امواج كهرومغناطيسية<sup>116</sup>. لا يخصى لأنواعها عدداً، أما هذه اللادة الظاهرة لنا فليست سوى نوع خاص من تلك الامواج قد تكونت على نمط معين.

ان العلم لم يكتشف من الامواج التي يزر بها الكون سوى عدد قليل، ولكنه في سبيل ان يكتشف منه لكتر فاكثر كلما تحسنت لديه الوسائل والالات. ومعنى هذا ان الفضاء الذي نعيش فيه مملوء بامواج غير منظورة يعجز العد عن إحصائها وهي تتراطم على اجسامنا في كل لحظة من تغير ان نفس بها او تدرك مبلغ اثرها فيها.

وأرجو أن يعلم القارئ أن هذا المفهوم الجديد ليس خلاصاً بعلماء الغرب أو علماء الشرق، إنما هو مفهوم علمي عام يشترك فيه جميع علماء العالم بغض النظر عن اتجاههم الفكري أو السياسي.

خلاصة القول، أن العلماء اليوم لا يزالون ماسين في تفكيرهم، ولكن الملة إنقلابت بين أيديهم من شكل إلى آخر، فبعد ما كانت الملة مؤلفة من ذرات صغيرة جداً لا يمكن تجزئتها، أصبحت مؤلفة من طاقة على شكل أمواج كهربية مغناطيسية.

وهذا التحول أو التغيير في مفهوم الملة فتح للعلماء أفقاً واسعاً في التفكير لم يكونوا يألفونها من قبل. ومن هنا أصبحت الأمور التي لا يمكن تصديقها في الماضي قابلة للتصديق في يومنا هذا. ومن هذه الأمور تلك التي تتعلق بخوارق الاحلام وغيرها.

فالعلماء اليوم لا يستغربون إذا سمعوا مثلاً بقصة امرأة تحلم بموت ابنها وهي على بعد مئات الأميال منه، فتستيقظ فزعاً باكياً ثم تأتي الأخبار بعد ذلك تؤيد صحة ما حلمت به. لقد كانت هذه القصة غير قابلة للتصديق في القرن التاسع عشر ولكنها الآن قابلة للتصديق في ضوء التفسير للملأ الحديث.

لقد أثبتت الأبحاث "المادية" الحديثة بأن المخ البشري كأي شيء في هذا الكون له أمواج كهربية خاصة به. ومن العقول لمن أن يكون هناك تجلّوب "موجي" بين الفرد ومخ أمه على الرغم من بعد الفسلفة بينهما. والمسافة ليوم ليس لها من الأهمية مثلما كان لها بالأمس، كما هو معروف.

لعود فنقول بأن الدكتور الطويل قد تسرع كثيراً حين أصدر حكمه على خوارق الاحلام فجعلها كلها متافية للعقل. إنه لم يسأل نفسه، أي عقل هذا الذي ينادي خوارق الاحلام، فهو عقل القرن التاسع عشر لم عقل القرن العشرين.

إن الغنيا قد تبذلت دون أن تبدل معها الأفهام.

\*\*\*

كنت قد أصدرت في عام 1952 كتاباً بعنوان 'خوارق اللاشعور' ذكرت فيه بعض خوارق النفس البشرية من النوع الذي سيحدثه القارئ في القسم الثالث من

هذا الكتاب، وقد سألني ان أجد بعض الفكريين والادباء من بيتنا يطمون شفاههم سخريه به واستخفافاً، ويعتبرونه كتاباً خرافياً غير معقول. والى أخشى ان ينظر هؤلاء في كتابي هذا على متوال منظروا في كئلي السليق.

مشكلة هؤلاء بوجه عام انهم مغرورون بمقولتهم يدورون بها كما توحى به ليلهم مآلوفاتهم القديمة دون ان يكلفوا انفسهم مشقة التفكير في ما يلقى به العلم من ابحاث تجريبية. فهم يحكمون على شيء بأنه خرافي او معقول بعد ان يتأملوا فيه تأملاً تجريبياً، وفانهم ان التعامل العقلي الجرد لايلانم النهج الذي الذي يقوم عليه العلم الحديث.

إنهم بعبارة اخرى لا يرون فرقاً بين العلم والعقل، مع انهما قد يفترقان ويختلفان احياناً كثيرة. فالعقل إذا كان تجريبياً يأخذ مقاليسه من المألوقات التي نشأ عليها. ولهذا نجده يحكم ليوم على شيء بأنه غير معقول ثم يكتشف اضيراً بأنه معقول بعد ان يعتد عليه. أما العلم فلا يحكم على شيء إلا بعد ان يجري عليه التجربة ويتثبت منه تثبيتاً موضوعياً. وهو لا يبالي عند ذلك بمألوقات الناس او اعتباراتهم العقلية.

يقول الاستاذ زلن، \* ان العلم لا يعرف المستحيل \* (18). وهذا قول يجدر بنا ان نضعه نصب لعيقتنا كلما لدينا البحث في ظواهر الكون المختلفة. وكم من امر اعتيرناه مستحيلاً من الناحية العقلية ثم ظهر لنا باننا كنا فيه مخطئين. ولو بعث اجسادنا من قبورهم ونظروا الى هذه الاكتشافات والمخترعات الخارقة التي تزخر بها حياتنا الآن لما صنفوا بها. ونحن لانفسنا لم نصدق بها حين سمعنا بها اول الامر، ولكن اعتقنا عليها فصارت معقولة في نظرننا، وصرنا نتبجح بكامل عقولنا..

عند زيلوتي للصين الشعبية وجمعت زعيم الصين وفيلسوفها الكبير ماوتسي تونغ يعلى من بعض الفكريين الصينيين مثلما نعالني نحن من بعض مفكريننا وكيننا. فقد عمد اولئك الى لجدل الطويل العريض اعتمناً على ما يوحي به اليهم تفكيرهم الجرد دون ان يققوا قليلاً ليدرسوا الواقع اللاموس ويتفهموا ما يكمن فيه من امر جديد.

ان العلم شر لعقل - وليس معنى هذا اننا نبخس قيمة العقل لبشري. فالواقع

إن للعقل البشري سلاح بشري جبار كان له دور هائل فيما وصلت إليه الحضارة من قمة شامخة، ولكن اتنى نور أن تلفت النظر إليه أن للعقل سلاح لو حدين- فهو لدى الباحث التجريبي وسيلة التطور، أما هو لدى العاقل المغرور عقبة في سبيل التطور.

### كلمة أخيرة:

بعد أن تحدثت عن أقسام الكتاب، كل قسم على حده أود أن أتحدث عن الكتاب كله بوجه عام، إن الكتاب، كما ذكرت من قبل، كنت قد ألفته وطبعت الجزء الأكبر منه قبل قيام الثورة، ومعنى ذلك أنه لا يختلف من حيث أسلوبه وطبيعة أفكاره عن كتبي السابقة التي صدرت في العهد البائد، ولابد لي من أن اعترف هنا فاقول بأنه كتاب، إن كان يصلح لعهد مضى، فهو لا يصلح للعهد النوري الجديد، القول هنا من باب الاعتراف بالواقع وإن كل مرء، وهو اعتراف لابد من أن أبوح به لكي يكون القاري على بصيرة من أمره حين يقرأ هذا الكتاب أو أي كتاب آخر من كتبي السابقة، هناك حقيقة لا يجوز لي أن أتناساها هي أن نوق القاريء العراقي قد تعمر تغيراً كبيراً إثر قيام الثورة، فبعدها كان القاريء يمثلاً بما كتب ويكتب أمثال من مواضيع اجتماعية ونفسية لاتمس السياسة الا حساً خفيفاً، أصبح اليوم يريد من الكتاب أن يكتب في صميم السياسة وأن يعلن ربه جبراً فيما هو حق لو باطل من البدايء التي يفتزع حولها الناس.

ويخيل لي أن القاريء سيفرأ كتبي هذا وعلى شفثيه لتسامة لشفاق وإزدراء، ولعله سيفقول، لتغروا لي هذا الكتاب الذي يتحدث عن الاحلام في الوقت الذي صعده البشر فيه إلى القمر، نعم، إن لا انكر صحة مايقول هذا القاريء، ولو كنت مكانه لقلت مثل الذي قال، فلاذى لاشك فيه أن ثورة 14 تموز كانت ثورة جذرية كبرى هزت عقول الناس وقلبت مفاهيمهم، واعتقد أن عهد الثورة يحتاج إلى كتاب وانجاه من نوع جديد يختلف عن ذلك النوع من الأدباء والكتاب الذين اعتاد الناس عليهم في عهد مضى.

ورب سئل بسألني، إننا كل الأمر كما تقول فلماذا لا تغير أسلوبك بالخي فتجعله ملائماً للعهد الجديد؟

والجواب على هذا القول بأن ليس من السهل على الكاتب بوجه عام أن يغير أسلوبه بإرادته، فالأسلوب جزء من الشخصية وهو إن لم يتغير إلا إذا تغير تركيب الشخصية كله، وهذا امر عسير جداً لاسيما فيمن هو مثلي قد اجتاز طور الشباب وسفل طور الكهولة منذ زمن غير قصير. ولتذكر اني قلت مثل هذا القول في اجتماع لاتحاد الادباء ذك يوم، فلم يرض عنه بعض الشباب من الادباء الحاضرين.

يرى هؤلاء الشباب ان الكاتب قادر على تغيير أسلوبه كما يشاء وحتى أراد. ولعلهم يرون هذا الرأي لانهم لا يزالون في ميعة الشباب حيث لم تتحجر شخصيتهم كما تحجرت شخصيتنا نحن المضمريين. وليسمعوا لي إلا قلت لهم بأن الكثير منهم لا يملكون الأسلوب الكنتي الخاص بهم حتى يصح ان يقال بأنهم قادرون على تغييره. فقد خيرنا ما كتب البعض منهم في عهد الثورة فلم نجد فيه الأسلوب الذي تتميز به شخصية الفرد منهم. وربما كان الكثير مما أنتجوا متماثلاً في عباراته وكأنه يصدر من معين واحد، إذ ليس فيه سوى الرنين والرتبة للعلامة. ولو كنت أريد ان أكتب كما يكتبون لجنحت بالكثير منه. ولكن للشككة أعمق من هذا في نظري.

وبحجتي في هذا الصدد ما قاله نبيب كبير في اجتماع لاتحاد الادباء المذكور. فقد نحى هذا الأديب الكبير باللائمة على بعض أدباء العراق إذ هم في رأيه قد سلخوا وراء الجماهير ولم يسيروا أمامها، وكان ذلك من أسباب ما تورطت به للجماهير من أخطاء مؤلمة عرقلت سبيل الحياة في هذا البلد الأمين.

• • •

وربنتي وسفل عتيدة من القراء يسألوني فيها عن سبب الصمت الذي كنت به في هذه الرحلة الهامة من تاريخنا، إن أصحاب هذه الرسائل يريدون مني ان أستر في الكتابة كما كنت أفعل من قبل. وهم يظنون ان الأمر بيدي وان قلعي مطواع أستطيع ان أسهره كما شئت أو تشئت لي الظروف الاجتماعية الجديدة.

لواقع اني حاولت في بدء الثورة ان أكتب للصحف مقالات اطل فيها طبيعة الثورة. وبعد ان نشرت تلك المقالات شعرت ان كنت فشلاً. فلقد كانت مقالاتي تافهة أو بلادة في نظر الكثيرين، وجوهرت باللوم ولعناب من اجلها غير مرة.

ويعلم انه اني شعرت بالاسف المفض حين وجدت نفسي عاجزاً عن مواكبة الثورة  
بقلمي كما كان ينتظر مني . ولكن الاسف لايجدي في الامر شيئاً.

ان الذي يقرأ كتابي السابقة قد يستشعر منها اني مولع بالتنبش عن عيوب  
الجنوع وما يسهل على عقول لبدنه من عقائد وعلات ضارة . وربما صح القول  
باني تخصصت في هذا النوع من الكتابة الاجتماعية بحيث أصبحت غير قادر على  
الكتابة في غيره الا قليلاً . وقد كان لي في ما مضى مجال ان اكتب فيه وان القى من  
القرءه شيئاً من التشجيع عليه . اما الآن بعد ان فتحت الثورة باب النشر والكتابة  
على مصراعها فقد حق لي ولامثالي ان تعترض وان تترك للجبال لغيرنا من زباب  
الادب الجهد .

ولهذا قاني ارجو من القرءه ان يتحملوا عبء كتابي هذا وان يصبروا عليه .  
فالواقع لي ما كنت راضياً في إصداره لو لم يكن قد تم طبع الجزء الأكبر منه قبل  
قيام الثورة . وقد مررت في فترة كنت فيها عازماً ان اترك إصداره نهائياً فاضر المال  
والجهد للذين بذلتهما فيه . ومهما يكن الحال فللقرءه ان يعتبروا هذا الكتاب بمثابة  
فلم سينمائي غير موفق . وقد لثرت لذلك ان اجعل ضمن النسخة منه مقابلاً لثمن  
بعلقة الدخول الى السينما . وما اكثر الافلام التي يشاهدها الناس ثم يخرجون منها  
ثامنين .

• • •

لي كتب كنت قد أعدتها للطبع منذ ستوت . وقد أعلنت عنها ذات مرة اعلاناً  
سائراً فقلت : "إنها ستصدر بعد موت المؤلف ان شاء الله " . وكان سبب هذا  
الاعلان السائر اني كنت لا اتوقع ان تحدث الثورة عندنا في وقت قريب . والان وقد  
حدثت الثورة بأسرع مما كنت اتوقعه فهل ترائي قائداً على اخراج تلك الكتب  
العتيدة ؟ كلا !

من هذه الكتب العدة للطبع كتبت بذات في تأليفه جهداً كبيراً وتسميته "اخلاق  
اهل العراق " . انه على اي حال كتب يبحث في عيوب المجتمع العراقي وما فيه من  
قيم سيئة وتطرف قد لاتصمد عواقبه احيناً . وكل من يدرس الأوضاع السياسية  
والاحتمالية التي مر بها الشعب للعراقي في عهده البائدة لابد ان يستنتج منها

منكما استنتجته. ولكني مع ذلك واثق بأن لو أخرجت هنا الكتاب الآن لقبله كتود  
من القراء بالثغور. ولا أوم على القراء في ههء فهم يطلبون من الكتاب في هذه الرحلة  
لنورية أن يكتب للشعب فهما يشجعه ويمجد أفعاله، لا أن يثبطه ويحصي عليه  
عيوبه.

\*\*\*

جاء في احد الامثال القديمة، لكل زمان بولة ورجال. وبصح أن نقول جرياً على  
هنا الثل، لكل زمان كتاب وقراء. وعلى كل حال فالامر لله للولحد للقهارا.

على الوردى

## هوامش المقدمة

- (1) انظر: مصطفى محمد عمارة، جولمر البخاري، ص 313 .
- (2) انظر: محمد السماوي، ظرافة الاحلام، ص 5 .
- (3) انظر: الدكتور حسين محفوظ، سيرة الشيخ أحمد الاحمائي، ص 17 .
- (4) انظر: محمد السماوي، ظرافة الاحلام، ص 15 - 16 .
- (5) انظر: المصدر السابق نفسه، ص 31 - 32 .
- (6) انظر: جعفر الحليلي، أولاد الحليلي، ص 11 - 14 .
- (7) انظر: مصطفى جواد، ونيم سرسة، بغداد، ص 320 - 321 .
- (8) انظر: المصدر السابق نفسه، ص 322 .
- (9) انظر: آخر ساعتبعدها الصادر في 1959/2/11
- (10) انظر: مقالات الشيخ المفيد، ص 92 - 93 .
- (11) انظر: Hiddfield, Dreams and Nightmarcs, p 3 - 4
- (12) انظر: Rhine, New World of the mind
- (13) انظر: توفيق الطويل، الاحلام، ص 20 .
- (14) وقد منحه الكلية الشهادة فضلا واصبح بحمد الله دكتورا يشار اليه بالبنان.
- (15) انظر: Ross, Outline of the Modern Knowledge, p 36 - 37 .
- (16) انظر: Electro - magnetic Waves
- (17) انظر: Jeans, Mysterious Universe, p 93 - 94
- (18) انظر: Rhine, Reach of Mind , p 50 .

القسم الأول

الأحلام والعقيدة



## الفصل الأول

### آراء القدماء في الأحلام

#### الأحلام عند اليونانيين:

يتميز الفرد اليوناني بسناجة تفكيره، فهو يرى للظواهر الغريبة صحيطة به من كل جانب، يحاول تحليلها بما يلائم مفاهيمه البسيطة.

ومما تثار بهمة للفرد اليوناني لغز الأحلام - ولعله يسأل نفسه أحياناً كيف يتنى له أن يرى في منامه أموراً ليست موجودة بالقرب منه . وربما دفعه ذلك إلى الاعتقاد بأن الأحلام تنشأ عن تدخل الآلهة أو الشياطين . ففي نظره إن الآلهة والشياطين وحدها تستطيع أن تفعل ذلك .

وصار اليونانيون يحتقنون بأن الأحلام لها وظيفة كبرى للإنسان إذ هي تكشف له عما تخفي عنه الأيام من مكنون الغيب<sup>(1)</sup> .

ويقال إن الفرد في بعض القبائل البدائية لا يجد فرقاً بين أفعاله الواقعية التي يقوم بها أثناء اليقظة وأفعاله التي يحلم بها أثناء النوم، فلذا ركن في منامه شخصاً يهدده لو يعتدي عليه، أيقن أن للشخص بفعل ذلك حقاء، وهو قد لا يتردد في الذهاب إليه صباحاً ليعاتبه لو ينتقم منه . ومن الضحك إن ترى رجلين من اليونانيين يتخاصمان خصماً عنيفاً من جراء حلم رآه لخصما حيث كلن الآخر يعتدي عليه . والناس حوله يحثون ذلك امرأ طبعياً لا ناعي للعجب منه .

ويجيز العرف في بعض القبائل البدائية ان يتخذ الرجل إحدى اغتربت زوجته له إذا كان قد رآها في النوم وهي تحته<sup>(12)</sup>. فما دام قد اتصل بها في الحلم اتصالاً جنسياً جاز له بعدئذ ان يواصل ذلك الاتصال...

### الأحلام والعين البدائية:

وقد ظهرت في علم الاجتماع نظريتان تعزو كل منهما إلى الأحلام أهمية كبيرة في نشوء الدين لدى البدائيين، هما نظرية سبنسر ونظرية سيلر.

يقول سبنسر ان قبايليين لا يفرقون بين الموت والنوم، ففي كليهما تخرج الروح من بدن صاحبها، ولكنها ترجع إليه بعد النوم، بينما تتدرك نهائياً بعد الموت. وفي رأي سبنسر أن هذه العقيدة البدائية هي التي أدت إلى ظهور الأديان المختلفة. فإذا مات أحدهم أسرع لقرباؤه إلى القيام بالطقوس وتقديم القرابين إلى روحه بخية التضرع إليها والتماس العون منها، ومن هنا نشأت عبادة الأسلاف التي هي أولى العبادات بين البشر<sup>(13)</sup>.

ويقول تيلر بأن فكرة الروح نشأت عند الإنسان البدائي من ملاحظة نفسه عند النوم، فالرؤى العجيبة التي يراها في منامه تدفعه إلى تخيل وجود الروح في بدنه. وقد أدى به ذلك إلى الاعتقاد بأن كل شيء في هذه الدنيا له روح وبدن. والعالم بهذا الاعتبار مملوء بعدد لا نهاية له من الأرواح، وهي قادرة على نفع الإنسان وعلى الأضرار به، وما الألهة إلا نخبة ممتازة من هذه الأرواح سعت على غيرها وصارت موضع الخشية والعبادة<sup>(14)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه ان هاتين النظريتين أصبحتا عتيقتين في نظر المصنفين من علماء الاجتماع، حيث ظهرت مكانهما نظريات أخرى أحدث مذهباً في تحليل منشأ الدين. ولكنهما على أي حال تشيران إلى ما كان للأحلام من تأثير في تفكير البدائيين.

### الأحلام في المذنبات القديمة:

يبدو ان الشعوب المتمدنة القديمة لم تكن تختلف كثيراً عن لشعوب البدائية في امر تدفيس الأحلام وفي اعتبارها إلهاماً. يقال ان البابليين كان لهم إله خاص بالأحلام اسمه "ماخر". وكذلك كان للمصريين القدماء مثل هذا الإله اسمه

"يس" ، وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التي يضع المصريون رؤوسهم عليها عند النوم<sup>(45)</sup> .

ويحدثنا القران والتوراة عن الاهتمام البالغ الذي كان المصريون القدماء يولونه لتأويل الأحلام، وكيف استطاع يوسف الصديق ان يصل إلى مركز عال في الدولة بواسطة الحلق في تعبير الرؤيا.

وكان الأوغريق القدماء يشبهون المصريين من هذه الناحية. ولعلمهم لتفسيروا بعض عقائدهم في الأحلام عن المصريين عبر البحر. والمعروف عن حكام سبارطة انهم كانوا يعتمدون النوم في معبد معين لكي يتلقوا لثناء نومهم فيه لجاه للغيب. وكان للأحلام اثر كبير في توجيه سياستهم في حكم البلد.

وفي اثينا كانت المحكمة العليا تأخذ بما تقرره قرؤيا من اباتة المتهمين لو تبرأتهم. وأثناتور عن شيخ فلاسفتهم، افلاطون، انه كان يؤمن بصدق قرؤيا.

اما في روما فلم يكن الحال يختلف عما كان عليه في اثينا ولسبارطة. والغريب ان مجلس الاعيان قروماني كان يستجيب لما تشير به رؤيا أحد العامة<sup>(46)</sup> .

### اول مؤلف في الأحلام:

عندما انتشرت بين الأوغريق القدماء عادة التاليف في العلوم المختلفة، ظهر من بينهم مؤلف اقتص بدراسة الأحلام لسمه ارطميديورس. ونحن لا نعرفي على وجه اليقين، هل سبقه من هذه الناحية احد غيره ام لا. وكل ما نعرفه ان ارطميديورس اول مؤلف في موضوع الأحلام في تاريخ العالم. وقد كتب فيه خمسة كتب ترجمت إلى اللغة العربية في المعهد العلبسي، ولكن لها اثر لا يستهان به في التفكير الإسلامي.

ويعزو ارطميديورس الأحلام كلها إلى تدخل الالهة. ولكنه يقسمها إلى نوعين، فمنها ما هو صريح سافر ينبىء عن الغيب مباشرة، ومنها ما هو رمزي لو مقتع. ووضع ارطميديورس في كتبه قواعد لتفسير هذا النوع الأخير من الأحلام. ونحن نقرا كتبه نجد شيهاً غريباً بينها وبين الكتب المنتشرة بين المسلمين في تأويل الأحلام.

ويعتقد ارطميديورس ان الرموز في الأحلام تستمد جذورها من شخصية الحالم

ومن مركزه وظروفه وعادات مجتمعه. ولها يجب على مفسر الأحلام أن يفهم هذه الأمور فهماً تاماً لكي يكون قادراً على معرفة ما ترمز إليه الأحلام من انبئ الغيب<sup>(7)</sup>.

### نظرية أرسطو في الأحلام:

امتاز أرسطو طاليس من بين المفكرين القدماء بأنه درس الأحلام دراسة موضوعية وجردها من تدخل الألهة، ويمكن اعتبار أرسطو أول زنديق نظامي من هذه الناحية. وهو يقول إن معظم الأحلام تنشأ من مؤثرات حسية. فكثيراً ما يخالج الإنسان شيء من الألم واللذة أثناء يقظته ولكنه لا يهتم به لانشغاله بهوم الحياة. فإذا نام ظهر له ذلك في أحلامه واضحاً، ومعنى هنا أن الحلم يحول الاحساسات الخفيفة إلى احساسات مكبرة. فالنجم الذي يسمع صلصلة خفيفة في انبيه يرى في حلمه كأن برقاً أو رعياً وقع عليه. وإذا جرى في بعمومه قليل من اليلغم، ظنه في الحلم شهياً ذا طعم لذيذ. ولنا فصل بجسمه شيء من الحرارة، نوهم في حلمه أنه يقتحم النار أو بصطلي بها.

وقطن أرسطو كذلك إلى اثر البيول والمواطف والأمزجة في تشكيل الأحلام، فالصبي يرى في منامه ما يلائم نزعات هواه، والخائف يتمثل سبب الخوف في حلمه، وكثيراً ما يرى الإنسان في منامه أموراً كانت موضع تفكيره في يقظته<sup>(8)</sup>.

وتتعلل عظمة أرسطو لفكرية عند تعرضه للرؤيا الصادقة، وهي الأحلام التي نتحقق فعلاً بعد رؤيتها في المنام. ويقول أرسطو فيها إن تحققها الفعلي لا يدل على صحة تنبؤها بالتهيب كما يقول أفلاطون وغيره. إنما هو يرجع إلى عوامل أخرى لا صلة لها بالروح أو تدخل الألهة.

ويحدد أرسطو هذه العوامل بأربعة على التوالي التالي،

(1) عمل المصانعة، وهو الأمر الذي يحدث للإنسان في يقظته ومنامه أحياناً كثيرة. فالإنسان قد يتنبأ بحدوث شيء ثم يقع ذلك الشيء مصانعة ولفظاً.

(2) عامل الإيحاء، ومعناه أن الإنسان قد يحلم بوقوع حدث، فيصبح الحلم بمثابة إيحاء يسيطر على عقله وقد يدفعه بعد ذلك إلى تحقيقه.

(3) الاحساس بالضخم، فالإنسان قد يحلم أحياناً بمرض أو موت يتعان عليه. ومرد ذلك إلى احساسه باضطرابات عضوية دقيقة أثناء النوم، وهذا الاحساس يدل على وجود مرض خفي لا يشعر به الإنسان أثناء يقظته لانشغاله بأمور الحياة.

(4) الاهتمام الخاص، وذلك أن الإنسان يهتم بأحوال لقريبه وأصدقائه أكثر مما يهتم بأحوال غيرهم. وهو قد يرى في نومه حابثاً يقع عليهم من جراء ما خبر من أحوالهم أثناء اليقظة، ثم يقع لحدث فعلاً.

### نظرية الرواقين:

تعد النظرية الرواقية في الأحلام معاكسة لتلك التي جاء بها أرسطو. وقد أبلى الرواقيون بلاءً حسناً في الدفاع عن الرؤيا الصادقة وفي اعتبارها وحياً إلهياً. فهم يقولون أن النفس البشرية تكون أثناء اليقظة فريسة للشهوات البدنية، وهي تتحرر من هذه الشهوات بالنوم وبذلك تقوى على التنبؤ واستشفاف الغيب.

كان أرسطو يعتمد على العقل في إنكاره للرؤيا الصادقة. وجاء الرواقيون يقولون بأن العقل لا يضح أن يكون حكماً في مثل هذه الأمور، ولأن الإنسان لا يجوز له أن ينكر شيئاً مجرد أن عقله عاجز عن فهمه أو تصوره.

والرواقيون يتون لتأييد رأيهم بمثل مشهور هو المغناطيس. فالذي يجهل سر المغناطيسية ينكر جذب المغناطيس للحديد وهو يراه بعينه<sup>19</sup>. وعندما اعتاد الناس على رؤية الجاذبية المغناطيسية اعتدروها أمراً معقولاً مع أنها في حقيقة أمرها بعيدة عن أي تحليل منطقي معقول.

### تلخيص وتفريق:

هذه هي خلاصة الآراء التي قيلت في الأحلام قبل ظهور الإسلام، ويستطيع من نصغها إلى الأصناف التالية.

(1) الآراء العامة، وهي التي كانت تعزو الأحلام إلى تدخل الآلهة والشياطين، وكانت غالبية على عقول معظم الفكرين.

(2) الآراء الأرسطوطاليسية، وهي التي نعلل الأحلام تعليلاً عقلياً لا نثر للقوى الغيبية فيه.

(3) الآراء الرواقية، وهي آراء نقدية صوفية، تنتقص شأن العقل وتحاول التطلع إلى ما وراءه.

وسوف يرى لقارئ في الفصل التالي كيف انقسمت آراء المسلمين في الأحلام إلى هاتيك الأصناف الثلاثة ذاتها. ولكن الذي يلفت النظر أن النزعة التي سيطرت على عقول المسلمين في عهدهم المنتخزة هي النزعة النقدية، ونعني بها تلك النزعة التي تنتقص شأن العقل وتعترف بقصوره عن فهم الحقيقة المطلقة.

ويبدو أن للمتصوفة ضلعاً كبيراً في شيوع هذه للنزعة بين المسلمين. كما سيأتي بيانه.

## هوامش الفصل الأول

- (1) أنظر: Freud Basic writings, P 184.
- (2) أنظر: أبو حنين الشافعي، الوهم، ص 34.
- (3) أنظر: روجيه باستيد، علم الاجتماع الديني، ص 218 - 219.
- (4) أنظر: المصدر السابق، ص 220 - 221.
- (5) أنظر: توفيق الطويل، الأحلام، ص 112.
- (6) أنظر: المصدر السابق، ص 114 - 115.
- (7) أنظر: Freud Interpretation Dreams, P. 82.
- (8) أنظر: توفيق الطويل، الأحلام، ص 69.
- (9) أنظر: توفيق الطويل، التبؤ بانعيب، ص 169.

## الفصل الثاني

### آراء المسلمين في الأحلام

#### الاهتمام الشديد بالأحلام

نستطيع أن نقول بأن الأمة الإسلامية هي من أكثر الأمم القديمة اهتماماً بالأحلام وتقديساً لها، لا يستثنى منهم في ذلك سوى المعتزلة وقليل من علماء الكلام الذين تأثروا بهم على وجه من توجه.

ومما يلفت النظر أن فلاسفة المسلمين الذين تابعوا أرسطو في كثير من أفكاره خالفوه في موضوع الأحلام فلم يأخذوا برأيه فيها. وفي نظرهم إن النفس تتصل لتناء النوم بالعقل الفعال الذي هو عقل الأفلاك فتستشف الغيب، عن طريقه.

والظاهر إن هؤلاء الفلاسفة خشوا من غضب العامة فيأروهم في ما يعتقدون به من قسسية الأحلام.

#### الأحلام والحديث النبوي

تروى عن النبي محمد أحاديث عديدة في الأحلام، وكلها تشير إلى أن الرؤيا الصالحة وحي من الله. وأشهر هذه الأحاديث لثلاث، أحدهما يقول بأن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة<sup>(1)</sup>. وجاء في الحديث الآخر، إن الصحابة شق عليهم أن يبصرهم النبي بانقطاع النبوة بعده، فطمأنهم النبي قائلاً: "بقيت من

بعدي المبشرات". ولا سنل النبي عن المبشرات هذه ما هي، قال، "هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له" (2).

ونحن لا نعلم على وجه اليقين مدى صحة هذه الأحاديث المروية عن النبي. فمن الممكن أن تكون مكتوبة عليه. وقد أكثر نقلة الحديث من الكتب على رسول الله كما هو معروف. ومهما يكن الحال فقد شاعت تلك الأحاديث بين المسلمين، وأصبحت عند كثير منهم مقدسة لا يجوز الشك فيها. ونهب بعضهم من جراء ذلك إلى الاعتقاد بأن الذي يكفر بالرؤيا يكفر بالنبوة، إذ أن الرؤيا والنبوة يتبعان في نظرهم من منبع واحد.

### القرآن والأحلام

جاء في القرآن بعض آيات حول الأحلام، خصوصاً ما جرى للنبي إبراهيم حين أوحى الله إليه في المنام أن يذبح ابنه، وما جرى للنبي يوسف حين اشتهر في مصر بحلمه العجيب في تعبير الرؤيا. ولتخذ بعض المفسرين هذه الآيات دليلاً قوياً على صدق الرؤيا.

وقد وصف القرآن المؤمنين بأن "لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة" (3). ففسر الفخر الرازي هذه البشرى بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. وسرى هنا التفسير بين المسلمين حتى استقر في أذهانهم بأن القرآن يقرر بأن الرؤيا وحى من الله (4).

### رأي المعتزلة:

لنا أنفاً إلى أن المعتزلة شنوا عن يقية المسلمين في أمر تقديس الأحلام. ولقد شنوا عنهم في أمور عديدة أخرى، وهم بوجه عام يتقون بالنطق والعقل الواعي ثقة كبيرة، ويعتقدون بأن الله لا يخرج في أوامره ونواهي عن جادة العقل السليم. فما يامر به العقل يامر به الله حتماً.

وقد دفعهم ذلك إلى الاستهزاء بالأحاديث النبوية التي تنافي العقل في نظرهم. وفسروا القرآن كما يشتهون. وكانوا لا يبالون بالعامية. ويحتقرونهم، وهم لا يترددون عن إعلان رأي ترتضيه عقولهم مهما يكن مخالفاً لمعتقد العامة ومن إليهم من الفقهاء والواعظين.

ورأيهم في الأحلام أنها أضغاث وأوهام. ودليلهم في ذلك أن الإدراك الصحيح لا يفتى للإنسان إلا في اليقظة حين يكون العقل في عشفائه. وهم يقولون بأن الإدراك والنوم ضدان لا يجتمعان<sup>(15)</sup>. وليس من الممكن في نظرهم أن يدرك العقل حقائق لتكون أثناء نومه. وعلى قدر الانتباه يكون الإدراك.

### رأي المتصوفة،

وكان رأي المتصوفة على العكس من رأي المعتزلة تماماً. فهم يعتبرون العقل منبع الأوهام والأباطيل. وهم قد يفضلون الجنون عليه لحياًناً. ومن هنا نشأ تقديس المجانين لدى العوام في بعض الأقطار الإسلامية. وافتخر ابن عربي أنه لصيب بالجنون غير مرة<sup>(16)</sup>.

ويرى بعض المتصوفة أن النوم يقظة واليقظة نوم. فالتنفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة بصور الحسوسات وهموم البين. وهي عندئذ نائمة لا تفهم سوى ما يأتي به الحس من أوهام وباطيل. أما في النوم فينبجلي عن بصرها الغشاء وتعلق في سماء المعرفة طليقة لا يشغلها شاغل.

ويعتقد الغزالي أن ما يبصره الإنسان أثناء نومه أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس. وقد لخصه الناس حين ظنوا بأن المعرفة تقع ليان اليقظة. إذ هم ينسون أن لعقل مشغول عند ذلك بهوم حياته الدنياوية فلا يستطيع أن يفهم من أمور الحق شيئاً<sup>(17)</sup>.

ويعد الغزالي للرويا طوراً ضعيفاً من تطور النبوة<sup>(18)</sup>. ومعنى هذا أن الناس جميعاً أنبياء على درجة متفاوتة. وكلما صفت النفس وتخلصت من أدرانها الدنياوية لتكشف بين يديها عالم الغيب وارتفعت في سلم النبوة والوحي.

### خلاصة القول:

وخلاصة القول عند جمهور المسلمين أن الرويا الصادقة تنبع من نفس المعين الذي تستقي منه النبوة والولاية<sup>(19)</sup>. ومعنى هذا أن الوحي الإلهي ينزل على الإنسان بدرجات ثلاث،

(1) فالدرجة الأولى منه، وهي الدرجة القوية جداً التي ينكشف الغيب فيها بكل وضوح، خاصة بالأنبياء، وبها يعاملون عن غيرهم من الناس.

(2) أما الدرجة الثانية منه فهي التي يختص بها الأولياء من أرباب الزهد والكرامة وهؤلاء في درجة قربهم من الله تون مرتبة الأنبياء وفوق مرتبة العابدين من الناس.

(3) والدرجة الضعيفة من الوحي تتأني للمسلم عن طريق الرؤيا، وهي من جانبها تتغلب قوة وضعفاً بمقدار ما يتصف به المسلم من إيمان وتقوى. وكلما كان المسلم أكثر صلاحاً وعبادة كانت رؤياه لصيقاً.

ونذهب البعض من المسلمين إلى القول بأن النبي نفسه تلقى قوحي في أول أمره عن طريق الرؤيا للصانقة، ثم تبرج بعد ذلك في مراتب النبوة، وقد روت السيدة عائشة عن زوجها محمد أنه كان في بلدك أمره يرى الرؤيا فتأني مثل خلق الصبح. وقد حبيت إليه الرؤيا الاعتكاف في غار حراء والتحدث فيه ولبث كذلك حتى فاجاه الوحي أثناء نومه<sup>(10)</sup>. وكان ذلك إيلناً بدعوته الكبرى التي هزت العالم وغيّرت مجرى التاريخ.

### رأي ابن عربي:

ولحي لعين ابن عربي المتوصف للحروف، رأى في هذا الشأن بالغ الخطورة. فهو يقول إن الوحي لا يهبط على الأنبياء من خارج أنفسهم، إذ إن النبي لا يحتاج إلى وسيط يتلقى الوحي به عن الله، ففنه موجود في باطن النفس كما هو موجود في كل مكان، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل وريده كما يقول القرآن. وهو يوحى إلى عبده المتخلص من غير وساطة لاسيما حين تتعطل حواسه أثناء النوم، ويأتي ابن عربي بمثل على ذلك من حياة النبي إبراهيم، إذ رأى في المنام أنه يذبح ابنه، وقد اطاع أمر ربه كما جاءه في المنام لولا أن فدى له ابنه بكيش عظيم<sup>(11)</sup>.

ولست أنرى كيف استطاع ابن عربي أن يبوح براه هذا أمام العامة. مع العلم أننا نخشى أن نقول به ونحن في القرن العشرين. وما يجدر تذكرك أن ابن عربي كان من المؤمنين بوحدة الوجود. وهذا رأي لا تستسيغه عقول العامة. فهم قد اعتابوا أن يتخيلوا ربهم جالساً على عرش فخم في أعلى السموات كما تجلس السلاطين. وهم

يتوسلون إليه بالتوجه نحو السماء ورفع أيديهم إليها. ولهذا فهم يعتقدون بأن الله يوحى إلى تبييه بإرسال احد الملائكة إليه. وهم يخصصون جبرائيل لهذه المهمة. كما هو الحال لدى السلاطين حين يرسلون إلى ولايتهم السعاة وحملة البريد.

ويبدو ان ابن عربي وغيره من القائلين بوحدة الوجود لا يميلون إلى هذا الرأي. وهم يرون ان الوحي ينبع من باطن النفس. اما ما جاء في الحديث من ذكر جبرائيل فهو من باب "حدث الناس على قدر عقولهم". وقد أمر الله الأنبياء ان يحدثوا الناس على قدر عقولهم في كل حين. فتأمل!

### مقتل ابن عربي:

ومع انه صلة بهذا الموضوع ان أهل الشام قتلوا ابن عربي حين قال لهم بن ربهيم تحت قضيته. فقد اعتبروه كافراً من جراء هذا القول. وكيف يمكن ان يكون ربهيم في شراب تنوسه الأقباط، مع العلم انه جالس على عرشه تحف به الملائكة من كل جانب.

ويحكى ان أهل الشام وجدوا تحت قدمي ابن عربي بعد قتله كنزاً من الذهب مدفوناً. فظنوا انه كان يعتني باللرب الذهب. والذهب محبوب الجميع كما لا يخفى. فندموا على قتله وشهدوا على قبره قبة ضخمة تباطح السحاب. إنهم لا يزالون يعتقدون بان الله لا يمكن ان يكون في القراب، تلسين او متتلسين ان الله موجود في كل مكان، اذ لا فرق في ذلك بين مكان وآخر. فالفروض في الله ان يكون اسمى من أي اعتبار اجتماعي اعتاد عليه الناس. ومشكلة العامة انهم يستمنون جنود عقولهم من مألوفاتهم الاجتماعية. والويل كل الويل لمن يخالفهم فيما يتخيلون ويعتقدون.

## هوامش الفصل الثاني:

- (1) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، ص 103
- (2) انظر الغزالي، احياء العلوم ، ج 4 ، ص 429 - 430 .
- (3) انظر : القرآن ، سورة يونس ، آية 64 -
- (4) انظر : توفيق الطويل ، التبرؤ بالمعيب : ص 79 .
- (5) انظر: المصدر السابق ، ص 80 - 81
- (6) انظر : Mangoloulli, Mohammedanism, p 176 .
- (7) انظر : الغزالي ، كيمياء الحصاد ، ص 14 .
- (8) انظر : الغزالي، احياء العلوم ، ج 4 ، ص 428 -
- (9) انظر : توفيق الطويل، الإسلام ، ص 90 -
- (10) انظر: محمد حسين هيكل، حياة محمد ، ص 95 .
- (11) انظر: ابن عربي، نصوص الحكم ، ص 136 - 137

## الفصل الثالث

### أثر الأحلام في المجتمع الإسلامي

#### علم التعبير:

المتنور عن النبي محمد أنه صنف الأحلام إلى ثلاثة أقسام حيث قال، "الرؤيا ثلاث، رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا ما يحدث المرء به نفسه فمراه في اللام". والظاهر أن المسلمين في عهدهم المتأخرة لم يعملوا بهذا التصنيف، فقد رأيناهم يعتبرون الأحلام كلها وحياً من الله، حيث عملوا بهذا الاعتبار حديث النفس وحديث الشيطان. وصاروا يجدون في كل حلم إشارة إلى ما يضر لهم الغد من مكنون الغيب.

وقد نشأ بين المسلمين من جراء ذلك مهنة خاصة بتعبير الرؤيا، وهي مهنة تمنح صاحبها مكانة اجتماعية مرموقة ومكسباً وفيراً.

وقد أصبح تعبیر الرؤيا عند المسلمين علماً قائماً بذاته ومعترفاً به. وقد خصص ابن خلدون لهذا العلم فصلاً في مقدمته. وهو يختتم الفصل قائلاً عن علم التعبير، "وهو علم مضيء ينور النبوة للعناسة التي بينهما كما وقع في الصحيح والله اعلم".<sup>(1)</sup>

#### ابن سيرين

وأعظم من اشتهر بتعبير الرؤيا من المسلمين هو محمد بن سيرين، الفقيه

العروف. ويمكن تلقيه يارطميديورس العرب. وقد نسبت إلى ابن سيرين كتب عديدة في علم التعبير، والظنون أنها ليست له، كلها أو بعضها. فقد مات ابن سيرين عام 108 للهجرة. ومعنى ذلك أنه عاش في عصر لم يبين الناس فيه بتدوين الكتب على النطق الواسع الذي رأيناه فيما بعد. وربما كانت الكتب المنسوبة إلى ابن سيرين قد ألفت بعد موته ثم وضع اسمه عليها بغية رواجها بين الناس. وليس هذا بالأمر المستغرب بعد أن أصبح لسم هذا الرجل لسطورة ذات صيت عريض، واخذ الناس يعزون إليه تخوارق على متول ما فعلوا بيوسف الصديق عليه السلام.

وأعلمي على الكتب أثناء كتابة هذه السطور كتاب منسوب إلى ابن سيرين اسمه "كتاب تفسير للامات الكبير". وهو مطبوع طبعه رخيصه، وقد طبع في آخره كتاب المنال، فكلاهما يستقيان من منبع واحد في نظرهم. ولثل هذه الكتاب رواج كبير بين العامة كما لا يخفى.

### ترجمة ارطميديورس:

ويعد موت ابن سيرين بمئة عام تقريباً ترجم حينئذ ابن اسحاق إلى اللغة العربية كتب ارطميديورس في الأحلام. فرأجت بين المسلمين رواجاً لا يستهان به.

وقد مر على المسلمين زمان كانوا يعتقدون فيه أن الفكر اليوناني القديم هو خير ما أنتجه لعقل البشري. ولعلمهم فرحوا حين وجدوا في كتب ارطميديورس ما يلائم المنقول من الحديث الشريف. فالحقول والمنقول قد اتفقا إن، وهذا أقصى ما يستطيع المسلم أن يحصل عليه من الأفكار.

ومما يلتفت النظر أن هناك تشابهاً كبيراً بين كتب ارطميديورس والكتب المنسوبة إلى ابن سيرين. ويعزو الدكتور توفيق الطويل هنا التشابه إلى تقارب التفكير بين الشعوب المختلفة في أمر الأحلام<sup>(12)</sup>.

ولست أزيد الدكتور الطويل في هذا الرأي، والذي أراه أن المسلمين قد تأثروا بأفكار ارطميديورس وبمنهجه، فحدوا حنوه في تأليف كتبهم. ولم ينسوا مع ذلك أن يضعوا اسم ابن سيرين عليها.

وربما كلن كلا الزاين صحيحاً!

### الأحلام والسلوك اليومي:

وصل الحال ببعض الناس أنهم صاروا لا يرون في منامهم شيئاً حتى يسرعوا في الصباح إلى مفسر الأحلام لكي يطلعهم على ما يخبئ لهم القدر فيه. وقد يتقاسم أحدهم عن سفر مهم، أو يرفض زواجاً سعيماً، أو يلقي صفقة تجارية، إلا رآى في المنام إشارة للخطر حسبما يقول له المفسر.

وكان بعض المفسرين بلرعين في استخراج الإشارة من كل رؤيا برلمها احد للمالين. فهنصحنه بما يجب عليه أن يفعله لينجو من شر محيق به أو ليحصل على خير منتظر.

وحيث لا يجد الناس مفسراً حانقاً لأحلامهم يلجأون إلى كتب الأحلام المتوافرة في الأسواق. وهم يفضلون أن يكون اسم ابن سيرين عليها طبعاً.

وهذه الكتب تحتوي عادة على أبواب متنوعة، فيلب في رؤية انه تعالى، وباب في رؤية الملائكة والأنبياء، وباب في رؤية الشمس والقمر والنجوم، وباب في رؤية الأمطار والرعد والبرق، وباب في رؤية الأشجار والثمار والحبوب، وباب في رؤية النكاح وفروج النساء، وباب في رؤية الأفاعل والحميمر والياغل، وباب في رؤية أعضاء الإنسان وأروث اليهانم... إلى آخره.

فإننا رآى المرء في منامه احد هذه الأشياء لو غيراه ففتح الكتاب وبحث عن الباب الخاص بذلك للشيء، وسوف يجد فيها مرامه إن شاء الله.

### أهمية المفسر:

والناس يفضلون المفسر على الكتاب. فلكتاب يعطي الأمور مجعلة. أما المفسر فهو قادر على تحويل كل حلم بما يقتضيه القام، وهو يراعي في كل شخص ظروفه وأخلاقه.

يحكى أن رجلاً جاء إلى ابن سيرين يخبره عن حلم رآه حيث كان فيه يؤذن، فقال له ابن سيرين: "نقطع يدك". وجاء إليه آخر يخبره عن حلم يمثل حلم

الأول تلعماً، فقال له ابن سيرين، "تحج". وقد دهش الحاضرون لهذا الشاخص بين التفسيرين مع أن اللحم واحد.

وسألو ابن سيرين عنه، فاجابهم بما معناه، إن الأول رجل تدير عليه سيماء البشر، والأنا الذي قام به في النوم يدل على أنه سارق، وسوف تقطع يده. ونذك بدليل قوته تعالى، "وإذن مؤمن ليتها العير انكم لسارقون". أما الرجل الثاني فتبدو عليه سيماء الخضرة، وقلته يدل على أنه سوف يحج في بيت الله الحرام بدليل قوله تعالى، "وإذن في الناس بلحج".

فكان الأمر كما عبر عنه الإمام ابن سيرين في الحالتين<sup>(3)</sup>. ونه في خلقه شؤون.

### حكايات ذات مغزى اجتماعي:

يحكى أن رجلاً كان يحب زوجته حباً جمّاً، وكان غنياً عنها في سفر. فرأى في حلمه كان زوجته تلعمة، وكيشان يتناطحان فوق فرجها، فامى أحدهما الآخر. وقد دفعه هذا الحلم إلى هجران زوجته بالرغم من حبه لها. ولكنه لم يستطع على ذلك صبراً، فذهب إلى ابن سيرين يقص عليه قصته. فقال له ابن سيرين: "لا تهجر زوجتك لأنها امرأة حرة طاهرة وإنها لما سمعت بقدمك لرائت أن تنحف المكان، فما استطاعت أن تنشفه بغير ما يعالج به. وخافت سرعة قدومك عليها فعالجت تلك الشعر بالمقراض. وقد نثر فيه المقراض لثراً ظاهراً. فإن أردت بهان نلك فامض إليها الساعة، وانظر فإنك تجد ما ذكرته لك صحيحاً". وذهب الرجل فرأى صحة ما قاله له الإمام ابن سيرين بالتمام والكمال<sup>(4)</sup>.

ويحكى أيضاً أن رجلاً رأى في منامه كفه يكسر بيضاً فيأخذ البياض منه ويبيع الصفار. فجاء إلى الإمام ابن سيرين يخبره بحلمه. فطلب منه ابن سيرين أن يحلف بالله على أنه رأى نلك في منامه حقاً. فحلف الرجل. عند هذا لمر ابن سيرين الذين كانوا حوله أن يأخذوا الرجل إلى فلسطين. فهو رجل يخبش للقبور ويسرق أكفان الموتى. فقال الرجل: "يا سيدي لنا اتوب لله على يدك ولا اعود أبداً"<sup>(5)</sup>.

وتروى قصة أخرى لها شبه بهاتين القصتين. فقد جاء رجل إلى الإمام جعفر

لصادق يقص له رؤيا رآها في نومه، وملخصها انه وجد نفسه يأكل الطعام في قدح وكان في القدر نمل. فسأله الإمام عما إذا كان له زوجة وله غلام يخدم في بيته. فاجاب الرجل، نعم. فنصحه الإمام بأن يطرد الغلام من بيته لأنه لا خير فيه. وعمل الرجل بنصيحة الإمام فباع الغلام. ولما علمت زوجته بذلك هربت من البيت. ثم رؤيت أخيراً في مدينة حران مع الغلام حيث اشترته من مالكة لجديد وتزوجت به<sup>(٤٦)</sup>.

والحكايات من هذا النوع عديدة يصعب احصاؤها، إنما لتينا على نماذج منها. وهي قد لا تكون صحيحة في حد ذاتها. ولكنها تدل على مبلغ تأثير الناس بأحلامهم وبما يفسرها لهم المفسرون.

### آداب الرؤيا عند رجال الشرع:

تعجب بعض علماء الشرع إلى القول بأن من المستحسن للمؤمن ان يستعد لاستقبال الوحي عند نومه. ومن آداب هذا الاستعداد ان يقلم المؤمن اظفاره وأن يغتسل من الجذبة ويتوضأ. وسبب ذلك ان قروح حين تفارق بدنها أثناء النوم لا يؤذي لها بالطواف حول العرش أو بالسجود بين يدي الله إنما لم تكن مهية له.

وكلما احسن المؤمن الاستعداد للنوم كانت رؤياه اصدق. والنافع له ان ينام على نقاء قلب وصفاء سريرة، وأن لا يكون جائعاً أو متخوفاً. وعليه ان لا يتكلم البصل ونحوه من الأطعمة الخبيثة قبل النوم، إذ هي تجلب له الأحلام الباطلة. وخير النوم هو ما كان على الظهور. فما قدوم على البطن فيؤني إلى فضطات الأحلام. ولا يلبس لن ينام الرء على جنبه الأيمن لأن النبي كان يصب الشياطين في كل شيء.

وأما رأى الرء في منامه ما يضره، فعليه ان يقول: "استغفر الله من شر رؤيكي. هذه ان تضرني في دنياي وأخرتي". ثم يبصق نحو اليسار ثلاث مرات<sup>(٤٧)</sup>.

### رأي غريب:

وساد بين رجال الشرع رأي غريب نسبوه إلى الحديث للنبي. وهو ان الرؤيا لا تقع إلا إذا حدث الرء بها غيره. ولهذا وجب على من يرى حلماً ضاراً ان يكتبه في نفسه لكي يتجنب شره. فهو لا يكاد يقص الحلم إلى أحد حتى يتحقق حسبما قصه.

وتطرف بعضهم في هذه الناحية بحيث جردوا الرؤيا من أية أهمية خاصة بها. وجعلوا الأهمية في التحدث بها وهو ما لسموه بكتاب قص الرؤيا، ومعنى هنا أن الرؤيا تقع على نمط ما يتحدث المرء بها صدقاً أو كذباً. ولهذا وجب على المرء أن يكون حذراً كل الحذر في قص رؤياه، فلا يكتب فيها قيد شعرة.

فلما كتب المرء في قص رؤياه فنكر أموراً لم يرها في منامه، وقع له من الحوادث على منوال ما كذب فيها. ولا ينفعه بعد ذلك أن يعترف يكذبه. ومثل هذا ما حدث للسجين الذي أراد أن يسخر من يوسف الصديق، فقص عليه رؤيا لم يرها، وهي أنه كان في منامه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ففسر يوسف حلمه للكذوب بأنه سوف يصلب وتأكل الطير من رأسه. وقد صلب المسكين فعلاً بعد ثلاثة أيام، بالرغم من اعترافه بكذب رؤياه<sup>(8)</sup>. ولعله ذهب إلى جهنم بعد ذلك من جراء كذبه.

### حيلة البارعة،

يحسبنا التاريخ عن رجل في أيام المهدي العباسي، أنه شد عن عامة الناس في رايه عن الأحلام. فهو يرى أن الأحلام تتأثر بما يفكر المرء به قبيل نومه، ولا صلة لها بالوحي. وقد استغل هذا الرأي في سبيل خنق المهدي والحصول على منصب عال في الدولة.

وخلاصة لقصة إن الرجل جاء إلى المهدي فتنبا له بأن خلافته ستدوم ثلاثين عاماً. وقد عجب المهدي من هذا التنبؤ ولعله فرح به في أعماق نفسه، وطلب من الرجل للتبلي على صحة ما قال. وكان الرجل قد أعد للأمر عدته فقال للمهدي أنه سيرى في منامه كأنه يقبض في يديه عدداً من الباقوت، وهو بعدها فيجدها ثلاثين باقوت. وبعد البيوتيت يشير إلى عدد الستين التي سيتولى بها الخليفة إمارة المؤمنين إن شاء الله.

في الليلة التالية رأى المهدي في منامه كل ما أنبأه به الرجل، فاستدعاه في الصباح واجزل له إعطاه وولاه منصب القضاء<sup>(9)</sup>. وقد سئل الرجل بعد ذلك عن الطريقة التي استطاع بها حيك هذه الحيلة البارعة، فقال، إنه حين أنبأ المهدي بخير البيوتيت

جعله يحدث نفسه بها قبل النوم. ولما نام المهدي رأى في الحلم ما كان يحدث نفسه به طبعاً.

### تحليل ابن خلدون:

وجاء ابن خلدون برأيه في الأحلام يشبه رأي ذلك الرجل المذكر. ومن المحتمل أنه اطلع على قصة الرجل في بعض كتب التاريخ فاستلهم منها تحليله الرائع في الأحلام.

يقول ابن خلدون، إن الإنسان إذا أعد نفسه قبيل النوم إعداداً نفسياً في سبيل فكرة معينة، فإنه سيرى تلك الفكرة في منامه ويستفيد منها، والظاهر أن ابن خلدون لا يبالغ بما يقول به رجال الشرع في ألح الرؤيا، من حيث نقلهم الأظفار واللوضوء والصلاة. ففي نظره أن كل طريقة تؤدي إلى الاستعداد النفسي هي وافية بالغرض، ولا فرق في ذلك بين صلاة أو قراءة الطلاسم.

فهو يعتقد أن النفس البشرية إذا تشوقت إلى شيء قبيل نومها، وقع لها في المنام ما كانت متشوقة إليه. ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد طريقة قال عنها أنه وجدها في كتب أهل الرياضيات. وقد استعملها بنفسه فوقعته له رؤى عجيبة وأطلع بها على أمور كان يتشوق إليها من أحواله الخاصة.

ويطلق ابن خلدون على تلك الطريقة اسم "الحالومية". وبخلاصتها إن المرء يقول عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية. "تماغس بعد أن يسود وماغس نوناً غاس". فإذا نام ظهر له رجل يقوله له، "أنا طباك التام". وهو يجيب على كل ما يسأله عنه للنائم من الأمور التي يريد للكشف عنها" (10).

ولئن خلدون لا يرى في تلك الكلمات الأعجمية أية مقدره سحرية أو سر خفي، إذ هي ليست سوى مجموعة من الألفاظ الجوفاء التي لا معنى لها في ذاتها. فالتشا من عقيدة النائم بها حيث تولد فيه استعداداً نفسياً فتجعله فكراً على التقاط الوحي أو استشفاف كغيب.

وهذا الرأي من أين خلدون يدل على براعته في التحليل النفسي. ولعله سبق زملائه به، كما سبقه في التحليل الاجتماعي.

### فذلكة تاريخية:

يقال إن من لوكد الأسباب التي نغعت المأمون إلى ترجمة الكتب اليونانية حلاماً راه في منامه. فقد حلم ذات ليلة كان أرسطو طلييس جالس معه على كرسي. فهله المأمون وأحترمه وبدا له إن يسأله عن بعض المسائل الفلسفية فجرت معه الحاوراة التالية:

المأمون: ما الحسن؟

أرسطو: ما استحسنته العقول.

المأمون: ثم مانا؟

أرسطو: ما استحسنته الشريعة.

المأمون: ثم مانا؟

أرسطو: ما استحسنته الجمهور.

المأمون: ثم مانا؟

أرسطو: ثم لا ثم: (11).

ويخلب على الخلق إن المأمون رأى أرسطو في منامه بعد أن قرأ وسمع عنه كثيراً، ولكن للمأمون معتزلياً كما هو معروف. والمعتزلة بوجه عام يحترمون أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان، ويعدونهم مراجع كبرى للعقل البشري. ويخيل لي إن المأمون كان مولعاً بأرسطو ولعاً شديداً. ولعله كان يقنسه ويعتبره من الأنبياء. ولا عجب في ذلك إذ إن المعتزلة، والمأمون منهم، كانوا يعتقدون بأن تعاليم الأنبياء يجب أن تكون مطابقة لغاياتهم العقل السليم.

ومهما يكن الحال، فإننا نستطيع أن نقول بأن الحلم الذي رآه المأمون كان من أهم الأسباب التي نغعت إلى ترجمة كتب اليونان وإلى بذل الأموال الطائلة فيها. ويقال إن المأمون هدد ملك الروم بحرب شعواء إذا لم يرسل له كتب العلوم القديمة المخزونة في بلده.

ويروي أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية يأمره بأن يرسل إليه مكتبة صقلية الشهيرة. فجمع الحاكم رجال دولته وأدى إليهم بطلب المأمون، فتشاور عليه الطران الأكبر قلاً، " أرسلها إليه، قوله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدها". فلذعن الحاكم لشورته وعمل بها<sup>(12)</sup>.

ويعتقد بعض المتزمتين من المسلمين أن الطران كان مصيباً في رأيه، فالفلسفة في نظرهم تفسد كل مجتمع تدخل إليه. ومن تمنطق فقد تزندق !

وإن صحت هذا الرأي جاز لنا أن نقول بأن المجتمع الإسلامي فسد من جراء حلم راه المأمون في منامه. وليته لم يفعل:

## هوامش الفصل الثالث

- (1) انظر - ابن خلدون، المقدمة ، ص 478 .
- (2) انظر: توفيق الطويل، الأعلام، ص 192 - 193 .
- (3) انظر: ابن سيرين ، تفسير المنامات الكبير، ص 8 .
- (4) انظر: المصدر السابق، ص 33 .
- (5) انظر : المصدر السابق، ص 56 .
- (6) انظر: المصدر السابق، ص 53 .
- (7) انظر : توفيق الطويل، الأعلام ، ص 101 - 104 .
- (8) انظر: ابن اسحق الصقلي، فخص الأبياء، ص 73 .
- (9) ولما أن نقول أن طي المسلمين صاعت بين هذا الفاضي اتحاد وذلك الخليفة المنصور .
- (10) انظر: ابن خلدون، المقدمة ، ص 105 .
- (11) انظر: احمد فريد الزماحي، عصر المأمون ، ج 1 ص 377 .
- (12) انظر : المصدر السابق، ج 1 ص 375 - 376 .

## الفصل الرابع

### تأثير الأحلام في العقائد الإسلامية

#### رؤية النبي في النوم:

نشأت بين المسلمين المتأخرين عقيدة كان لها اثر هائل في حياتهم الفكرية والاجتماعية. هي انهم إذ راوا النبي في منامهم فكأنهم قد راوه حقاً. واصبحوا يثلقون الأخبار والأحاديث التي يلقونها النبي عليهم أثناء نومهم كأنها احاديث صحيحة لا يجوز للمسلم ان يشك فيها.

وليس من النادر ان نجد بين المسلمين من يفتخر الأحكام الشرعية او يؤولها تأويلاً خاصاً تبعاً لما قال له النبي في المنام عنها. وقد يوجب القارئ الحديث حين يجد في كتب الأحاديث أقوالاً منسوبة الى النبي ومصدرها أحد الرواة الحاملين.

وشاع بين الناس حديث مؤداه، "من رانا فقد رانا". ومعناه ان الذي يرى أحد الأنبياء او الأولياء في النوم فهو قد راه فعلاً، وذلك لأن الشيطان لا يستطيع ان يتشبه بالأنبياء والأولياء في الأحلام.

وانما روى لهم أحد للثقافة حديثاً عن النبي جاءه عن طريق النوم، اخذوا به. والتقد لا يوجه على الحديث في هذا الشأن إلا من حيث سفته وصنق رلويه. فلما وثقوا بهما كلن الحديث صحيحاً لا غبار عليه.

## قيمن يزيد أن يرى النبي في منامه :

ويخصص الإمام أبو الحسين اللطفي في كتابه "التنبيه والرد" بلباً قيمن لراد أن يرى النبي في منامه، وهو بروي فيه عن محمد بن عكاشة أن معاوية بن حماد الكرماني أخبره عن الزهري، قال: من اغتسل ليلة الجمعة وصلّى ركعتين يقرأ فيهما سورة "قل هو الله أحد" ألف مرة رأى النبي في منامه. وقد جرب ابن عكاشة بنفسه هذه الطريقة فنجح فيها بعد صعوبات.

يقول ابن عكاشة، "... فأتت علي ليلة باردة فاغتسلت وصلّيت ركعتين، ثم أخذت مضجعي فاصليني حلم، ففقت ثلثية فاغتسلت وصلّيت ركعتين وفرغت منهما قريباً من الفجر فاستندت إلى الحائط ووجهي إلى القبلة إذ دخل علي النبي، ووجهه كالقمر ليلة البدر، وعنقه كإبريق فضة فيه قضبان الذهب على النعت والصفة، وعليه برنجان من البرود اليمانية فد أتزرت بواحدة ولردي بأخرى، فجاء واستوقف علي رجله قيمني وأقام ليسري، فارت لي أقول: حيّك الله، فبادرني وقال: حيّك الله، وكنت أحب أن أرى رباعيته المكسورة فتقسم فنظرت إلى رباعيته. فقلت يا رسول الله، إن الفقهاء والعلماء قد اختلفوا علي، وعندني أصول من السنة تعرضها عليك، فقال: نعم...".

وذكر محمد بن عكاشة العقائد التي عرضها علي النبي في المنام ووافق عليها النبي. وجاء فيها: "الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والصبر على حكم الله، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله، وترك الفراء والجبال والتصوميات في العيون، والمسح على الخفين، والجهاد مع أهل القبلة... والصبر تحت لواء السلطان علي ما كان فيه من جور وعدل، ولا يخرج على الأمراء بالسيف ولن جازوا... والكف عن أصحاب محمد، وأفضل عندنا بعد رسول الله، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي...".

وبقي ابن عكاشة يعرض هذه العقائد علي النبي ثلاث ليال متوالت، ولكنه كان يشعر بشيء من التردد عند ذكر عثمان قبل علي. وكان النبي أحس بما نفسه فقال له "ثم عثمان، ثم علي". وأعاد ذلك ثلاث مرات، وعيناه تهملان بدموع.

قال ابن عكاشة، "فوجدت خلوة في قلبي وضمي، فمكثت ثمانية أيام لا أكل

ضعفاءً ولا يشرب شرباً حتى ضعفت عن صلاة الفريضة. فلما اكلت ذهبت تلك  
لحلاوة واللذة. والله شاهد علي، وكفى بالله شهيداً".

ويضيف ابو الحسين اللطفي على ذلك قائلًا بان المتوكل، خليفة العباسي، قال  
للإمام احمد بن حنبل، "يا احمد إني لريد ان اجعلك بيني وبين الله حجة، فاطهرني  
على السنة والجماعة، وما كتبتك عن اصحابك عما كتبه عن التابعين مما كتبه  
عن اصحاب رسول الله". فروى الإمام ابن حنبل للمتوكل حلم ابن عكاشة  
ذلك<sup>(1)</sup>.

### الأحلام والعقائد،

واتما ذكرت قصة ابن عكاشة بطولها لكي يطلع القارئ بها على مدى تأثر  
الناس بالأحلام في عقولهم. فمن الواضح ان ابن عكاشة كل يحدث نفسه اثناء  
اليقظة بظنك للعقائد التي نكرها، وهو لا يد أن يرى النبي يحدثه بها تماماً لكنه  
النوم. إنها عقائد النطقها ابن عكاشة من بينته التي عاش فيها كما هي عادة  
الناس جميعاً، ثم اعلنها بعد ذلك على قومه كأنها صادرة عن لسان النبي فعلاً.  
ويصح القول بان كثيراً من عقائد المسلمين في عهدهم المتأخرة تركزت في نفوسهم  
على هذا المنوال، فهم يتوارثون العقائد عن آيئهم ثم يرون في أحلامهم احد الأنبياء أو  
الأولياء وهو يؤيدهم فيها، فتترسخ من جراء ذلك في أعماق نفوسهم وتمسى غير  
قابلة للتحويل أو التغيير.

### اعتراض الكوثري،

ومما تجدر الإشارة إليه ان محمد زاهد الكوثري، وكيل الشيخة الإسلامية في  
لخلاقة الحنمانية سابقاً، اعترض على قصة ابن عكاشة تلك. وكل ما فعله في  
اعتراضه عليها انه نسب إلى ابن عكاشة الكذب في الحديث. ومعنى ذلك ان الكوثري  
انتقد فحديث من ناحية السند. أما من ناحية المتن فلم يقل عنها شيئاً. إنه بعبارة  
أخرى لم يتسبب رؤية النبي في النوم إلى حديث النفس، إنما قال بان ابن عكاشة  
محدث كتاب لا يوثق بصحة روايته. ولو كان صادقاً لكانت روايته للنبي صحيحة  
لهذا<sup>(2)</sup>.

## الأحلام والحكم على رجال التاريخ:

ووصل بعض الحديثين في أمر تقديمهم للأحلام إلى درجة أنهم صاروا يبدلون رأيهم في لطفة من رجال التاريخ بمجرد رؤية حلم يبرئهم، فالتوكل مثلاً كان من نظم الحكم وأكثرهم عريدة وإسرافاً. ولكن كثيراً من الحديثين غفروا له سوء أفعاله بعدما راوا أحلاماً تذكر بأن الله غفر له<sup>(13)</sup>.

ومثل هنا ما حدث لتيمورلنك، الطاغية السفاك. فقد روى ابن حجر الهيثمي أن أحد القراء كان إذا مر بغير تيمورلنك قرأ "خذوه فخلوه ثم لجحيم صلوه..." وصار يكررها. ولكنه رأى في منامه ذات ليلة كلن النبي جالساً وتيمورلنك يجانبه، فانتهر الرجل تيمورلنك وقال له، "إلى هنا يا عدو الله". وأراد أن يأخذ بيده ويزيحه عن جانب النبي. فقال النبي، "دعه فإنه كان يحب ديني". فانتبه للرجل فزعاً وترك ما كان يفعله على قبر تيمورلنك من آية التعن.

ويقول ابن حجر أنه لما مرض تيمورلنك مرضه الأخير الذي مات فيه، اضطرب اضطراباً شديداً وسود وجهه وتغير لونه. ثم أغمي عليه وفاق، وذكر لمن حوله، "إن ملائكة العذاب أتوني، فجاء رسول الله فقال لهم، إذهبوا عنه فإنه كان يحب ديني ويحسن إليهم، فذهبوا".

ويعلق ابن حجر على ذلك قائلًا، إن كان حب نرية النبي يرفع هنا للظالم الذي لا اظلم منه فكيف بغيره<sup>(14)</sup>.

ويروي ابن حجر عدداً من الأحلام التي روى النبي فيها وهو ينصح المسلمين بالإحسان إلى نريته وبالغفو عن سيئاتهم، ابن حجر يتخذ هذه الأحلام دليلاً شرعياً لا يجوز الاعتراض عليه.

## الأحلام ونرية النبي:

وأورد أن نقل للقارئ، هنا بعض هاتيك الأحلام التي رواها ابن حجر في هذا الصدد،

(1) إن أحد الفقهاء الكبار الذين كانوا يسكنون في المدينة المنورة امتنع عن الصلاة على ميت من نرية النبي لسمه "مطهر". وكان السبب في امتناعه أن

مطهراً كان في حياته يلعب بالحمام<sup>(5)</sup>. ثم رأى الفقيه في منامه النبي ومعه ابنته الزهراء. وكانت الزهراء معرضة بوجهها. فسألها الفقيه مستعطفاً فأقبلت عليه واخذت تعاتبه قائلة له: "أما يسع جاهنا مطهراً؟" واخذ الفقيه منذ ذلك الحين يبلغ في لكرام ذرية النبي وفي تعظيمهم.

(2) وامتنع فقيه آخر عن صلاة على ميت من ذرية النبي. فرأى في المنام ظلمة وهي معرضة عنه. ولما سألها قالت له: "يموت ولدي ولا تصلي عليه". فتندب لفقيه بعد ذلك واعترف بظلمه.

(3) وكان الشيخ للعابد محمد الفارسي ييغض اشرف المنجحة من بني الحسين لتظالمهم بالرفض. فركن النبي في المنام يسأله: "... مالي لراك تبيض لولائي". فلقابه الفارسي: "حائض الله ما كفرهم وإنما كرهت ما رأيت من تحصيهم على أهل السنة". فقال النبي له: "ليس لولد العاق يلحق بالنسب... هذا ولد عاق!".

(4) وجلس المحتسب محمود الجمال في مجلس السلطان برفوق. وكان في المجلس شريف من ذرية النبي جالساً فوقه. فصعب على المحتسب أن يجلس لونه الشريف. ثم رأى في المنام للنبي يعاتبه: "يا محمود! لئن لم تجلس تحت ولدي". فتقدم المحتسب عما فعل وذهب إلى الشريف في بيته يعتذر منه. واخبره بالخبر فبكى من كان حوله وسأوه فدعاء وانصرفوا.

(5) وذهب أحد الشرفاء إلى للحافظ بن فهد يسأله عشياً فاعتذر إليه للحافظ ولم يعطه عشياً. وفي المنام رأى النبي وهو معرض عنه. فقال له الحافظ: "كيف تعرض عني يا رسول الله وأنا خادم حديثك؟" فقال له النبي: "كيف لا تعرض عنك وباتيك ولد من اولادي يطلب العشاء فلم تحشه". فلما أصبح الصباح ذهب للحافظ إلى الشريف واعتذر إليه واحسن إليه بما تهسر.

(6) وعزم أحد اليمانيين على الحج فذهب بعيله في البحر. ولما وصلوا جدة قسى عليهم جباة المكوس واخذوا يفتشون تحت ثياب النساء. فلشكر غضب اليماني واخذ يدعو الله على امير مكة الذي كان شريكاً من ذرية النبي. وفي النوم رأى اليماني للنبي وهو معرض عنه. ولما سأل النبي اجله: "أما رأيت في الظلمة من هو

اطلم من ولدي هنا\* . فانتبه ليعاني مرعوباً وتاب إلى الله ان يتعرض لأحد من ذرية النبي<sup>(ص)</sup>.

### الأحلام والأحكام الشرعية:

لا ريب ان هذه الأحلام التي رواها ابن حجر وغيره مخالفة لأحكام الإسلام. فالثور عن النبي انه كان في حياته يدعو إلى المساواة بين الناس، إذ لا فرق عنده بين السيد القرشي والعبد الحبشي، والفروض انه بقي متمسكاً بهذا المبدأ بعد موته كما كان في حياته.

ويبدو ان المسلمين في عهودهم المتأخرة لم يفهموا هذا المبدأ حق الفهم، فهم يضعون اولاد النبي في مرتبة فوق مراتب الناس جميعاً، ويطلقون عليهم اسم "السلالة"، غير يأتين بان الإسلام لا يعترف بفضل النسب، وليس فيه نظام للطبقات الوراثية. كل الناس في نظره سواء كلسان المشط، واكرمهم عند الله لتقام.

لقد اعتاد المسلمون في دنياهم ان يفضلوا اولادهم على غيرهم من الناس، فظنوا ان النبي مثلهم في هذا الأمر. وهم يحدثون انفسهم به اثناء البيعة فيرونه في المنام ويعتقدون ان رسول الله يؤيدهم عليه ويأمرهم به.

### قصة عجيبة:

يروى ابن حجر، ان رجلاً بمدينة فارس ثبت عليه القتل فامر به القاضي ليقتل. فترسل السلطان إلى القاضي يأمره بوقف التنفيذ. وسبب ذلك ان السلطان رأى النبي في المنام وهو يمنعه عن قتله. وابتى القاضي الاستماع إلى امر السلطان حيث قال، "لا نتوك الشرع بالتمام وإن تكرر". وكان السلطان قد رأى نفس الحلم يتكرر في ثلاث ليل متوالت.

ولكن القاضي عفى عن الرجل أخيراً بمجرد كلمة اسرها الرجل إليه. فبلغ السلطان أمره فاستدعاه إليه وسأله السلطان ان يصدق ما شأنه. فقال الرجل، " نعم، قتلت من ثبت علي قتله، لكنني كنت لنا وهو على شربي، فاراد ان يقجر بشريفة فممنعه فلم يمنع عنها إلا بقتله، فقتلته نفعاً عن الزنى بها". فقال له

المسلمين، صدقت، ولولا ذلك ما رأيت للنبي ثلاث مررت وهو يقول لا تقتلوه<sup>(7)</sup>.

وهذه القصة تدل على مبلغ تأثير الأحلام في أمور الناس حتى أنهم جوزوا، كما قلل القاضي الفاسي، ترك الشرع بالتمام.

### الأحلام عند الشيعة:

والطوائف الإسلامية في هذا الأمر سواء. فقد ذكرنا ما قال به اللطفي وابن حجر في هذا الصدد، ومما من رجال أهل السنة. ولكن رجال الشيعة لا يختلفون عنهم فيه اختلافاً كبيراً<sup>(8)</sup>.

والواقع أن لطوائف الإسلام أصبحت في العهد المتأخرة متشابهة من حيث فئمة الفكر الذي يسيطر على عقول أفرادها. أنهم يختلفون في الأشخاص الذين يقسمهم فريق منهم بون فريق، ولكنهم في الاتجاه العقلي على وتيرة واحدة، إنما هم كالغريبان يقول بعضهم لبعض "وجهك أسود"، بون أن يدري هو بسواد وجهه مع الأسف.

وقد عثرت بين الشيعة على نتائج من الأحلام غير بعيدة عما جاء به اللطفي أو ابن حجر. فالشعبي هو كغيره من أصحاب المذهب الحديثية، يتلقى عقائده من محيطه الاجتماعي. ثم يرى في المنام ما يؤيده عليها، فيستيقظ وهو أقوى إيماناً بها من ذي قبل. وهو لا يبالي أن تكون تلك العقائد مخالفة لما جاء به الإسلام من تعاليم مثل.

حدثني أحدهم ذات يوم وهو مكفهر لوجه. كان للوحي قد نزل عليه حقاً. فقد رأى في منامه الإمام علياً وهو يلمره بالناييرة على العمل الذي بدأ به. وكان العمل من طراز تلك اللطفوس السخيفة التي يتعاطاها العامة عندنا ويقول عنها أصحاب العملتم أنها من شعائر الله. وأنا واثق أن الإمام لا يرضى عنها، ولو أنه بعث حياً لحاربها كما حارب اللطفوس التي اتخذها الظالمون ذريعة لتمكين سيطرتهم على الناس في تلك الأزمان. ولكن صلحينا مؤمن لأن إمامه أمره بها في المنام.

## قصة معروفة:

وتنتشر بين الشيعة قصة معروفة، مفادها ان لصاً من قطاع الطريق، تعرض ذات مرة لزوار الحسين - فسلب أموالهم وأناهم. ثم رأى في منامه نكت ليلة كان القيامة قد قامت وان الناس قد حشروا للحساب. وكان الحسين واقفاً في وسط الحشر، وبجبهه دفتر سجلت فيه أسماء الذين زاروا قبره. وبنا جاء دور اللص نظر الحسين إلى الدفتر فوجد فيه اسمه. وقد تعجب اللص من ذلك عجباً شديداً.

وعلم اللص لخيلاً بأن الملائكة سجلت اسمه في دفتر الزوار، لأن شيئاً من عبارهم وقع عليه اثناء قطعه الطريق عليهم، وقد دخل اللص الجنة من جراء ذلك.

فلسطين اللص وهو يتشد شعراً،

لنا رمت النجاة فزير حسناً  
لكي تلقى الإله قرير عين  
فلن النار ليس تمس جسماً  
عليه ضيار زوار الحسين

ولتنتشر هنا الشعر بين الناس، وأصبح عندهم كلمة من الآيات المفزلات.

ولي ان لقول بان الحسين الذي ثار في حياته علي من استعبد الناس ونهب أموالهم، لا يتشفح بعد موته للصوص وقطاع الطريق ولو انغمسوا في الغيار المقدس إلى قمة رؤوسهم.

## الأحلام وكاتب هذه السطور:

حدث لي بخصوص الأحلام قصة عجيبة، وذلك بعد صدور كتابي "وعاظ السلاطين" عام 1954. وخلاصة القصة، اني وصفت في الكتاب علياً بأنه كان هناماً للظلم لثراً عليه<sup>19</sup>. وهذا الوصف هو في نظري، ونظر الكثيرين من امثالي، مدح للإمام واعلاء لشفته. والمشكلة ان الناس عندما لا يزالون يعيشون بفكرهم في عصر مضى. فلقد تبدلت المفاهيم الآن، بينما هم لا يزالون متمسكين بما عودهم عليه وعاظ السلاطين في قديم الزمان.

ونحن وجدنا الناس يخطرون إلى شزراً ويكلمون يزلقوتني بانصارهم. فقد ظلوا انني شتمت الإمام بكتابي، وركى كثير منهم الإمام في احلامهم وهو يشتمني ويامر المؤمنين بقتلي.

ومن هؤلاء رجل يعيش في قرية الفيصلية، ويدعى انه كاتب . فقد اصدر كتاباً يقول فيه انه رأى محمداً وعلياً في المنام، ونهما امرأ الملائكة بنى يلخوني في دار الجحيم . وأشهب لرجل في وصف الحلم لذئ راه، حيث ملا به معظم صفحات لكتاب . وكان الحلم قسياً عليه إذ رأى فيه فقيمة قد قامت، وحشر الناس فيها من كل حدب وصوب . ونصب في كيد الحشر لواء عظيم جلس تحته النبي محمد وبجانبه الإمام علي، عليهما فصلاة والسلام .

وكانت الشمس انذاك ترسل وهجاً عظيماً مخيفاً، والأرض تنجلي، والطبيعة غضبي . والرياح راكدة، والناس مهطمون، كانوا سكارى وماهم بسكارى .

وكان بين يدي النبي ملائكة عظام ينظرون إلى شفثيه لتتفيذ نوامره . وصل الناس من جميع الأديان يعمرون بين يديه بعد ان ينادي بتسمائهم قرناً قرناً . فمنهم من يقاد بسلسلة كبيرة حيث يساق إلى جهنم ومنهم من يؤتى له بناقة ليركبها فتمرق به كالبرقي الخاطف إلى الجنة وعليه ثياب من الحرير والاستبرق .

وجاء دور صاحبنا الفيصلي في الحساب . وكانت ذنوبه كثيرة، وكان يساق إلى النار لولا ان نفقده لواء اهل البيت فرجحت كفته به . فقشرق وجه النبي ونهال، وكبر الملائكة، ونجى صاحبنا...

وعلى حين غرة صاح المناجي، "علي الوردى، علي الوردى، يقدم للحساب" . وأخذ علي الوردى يتوسل ويتضرع ويدعي بأنه تمسك بكتف الله وعتره النبي . فلم يتفعه ذلك شيئاً، فقد نظر النبي إلى الإمام ميتسماً ثم التفت إلى الوردى وعليه سيماء الغضب . واخذ يجلسه على اقواله الماضية ويشتد في حسابه . ثم قال لخيرا، "زنا اعماله، فهو بلعمله يهوى وبلعمله يفوز، وليس له من ولانا شيء، وجلسوه حساباً عسيراً" .

فصرخ الوردى صرخة ابكت اهل الحشر . وبق قلب صاحبنا عليه ولتشفق حين راه بتلك الحالة للؤلؤة . ثم استيقظ مرعوباً باكياً .

ولست لفري لنا استيقظ صاحبنا مرعوباً باكياً بينما كان الرعب والبكاء من نصيب المسكين كاتب هذه السطور .

## الأحلام في المدينة المنورة،

يعيش في المدينة في عصرنا هذا رجل اسمه الشيخ أحمد وهو يصف نفسه انه "خادم النبي" والظاهر انه من سادة المسجد النبوي، ومشكلته انه يرى النبي في منامه بين كل حين وآخر. مما مره النبي ببعض الوصايا. ويأخذ للشيخ على عاتقه نشر تلك الوصايا بين المسلمين شرقاً وغرباً.

والطريقة التي يستخدمها للشيخ أحمد في نشر الوصايا النبوية عجيبة تذكرنا بعهد ما قبل اختراع الطباعة. فهو يطلب من كل من تصل إليه الوصايا ان يكتبها ويرسلها إلى غيره في البلاد المختلفة. وهو يروي عن النبي ان من يفعل ذلك يكتب له الله قصراً في الجنة. اما من لا يكتبها ولا يرسلها تحرم عليه شفاعته النبي يوم القيامة، ويسود وجهه في الدنيا والآخرة.

ويقول الشيخ أحمد ان الامي الذي لا يعرف القراءة والكتابة يستطيع ان يحصل على قصر في الجنة، وذلك بلن يستاجر من يكتب الوصايا له. ويحين الشيخ مبلغ الأجرة بثلاثة دراهم فقط لا غير.

وقد عثرت في الأيام الأخيرة على نسخة من أحدث الوصايا للنبوية التي نشرها الشيخ أحمد بين المسلمين. وهي نسخة مطبوعة قام بتوزيعها في بغداد السيد علي الحلاق. ويبدو ان السيد علي هنا اراد ان يحصل على عدة قصور في الجنة تطبع الوصايا على نفقته الخاصة ووزعها على الناس بالآلاف.

والى القارئ نص هذه الوصايا كما جاء في النسخة المطبوعة،

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين على الفوم للكافرين، وصلى الله على سيدنا خاتم الأنبياء والمرسلين وصحبه وسلم.

هذه الوصية من الجنة المنورة

عن الشيخ أحمد خادم للنبي للعالم لشريف، قال، كنت سافراً ليلة الجمعة اتلو القرآن الكريم بعد تلاوة اسماء الله الحسنى. فلما فرغت من ذلك تهيأت للنوم فاخذت سنة من النوم فرأيت الطلعة البهية (رسول الله) جالساً وهو الذي اظهرت

له الآيات القرآنية والأحكام الشرعية رحمة للعالمين سيدنا ونبينا رسول الله . فقال يا شيخ احمد . فقلت؛ لبيك يا رسول الله ويا أكرم خلق الله . فقال أنا حجلان من افعال الناس القبيحة ولا أقدر أن اقليل ربي ولا الملائكة . واقف على قدم . لأنه مات من الجمعة إلى لجمعة مئة وستين ألف على غير دين الإسلام . فنعود بالله من شر ذلك . وصار تخييمهم لا يرحم فقيرهم وأصبح كل شخص لا يسأل إلا عن نفسه . وقد ارتكبوا المعاصي والكبائر والزنا والخطا الكثير والبطران وكثرة المعاصي وكيد الريسز . وشربوا الخمر وتركوا الصلاة ومنعوا الزكاة . بهذه للوصية رحمة لأجل أن يطحيوا الآن شدة الغضب . فأخبرهم يا شيخ احمد قبل أن ينزل بهم لعذاب من ربهم لتعزيز الجبار وتغلق ابواب الرحمة . فنعود بالله شر هذا العرض . هذا لأنهم عن طريق الحق ضلوا وبلت تعالى ينكرون ويأمنون الحنيف تاركون والآيات الله ينكرون ويأمنونهم الدالقة يجحون . وإن الساعة قد قربت . وعن قريب تخرج النساء بغير إذن أزواجهن . تظهر علامة في السماء مثل بھضة للدجاجة هي من علامة القيامة . تغيب الشمس ثلاثة أيام . وبعد ذلك تشرق الشمس من المغرب وتغرب من المشرق وتخلق ابواب التوبة . ويرفع القرآن العظيم من صدور الرجال . ويظهر المسيح للدجال تخلفه النساء والرجال ويعود الإسلام كما كان من قبل . أخبرهم يا شيخ احمد بهذه للوصية . عرفهم انها منقولة من لوح القفرة...

ويتهي الشيخ احمد تلك للوصايا بقوله انها صحيحة وهو يحلف على صحتها بالله العظيم . وإنا كانت مكتوبة خرج الشيخ من الدنيا على غير دين الإسلام . ثم يعطف الشيخ على ذلك فيقول إن من صدق بها نجي من النار ومن كذب بها كفر .

### استدراكه

قبل أن اختتم هذا الفصل نود أن استدرك فاقول بأن المسلمون ليسوا كلهم من هذا الطراز الذي نكرته . فهناك من الفقهاء ورجال الدين من لا يتخون الأخلاق مصدراً من مصادر عقيدتهم وفقههم . إنما يرجعون في ذلك إلى ما جاء في القرآن والحديث الصحيح وما لتفتته مصلحة الأمة . ولكن هؤلاء مع الأسف قليلون .

ولست اعالي حين القول بأن كثيراً من رجال ديننا يتدفعون في عقائدهم بما يتدفع به العلمة ، ويحرصون على مجازاتهم في كل سبيل . ولهذا صارت الأخلاق ركيزة يرتكزون عليها في ما يعظون به أو يعترضون .

ولعل من المناسب أن أنكر هنا مدى الروج الذي لقيه كتاب ذلك الغيصلي الرفيع. فقد التقفه العوام وبعض رجال الدين وصلحوا يدعون إليه كأنهم وجدوا فيه حياً مزلزلاً، والأغرب من هنا أن يأتي ناقد الكتب في بار الإنعارة العراقية فيصف الكتاب بنه من خير الكتب التي صدرت أثناء الشهر.

لمست اعرف اليوم نعة أمنت بالأحلام ولنغمست فيها كهذه الأمة. سامحها الله.

## هوامش الفصل الرابع

- (1) انظر: الوالحسين الملقبي، السيه والرد، ص 23 - 25 .
- (2) انظر: المصدر السابق (حاشية). ص 24 - 25 .
- (3) انظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، ج 3 ، ص 199 .
- (4) انظر: ابن حجر، الصواعق المرفقة، ص 244 .
- (5) يبدو أن الذين يلهون بالحمام، أي الطيرجيه، كانوا محظونين في ذلك الزمان كما هو الحال في زماننا.
- (6) انظر: المصدر السابق، ص 240 - 243 .
- (7) انظر: المصدر السابق، ص 243 - 244 .
- (8) انظر: الشيخ الفقيه، فصول من كتاب العيون والحاسن ، ص 92 - 93 .
- (9) اعتقدني البعض لأنني نسبت إلى الإمام لزعة الثورة والهدم دون أن أذكر الظلم وراعيهم يتسون ما جاء في ثنايا الكتاب من تأكيد على وصف الامام بأنه كان كسيده محمد ثامراً على الظلم والظالمين.

القسم الثاني

الآراء الحديثة في الأحلام



## الفصل الخامس

### رد الفعل

#### النزعة المادية:

كانت النزعة الروحية تسود عقول الناس في العصور القديمة. فكانوا يعتقدون ان الكون بهشتي ظلوهه مؤلف من مادة وروح، وان وراء كل مادة روح تسيطر عليها، والروح الكبرى في الكون هي الله.

وهنا للتصنيف الثنائي للكون جعل القنماء يفرقون بين اليقظة والنوم، فالإنسان اثناء يقظته يخضع لهماوم بدنه المادي، لما في النوم فتتعلق روحه من عقل اللغة وتعيش في عالم علوي لا اثر للمادة فيه.

وفي العصر الحديث ثار المفكرون على النزعة الروحية القديمة، وصاروا يجردون الكون بصفة علمية، والانسان بصفة خاصة، من كل اثر روحي، فالكون في نظرهم مادة في مادة. وهو يجري حسب قوانين ميكانيكية لا يمكن للتكبد عنها ابداً<sup>(1)</sup>.

ونستطيع ان نعد هذه النزعة المادية الحديثة بمثابة رد فعل للنزعة الروحية القديمة. فكما تطرف القنماء في ايمانهم بالروح، تطرف المفكرون الجدد في ايمانهم بالمادة.

## نظرية هيجل والأحلام:

يعتقد هيجل أن تطور الفكر البشري يوجه عام يجري على أسس التناقض، فكل فكرة تنتشر بين الناس لا بد أن تعقبها فكرة مناقضة لها. وبعد أن يجري التضاد والتفاعل بين الفكرة ونقيضها، تنشأ فكرة وسطى، وهي بدورها تزوي إلى ظهور ما يناقضها. وهكذا بوليك<sup>(2)</sup>.

وقد أطلق هيجل على نظريته هذه لسم "ديالكتيك". وقد يصح أن ندرجه منسبها بالنظرية "الدوالكية". ولغظة "ديالكتيك" في اللغة العربية تعطي معنى قريباً لما قصده هيجل، كما لا يخفى على المتذللين في اللغة العربية أو المتذللين فيها.

وقد وجدت من دراسة الآراء التي قيلت في الأحلام قديماً وحديثاً أن النظرية "الدوالكية" تصدق عليها إلى درجة لا يستهان بها. فعندما كان القدماء يحيطون الأحلام بهالة روحية، ويعزون إليها الوحي الإلهي، صار المفكرون الجدد يقولون بعكس ذلك فيها، حيث جردوها من كل صبغة روحية أو قنسية. وسماي في القسم الثالث من هذا الكتاب على ذكر الآراء الوسطى التي بدت تنتشر بين الباحثين في الأيام الأخيرة.

## بحث نظرية أرسطو:

أشرنا في القسم الأول إلى نظرية أرسطو، وقلنا أنها كانت أول نظرية قديمة تحدد الأحلام من صبغتها الروحية وتحاول تفسيرها تفسيراً مادياً.

وقد مانت هذه للنظرية في العصور القديمة، حيث لم يأخذ بها سوى القليل، وبعض أرباب النظر العقلي. أما عامة المفكرين فقد أخذوا بالنظرية الروحية انعكسة لها.

وفي العصر الحديث انتعشت نظرية أرسطو من جديد، وأمن بها كثير من الباحثين، ويصح أن نقول أنه صارت النظرية لسائدة بين المنفقين قبل ظهور نظرية فرويد<sup>(3)</sup>.

وصارت للنظرية تعرف بنظرية "الحافز الحسي"، ومعناها أن الحلم ينشأ في

لنأتم من جراء احساس مادي يطرا عليه. وهذا الاحساس قد ينبعث من داخل  
البطن لو من خارجه.

### محاضرة برجسون:

وممن ساهم في تبييد هذه النظرية هنري برجسون، الفيلسوف الفرنسي  
المعروف. فقد القى محاضرة في موضوع الاخلاق عام 1901 في المعهد السيكولوجي  
العام. ومما جاء فيها قوله: ان الحواس لا تتحطل عن لناء وظيفتها اثناء النوم، وكل  
فكر يقع عليها يؤدي بالنائم إلى رؤية حلم مستمد منه. فإذا كانت فعمله، مثلاً، غير  
مستقرتين على نقطة ارتكاز، رأى كأنه طائر في الفضاء. وانا اضيبت لمام عينيه  
شمعة، تحول الضوء في حلمه إلى حريق، يتبعه صراخ وعويل، ويقي رجال المطاق  
ورجال الاسعاف. وانا انطلقت حوله اصوات شجاره حلم كأنه يرى ثورة  
ومظاهرات، وصداماً مع رجال الشرطة...<sup>(4)</sup>.

### استخدام التجربة:

ولخذ بعض الباحثين يجرون التجارب العلمية لتدعيم تلك النظرية. ومن اشهر  
من اتبع هذا السبيل هو الاستاذ موري. فقد أجرى ذات مرة تجربة على نفسه،  
حيث طلب من مساعده ان يثني بعلقظ ومقص فيضرب اجدعما بالآخر بالقرب  
منه لثناء النوم. وما استيقظ موري ذكر بل صوت اللقظ والقص انى به إلى رؤية  
حلم سمع فيه صوت جرس وإنذار ثم تلاهما حادث فزع شبيه بذلك تحدث تذي  
وقع له في حزيران عام 1848<sup>151</sup>.

### انتقاد النظرية:

ولم تسلّم هذه النظرية من النقد بالرغم من التجارب العلمية التي تدعّمها.  
ومن اثنين نقدوها ولشندوا في نقدها هو العلامة التمسائي سيجموند فرويد. ففي  
رأيه ان الحافز الحسي قد يساعد على نشوء الاحلام، ولكنه مع ذلك لا يعين  
مضمونها ولا يجني في تفسير مغزاها.

فلو دققنا جرساً بالقرب من بضعة أشخاص نائمين، فإن ذلك قد يؤدي بهم إلى  
رؤية احلام لها صلة بندق الجرس. ولكن كل واحد منهم قد يرى من الاحلام ما  
يولفق هواه ونكريته ورغباته الدقيقة.

إن بق الجرس قد يجعل أحد التلمين يحطم بجزاة أحد ائلنه، بينما هو يجعل غيره يحطم بلقها حببته اثناء الصلاة في كنيسة. وقد يحطم آخر بانتهاه درس طويل ممل.

ومن الممكن نقول بأن الحافز الحسي يحرك الألام ولكنه لا يعين السبيل الذي تسير فيه. ويصح تشبيه الحلم بالكرة الواقفة على نتوء، فهي تنحدر إلى الأسفل حالما يلمسها بالفع ضعيف، والبالغ إنن يحركها نحو الانحدار ولكنه لا يقر مصيرها فيه.

## هوامش الفصل الخامس:

- (1) انظر: *Jeans, Mysterious Universe*, P. 19.
- (2) انظر: *Eliot and Merrill, Social Disorganization*, P. 6.
- (3) انظر: *Dabiez, Psychoanalytical Method*, Vol. I, P. 30.
- (4) انظر: *توليق الطويل، الألام، ص 71 - 72*.
- (5) انظر: *Dabiez, op. cit., vol. I, p. 30*.

## الفصل السادس

### عظمة فرويد

#### لقبلة فرويد:

انتقد فرويد نظرية "الحافز الحسي" في الأحلام وجاء بنظرية تشمل منها ولفق. وقد أحدثت نظريته نوباً منقطع النظير في الأوساط العلمية.

ولفرويد الآن اتباع كثيرون في مختلف أرجاء العالم. وهم يتعصبون له كما يتعصب كل متدين لقيمه. ويقابلهم من الجانب الآخر خصوم الناء. ولا بد لكل عظيم من وجود اتباع له وخصوم، كما هو معروف في مختلف تطوار التاريخ.

#### عبرية فرويد:

ومما يجب أن نعترف به قبل كل شيء، هو أن فرويد باحث مبدع، وله في العلم مكانة لا يستهان بها. وهو بالرغم من أخطائه العديدة قد أدى للبحث العلمي خدمة كبرى. ومن المستحيل أن نجد إنساناً من غير أخطائه مهما كان عبقرياً مبدعاً.

استعرض فرويد الآراء التي قيلت في الأحلام قبله، ففندها جميعاً. وهو يقول في هذا الصدد، أنه بالرغم من آلاف السنين التي مرت على الباحثين، فإنهم لم يوفقوا توفيقاً كبيراً في بحث الأحلام لو فهمها فهماً علمياً<sup>(1)</sup>. ويقول اتباع فرويد عن نظريته أنها النظرية الوحيدة التي فسرت الأحلام تفسيراً صحيحاً.

لما خصومه فقد استهانوا به واستهانوا بنظريته. ففي ريبهم أن فرويد لم يأت بشيء جديد، ونقد سبقه إلى نظريته أتلس كثيرون<sup>(2)</sup>.

### شان المبدعين العظام:

ويبدو أن هذا هو شأن كل مخترع أو مفكر عظيم. فهو لا يكاد يأتى بنظريته حتى يخبري له الناقدون يخرجون له السنخهم، ويستصغرون أمره وينكرون فضله.

وقد حدث مثل هذا للأنبياء والحياقررة في كل زمان ومكان. فإنا ملأنا، وبعثت بهم الأنبياء. أخذ أتلس يرفعون ذكركم ويتطرفون فيه على العكس مما فعلوه معكم نول الأمر.

### فرويد وكولومبس:

يمكن تشبيه فرويد بكولومبس الذي اكتشف القارة الأمريكية<sup>(3)</sup>. فعندما اكتشف كولومبس تلك القارة العظيمة، استهان به خصومه وجربوا اكتشافه من كل فضل. قالوا: إن القارة الأمريكية كانت موجودة، ولو لم يكتشفها كولومبس لاكتشفها القرصان الذين يتجولون في البحار القريبة.

لقد نسي هؤلاء الكفاح الجبار الذي اضطلع به كولومبس من أجل اكتشافه، وكيف سيطرت عليه الفكرة زمناً طويلاً فحرمته لذة الرقاد، وعانى في سبيلها جهداً كبيراً.

وبينما كان كولومبس يشقى في كفاحه، كان الأغنياء ينعمون في عتية العيش، فلما وصل كولومبس إلى مرامه ميوا في وجهه قائلين له، أنك لم تأت بشيء جديداً

يحكى أن أحد حساد كولومبس جايبه بالنقد المرير في حضرة الملك. فأخذ كولومبس بيضة وتحكى الحاضرين أن يوقفوها على رأسها، فعجزوا. عند هذا أخذ كولومبس للبيضة فكسر قليلاً من رأسها ثم أوقفها، وهنا ضج الحاضرون بالضحك والاستهزاء..

## مشكلة الإبداع:

لنواقع ان كل لكتشاف عظيم هو في حد ذاته بسيط كبساطة إيقاف البيضة عن راسها. ولكن المشكلة فيه ان الناس لا يدركون بساطته الا بعد القيام به. وعند هنا ينخثون باحتقاره واحتقار صاحبه.

يقول علماء الاجتماع ان البدع لا ياتي بشيء جديد، إنما هو يربط ويؤلف بين اشياء قديمة. ومعنى هذا ان كل فكرة جديدة تقوم في اساسها على افكار سابقة لها. وهي إذن لا تنزل على صاحبها من السماء. إنما هي ترتقي إليه من الأرض التي يعيش عليها.

ويصح ان نقول ان فضل البدع يتحصر في تطلق قريبط وللتأليف لا غير. ولكن هذا لا يعني ان فضل ابداع قليل. فالقريب يحتاج إلى لطلاع ودراسة مضنية. وكلما اوغل المرء في الدراسة تعددت لديه الافكار. وقد تاتي لحظة يستطيع ان يربط فيها بين فكرتين سابقتين. وبهذا يظهر الاختراع للعظيم.

والفرق بين البدع والتقليد ان احدهما يعرف وكيف ومتى يخطو خطواته الحاسمة، بينما يبقى الآخر رقيقاً لا يعرف من يتياه غير الحسد.

وهنيئاً للأغبياء! فهم مرتاحون في حياتهم لا يشقون ولا يكدهون، ولكنهم لا يكادون يرون قريناً لهم قد يزهم في فكرة او اكتشاف هام حتى ينالوا عليه نالدين مستهزئين. ولعلمهم في قرارة انفسهم يحسدونه، ويريدون ان يشاركوه في ثمرات كدهه وشقائه.

## عود على بدء:

وحيث نرجع إلى فرويد نراه من أولئك المدعين العظام الذين انتجوا الافكار الجديدة، فقام عليهم الرقعاء يتهمونهم بالرقاعة.

لا ننكر ان فرويد كان عيالاً على كثير من المفكرين الذين ظهوروا قبله. ومن الممكن القول ان نظريته مؤلفة من فضلات النظريات السابقة. ولكنه انتج من تلك الفضلات المتهافة الة تغيد الناس، بينما كان المفكرون قبله يخطون في الأحلام خيط عشواء.

## محور النظرية:

تسمى نظرية فرويد بنظرية "الحافز النفسي". وهي بهذا الاعتبار تقليل نظرية "الحافز الحي" التي الحنا إليها من قبل. وهو يهصر نظريته بكلمتين حيث يقول بان الحلم ليس سوى "تحقيق رغبة".

ومما تجدر الإشارة إليه أننا نستطيع ان نلمح بذور هذه الفكرة في نظرية ارسطو، وفي الحديث للنبوي، وفي كثير من الآراء التي قيلت في الأحلام قديماً. ولكنها كانت بذوراً ضائعة، لم يعتن احد بها عناية كافية.

اما فرويد فقد جعل "تحقيق الرغبة" الأساس التي تقوم عليه الأحلام، وحاول ان يحلل به جميع الظواهر الغريبة التي يراها المرء في منامه.

ولضاف فرويد إلى ما تقدم امرين،

(1) ان تحقق لرغبة قد لا يظهر في الحلم على شكل سافر مفصوح إنما هو يظهر في كثير من الأحيان مقنعاً او رمزياً.

(2) والحلم لا يحقق جميع الرغبات التي يشعر بها الانسان، بل هو يحقق منها تلك التي كبتها الانسان اثناء يقظته ولم يستطع لثباتها لسبب من الأسباب.

ومن الممكن إذن تلخيص نظرية فرويد في الأحلام بالعبارة التالية هي: "ان الحلم تحقيق مقنع للرغبة المكبوتة او المضمومة"<sup>(4)</sup>.

## وسيلة للفحص:

وقد وجد فرويد ان نظريته هذه قد تساعده على فحص الأمراض النفسية التي يعانيها بعض الناس.

فالمرض النفسي قد ينتج أحياناً من رغبة مكبوتة في أعماق النفس. والمريض لا يجب ان يفصح عن هذه الرغبة، لو هو لا يدري بها. وهنا يلجأ فرويد إلى تحليل احلام المريض، ففيها قد يجد تلك الرغبة كامنة تحت قناع من الرموز، ولا يكاد المريض يدرك تظاهر السبب الذي نشأ منه مرضه حتى يسير في طريق الشفاء.

## هوامش الفصل السادس

- (1) أنظر : Freud Interpretation Dreams, P. 183 .
- (2) أنظر : Dalbiez, Psychoanalytical Method. Vol. I, P. 38 .
- (3) أنظر: جوزيف جامسرو، الأحلام والجنس، ص 29 .
- (4) أنظر : Dalbiez, op. cit. Vol. I, p. 55 .

## الفصل السابع

### الأحلام والطبيعة البشرية

#### الصراع النفسي:

الإنسان يعاني دوماً من صراع عنيف كامن في اعماق نفسه، فهو يشتهي أموراً كثيرة، ولكن الحياة الاجتماعية تضطره ان يكبت شهواته وبياريها. ومعنى هذا ان الإنسان واقع بين حجري قرخي، فالآداب الاجتماعية تفرض عليه نوعاً معيناً من السلوك، ولكن غرائزه القارئة تدفعه على مخالفة ذلك السلوك، وهو إذن حائر ملتك، يعاني صراعاً نفسياً لهماً.

ولكن الطبيعة هيئت للإنسان مخرجاً يخفف به شدة ذلك الصراع. ويظهر هذا التخفيف في صور شتى، أهمها الأحلام. فالأحلام إذن تشبه "صمام الأمان" الذي يوضع في المراجل البخارية لكي يحميها من الانفجار.

#### طبيعة الإنسان:

وهنا يجب ان لا ننسى ان الإنسان في اصل طبيعته حيوان، لانه اخ القرد وابن عم الحمام. وهو حين يكتسب الصبغة البشرية، تظل النزعات الحيوانية كامنة فيه. انه يتظاهر باللطيف وسلامة القلب وحب الخير، ولكن طبيعته البهيمية تلبى الرضوخ لهذا التناقض مدة طويلة. إنه يباريها بعقله الواعي، فلما نام هذا العقل او تخلى ظهر الحيوان من باطن الإنسان.

ينهب الإنسان إلى فراشه، وهو يبدو بريئاً كالطفل الساذج، والواقع انه يحمل في ثنايا نفسه عواطف خبيثة ورغبات مكبوتة لا يجب ان يفسح عنها. ثم يتلم فبشرع عندئذ بتحقيقها على وجه من الوجوه.

### هبة الله

يقول فرويد ان الاخلاق هبة من الله- فهي عملية تهريب للرغبات المحرمة. وهي تلجأ في سبيل ذلك إلى لف يضلّعها المتنوعة بحزم خنّاعة لكي تخفى عن أعين الرقباء والحيابة<sup>(1)</sup>.

ويذكر في هذا الرأي بقول احد الزهاد المسلمين، فقد شوهد هذا الزاهد ذات يوم وهو يشكر ربه كثيراً، فلما سئل في ذلك اجاب، بأنه استطاع ان يقترب جميع الموبقات والننوب لكبيرة عند النوم لئلا يحل عليه الله عليها، فهو يزني ويسكر وينهب الاموال ويتنعم من اعدائه، ثم يستيقظ فيجد صفحته بيضاء لا دنس فيها- وهو يحمد ربه على هذه النعمة التي منحه اياها بلا ثمن.

من الممكن القول بان النوم راحة بدنية ونفسية في آن واحد. ولولا النوم لهلك الإنسان، فالإنسان يريح بدنه للتعب بالنوم، وبه أيضاً يشبع رغباته المكبوتة او ينفس عنها.

اكثر الناس راحة في هذه الدنيا هو المجنون، إذ هو يعيش في حلم مستديم، إنه بصور الدنيا كما يشتهي، فلما وجد الناس حوله لا يفهمونه ولايستجيبون له انص عليهم باللائمة وعدّ نفسه لعاقل الوحيد من دون الناس.

اما العاقل الناضج فمصيبتة انه يشعر بوجود الناس حوله، ويتأثر بالرقابة الخفية المفروضة عليه منهم، وهو لا يتدفع في تيار رغباته وافكاره الخاصة مخافة ان يضحك عليه الناس او يعاقبونه- ان الرقابة الاجتماعية تمنعه من القيام بتي عمل لا ترتضيه منه- ولهذا فهو يلجأ إلى الاخلام ليخلق بها الدنيا التي يشتهيها، قليلاً او كثيراً- ومن هنا حله قول العاقل، كل إنسان مجنون في منامه:

## قصة بالمفاسدة:

نشرت في احد كتبي اتي حين اعجز عن الانتقام من اعناني عند اليقظة الجا الى الاجلام لانتقم منهم فيها انتقاماً لا هواده فيه. وكنت قد نكرت هنا باعتراري بشراً كسائر الناس. ولشد ما كان عجبني حين وجدت احد النقاد يستهزئ بي وبعد ذلك مني صفة غير لائقة.

مشكلة التفكيرين عندنا انهم لا يزالون مصرين على ريتهم القديم. ولعلمهم يطلبون من الانسان ان يكون فاضلاً في نومه ويقظته معاً. والقريب انهم يرون في احلامهم كل امر خبيث فيكتمون ذلك عن الناس، ويتظاهرون بانهم جبلوا من طينة اللانكدة. ولو شاء الله لن يفضحهم ويخلع عنهم رياء الرياء، لظهروا كالقردة او الحمير، ينزوا بعضهم على بعض بلا حياء. وانه السائر على ابي حال.

## اهمية النظرية الفرويدية:

ولنظرية فرويد اهمية كبرى في هذا الصدد. فهو قد كشف عن الانسان قناعه المصطنع وجعله عارياً "رئ كما خلقتني".

ويرى البعض ان اهمية فرويد في علم النفس تولي اهمية تاروين في علم الاحياء<sup>(2)</sup>. فلقد لنزل ناروين الانسان من عليته وجعله حيواناً كسائر انواع الحيوان. ثم جاء فرويد من بعد ذلك فهبط بالانسان درجة اخرى.

وتجربنا نظرية فرويد الى القول بان الحيوان افضل من الانسان في بعض نواحيه. فالحيوان لا يعرف الرياء والكذب، إذ هو يندفع نحو تحقيق رغباته مباشرة. اما الانسان فهو يخادع فيها ويرلوع، ويلف ويدور. فلنا سألته عما يريد شمع بانفه وقال، انه يريد مصلحة الأمة والزلفى من فناء والواقع انه يريد ان ينزوا عليك كما ينزوا الحيوان على الحيوان. والويل لمن يقع بين يديه وحيماً مستضعفاً

## احلام اليقظة:

يعتقد فرويد ان الانسان يستطيع ان يشبع رغبته المكبوتة اثناء اليقظة احياناً. وذلك عن طريق ما يسمى باحلام اليقظة.

فقد بهشت ضغط الرغبة على احد الناس بحيث لا يستطيع الصبر عليها، انه يريد ان يشبعها حالاً، ولعله لا يحب ان ينتظر وقت النوم، او هو لا يعتمد على احلام القوم اعتماداً كبيراً، فيلجأ الى احلام اليقظة لينفخ بها عن همومه الكامنة.

ونجده عند ذلك منطوياً على نفسه، إذ هو يتخيل ما يشتهي، فيتكلم بصوت مسموع ويحرك يديه ويهدد ويعربد، كأنه يرى الامور واضحة بين يديه، وقد تلمس عليه احلام اليقظة احياناً فيتدفع بها غاضباً أو شاكهاً بالرغم من وجود الناس حوله.

### أمثلة واقعية:

كنت امشي ذات يوم في شارع خال من الناس، فلحقت من بعيد رجلاً بصرخ وبهدد، فحسبته يهديني، وكنت اطلق سلاتي للريح، واقترب الرجل مني فوجدته مشغولاً عني، ومر بي دون ان يشعر بي، وكان يشتم ويجادل جدلاً عنيفاً، إنه كان مدغماً في احلامه، فهو يرى ما لا اره ويعيش في دنياه الخاصة.

ولا اكنتم القاريء اني ابتليت بما ابتلى به هذا الرجل غير مرة، وطلانا جادلت وهددت في غرفتي الخاصة دون ان يكون معي احد يسمع مجالتي وتهديدي، ومرت بي فترة من حياتي كنت فيها مبتطياً باحلام اليقظة على نمط عنيف، فكنت امشي في الطرقات المتعزلة وانا اخاصم الهواء واصفعه وايصق عليه، وكنت اقع من جراء ذلك في مصيبة.

والظنون ان جميع الناس يعانون من هذا اليباء قليلاً أو كثيراً، ومن الناس من يتكر ذلك عن نفسه، ولكنه مبتل به من حيث لا يشعر، فقد تتحدث اليه وتحسه مصغياً اليك، وهو ينتظر إليك ظاهراً، ولكن خياله سابح في مكان اخر، انه يحلم، وتدفعه رغبته الكيوتة في عالم من الاحلام لا حد له.

وقد يلقي الأستاذ محاضرة على طلابه فيجد بعضهم لا يفهمون ما يقول، انهم منغمسون في احلامهم اللذيذة، حيث يلتقون فيها بالحببية الحسناء يقبلونها، ويلعبون يصفعونه ويشتمونه، وحين يسألهم الاستاذ عما فهموا من محاضرتهم، يجيبونه بانهم فهموا منها شيئاً كثيراً وهم كاذبون، وربما كانوا اثناء المحاضرة يحلمون بضرب الأستاذ بدلاً من الإصغاء اليه.

## الأحلام السادية والماسوخية:

السادية صفة تعترى الإنسان فتجعله يتلذذ بإيذاء الخير والاعتداء عليه وإيلامه. أما الماسوخية فهي على العكس من ذلك حيث يتلذذ الإنسان عيها لن يكون للثقم او اتعتدى عليه.

وهاتان لصفتان تظهران في احلام اليقظة على درجات متفاوتة. وقد اجريت على بعض الطلاب في دار المعلمين العالية بحثاً من هذه الناحية، فوجدت ان احلامهم على نوعين، سادية وماسوخية.

فمنهم من يتخذ في احلام يقظته دور المعتدى فينخيل عبود منتصباً أمامه، ويتخذ بشقاء غليله منه، فهو يمسك بخناقه لو يشتمه شتماً لادعاً أو يضرب على راسه بهرولة ثقيلة.

ومنهم من يتخذ في احلامه دور المعتدى عليه، فهو يتصور نفسه مخذولاً أو مهاناً أو مضروباً، والتلس قد انجموا على لتكالية به واحتقاره، وهو يجد في ذلك لذة نفسية عميقة، فيبكي ويتأوه.

وقد يتخذ احدهم للدورين معاً، فهو ماسوخي تارة وسادي تارة أخرى، وهو على اي حال يريد ان يشبع رغباته الكامنة، فإذا انتاليه للناس فيها صر ماسوخياً وإذا اعتراه الغضب صار سادياً، ومنه في خلقه شؤون!

## أحلام الشعوب:

ولا يغرب عن بال القاري ان الشعوب تحطم كما يحطم الأفراد، فكتاب ألف ليلة وليلة مثلاً ليس سوى مجموعة من الأحلام الشعبية، وهي بصفة خاصة احلام الفقراء الذين يجوعون إلى اللذة الجميلة والقصر الفخم والطعام اللذيذ (1).

والظنون ان عقيدة " المنقذ الإلهي " ليست سوى حلم راود الشعوب القديمة في بعض مراحل تاريخها. فالشعوب حين تتألم من ظلم حكامها، ثم تشعر بالعجز عن إزاحة ذلك الظلم الواقع عليها، تأخذ باعتناق عقيدة الإنقاذ الإلهي، وعندئذ

تتخيل مجيء يوم يرسل الله لها غيـه من يتقنها وينتقم لها من أعدائها. فتتملاً الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً.

وصدق من قال، "الأساطير تمثل أحلام الشعوب"<sup>(1)</sup>.

## هوامش الفصل السابع:

(1) انظر : جوزيف جاميرو، الأحلام والجنس: ص 88 - 93 .

(2) انظر: المصدر السابق، ص 92 .

(3) انظر : سلامة موسى، أسرار النفس، ص 58 .

(4) انظر: جوزيف جاميرو، الأحلام والجنس: ص 115 .

## الفصل الثامن

### العقل الباطن

فيل فرويد،

كان الناس قبل فرويد يعتقدون بأن الانسان ذو عقل واحد، وهذا العقل هو الذي يسيطر على افعال الانسان ويوجه سلوكه. فلما راوا شخصاً يتصرف عن جادة الصواب في نظرهم لجؤوا الى عقله يناشدونه ان يتعظ ويرعوي، وحين يجذونه لا يستمع الى نصائحهم العقلية بغضبيون عليه ويعتبرونه مستحقاً للعقاب الشديد.

لقد كانوا يظنون ان الانسان عقل بطبيعته، وكان شعارهم في ذلك، "إن الانسان إنما فهم الخير عمل به". وقد كان نظام التربية القديم يقوم على ملء ذهن الصبي بالوعظ الحسنة والأقوال الرنانة. وللصبي للسكين لا بد ان يصفي الى مواعظهم ويتظاهر بالانصياع اليهم. فالعصا مرفوعة فوق راسه. وهو مضطر ان يقول لإزعاء، "نعم، سأفعل ما تنصحوني به".

إنه يكبت ميوله العارمة في لعماق نفسه. فلا يكاد يفتيح عنه ناصحوه، حتى يقفز صارخاً يردد ان ينال ما هو ممنوع عنه بآية وسيلة. والرء حريص على ما منعه، كما قيل في المثل القديم.

والرجل البالغ يشبه الصبي من هذه الناحية الى حد كبير، فهو عتماً يكبر يجد نفسه محاطاً بالواعظين والناصحين على منوال ما كانوا يحيطون به ايام الطفولة.

وهو قد يمسي واعظاً مثلهم إذا وجد من هو قتل عقلاً منه. فيه ملره بالنصائح المثالية. إنما هو ينطق بها قولاً ويخالفها فعلاً.

وبصح لن نقول ان النلس كانوا يذدعون بعصهم بعضاً. ولو جاء رجل من المريخ واستمع إلى أقوالنا التي نتصافع بها، نُخيل إليه أننا نعيش في إزاء ونعيم مقبم. ونكته لا تمر عليه بضع ساعات حتى يجد أننا في أعمالنا غيرنا في أقوالنا، وإنما جميعاً متناقفون:

### كاشف الغطاء:

وجاء فرويد فحاول أن يكشف الغطاء عن هذا النفاق العام الذي لتصف به بنو آدم. وكان فرويد أول من لكشف في الإنسلن عقلاً ثانياً غير هذا للعقل الواعي الذي اغتر به النلس طويلاً. وقد اسماه بـ"العقل الباطن" أو "الاشعور"<sup>(1)</sup>.

ومعا تجدر الإشارة إليه لن فكرة للاشعور كانت معروفة قبل فرويد ولكنها كانت في الغالب فكرة غامضة غير واضحة العالم<sup>(2)</sup>. ويعزى إلى فرويد الفضل الأكبر في توضيح هذه الفكرة وفي إقامة بناء نظري شامخ عليها.

وبالرغم من تهافت فرويد في بعض تفاصيل هذه لفكرة، فإن الهيكل العنم الذي شيدته حولها لا يزال مكيناً ويعتبر الآن ضرورياً لفهم طبيعة الإنسان.

وخلصاً ما جاء به فرويد في هذا الصدد ان العقل لظاهر الواعي ضعيف الأثر في توجيه السلوك البشري. أما الذي يوجه الإنسان في معظم أحواله فهو العقل الباطن. وإليه يجب لن يلتفت الباحثون في الشخصية البشرية.

### الثقاة المتعددة:

كان القدماء يرون بأن للإنسان ذاتاً واحدة، وهي التي تدفعه لن يقول "نأ". وقد تبين الآن لن هذا للرأي خطأ، فكثيراً ما نجد الإنسان يخاطب نفسه ويتحدث إليها. وقد يعاتبها أحياناً أو يعاقبها. فإذا كان للإنسان ذات واحدة فكيف لستطاع إنن ان يتحدث إليها أو يعاقبها، لا بد أن يكون هناك في أعماق النفس أكثر من ذات واحدة، لكي يتم التخاطب والتلاؤم بين إحداها والأخرى.

وهنا جاء فرويد فقل بأن للإنسان نوات ثلاث، وهي: (1) النوات الحيوانية (2) الذات البشرية (3) الذات المثالية (3).

### النشر والخير في الإنسان:

إن المفهوم الجديد الذي جاء به فرويد يؤدي إلى القول بأن الإنسان ليس خيراً محضاً أو شراً محضاً. إنما هو حتى وشري في آن واحد. ولم يخلق الله إنساناً خالصاً من نزعات الخير وللشر فيه.

إن الإنسان ملك، علاوة على ناته البشرية، ذكائن آخرين. إحداهما تحاول النزول به إلى مستوى الحيوان، والآخرى تحاول الصعود به إلى مستوى الملائكة. وهو حائر يندفع في هذه القناحية تارة وفي تلك القناحية تارة أخرى. والصراع النفسي أخذ باختلافه في كل حين.

### المغزى المنطقي:

نسفت نظرية فرويد المبدأ المنطقي القديم الذي كان يصنف البشر إلى صنفين متعاكسين لا ثالث لهما، أحدهما خج لا شر فيه، والآخر شرير لا خير فيه.

ولكن المفكرين عندما لا يزالون يتحدثون عن رجال التاريخ، فيجعلون بعضهم من أولى الخير ولتأءم ويجعلون لبعض الآخر على النقيض من ذلك. وهذا خطأ فتطرح لا تستسهنه الطبيعة التي جبل عليها الناس في كل زمان ومكان، إنما لا بد أن نرى في كل رجل صالح شيئاً من خوافج الشر تنبض فيه أحياناً، ولا بد أن نرى في كل شرير بعض نزعات الخير ظالمة عليه.

إن نزعة الخير موجودة في كل إنسان. فما دام الإنسان يعيش في مجتمع، فلا بد أن يستمد من قيم ذلك المجتمع رادعاً باطنياً يردعه عن القيام بالعمل المنكر على وجه من الوجوه. وتتفاوت قوة هذا الرادع باختلاف الأشخاص. وليس من الممكن أن نجد شخصاً خالهاً من رادع باطني مهما اشتهر بالظلم والفساد.

ومثل هذا نستطيع أن نقول عن نزعة الشر في الإنسان. فما دام الإنسان في أصل طبيعته حيواناً، فلا بد أن يظهر عليه التمرد والانفصاع اليهيمي في بعض الأحيان، من حيث يدري أو لا يدري.

## الشعور والأشعور:

فلنا ان للإنسان ثلاث دوات، حيوانية وبشرية ومثالية. ويعتقد فرويد ان الذات الحيوانية كلها لا شعورية، ويغلب عليها نافع اللذة والذلم، فهي لا تعرف للحلال والحرام. إنما تريد ان تتلذذ من غير قيد ولا شرط. وهي تدفع الإنسان نحو غاياته السافلة في كل حين.

أما الذات البشرية فهي شعورية واعية، ولكنها ليست مثالية. إنها تشعر بغيور المجتمع وتحاول مراعاتها، ويغلب عليها النفاق والراوغة. فهي لا تحب ان تسرق مثلاً أو تقتل لأنها تخشى الاحتقار الاجتماعي أو تخشى الشرطة والعقاب. ولا تكاد تجد الفرصة المناسبة التي تامن فيها الاحتقار أو العقاب حتى تندفع وراء الذات الحيوانية اندفاعاً شديداً.

إن الذات للبشرية تفهم الحساب والعقاب أكثر مما تفهم المثل العليا. ولولا الذات المثالية التي تراقبها لصلرت مطوية للطبيعة الحيوانية الكامنة في أعماق النفس.

## منشأ الذات المثالية:

إن الذات المثالية هي التي يطلق الناس عليها اسم "الضمير" أو "الوجدان"، ومنها ينبعث الدواعي القباطني الذي أسلفنا ذكره.

وقد كان القدماء يصفون الضمير بأنه "الصوت الإلهي في الإنسان". وهنا وصف غير صحيح. فالضمير يستمد جذوره من العقائد والتقاليد والقيم الاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان.

إن الضمير نسبي إذن. وهو يتلون بلون المجتمع. وهو قد يدفع الإنسان أحياناً في القسوة وظلم، إن كانت لقيم الاجتماعية مؤيدة لهما. ويحدث هذا عادة في الحرب وفي التعصب القسبي والقومي والوطنية.

إن الضمير صوت المجتمع لا صوت الله. والفروق بين الصوتين كبير. فإنه رب الناس جميعاً، وهو رؤوف بهم من غير استثناء. أما المجتمع فهو يفضل إبناءه على غيرهم، وهو لا يبالي ينهب الأموال وسفك الدماء إن كان ذلك موجهاً ضد الأعداء<sup>(4)</sup>.

## الضمير والأشعور:

رأينا فيما مضى ان الذات البشرية شعورية، بينما الذات الحيوانية لا شعورية. وهنا يبقى فرويد فيقول بأن الذات المثالية تقف وسطاً بين نيتك الذاتين. فهي شعورية من جانب، ولا شعورية من الجانب الآخر<sup>151</sup>.

يمكن تشبيه الذات المثالية بالحارس الذي يقف على حافة للأشعور فهي تمنع الحوافز للنكرة من الظهور إلى للشعور، بينما هي تسمح للحوافز الأخرى بالمرور.

ومشكلة الذات المثالية أنها ليست بالحارس الصارم، إنما هي بالأخرى حارس ضعيف يسهل اغراقه، ومن الممكن ان يرتشي. وقد يشتد عليه ضغط الأشعور أحياناً فيجعله متساهلاً إلى أبعد حدود. ويحدث هنا بصفة خاصة في المجتمع الذي تكثر فيه المواقف العالية جداً.

فمن عيوب المواقف المثالية جداً أنها تحاول الصعود بالإنسان فوق مستوى ميشر. إنها تريد منه ان ينسى نفسه ويهمل امر ملذاته والأمة. وعند هنا يقع للأشعور تحت وطأة كبت شديد. فيضبط هو بدوره على الذات المثالية.

وهنا تظهر لدى الإنسان ما يسميه فرويد بتزعة "التبرير". وهذه التزعة تسمح للإنسان بان يندفع وراء شهواته ثم تجد له عذراً أو قناعاً يراقاً يغطي به تدفاعة القبح.

إن المواقف المثالية تفسد على الإنسان جميع المنافذ التي يستطيع ان ينفسر بها عن ذاته الحيوانية. ولذا فهو مضطر ان يتمرد على تلك المواقف ثم يبني له حجة يدافع بها عن نفسه، لا سيما وهو يرى للمواقفين انفسهم يخالفون ما وعظوا به في الليل والنهار.

## محتويات الأشعور:

يتضح مما سلف ان الأشعور عامل فعال في توجيه السلوك البشري، وقد رأينا انه مؤلف من أجزاء مختلفة، نلخصها فيما يلي،

(1) فالجزء الأول منه يتكون من النزعات الحيوانية الأصلية في الإنسان، وهي تولد معه، ويطلق فرويد عليها اسم "للبيبدو".

(2) والجزء الثاني من اللاشعور يتألف من الرغبات التي لم يتمكن الإنسان من إشباعها فكبتهما في اعماق نفسه. إنها تبقى هناك كأمينة تتربص. وهي ما يعبر عنها بالعقد النفسية<sup>(6)</sup>.

(3) أما الجزء الثالث فهو الجانب اللاشعوري من الضمير. وهذا الجزء له أهمية خاصة في الموضوع الذي نحن بصدده. أي موضوع الأحلام.

### الضمير والأحلام:

مرت بنا في ما مضى نظرية فرويد في الأحلام، وخلصتها أن الأحلام وسيلة لإشباع الرغبات التي لم يستطع الإنسان أن يشبعها أثناء اليقظة. وهنا يستدرك فرويد فيقول بأن إشباع الرغبات في الأحلام لا يكون مباشرة أو واضحاً إلا في حالات نادرة، وسيب تلك بقاء جانب من الضمير يقظاً أثناء النوم، إذ هو يمنع الإنسان عنند من التعمادي في إشباع رغبته المحرمة تماماً شعبياً.

لو كان الضمير شعورياً كله لاستراح الإنسان منه أثناء نومه. لكنه كما أسلفنا واقف بين الشعور واللاشعور، وهو إذن يراقب الإنسان عند نومه ويقظته معاً.

وعجيب أمر ابن آدم، إذ إن الرقابة الاجتماعية المطة بالضمير تلاحقه في كل وقت. وهو يلجأ إلى النوم ليجد شيئاً من الراحة النفسية فيه، ولكن الضمير لا يدعه يستريح راحة تامة، فهو واقف له بالرصاء، ويقول له "جنتك" كلما وجدته قد انتفع في شهوته بعيداً.

وفي رأي فرويد أن الرمزية التي تصطبغ بها الأحلام هي نتيجة الخوف من ضمير، ويطلق فرويد على الضمير في مثل هذه الحالة اسم "الرقيب"، وتضطرب الأحلام لزاء هذا الرقيب العتيد إلى اتباع سبيل المراوغة والملاوذة، وهي تخشى بلتما أن يرفع الرقيب يده عليها ويقول لها "ممنوعاً"، وكثيراً ما تلجأ الأحلام إلى التهريب، فتخطي للشهوات بالأقنعة الجرافة، كأنها تستغل بها الرقيب وتخدعه.

### أحلام الطفولة:

المعروف عن أحلام الطفولة أنها سخرة صريحة، إذ هي لا تنتقع إلا قليلاً، ومرد ذلك إلى ضعف نمو الضمير في الطفل.

يحدثنا فرويد عن لبنته قبلها من العمر تسعة عشر شهراً. فقد أصيبت بالقيء ذات صباح، ومنعت من الطعام طيلة النهار. فلما نامت سمعها اهلهما تهتف بأسماء الأطعمة التي كانت تشتبهها<sup>(7)</sup>. والظاهر أنها كانت تتخذ أثناء ذلك بالتهام تلك الأطعمة بلا حساب.

ويصح لقول بأن أحلام الطفل تأخذ بالتقنع كلما كبر للطفل واشتد بناء الضمير في أعماق نفسه. فبنا صار رجلاً يلفاً وقع تحت وطأة الضمير الذي لا يرحم، ولهذا كانت أحلامه غامضة تخفي في ثناياها معنى نخبياً.

### أحلام البالغين:

إن الأستاذ سلامة موسى ينصح القاري بأن لا يروي حلمه، مهما ظنه بريئاً، لأحد إلا إنا وثق بأخلاقه<sup>(8)</sup>. فالحلم قد يخفي رغبة بعينية لا يجوز الكشف عنها بينما هو في ظاهره بريء كل البراءة. فإذ قد ترى في منامك زوجة صديق لك، وهي محاطة بعصاية من السفلة يريدون انتهاك حرمتها. فتستنجد بك صارخة، وتثور التوبة في رأسك وتشهرك مسسك في وجوههم فينهزمون خائفين. وتتقدم الزوجة الحسنة نحوك شاكرة وفي نظرتها معنى الإعجاب والإكبار.

وظاهر هذا الحلم يدل على أنك رجل شهم تحب الدفاع عن شرف صديقك. ولكنك في الواقع تحب انتهاك شرفه، لا الدفاع عنه. فربما كنت قد رايت زوجة صديقك في يقظتك فاعجبت بها، وتمنيت أن تنزو عليها، وبقيت هذه الرغبة مكبوتة في عقلك الباطن.

وعند النوم ظهرت الرغبة في أحلامك بشكل مقتنع. فالرقيب يمنعك من مغالبة زوجة صديقك مباشرة لو من اللزوم عليها علناً. فتعمد من جراء ذلك إلى وسيلة أخرى. وعينيك تصبح بطلاً تطلق الرصاص على المعتدين وتطاردهم من غير خوف، مع العلم أنك في يقظتك جبان لم تحمل مسدساً ولم تطارد أحداً. ولكن الرغبة المكبوتة جعلتك في أحلامك فارساً مغواراً لا يشق له غياراً.

ولو جارينا فرويد في نظريته إلى نهايتها، لجاز لنا أن نقول بأن المسدس الذي تهايت به في حلمك يرمز إلى تلك للتسلية. ومعنى ذلك أن مسدسك الموهوم لا

يدل على شهامتك وفروسيك بقدر ما يدل على شهوتك للحزمة نحو روجة صديق  
السكين - والله اعلم .

### رموز الأحلام:

يقول فرويد، "إن الأحلام تلجأ إلى الرموز لتخفي الأغراض التي يحظرها  
المجتمع"<sup>(9)</sup> . وهو يرى أن معظم الرموز التي تظهر في الأحلام ذات مغزى جنسي،  
كأنه يظن بأن الرغبة الجنسية هي الرغبة الوحيدة التي يملكها الإنسان والتي  
يحظرها المجتمع عليه .

وهنا يحسن بنا أن نورد بعض أقوال فرويد في رموز الجنسية التي تشترك  
فيها معظم الشعوب. فهو يعتقد أن كل الأشياء المستطيلة كالعصى وجذور الأشجار  
والظلال والسكاكين والختاجز والحرايب وأنبارد واربطة لاحتق وما لثيه ترمز إلى  
عضو الذكورة، أما العلب الصغيرة والصناديق والمواقد والقبعات وغيرها فهي ترمز  
إلى عضو الأنوثة<sup>(10)</sup> .

ويرى أحد تلاميذ فرويد أن الذين يحبون التنقل بين العتبات والأشجار للباسقة  
لهم ميل جنسي قوي. فهم حين يرون نلك في أحلامهم مراراً إنما يتغصون به عن  
رغبتهم المكبوتة.

### الأحلام وتحليل النفس:

كان المتنبون بالأمس يقولون، "أخبرنا بأحلامك نخبرك بمستقبلك" . واليوم  
يقول أطباء النفس: "أخبرنا بأحلامك نشخص مشكلاتك"<sup>(11)</sup> .

لقد كان الناس في الماضي يدرسون الأحلام لكي يعرفوا بها ما يضمهر لهم الغيب  
من منافع ومصار. أما الآن فقد صاروا يدرسون الأحلام لكي يعرفوا العقد والرغبات  
المكبوتة التي تخفي في أعماق نفوسهم.

لولئك يبحثون عن المستقبل في أحلامهم وهؤلاء يبحثون فيها عن الماضي.  
ويستطيع الإنسان أن يكتشف علله النفسية إذا درسي أحلامه وحل رموزها. فقد  
يعثر بواسطتها عن سبب ما يعانیه من وساوس أو تقييدات عقلية.

يقول فرويد، أن الأحلام هي اللغة الطبيعية للنفس. ونحن لا نفهمها لأننا

اعتدنا على لغة التفكير المنطقي في حياتنا الواعية<sup>(12)</sup>، بل لغة الأحلام في الواقع نموذج أصيل لعملية التفكير البدائي، وتحليلها يحتاج إلى براعة واختصاص.

### القط والفار:

يقول المثل السائر: "إنا نأثم القط لعب الفار". وهذا مثل ينطبق علينا، فنحن نملك في أنفسنا القط والفار معاً، ونقصد بالقط هذا العقل الواعي الذي يسيطر علينا أثناء اليقظة، فإننا نأثم ظهر الفار يسرح ويمرح.

وقد وضع الدكتور كاريو هذا المعنى في عبارة رائعة حيث قال: "إننا جميعاً نورو خلق مزيج، ففي باطننا الدكتور جيكل والسيد هايد"<sup>(13)</sup>. وهو يقصد بذلك أن كل واحد منا تسكن ووحش في آن واحد، ولا يكاد الجانب الإنساني يتخدر لو ينام حتى يظهر الجانب الوحشي يريد أن يشبع حاجته البيئية التي منعه المجتمع عنها.

## هوامش الفصل الثامن:

(1) يميل الأستاذ سلامة موسى إلى تسمية هذا العقل بـ "العقل الكامن" والظاهر أن هذا الاسم لم يلق رواجاً في البلاد العربية. فقد بقي الناس يستعملون اسم "العقل الباطن". ومما يلفت النظر أن سلامة موسى هو الذي أفاض هذا الاسم في أول الأمر. إلا أنه تخفى عنه في الأيام الأخيرة. حيث اعتقد بأن مصطلح "العقل الكامن"، أصح منه. ولنا أن نقول في هذه المناسبة بأن الخلطاً الشائع خبير من الصحيح المهجور.

(2) انظر: محمد عثمان نجالي، الذات والغرائز، ص 1.

(3) إن الذين ترجموا نظرية فرويد إلى اللغة العربية أطلقوا على هذه الذوات اثلاث، أسماء "إلهي والأنا والأعني" وهذه ترجمة حرفية لمصطلحات فرويد، وهي كما يرى القاري، غير وافية بالمعنى، وإني أرجح تسميتها على اللوال المذكور أعلاه.

(4) انظر: Landis, Social Control. P. 56.

(5) انظر: Berg, Clinical Psychology. p. 437.

(6) انظر: محمد خليفة بروكات، تحليل الشخصية، ص 141.

(7) انظر: Dalbier, Psychoanalytical Method. Vol.1, p. 50.

(8) انظر: سلامة موسى، عقلي وعقلك، ص 63.

(9) انظر: جوزيف جامسترو، الأحلام والجنس، ص 115.

(10) انظر: المصدر السابق، ص 119 - 120.

(11) انظر: فرانك كايرو، تفسير السلوك، ص 279.

(12) انظر: جوزيف جامسترو، الأحلام والجنس، ص 93.

(13) انظر: فرانك كايرو، تفسير السلوك، ص 280.

## الفصل التاسع

### فرويد والرغبات البشرية

#### الخطأ والصواب

كان القدماء يعتقدون بأن العقل البشري قاصر على فهم الحقيقة كاملة إذا أحسن للتفكير واتبع للمنطق السليم. ومعنى هذا أن العقل الواعي قادر على تجنب الخطأ وعلى الوصول إلى الصواب رتساً.

ولي أن أقول أن هنا رأيك لصبح لليوم عتيقاً لا يعنى به احد، فالعقل لا يستطيع، مهما حاول، أن يستوعب الحقيقة كلها، فمن طبيعته أنه يركز النظر على جانب واحد من الحقيقة، فيهمل للجوانب الأخرى. وهو إذن لا بد أن يخطيء ويصيب في أن واحد. وقد صنف من قائل: " حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء " .

يقول وليم جيمس، "العقل الانساني متحيز وجزئي بطبيعته" (1). ان العقل بعبارة أخرى لا يستطيع ان يفهم شيئاً إلا اذا تحيز في نظره إليه ثم أهمل غيره، ومن هنا نشأت الجدالات العقيمة التي يبتلي بها المفكرون القدماء. فكل فريق منهم يتعصب لرأيه حيث يرى للحقيقة كلها كامنة فيه، بينما هو في الواقع قد ركز نظره على جزء واحد منها، ولو أنه ندر يراسه نحو الأجزاء الأخرى لتبين له أنه مخطيء ومصيب، وأن خصومه مثله، والخصمة له وحده.

وبناء على ذلك صار من واجب الباحث الحديث ان يتحرى اوجه الخطأ والصواب في كل نظرية يدرسها، فمهما كانت النظرية عظيمة في دلالتها، فهي لا بد ان تحوي على عيب كامن فيها!

ومعاً تجدر الإشارة إليه ان كل نظرية تساهم في إنماء الفكر البشري بالرغم مما فيها من نقائص، انها تساعد الفكر على النمو كما تساعد درجات السلم على الصعود. فكل درجة هي اعلى مما كان قبلها، وهي في عين الوقت اسفل مما يأتي بعدها، ولولاها لما استطاع الإنسان ان ينتقل من اللواطء إلى العالي من الأفكار.

### من عيوب فرويد:

وحيث ندرس نظرية فرويد في هذا الضوء نجد انها خدمت الفكر البشري خدمة لا يستهان بها، فهي قد وجهت الأنظار نحو ما يخفي في أعماق النفس من الرغبات القوية التي تدفع الإنسان في مختلف السبل من حيث لا يدري.

ولكن الذي يعاب على فرويد في هذا الصدد انه ركز اهتمامه على الرغبة الجنسية واعتبرها أهم الدوافع للبشرية قاطبة. وتم يكتف بذلك بل رايته يعزو معظم الاضطرابات والأمراض النفسية إلى سبب جنسي.

ومعنى هذا ان فرويد اخفأ واصاب في أن واحد، فهو قد تغلغل في أعماق النفس البشرية، ولكنه لم يجد فيها سوى الدافع الجنسي.

ويبدو ان هذا التحيز في نظرية فرويد ناشىء من طبيعة الظروف التي احاطت به عند تكوين افكاره، ومن نوع المرضى الذين كان فرويد يعالجهم أثناء ذلك.

فالعروف عن فرويد أنه نشأ في مدينة فيينا، وكانت هذه المدينة قبل الحرب العالمية الأولى عاصمة لامبراطورية باخنة، وكانت للطبقة الحاكمة فيها متهمكة في تقليدما القديمة ومتعصبة لها، وللملاحظ في نساء هذه الطبقة اتهن قد شعبن من ناحية الخام والطعام وجعن من لاناحية الجنسية، حتى انبتين من جراء ذلك بمختلف الأمراض النفسية. وقد اتيح لفرويد أن يعالج عدداً كبيراً من هؤلاء فنجعلت جنسياً، فخل إليه أن فنانس جميعاً من هنا الطراز، ولو له عاش في محيط آخر لربما جاءت نظريته من نمط مغاير.

## الطفل في نظر فرويد:

ويظهر التعسف عند فرويد حين يدرس سلوك الطفل. فهو يفسر حركات الطفل الساذجة بأنها ذات مقصد شهواني. فلذا لعب الطفل بكته التتلسلية قال فرويد أنه يبحثي لتلذذ الجنسي بها، وأنا مصر للطفل شدي أمه أو إيهامه علل فرويد ذلك بأنه من إمارات الشهوة الجنسية لدى الطفل الصغير.

وأشهر ما جاء به فرويد في هذا الشأن هو " عقدة أوييب " - ففي رايه ان للطفل يكره أباه ويحبه من جراه هذه العقدة. إن ضعيره الخلقى يدعو إلى حب أبيه، أما شهوته الجنسية فتدفعه إلى كراهة أبيه لأنه يتنافس على التلذذ بأمه. أنه بمباراة أخرى يغار من أبيه.

ويحدث مثل هذا لدى الطفلة، إذ هي تحب أمها وتكرهها في أن ولحد. فأمها ترضعها وتحنو عليها من جانب، وهي تتنافسها على أبيها من الجانب الآخر. والطفلة إذن مصابة بـ " عقدة الكترا " حسب اصطلاح فرويد. وهذه العقدة تولري عقدة أوييب عند الطفل الذكر (2).

وحين يكبر الانسان يظل يعاني من تلك العقدة التي نشأت لديه في طفولته. وهذا هو سبب تلك الأحلام البشعة التي يجد الرجل نفسه فيها وهو في وضع مريب مع أمه، أو تجد المرأة نفسها وهي في وضع مريب مع أبيها.

## فرويد يستترك:

لنظاير ان فرويد أخذ يتراجع أخيراً عن رايه في التأكيد على الشهوة الجنسية، لا سيما في تفسيره للأحلام. فهو يعترف بأن الأحلام قد تحتوي على عناصر أخرى غير الشهوة، كالجوع والظما.

ويشعر فرويد بشيء من اللراة لزاء خصومه وثائقه. وهو يقول عنهم أنهم اسأوا فهم نظريته ولتهموه بخير حق فيها. أنه يقول في هذا الصدد: " لم نقل قط ان كل حلم يعبر عن رغبة جنسية. وكثيراً ما قررت عكس هذا الرأي، ولكن ما الفتنة.... " (3).

ومهما يكن الحال فلذا لا نستطيع ان نبريه فرويد من تهمة تأكيده على

العامل الجنسي في تفسير الأحلام. ولعل هذا للتأكيد منه هو الذي دفع اتباعه إلى التطرف فيه. وكثيراً ما يكون اتباع أكثر تعصباً لنظرية استلذهم من الأستاذ نفسه. وقد حدث هذا مراراً في التاريخ كما هو معلوم.

### ثورة أدلر:

ظهر لواء فرويد ثائر جيلر هو الفرد أدلر. وكان أدلر من تلاميذ فرويد ثم انشق عليه وجاء بنظرية هامة لها اليوم اتباع كثيرون.

يرى أدلر أن نظرية فرويد غامضة ومعقدة، وإن الشهوة الجنسية ليست على تلك الأهمية التي يعزوها إليها استلذهم الكبير.

يقول أدلر إن الطفل البشري لا يعرف الشهوة الجنسية ولا يشعر بأي ميل إليها. إنما هو يعرف شيئاً آخر. وهذا الشيء هو ما يشعر به الطفل حين يجد نفسه صغيراً بين أناس كبار. وقد أطلق أدلر على ذلك اسم "الشعور بالنقص".

إن الطفل يشعر أنه ضعيف وعاجز عن القيام بأمور عديدة، وهو يرى أفراد عائلته مسيطرين عليه، يأمرونه وينهونه يوماً وهم قادرون على مكافئته وعلى عقابه. فلذا قام بعمل يرضيهم ابتسموا له وريتوا على ظهره وأعطوه شيئاً لذيئاً. أما إذا اغضبهم بعمله، فإنهم يتجهمون له ويعلقونه أو يحرمونه من اللذات التي يشدها.

وإنما كبر للطفل وخرج إلى معترك الحياة وجد الناس يعاملونه على منوال ما كان أفراد عائلته يعاملونه به. والناس لهم قيم ومعايير يقيسون بها الإنسان ويقدرونه عليها. فلذا استجاب الإنسان لها ووفاهما حقها احترامه للناس وبشوا له. وإنما انحرف عنها كرموه أو انتقدوه وشتموه. ومعنى هذا أن الإنسان البالغ هو طفل كبير. فهو يشعر بأنه ناقص لئلا مجتمعه وهو يحاول بكل جهده أن يسد هذا النقص في نفسه وإن يخال عند الناس مكانة عالية.

لأن الإنسان، بمعياره أخرى، يحمل في ثنايا نفسه تنازلاً خطيراً، إذ هو يشعر بالنقص من جهة، وهو من الجهة الأخرى يشعر بحبه للشهرة والمخزلة الاجتماعية.

إنه في كل وقت يجب أن يكون محترماً بشار قلبه بالبنان- فإذا عجز عن ذلك نجأ إلى الأعلام أو الأوهام ليصعد بها إلى المكائنة التي يبتغيها.

وإذا طغث الأوهام على ذهن الإنسان نغته نحو الجنون أو العصاب. وفي رأي أدلر أن المصابين بالأمراض النفسية هم في الغالب من ضحايا "عقدة النقص". ولها نجد كثيراً من الجنين واللخبويين يتخللون أنفسهم أمراء أو عباقره أو من أصحاب الجمال الفائق الذين ترمي الحسطلوات على أقدامهم.

وليس من الجائز إذن أن نستعزى بالجنون أو نحترقه ونضطهده- إن الجنون محتاج إلى الرفق والعناية- فظروفه النفسية والاجتماعية قد منعه من إشباع رغبته في الارتفاع. والواجب يقضي أن نرعا بلطف ونرشده بحكمة. وكلنا مثله قليلاً أو كثيراً. ولكن الظروف ساعدتنا فجعلتنا نقدر منه على فهم القيم الاجتماعية وعلى التجارب معها.

### الأعلام عند أدلر:

ويفسر أدلر الأعلام في ضوء ما جاء به من نظرية الشعور بالنقص. فالأعلام في رأيه ليست سوى تحقيق لما كان الإنسان يشتبهه أثناء يقظته من التعالي والسيطرة. فقد يلحم لدينا كنه طائر في الهواء فوق رؤوس الناس. ومعنى هنا يجب أن يكون نا منزلتة لاجتماعية عالية. لأنه يريد أن يلفت نظر الناس إليه وإلى مقدرته الخارقة التي لا يستطيع احد أن يجاريه فيها.

ويزعم أدلر أن الأفعال الجنسية التي يفتريها الإنسان في نومه ترمز إلى حبه للسيطرة على لغيره. وهذا لا ينطبق على الرجل وحده. إنما ينطبق على المرأة أيضاً. فهي تحب أن تكون تحت الرجل في نومها. وبذلك نستطيع أن نجعله يستجيب لرغبتها ويطيع امرها. إنها بعيلة أخرى تخضع له في سبيل أن يخضع لها<sup>(4)</sup>.

### نقد نظرية أدلر:

ولم تسلّم نظرية أدلر من النقد. إنها نظرية عظيمة حقاً، ولكنها مثل نظرية فرويد متطرفة، تنظر إلى وجه واحد من الحقيقة، فتهمل به الأوجه الأخرى.

يخالي انذر في التاكيد على عامل الشعور بالنقص كما يخالي فرويد في التاكيد على العامل الجنسي. وهناك من الباحثين من يؤكد على عامل آخر ويخالي فيه أيضاً، وكل منهم واثق من رايه لا يحب أن يحيد عنه قيد شعره.

ألا يجوز أن نقول أن جميع هذه الآراء صحيحة، وقد يصح غيرها أيضاً، ألا يجوز أن يشعر الإنسان بالنقص، ويشعر بالشهوة الجنسية، وهو كذلك يشعر برغبات أخرى.

من الممكن القول بأن رغبات الإنسان متنوعة. ولكن إحداها قد تطفئ على غيرها حين تقع تحت كبت شديد، أو حين يشعر الإنسان تجاهها بالحرمان. ومن هنا ينشأ اختلاف الناس في ادواقهم وميولهم.

### طبيعة الإنسان

إن الإنسان قبل كل شيء حيوان يريد أن يعيش. فلذا سد حاجته من الطعام واللباس والسكن، اتجه نحو لشباع حاجته الجنسية. وهو لا يكاد يشبعها حتى يتخذ بلمتلح نحو الكائنات الاجتماعية والمقام الرفيع. وكلما وصل إلى مرحلة تطلع إلى وراءها. ولا يسد فم لبن آدم إلا التراب. كما قال النبي محمد "عليه الصلاة والسلام".

إن لكل إنسان عقدة نفسية تتخذ بخصايقه وتوجه سلوكه. فمن الناس من استحوذت عليه للعقدة المعاشية، وهو متهمك فيها لا يعرف عن سواها إلا قليلاً. ومنهم من استحوذت عليه العقدة الجنسية، فلا يكاد يرى من الدنيا إلا ما كان مصطبغاً بها، ومتهم من يسعى وراء العالي، ويدوس بقدمه كل من يقف في سبيله إليها.

إن لكل شخصية بشرية مفتاحاً خاصاً بها، وما على الذي يريد أن يتنجح في معاملة الناس إلا أن يدرك طبيعتهم العقدة هذه، ويعالج كل واحد منهم بمفتاحه القسري.

### خطا المفكرين عندنا:

إن اثنين يتولون زمام الفكر عندنا لا يزالون يعيشون في ظلمات النطق القديم،

إنهم يصيدون الناس من طبيعة واحدة وعقل متشابه. فإذا سيطرت على أحدهم فكرة أو عقدة حسب الناس كلهم مثله، وتراه مبحوح الصوت بهيب بالناس أن يشبعوا رغباتهم كما يريد هو لن يشبعها، فلا يجد من يسمع له أو يجيب.

ويتضح هنا الخطأ جلياً في البعثا، فقد ينظم أحدهم القصيدة أو يكتب المقالة، وهو معجب بها ويحقد أن الناس سيعجبون بها أيضاً.

ثم يفتح عينه أخيراً ليرى الناس مشغولين عنه وعن مقالته بهمومهم وعقدتهم الخاصة، عند هذا يصفق صاحبنا يناً بيد ويتأفف من ضياع العبقرية بين أولئك الأغبياء، كان الله لم يخلق في الناس عبقرياً غيره.

لنا طوت قصيدة غرامية على عاشق وجنته يهتز لها طرباً، ولكنك حين تطوما على صعلوك جلتع تراه يحرق عليك الأرم، ولعله يريد منك أن تتغزل بالرغيف بدلاً من التغزل بالصنء. أما لنا طوت القصيدة على دهقان من دهانة السهامة فقد تجده مشغولاً عنك وعنهما بمشكلة الانتخاب أو بالترشيح لمجلس الأعيان.

### الأحلام والرغبات المتنوعة

فشرنا من قبل إلى أن الأحلام تفضح عن طبيعة الإنسان وتكشف عن رغبته الخفية. فالناس قد يتظاهرون في يقظتهم بانهم كالأنبياء في حيبهم للحق والحقيقة، ولن ليس لهم من مدف في الحياة سوى خدمة الناس أو التقرب من الله. ولكنك لو درست أحلامهم لتبين لك نفاقهم بجلاء.

أنهم في الواقع لا يحيون سوى انفسهم. فإذا أمين لأحدهم لو أوتى دون أن يستطيع رد الصفة بعشرة أمثالها، أخذ يمدح نفسه وينسب إليها صفة الحلم والعفو عند القدرة أو صفة للتقوى والخوف من الله. ولكنه في حقيقة أمره كذاب، فلا يكاد ينام حتى يذهب إلى تلك الذي اعتدى عليه فيهبى على رأسه بالهراوة الغليظة، حتى يروي غليله منه.

أما إذا كان صاحبنا من الجبابرة الذين يقدرون على الانتقام من خصومهم فتناء اليقظة، فإن أحلامه ستكون من طراز آخر. ولعله سيستخدم أثناء النوم آلة التناسلية بدلاً من الهراوة الغليظة.

وقل مثل هذا عن أولئك الذين بخل عليهم فقدر بتسلب الترف. إنهم سيقولون بانهم زاهدون في هذه الدنيا الفانية، وهم يرفضونها حين تأتي إليهم صلفرة، ولكنهم عند النوم يحلمون بالقصور والبلاحة تحف بها الحدائق الفناء وتعلو من جنباتها قهقهة الجولري الحسان. ويؤتى لهم عند ناك بالطيبخ السم وافخاذ الدجاج، تطلوها صحنون اليقلاوة. وهم يتكلمونها ويتكلمون اصابعهم معها. هتياً مريئاً.

## هوامش الفصل التاسع:

- (1) انظر: وليم جيمس، إرادة الاعضاء، ص 40 .
- (2) انظر: Dalbicz, Psychoanalytical Method. Vol.1, p 166 .
- (3) انظر : [ibid. Vol.1, p 57 .
- (4) انظر: Hadfield, Dreams and Nightmares. p. 37 .

## الفصل المباشر

### فرويد والأحلام المؤلمة

عيب فرويدي آخر:

ذكرنا في الفصل الماضي أحد عيوب فرويد، وهو تأكيد على العامل الجنسي في تفسير السلوك البشري بصفة عامة، وفي تفسير الأحلام بصفة خاصة. وتود هنا أن نذكر عيباً آخر من عيوب فرويد، وهو خاص بالأحلام المؤلمة أو ما يسمى بالكابوس أحياناً.

إن فرويد فسر الأحلام بأنها محاولة لتحقيق الرغبات المكبوتة في الإنسان. وهنا هب الناقدون في وجهه يسألونه، "بماذا تفسر الأحلام التي توفق الإنسان من توبه مرعوباً؟ أهي كنتك محاولة لتحقيق الرغبات المكبوتة؟".

فإنسان قد يحلم بالفضيحة المخزية تحيط به، أو يرى كانه يهوي من ارتفاع شاهق، أو كان غولاً موشكاً على اقتراسه. فإذا كان الحلم عبارة عن "تحقيق رغبة" كما يقول فرويد، فكيف يتغنى للإنسان أن يحقق رغبته على هذا النمط المؤلم؟ أيجب أن يفترسه الغول مثلاً، أم يشتهي أن يسقط من الملائكة فيتحملم رسه؟

ولو أن الأحلام المؤلمة قليلة بالنسبة إلى الأحلام السارة لهان الأمر؟ ولكن الأمر على

للعكس من ذلك، يقال أن أحلام الغضب والحزن والخوف هي ضعف أحلام الفرح والسعادة. ويبدو أن الأحلام المؤلمة تزداد بازدياد عمر الإنسان<sup>(1)</sup>.

فماذا يقول فرويد إزاء هذا الاعتراض الجوهري؟

### تعليل فرويد:

لم يعد فرويد هنا سلاحاً يدافع به عن نظريته، فهو يقول أن الإنسان في نومه، كما هو في يقظته، يروض تحت وطأة عاملين متعاكسين، عامل الشهوة العارمة من جهة، وعامل الرفيق الأخلاقي من جهة الأخرى.

إن الإنسان يشتهي أن يحقق رغبته المكبوتة، ولكنه يجد إزاء ذلك شعوراً بالذنب وتكبيهاً من الضمير. وهو عندما يخام لا يستطيع أن يندفع في أشباع شهواته إلى أقصى الحدود، إذ أن الضمير يهدده ويرعبه لكي يريه عاقبة انتدفاعه وراء الشهوات المحرمة.

فالكابوس في رأي فرويد هو صورة من صور العقاب يفرضه الضمير على الإنسان أثناء نومه، أنه إذن يحقق رغبة الذات المثالية وما نامت للشخصية تحتوي على ثلث حيوانية وثلث مثالية، فإن أحلامها لا بد أن تكون على نوعين، لذينة ومؤلمة<sup>(2)</sup>.

### رأي الدكتور الكستور:

للدكتور الكستور هو أحد أتباع فرويد وهو مدير معهد التحليل النفسي في شيكاغو. وفي نظره أن الأحلام تنتج عن قوتين متصارعتين، أحدهما تحاول تحقيق الرغبة، والأخرى تتجه عكس ذلك حيث تريد قمع الرغبة.

يقول الكستور: "إن الحلم المؤلم هو محاولة لتخفيف التوتر الناتج من تكبيت الضمير. والضمير لا يرتاح إلا بالتناغم"<sup>(3)</sup>.

حلمت إحدى الفتيات ذات ليلة كان فيلاً ضخماً يهجم عليها بخرطومه. فاستيقظت مرعوبة. والخرطوم في لغة الأحلام يرمز إلى عضو الذكورة، ولعل الفتاة كانت في يقظتها تشتهي أن تنال هذا العضو ولكنها كانت في عين الوقت تخشى منه، فهو محرّم عليها وقد يؤذي بها إلى العار وسوء السمعة، إنها تميل إليه

وتخاف منه في ان واحد. ولهذا كان حلمها مؤلغاً من الخرطوم اللذيد ومن الغيل المرعب معاً.

والحياة البشرية تجري كلها على هذا النمط، فلا بد ان يختلط فيها الألم واللذة. ومن الصعب ان نجد فيها فناً خالصاً أو لذة خالصة. ولا بد دون الشهد من إبر النحل. كما قال الشاعر العربي.

### الرغبة المأسوخية،

ويضيف فرويد إلى تعليقه السابق فمراً آخر - فهو يقول ان بعض الناس يرغبون في الألم كما يرغب بعضهم الآخر في اللذة. فحين نجد في الحياة اشخاصاً بهتسون ان يقع عليهم اعتناء أو اهانة، وهم يشعرون لثناء تلك بمنتهى الرضا والغبطة. وهؤلاء قد يلجأون أحياناً إلى احلام اليقظة ليتغسوا بها عن رغبتهم الشاذة منه. فتراهم يتخيلون أنفسهم في وضع مشبع بالحرمان والأذى وهم يتكلمون ويكونون. وكلما اجتمع للناس على لينتهم شعروا من جنتهم بالسعادة.

ويعتقد فرويد ان هذه الرغبة "المأسوخية" هي من اسباب الاحلام المؤلمة<sup>(4)</sup>. فالذي يشعر بها في يقظته قد لا يحب الافصاح عنها امام الناس وهو لذلك يحققها في منامه كما يحققها في احلام يقظته احياناً.

### الرأي الأخير،

الظنون ان التحليل الفرويدي للأحلام المؤلمة غير واف بالمرام. ولعله لا يخلو من تعسف أو تكلف. وهو يؤد من نقاط الضعف الأصيلة في نظرية فرويد.

لقد حصر فرويد نظريته في نطاق ضيق جداً، فهو يريد من الاحلام كلها ان تكون وسيلة لتحقيق رغبة مكبوتة. فلنا وجد في بعض الاحلام مروفاً عن ذلك، لجا إلى التبرير والتأويل لكي يرجعها اليه. وهنا يظهر عليه التكلف.

ويبدو ان موضوع الاحلام ليس مجرد تحقيق رغبة كما يخيّل إلى فرويد، إنما هو بالأحرى مشكلة نفسية نشأت عن تلك الرغبة<sup>(5)</sup>.

لنا لا ننكر صحة الرأي الذي جاء به فرويد في تحليل كثير من الاحلام. ولكن

الأحلام مع هذا تحتاج إلى تحليل آخر في الوقت ذاته. ويضع ذلك إنا درسنا النفس البشرية بوجه عام والبركنا ما تحتوي عليه من عقد ومشكلات.

### النوم واليقظة:

وهنا يجب ان نذكر ان النوم واليقظة وجهان لحقيقة واحدة، هي الطبيعة البشرية. والملاحظ ان ليس هناك حد فاصل بين النوم واليقظة لدى الانسان. فالإنسان لا يخلو من نوم أثناء يقظته، ولا يخلو من يقظة أثناء نومه. وما الأحلام التي يراها الانسان في نومه إلا صورة مصغرة لما يجري في اليقظة من خواطر وكوهم عجيبة. ويستطيع لنا ان يفهم كنه الأحلام حين ينطرح على فراشه يريد النوم. إنه يشعر حينذاك بأن الخواطر التي كانت تجول في تفكيره أثناء اليقظة اخذت تتجسم تدريجياً. وهو كلما تعمق في النوم ازادت تلك الخواطر في ذهنه وضوحاً، حتى لمسي اضراً كأنها حقائق راهنة، وهو يكاد يلمسها لمس اليد. وعندئذ نقول عنه انه بنا يحلم.

يقول سينل: "وليس الحلم إلا تفكيراً، كل ما هناك من فرق بينه وبين تفكير اليقظة ان حاسني السمع والبصر، وهما حاسنا قانون التفكير ونظامه، قد تخلفنا عن واجبهما فاضطربت أداة التفكير وأخذت تتخبط خبط عشواء، كما تضطرب ساعة الحائط وتختل إذا انتزع منها البنول. فإنا زل ما يحيط بالأفكار من حقائق بدت كأنها هي الحقائق نفسها وخيل إلى الإنسان ان ذكرياته عن الأشخاص والنظر لشيء مجسمة ترى وتلمس وإن تكن مختلطة مهوشة..."<sup>(6)</sup>.

وقد حاول احد الباحثين تحليل الاختلاط والتهويش اللذين يعثوران الأحلام فغزاهما إلى الاختلاط في حلقات التلبيح المنطقي. فثبت مثلاً قد ترى في منامك كراك تمسك في يدك كعاشة، ثم تجد الكعاشة قد استحالت إلى فرد حلال. وسبب ذلك، ان الكعاشة قد ذكرتكم بمقرض التناكره ثم مرحلة في قطاره، ثم بحديقة الحيوانات، ثم ببيت القرية، ثم بالفرد نفسه. ولكن هذا التلبيح قد جرى في ذهنك بسرعة مدهشة، فبدى الفرد والكعاشة متلاحقين، احدهما وراء الأخره، دون سائر الحلقات. وعندما تستيقظ تشعر بان الحلم كان سخيفاً لو غير معقول. ولكنه في حقيقة امره قد جرى حسب خطوات من التفكير المنطقي المعقول<sup>(7)</sup>.

## اختلاف النوم واليقظة:

ونحن مع اعترافنا بوجود وجه للتشابه بين النوم واليقظة، لا يجوز أن ننسى الطرف عن وجود وجه للاختلاف بينهما في الوقت ذاته. وهنا الاختلاف يظهر بجلاء في كثرة الرموز التي تلجأ إليها الأحلام في تصوير أفكارها. والظاهر أن قننم لا يسهل عليه تخيل الأفكار المجردة إلا إذا جعلها في أشكال محسوسة. فالتت حين حلمت برؤية الكملشة في يديك إنما أرادت أن تعبر بها عن بعضك لأحد أعتاك. أما القرد الذي رأيته بعد ذلك فربما كان رمزاً يشير إلى عدوك الذي كنت تطلق عليه اسم "القرد" في حديثك عنه.

والمظنون أن الأحلام ترجع بالانسلاخ إلى أطواره البدائية الأولى. وهذا هو ما يذهب إليه الأستاذ يونغ واتباع مدرسته<sup>(18)</sup>. ويونغ من الذين ثاروا على فرويد وحاولوا إصلاح نظريته كما هو معلوم.

يقول سلامة موسى: "ونحن ننحدر في النوم إلى درجة التطور الحيواني، حتى أننا في الأحلام نجد التفكير يجري بصورة متتابعة خالية من الكلمات إلا قليلاً جداً. لأن اللغة طور جديد راق في قشره والحلم هو رنة إلى العواطف التي لا تحتاج في تعبيرها وعربيتها إلى لغة. ولما كان الحلم خالياً في الأغلب من الحديث والكلمات فإنه يسير بالرموز. ومن هنا قصوبة في تفسيره. كما أننا نستطيع أن نستشير به في اللوقوف على نشأة التفكير عندنا"<sup>(19)</sup>.

## تعليل الأحلام المؤلمة:

حين ندرس الأحلام المؤلمة في هذا الضوء لا نجد فيها أي سر أو غموض، ولسنا نحن في حاجة إلى التعليل المتكلف الذي لجأ إليه فرويد فيها.

إن الأحلام المؤلمة تشابه من بعض الوجوه تلك الخواطر المؤلمة التي تستحوذ على الإنسان في يقظته، وهو لا يستطيع منها فككاً. إنه يتوقف ويعلمل فيها، كأنه يحمل عبأً ثقيلاً، وكلما حاول إزاحة العبء عن ظهره إزداد للعبء عليه ثقلاً.

والواقع أن الشخص المهموم يعاني في نفسه صراعاً عنيفاً. إنه يعاني ثقل الهم من جهة، وهو يفكر في طرد الهم من الجهة الأخرى. فإذا قام وضفت لديه صوت العقل

الواعي، انهمز لهم الفرصة واخذ بجول ويصوّل بأسلحته الرمزية التي قد توفّق  
التنم صارخاً مرعوباً.

### في ضوء التنويم المقنطيسي:

من الثابت علمياً ان التنويم يشبه النوم الطبيعي من حيث غياب الحس لدى  
التنم، لئلا هو يختلف عنه بكونه يقع تحت تأثير الإيحاء الذي يسلطه النوم  
عليه<sup>(10)</sup>.

فإننا نؤم النوم وسبباً له ولوحى إليه بأنه يرى خطراً محدقاً به شعر فوسيط  
حالا بالخطر، واخذ يستغيث منه.

ومن لتجارب قلمية التي اجريت في هذا الصدد: ان أحد الباحثين نؤم رجلاً ثم  
رمى إليه بقطعة من قماش واوحى إليه بانها كلب. فصنق الرجل بما أوحى إليه  
وتصور قطعة القماش، أنه كلب حقيقي وظل يعتبرها كذلك بعد استيقاظه<sup>(11)</sup>.

وهذه التجربة تساعدنا على فهم طبيعة الأحلام المولة. فالإنسلي يتنقى اثناء  
يقظته كثيراً من الإيحاءات الاجتماعية التي تشبه إيحاء التنويم<sup>(12)</sup>. فأناس  
يقولون له انه سيرسب في امتحانه، لو سيفلس في تجارته، لو سيموت تحت  
عجلات سيارة طائشة، او سيمررد من وظيفته، وتتخلخل هذه الأقوال في عقله  
لباطن، إذ هو يحاول كبتها او طردها من ذهنه دون جدوى. وكثيراً ما يوحى  
الإنسان لنفسه اموراً اشبع مما يوحىها إليه النلس، فهو يتخيل اياه او ابنه ميتاً او  
يتخيل بيته متهدماً عليه وعلى عائلته. وهو يدرك هذه الخيالات المخيفة بتفكيره  
الواعي. فإننا ناه ظهرت في احلامه كأنها حقائق، فيستيقظ وقد جف ريقه من شدة  
الهلع.

### حادثة شخصية:

حدثت هذه الحادثة في ايام صباي وكنت بطلها الهمام، وخلصتها ان صبياً  
اصغر مني عمراً أوقعه القدر في يدي، وتردت لن اضحك عليه، فاختذت احده عن  
اموال الجن والمقاربت والغيلان. فزليت الرعب بلياً على وجهه، وقد نغني للخبث  
الى التماوي في حديثي المرعب، فقلت له، ان العقاريت ستظهر له في نومه وتاخذ  
بخطفه وتنهشه بتدليلها للقطيعة.

وذهب الصبي إلى حال سبيله، ففسيت القصة وظننت أن قصبي سببناهاً أيضاً، ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت أهل الصبي ياتون في صباح اليوم التالي، وعيونهم قدح شرراً، وتبين أن الصبي حدثهم عن أهوال العقاريت على منوال ما حدثته بها، ثم رآها في المنام وهي تواجهه من كل جانب، فلم يقدر على النوم تلك الليلة من شدة الهول، وظل بصرخ مرة بعد مرة حتى الصباح، ولا تسل عما فعله أهل الصبي لي في الصباح، فقد انتقموا له مني، ولروني عقاريت للنهار عوضاً عن عقاريت الليل.

### حكمة عامية:

جاء في أحد الأمثال المصرية للدارجة، إن الذي يخاف من العقاريت يطلق عليه - ولا يخفى ما في هذا النثر من حكمة نفسية كبرى، ونحن نستطيع أن نجد مصداقها في أولئك الرعايد الذين يهرون في الأزقة المظلمة أو الحمامات القديمة عقاريتاً من الجن يخرج عليهم ليطلقون سيقانهم للريح صرخين.

ويجب أن لا ننسى هنا أن الخوف طبيعة لازمة في كل إنسان، فليس في الدنيا بشر لا يخاف، إنما يختلف الناس بعضهم عن بعض في درجة الخوف الذي يعتريهم عند الخطر، ومهما كان الإنسان شجاعاً فهو لا بد أن يشعر بشيء من الخوف أحياناً، ولكنه لا يجب أن يظهر الخوف عليه - فإذا نام انطلق الخوف للكبوت في اتلامه وأخذ يزعجه ويقض عليه مضجعه.

### قانون كويه،

ومما يساعدنا على فهم ذلك ما جاء به الأستاذ كويه، الباحث الفرنسي المعروف، فقد اكتشف هذا الباحث في أغوار النفس البشرية قانوناً له صلة بموضوعنا الذي نحن فيه.

يقول كويه، إننا سهلرت فكرة على إنسان بحيث صارت متخلخلة في أغوار عقله الباطن، فإن كل الجهود الواعية الذي يبذلها الإنسان في مكافحة تلك لفكرة تؤدي إلى عكس النتيجة التي كان يبتغيها منها<sup>(13)</sup>، ولشرح هذا لقانون نقي بمثل راكب الدراجة وهو مثل يعرفه كل مبتدئ في تعلم الركوب عليها، إذ هو لا يكاد يرى زجلجة مكسورة أمامه في تطريق حتى يجد نفسه مدفوعاً هو ودراجته نحوها.

وهو كلما أراد التجنب عنها لشدت اتجاهه نحوها. ثم يرى عجلة الدراجة قد سارت فوق الزجاجة رغم أنه، وهو قد يعجب كل العجب كيف استطاعت هذه أن توجه الدراجة نحو تلك الزجاجة اللعينة، مع العلم أنه عاجز عن توجيه الدراجة حين يريده قيد شعرة.

وتعليل ذلك أن المبتدئ في ركوب الدراجة يرى الزجاجة المكسورة في الطريق، فيخشى أن يتمزق إطار درجته بها. وهذه الخشية منه تتغلغل في عقله لباطن وتسيطر عليه. وهي إذن تنفعه نفعاً نحو الزجاجة، أما لادته الواعية في تجنب الزجاجة فهي تضره في هذا الجدل، لأنها تزيد من حدة فكرة السيطرة على عقله لباطن. وكلما ازداد حرصاً على تجنب الزجاجة لشدت تدفاعة نحوها.

ومثل هنا ما يحدث للمشي على حافة جدار عال. أنه يسقط في أرجح الظن. وسبب ذلك أنه ينظر إلى الأرض تحته فيخاف من السقوط ولكنه يشجع نفسه ويتظاهر بالجرأة وانفجرة البهلوانية، فيزداد خوف السقوط فيه قوة، وهو قد ينغمه إلى التسقوط فعلاً.

### مشكلة الإرادة البشرية:

الواقع أن الإنسان غير قادر على قمع فكرة متغلغلة في عقله لباطن، إلا هي تزداد قوة كلما أراد الإنسان قمعها ومكافحتها. ونجد أمثلة على هذا في كثير من شذوئنا اليومية. فنحن نريد أن نتذكر اسماً من الأسماء، ولكننا نجد أننا نسيناه وبهتد نسينا له بمقار ما نحرض على تذكره. فإذا يسنا منه وتركناه غير مكترئين له، لمع في ذهننا فجأة. كمثل تلك الحبيبة اللينة التي توجد بالوصول من حيث لا ينفغ للوصول.

وقد يرى أحداً منظرأ مضحكاً في ماتم، وهو يود ان يكتم ضحكك لئلا يغضب عليه الناس. ولكن الضحك يشته به وهو يكاد ينفجر به. فإذا خرج من الماتم وزال عنه الخوف من الضحك، زال للضحك معه.

والإنسان قد يحاول النوم أحياناً فيمتنع النوم عليه. ويأخذ بالتقلب على قرفشه كئنه يطلب الاستحيل. مع العلم أنه قد ينام في القهى أو في السيرة وفي أي وقت لا يريد أن ينام فيه.

## النفس الخبيثة:

عجيب لمر هذه النفس الشريرة. فلقد وجدناها تنقلب إلى خصم لنعيم حالاً نطلب العون منها. وبهذا يصدق عليها المثل الفارسي، "لربنا عوناً فصرنا فرعوناً". فتحن لا نكاد نخاف من شيء ونحرص على تجنبه، حتى ترى الضوف قد استحال إلى اندفاع عارم نحو ذلك الشيء الذي لربنا للتخلص منه.

وقد يجوز لنا بلأ أن نقول بأن الخوف تنقلب إلى رغبات حين يقع عليها كبت من الإرادة الواعية. فإذا ضعفت الإرادة الواعية في النوم ظهرت المخاوف كأنها رغبات كالمئة تنشد التحقيق. ويضرب في أن فرويد لم يقطن إلى هذه الحقيقة. ولو أنه عرفها لاستطاع أن يعلل الأحلام المولة تعطيلاً وافيئاً ضمن الإطار المحدد له، دون أن يلجأ إلى التكلف والتويل المصطنع.

## الأحلام المخجلة:

قد يرى الإنسان في بعض الأحيان احلاماً مخجلة كمثل ما يرى احلاماً مفزعة. فقد يحلم ذات ليلة كأنه يتخوط في الشارع امام الرئح والغاني او هو يجلس مكشوف العورة في حفلة مزبحة بالنس، فيستيقظ وهو شاعر بالخزي.

من الممكن تفسير هذا النوع من الأحلام بان صاحبه كان قد اصرب في بعض ليله الماضية بقضية اخجلته. فهو يثذكرها في يقظته مرة بعد مرة ويحاول ان ينسأها عبتاً. وكلما حرص على نسأهاها تبعثت فيه بدرجة اقوى.

ومنه الفضيحة قد تظهر في النوم بصورة رمزية. فالرقب الخلفي قد يمنع لخالج من استعادة فضائحه كما وقعت تلمأاً. ولهذا فهو يستعيبها على نمط بلاني، ويصير عنفند كالطفل الذي لا يجد حرجاً من التخوط في الشارع أو إظهار العورة امام الناس.

## هوامش الفصل العاشر:

- (1) انظر : Eysenck, Sense and Nonsense Psychology, p. 144
- (2) انظر: Hadfield, Dreams and Nightmares, p. 32
- (3) انظر: Alexander, Fundamentals of psychoanalysis, P. 150
- (4) انظر: Hadfield, op. cit. P. 32
- (5) انظر: Ibid, p. 30
- (6) انظر: سينل، الحاسة السادسة، ص 71 - 72 .
- (7) انظر: المصدر السابق، ص 72 .
- (8) انظر: Hadfield, op. cit. p. 88
- (9) انظر: سلامة موسى، عقلي وعقلك ، ص 59 .
- (10) انظر: Woodworth, Study of Mental life
- (11) انظر: Humphrey, Story of Man's Mind, p. 269
- (12) انظر: علي الوردي، شخصية الفرد العراقي، ص 24 .
- (13) انظر: Baudouin, Suggestion and Autosuggestion, p. 116

## الفصل الحادي عشر

### التنويم الاجتماعي

#### تجربة نفسية:

شهدت في عام 1948 تجربة علمية في التنويم انغناطيسي لها دلالة نفسية كبيرة. وقد اجريت هذه التجربة في جامعة تكساس الأمريكية، وحضرها آلاف الطلاب وكثير من المتفرجين غيرهم. وكان القلم بها متؤم معروف اسمه بولكا حسب ما اذكر.

وخلال التجربة ان النوم اختار من بين الطلاب شاباً له قابلية كبيرة للتنويم. فجاء به إلى المسرح ونؤمه أمام الحاضرين، ثم اوحى إليه انه بعد استيقاظه من التنويم سيلقى خطبة رنانة في موضوع الكشفية. ولكنه سوف لا يبدأ بالخطبة إلا عندما يلمسه للنؤم باطراف اصابعه على راسه.

وعندما استيقظ الشاب شعرنا بأنه نسي ما اوحى إليه النوم لثناء للتنويم. ولم يكد النوم يلمس راسه حتى تغيرت ملامح وجهه وبدأ كأنه بعد نفسه لالقاء كلمة. فتوجه نحو الجمهور واخذ يتنصع ثم شرع يلقي عبارات متعققة في مدح الحركة الكشفية وفي الدعوة إليها. وكلما حاول النوم رده عن لقاء خطبته اصر هو على التمازي فيها.

وضع الحاضرون بالضحك. وصاروا يصرخون به ان يسكت. فلم يكثر

لصراخهم، وظل يلقي خطبته كأنه مدقوع إليها ببلغ لا شعوري قوي. لقد كان في عالم آخر غير العالم الذي كنا فيه. ولم يستقر إلا بعد أن نهى الونجب الذي فرض عليه نفيه لتدويم.

إن هذه الظاهرة التي شهدتها تعرف في علم النفس باسم "إحياء ما بعد التدويم". والمعروف عن فرويد أنه كان على علم بها، وهي التي دفعت إلى اكتشاف العقل الباطن في الإنسان، قبل أنه رأى ذلك يوم رجلاً يدخل تحت تأثير التدويم المغناطيسي ثم يوحى إليه أنه بعد استيقاظه سوف يسرع إلى فتح الشباك حالاً يسمع سعالاً من الشخص الذي نومه. واستيقظ النائم وهو غافل عما أوحى إليه أثناء التدويم. ولكنه لم يكذب يسمع السعال حتى لسرع إلى للشباك يفتحه، نون إن يدرك لما فعله سبباً<sup>(2)</sup>.

والواقع إن إحياء ما بعد التدويم لا يقتصر أثره على الساعة التي تلى الاستيقاظ من التدويم مباشرة، إنما يشمل أثره مدة طويلة قد تبلغ للشهور العديدة والأعوام.

لنفرض أننا نؤمنا شخصاً وأوحينا إليه بأنه سوف يرقص في الشارع بعد مرور ستة كاملة عليه، وذلك عندما يسمع ساعة المدينة تدق اثني عشر نقة. وما أن تنقضي السنة ويحل الوقت للمعنى إذ تدق الساعة فيه نقاتها المنتظرة حتى يشعر صاحبنا برغبة شديدة نحو الرقص في أي مكان يكون فيه.

إنه قد يكره رغبته تلك أو يفارها خجلاً من الناس، ولكنه يصر على أي حال بالهبل إلى الرقص، ولا يستريح حتى يحقق ذلك الميل على وجه من الوجوه. ولعله ينتهز أية فرصة تسنح له فيطلق لرغبته وكتفئه، لو لبطنه ورفقيه، العنان ويأخذ بيهزها كما يشتهي. وهو لا يتردد بعدئذ أن يخلط الحجاج والأعناق لتبرير رقصه السخيف ذلك.

### معزى هذه الظاهرة:

من العجيب حقاً أن نجد انساناً عقلاً وأعباً وهو يتدفع في عمل ما ابتغاعاً لا شعورياً نون أن يعرف السبب الذي دفعه إليه. وهنا يأتي فرويد فيقول إن ليس في هذا الأمر عجب. ففي رأي فرويد إن كثيراً من أعمالنا تجري على هذا المنوال، ولكننا

نحاول أن نستتر عليها أو نخلق لها البررات العقلية فنتبدو في نظر الناس كأننا  
من أعمال العفلاء، بينما هي إلى أعمال المجننين أقرب.

فإنح قد ترى شخصاً لأول مرة فنشعر بكرهية شديدة له، ونود أن نهجم  
عليه فنمسك بتلابيبه ونشيعه لكماً ووصفاً، مع العلم أننا لم نعرفه من قبل،  
وليس لنا عنه سابق 444. فملنا كرهنا إن؟.

يعتقد فرويد أننا كرهناه لأنه ذكرنا بشخص آخر نكرهه. وهنا التنكير لا  
شعوري ينبعث من العقل الباطن وليس له علاقة بتفكيرنا المنطقي أو حبنا للحق  
والحقيقة. كما ندعي أحياناً.

وتستطيع تشبيه أفكارنا القديمة الدفونة في العقل الباطن بإجراء ما بعد  
التنويم. فلذا إذاك شخص ولم تستطع الانتقام منه، بقيت رغبة الانتقام كامنة في  
أغوار نفسك. ولا تكاد ترى شخصاً له شبه بذلك الذي لك من قبل حتى تظهر  
عليك الرغبة في الانتقام منه من حيث لا تدري.

والناس يتفوتون في مدى ما يستجيبون به لدوافعهم اللاشعورية، فمنهم من  
يتدفع وراءها من غير خجل، ومنهم من يداريها فلا يحقق منها شيئاً إلا بعد أن  
يجد من الناس رضى أو استحساناً.

وكذلك يتفاوت الناس في أسلوب العمل. فمنهم من يلجأ إلى اليد يصفع بها أو  
أساق يذفر بها. وأولئك هم السفلة من الناس. أما المتقفون فيلجأون إلى البراهين  
العقلية والمنطقية يهاجمون بها من يكرهون ولعلمهم في ذلك أشد خطراً وأكثر بدياً  
وبتاعة.

إن صولة اليد قد يعاقب عليها القانون أو يعترض عليها الناس، ولكن صولة  
البراهين العقلية والمنطقية لا يذفع فيها القانون أو الاعتراض الاجتماعي. ولهذا نجد  
المتقف فلنيم يعتدي على الناس دون أن يقف في سبيله أحد. وهو لا يستحي بعد  
ذلك أن يقول أنه يجري في أعماله حسبما يريد الله ورسوله أو حسبما تقضيه  
مصلحة الأمة والوطن...

## العقل والسلوك:

يقول فرويد، إن العقل البشري يشبه جبل الجليد العائم في المياه القطبية، حيث يغطي منه تحت سطح الماء تسعة أعشاره، ولا يظهر منه للعين سوى عشر واحد. ومعنى هذا أن الأجزاء المختفية من العقل هي التي تقرر سلوك الإنسان. أما الجزء الظاهر من العقل فليس سوى برقع يحلول الإنسان فن يغطي به سلوكه الشاذ.

والباحثون اليوم لا يرون فرقاً أساسياً بين الجنون والعقل من النلس، ونحن معاشر العقلاء الذين نتمسك بالآفاويل المرناة لا نختلف عن المرضى المحجوزين في دار المجانين إلا بالدرجة فقط<sup>(3)</sup>.

كلنا نخضع للخوافز العارمة التي تنبعث من عقولنا الباطنة، ولكننا نبررها ونغطي عليها. أما الجنون فهو لا يملك هذه القدرة في التبرير والتغطية، إذ هو يتدفع بخوافزه اللاشعورية من غير لف أو دوران<sup>(4)</sup>. فهذاك النلس عليه وبرمونه بالحجارة، ولو علم النلس بما يكمن في عقول العقلاء نُضحكوا عليهم أيضاً.

وقد صدق الشاعر العربي حين قال:

وكل النلس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون.

## العقل والمجتمع:

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحد الذي يفصل بين للعقل والجنون هو حد اعتيادي يتغير بتغير القيم الاجتماعية، فرب وجبه محترم بيننا يعتبر مجنوناً في نظر غيرنا، ولو انتقل أحد هؤلاء للمتشيخين من أرباب الشوارب الفتولة إلى مجتمع متمدن لسلكه الناس إلى دار المجانين وتخلصوا منه.

مزيه "العقل" أنه يفهم القيم الاجتماعية ويعرف كيف يراوعها أو يتجنب الاشتياك بها. أنه بعبارة أوضح: مجنون لا يحب إظهار جنونه<sup>151</sup>، فهو يسيطر على دوافعه العارمة ولا يفصح عنها إلا بطريقة برلها مقبولة، ولكنه لا يكاد يرى الفرصة مؤتية حتى يتدفع في لشباع شهواته كما يتدفع المجنون.

كنت نمر بسوق البزازين ذات يوم فشهدت فيه عراكاً عنيفاً، وكان بعض البزازين يحملون في أيديهم مقاييسهم الحديدية ويهرون بها على رؤوس زملائهم. لقد كانت في الواقع معركة جنونية ليس لرداع العقل فيها نصيب. ونحن إننا ندرس هذه المعركة ولقائلها التي تكثر في أسواقنا يجب أن نبحث في طبيعة القيم الاجتماعية التي تسيطر على عقول الناس لنتاه المعركة، إنها تحتقر الرجل اللطيم الذي لا يرد الإهانة بعقلها لو لشد منها. ولهذا فالمعركة تبدأ بكلمة بسيطة أو بحركة غير ذات بال، ثم تشتد تدريجياً، حتى تصل إلى ما لا يحمد عقباه في معظم الأحيان.

وعندما تنتهي المعركة يأخذ الناس بالشحذ عنها وعن الأبطال الذين بزوا أقرانهم فيها، انهم يصفون فلاناً بأنه "محدث"، وفلاناً بأنه "سبع"، فيحتقرون الأول ويحترمون الثاني. وهم بذلك يشجعون الانسان أن يكون سبياً ضارياً في كل معركة يخوضها، وهو يجد نفسه متدفعاً في هذا السبيل انتفاعاً لا شعورياً يصعب التكتب عنه.

### من أوجه الصراع النفسي،

إن الانسان يشعر بالراحة حين يوفق بين رغباته المكتوبة وقيمه الاجتماعية. فلذا كره أحداً كرهاً شخصياً، ثم وجد القيم تشجعه على إيقانه، اندفع في الإيقان مطمئناً كقته يقوم بعمل من أعمال الخير.

وهذا هو سبب ما نرى في للناس من ظلم شنيع، إذ هم يقومون به دون أن يردعهم ضمير لو تمتعهم عنه خشية الله.

إن الضمير لا يستيقظ في الانسان إلا عندما تتناقض الرغبات الشخصية والقيم الاجتماعية وعندئذ يلتك الانسان وينتابه الندم المرير. وهنا هو وجه من أوجه صراع النفسي.

وهناك وجه آخر من أوجه الصراع النفسي لدى الانسان، هو الذي ينشأ من جراء لتصادم بين القيم الاجتماعية ذاتها.

والملاحظ أن القيم الاجتماعية قد لا تكون من نمط واحد في المجتمع الواحد.

فالأإنسان قد يجد مثلاً في بيته من القيم ما يختلف عما يجد منها في السوق أو المقهى أو المدرسة أو النادي، . وحينئذ يقع تحت تأثير أنواع مختلفة من الإيحاء وقد يزدحم عقله الباطن بالرغبات المتخاوة فلا يدري أي جانب يأخذ.

خذ مثلاً هذا الرجل الذي يخرج من بيته وهو شامخ بانفه يتمطى، فتحسبه من أصحاب العقول الراجحة الذين لا يقومون بعمل إلا بعد تفكير متزن ومنطوق سليم. ولكنك لا تدري انه راجح تحت وطأة الإيحاء اللاشعوري الذي سلطته عليه في البيت أمه أو زوجته أو أحد أفراد عائلته. وهو إذن منطلق نحو الهدف الذي أوحى به إليه في البيت، فلا يعرف من الدنيا سواه.

إنه يعاني حينذاك صراعاً نفسياً. فالمجتمع الخارجي يريد منه شيئاً، والمجتمع البيتي يدفعه نحو شيء آخر. وكثيراً ما يقع في مفارقات مضحكة من جراء هذا الصراع. ولعله ينظر في الأمور بعنظار يختلف عن منظار غيره من الناس. وهو يحاول أن يوفق بين هذين المنظرين. فينتج تارة ويخفق تارة أخرى.

### يريد أن يصير وزيراً:

لتفرض أن رجلاً تزوج من امرأة اعلى منه مقلماً، وهي تتأخر على تبيكته واستصغاره. فهي تقول له، " ما هذه الحقارة فيك؟ الا ترى فلاناً أو فلاناً قد صار وزيراً، وانت باق في وظيفتك الصغيرة لا تعرف سوى الباهلة الفارغة؟ " .

إنها تعيد عليه هنا لقول صباح مساء، وهو يرد عليها قائلًا، " سوف تعرفين من اناء أصبري قليلاً " . وهو يخرج من بيته ورأسه مملوء بهذا الإيحاء الضيق. فتراه لا يعرف من دنياه سوى التكلب على المنصب الوزاري. وإذ به يتزلف إلى هذا العملاق لو ناله وهو مستعد أن يقلب الدنيا على رؤوس الناس لتحقيق ما يصبو إليه قلبه، أو ما تصبو إليه زوجته الكريمة.

لقد لنحصر تفكير هذا الرجل في إطار ضيق. وليس له من أعماله ولقوله سوى هدف واحد، هو أن يجعل زوجته راضية به. ومشكلة زوجته انها لا ترضى به إلا إذا صار وزيراً، إذ هي تريد أن تفتخر بزوجها العظيم املم زميلائها، وتشتهي أن يكون امرأ ناهياً، يعزل ويتصّب، كما يشاء وتشاء هي من ورثته.

## أمثلة أخرى:

وأرجو من القارئ أن لا يضحك من هذا الرجل. فلو حلل القارئ نفسه لوجد أنه لا يختلف عنه كثيراً. إنه قد لا يحب أن يكون وزيراً، ولكنه لا يخلو من طموح على أي حال. وربما أراد أن يكون شرطياً بدلاً من ذلك. والشرطي له مقام رفيع لدى بعض الناس.

فقد ينشأ الإنسان في قرية صغيرة. وهناك ينظر الناس إلى الشرطي كما ننظر نحن إلى الوزير. فهو يأمر وينهى، ويعاقب ويعفو. نون أن يكون عليه رقيب. وتقليسه في مثل هذه القرية قد يجد من فيه أو أمه لو بعض أفراد عشيرته من يوحى إليه بالسعي وراء المعالي. ومن طلب العلا سهر الليالي!

إن كل طموح بشري لا بد أن يخفي وراء إيهاء لا شعوري. وهنا الإيهاء اجتماعي بطبيعته. فالإنسان يحب أن يرتفع في نظر فرد أو جماعة من الناس. ولا خير في علو ليس له من ينظر إليه ويعجب به.

## سحر الكلمة العابرة:

ورب كلمة عابرة يلقي بها أحد الناس، فتصبح ذات إيحاء قوي في عقل الإنسان. وتراه ماضوناً بها، حيث تصير حياته سلسلة من الحلولات لتحقيق ما جاء في تلك الكلمة العابرة.

كان رجل يعيش قرب أحد القصابين فسمعته يذم بعض النين يشترون منه اللحم. فهم يشترون لحمًا قهلاً لبيوتهم، وهذا في نظر القصاب يخل لا يرضاه الله ولا ترضاه الروعة. وقد أثرت كلمة القصاب هذه في عقل الرجل، فصار ينادي على شراء اللحم الكثير في كل مرة. وهو يضيق على نفسه بذلك. فعائلته لا تحتاج إلى هذا اللحم الكثير. ولكنه يريد أن يظهر أمام الناس بمظهر الكريم، ولا يبالي أن يبذر رزقه القليل في سبيل نك يوماً بعد يوم.

ومن القصص التي لا أنساها قصة أرملة عجوز كانت تسكن في محلتنا القديمة. فقد شتمتها إحدى جاراتها ذات يوم واتهمتها بالفقر الدقع، وقالت أن بيتها لا يعرف للطبخ ولم يوضع فيه قدر على نار.

وكانت هذه الشبهة بمثابة نقطة تحول في حياة الأرملة. فصار معظم حديثها يدور حول شؤون الطبخ. إذ كانت تريد أن تيرهن أنها تخطيخ في بيئها كسائر الناس وأن ما قلته تلك الجارة المعتدية كذب في كذب. وكنت أراها في كل صباح تذهب إلى السوق ويدها سلة، ثم ترجع لتحدث جيرانها عن غلاء أسعار اللحوم والخضرة... وكثيراً ما تقطع حديثها فتسرع إلى بيئها حيث تتظاهر بأنها تريد أن ترتب وضع القدر والطبخ.

وبقيت الأرملة على هذا النوال مدة طويلة، حتى صارت لا تعرف من دنياها سوى تغنيده ذلك القول الذي فاضت به جارتها ولن تتظاهر بعكسه.

### من أسرار الطبيعة البشرية:

وقصة هذه العجوز تكشف لنا عن سر هام من أسرار الطبيعة البشرية ففكت لا تكلم نعيب الإنسان بشيء أو تتهمه بصفة مستهجنة حتى تجده قد انتفض غضباً وأخذ يحول ثبوت نفسه من تلك التهمة في كل سبيل. وربما انقلبت حياته من جراء ذلك رأساً على عقب.

ورب رجل قال له أحد أقرانه في محضر من الناس بأنه جبان، فإذا به ينسى كل أمر في الحياة سوى ما يبرهن به على نقض ذلك القول، وتراه ينتهز كل مناسبة لكي يظهر بها مقتدر شجاعته وقوة صراعه ومراسه.

وتحن مع ذلك لا نستطيع أن ننكر تفاوت الناس من هذه الناحية، فمنهم من يتأثر بالكلمة العابرة أقل مما يتأثر بها غيره، ولكنه على أي حال لا يستهين بها أو ينسأها على وجه من الوجوه. وعن الممكن القول أنه كلما كل الإنسان أكثر نضوجاً وحكمة كان تأثيره بالإيحاء الاجتماعي أقل. ولم يخفق له انساناً كامل للنضوج والحكمة لبدأ.

### الذات والغير:

تميل الأبحاث الاجتماعية الحديثة إلى القول بأن الذات البشرية ليست معلقة في الفراغ، إنما هي متصلة اتصالاً وثيقاً بما يتصوره للغير عنها. ففكت تشعر بأن الغير ينظر إليك، ولهذا تصبغ لذلك بصبغة القيم التي يقيسك الناس بها، فإذا رمقك الناس بخظرات الإعجاب، أو خيل إليك أنهم ينظرون إليك بهاء شعخت بانفك

وظنتك أنك أصبحت رجلاً كبيراً محترماً لجناب، أما إننا لندرك الناس واقتصمتك  
لعيون شعرت بالضعفة ورمت أن تقوم بعمل يؤذي بالناس إلى احترامك والاعجاب  
بك.

إن الذات والغير كما يقول الأستاذ كولي، وجهان لحقيقة واحدة، وهما يولدان  
معاً، فلا وجود للذات إن من غير أن توجد بجانبها صورة للغير نظرة إليها<sup>(٤٦)</sup>.  
وقد أخطأ من يدعي بأنه لا يهتم بالغير ابداً، فلاهتمام بالغير شرط لازم لظهور  
الذات في الإنسان. ولكن هنا الاهتمام قد يختفي في الأشعور فيظن صاحبه، خطأ  
أنه غير موجود.

قد يتبجح أحد الناس بأنه يحب الحقيقة خالصة لوجه الله، وأنه يؤثرها على  
ذاته. وهذا منه كذب ورياء في معظم الأحيان. إنه يحب ذاته قبل كل شيء. ولكن  
هذه الذات التي يحبها قلتما على نظرة الغير إليها، إن البديوي قد يقتلك من أجل  
فلس واحد، وذلك حين تأخذ فلس منه عتوة. فهو يعد تلك غبناً ويشعر أن  
الفلس سوف يعتبرونه من جراء ذلك ضعيفاً أو مخدوعاً. وتأتي عليه ساعة أخرى  
فيبذل في سبيلك كل ماله لو يقتل نفسه من أجلك. والسر في ذلك أنه وجد في الأمر  
فخراً وتخيلاً أن العشيرة ستحدث عنه حديث المدح والإعجاب.

وقل مثل هذا عن أي إنسان. فانت قد تستمع إلى أقاويله ودعواه فتحسبه  
منطقياً في سلوكه. ولكنه في الحقيقة واقع تحت تأثير الإيحاء المسلط عليه في البيت  
أو الحيوان أو القهي أو السوق. إنه نائم وتحسبه يظنان. وهو لا يختلف كثيراً عن  
ذلك المسكين الذي نوجهنا إليه أثناء التذويم أن يرقص في وقت معين، وعندما حل  
الوقت أخذ يهز كتفيه أو رنغيه من غير حياة.

### عبث الواعظ المثالية:

أنهمك الواعظون منذ قديم الزمان يصب التصنيع الغالبية على رؤوس المستمعين  
الكرام. المستمعون يصغون إلى الواعظة بكل خشوع، وهم قد يقولون للواعظ عند  
الانتهاء منها، "أحسنتم - بارك الله فيك" - ولكنهم لا يكادون يخرجون من مكان  
لوغظ حتى يرجعوا في بيوتهم القديم. وكثيراً ما يرجع الواعظ معهم إليه.

وسبب ذلك أن الإنسان يتبع في سلوكه العمل ما توحى به القيم الاجتماعية.

إنه بعبارة أخرى يفعل ما يريد الناس منه أن يفعل. فإذا لقي الواعظون عليه تعاليم الأنبياء والأولياء وحفظوها. ولعله يلقيها على غيره عند الحاجة. ولكنه بالرغم من ذلك لا يتردد أن يسحقها بأقلامه حين يجد في تخضوع لها مهانة.

وقديماً قال العرب: "النار ولا الحار". ولا يزال كثيرون منهم يقولون ذلك حتى يوم الناس هذا.

أعرف شخصاً كان من أكثر الناس لانتقياً للمهور الغالية. فهو يراها ضارة بالمجتمع هامة لنظام العائلة. وطالما تحدث عن زواج فاطمة لبنة النبي وكيف أن مهرها كان قليلاً جداً. وللظاهر أنه سمع ذلك من خطباء المنابر فتأخذ يردده في أقواله كالبيضاء.

ثم جاء وقت خطبت ابنته فيه. وإذا به يطلب انهر الخالي لها. وينطق في أمر الجهاز إلى درجة عجيبة. ولا لوم عليه فيما فعل. فهو قد كان حيثذاك واقعاً تحت تأثير الإيجاء القوي المسلط عليه من زوجته المحترمة في البيت.

إن زوجته تريد أن تبني زميلات لها بجهاز ابنتها. وابنتها بدورها لا تصب أن تكون دون قريناتها في ذلك. وصاحبها لا يستطيع أن يتخلص من الإطار الفكري الذي قيده المحيط الخاص به.

### خلاصة القول:

نستخلص من هذا أن الإنسان هو في حياته الاجتماعية كالواقع تحت تأثير التدويم انغناطيسي. وموموه الأكبر هو المجتمع بما فيه من قيم وتقاليد وأنواع شتى من الإيحاء.

وقد صدق رسول الله حين قال:

"الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا!" -

## هوامش الفصل الحادي عشر:

- (1) هذا الفصل والذي يليه مقتبان من كتاب مخطوط للمؤلف عنوانه: "الشخصية البشرية".
- (2) انظر: Life Magazine. Vol 22. No. 6 p. 69.
- (3) انظر: سلامة موسى عقلي وعقلك، ص 134.
- (4) انظر: Lewis. Psychiatric Movement, p. 167.
- (5) انظر: Young, Personality, p. 765.
- (6) انظر: Dawson & Getty. Sociology, P. 85.

## الفصل الثاني عشر

### الأحلام الكيشوتية

حب الذات:

اشرنا في الفصل الماضي إلى ان الإنسان يحب ذاته ويهيد ان يعلى من شأنها في نظر الناس، ولم يخلق له انساناً لا يحب ان يرتفع في نظر غيره إلا نكراً.

ويختلف الناس في طبيعة هذا الارتفاع الاجتماعي الذي يشتهونه لأنفسهم. فمنهم من يحب ان يشتهر بالبطولة الحربية، ومنهم من يحب شهرة العلم او شهرة للنصب او شهرة المال او غير ذلك. ومرد هذا الاختلاف إلى القيم والمعايير التي تفرزها البيئة الاجتماعية في ذهن الفرد وبها تنشأ في الفرد عقدة نفسية تجعله يسعى وراء تحقيق تلك القيم في كل سبيل.

وانا اردت ان تكشف مفتاح شخصية الفرد فابحث عن العقدة التي تسيطر على نفسه. وعندئذ تنجح في معاملته او في اقناعه وتوجيهه قليلاً او كثيراً.

الحيوان الاجتماعي:

وكان القدماء يطلقون على الانسان اسم "الحيوان الاجتماعي" إذ كانوا يظنون

إن العقل هو الذي يوجه الإنسان في مختلف أعماله. وقد تبين خطأ هذا الرأي أخيراً.

الأصح أن نطلق على الإنسان اسم "الحيوان الاجتماعي" بدلاً من اسم "الحيوان للعقل". فالإنسان لا ينظر إلى الأمور بمنظار العقل للمجرد، إنما هو ينظر إليها بمنظار القيم الاجتماعية وما ينشأ في أغوار عقله الباطن من عقد نفسية تجاه تلك القيم.

اجريت لنا يوم امتحاناً على طلبة أحد الصفوف التي احاضر فيها، فوجهت إليهم السؤال التالي: 'إنا سمعت برهاناً قوياً مخالفاً لرأيك فهل تقتنع به أم لا؟ ولماذا؟' فكان جواب الكثير منهم أنهم يقتنعون بالبرهان لقوي حالاً يلقي إليهم، وكانت نتيجة الإمتحان أنهم رسبوا فيه مع الأسف الشديد.

مشكلة هؤلاء كمشكلة غيرهم من الناس، إذ هم يظنون بأنهم يقتنعون بأي برهان ما دام قوياً، ويتسبون أن قوة البرهان مسألة نسبية. فالبرهان الذي يلائم قيمهم الاجتماعية وعقدهم النفسية يصبح في نظرهم قوياً معقولاً لا ريب فيه ولا شبهة. أما إذا كان على النقيض من ذلك فهو ضعيف غير معقول ولو نزل به جبريل عليه السلام.

### دون كيشوت:

قصة دون كيشوت مشهورة. فقد دبحتها براعة الكاتب الأسباني المعروف سرفانتس، وناقلمها الناس حتى سارت في شرق الأرض وغربها وترجمت إلى مختلف اللغات.

إنها قصة تعطينا صورة رائعة للطبيعة البشرية. وهي لا تخلو من غلو طبعاً، ولكنها بالرغم من ذلك تكاد تصور خلجات نفوسنا وما يعتورها أحياناً من أوهام واحلام. ولعل هذا هو قلمس في انتشارها بين شتى الأتوام.

كان دون كيشوت، حسب رواية سرفانتس، يعيش في إسبانيا قبل ثلاثمائة وخمسين عاماً، وكان المجتمع الأسباني في ذلك الحين مولعاً بقصص الفرسان الغاوير الذين يلبسون الحديد ويبارزون الخصوم ويدافعون عن المرأة والضعيف.

وقد أصبح هؤلاء الفرسان مطمح الأنظار وقبوة لكل من يشتهي أن يكون مشهوراً  
ذا منزلة اجتماعية عالية.

وشاء حظ دون كيشوت أن يكون من أولئك المعجيين بالفروسية فهو يقرأ عن  
الفرسان كثيراً ويتعللهم في خياله ويود أن يكون منهم. فقد سئم من حياته  
للخاملة المغمورة واحب أن يخرج بسيفه ودرعه إلى البراري لكي يقوم بالأعمال  
العظيمة التي يقوم بها الفرسان من أولى السيوف والفرع.

كان دون كيشوت هزلاً ضعيف الحول، وكان حصانه هزلاً مثله. ثم وجد في  
أحدى زوايا البيت نرعاً قديماً معزقاً غير لائق، ولكن ذلك كله لم يمنعه من القيام  
بالمجازفة.

عمد إلى الفرع فاصلحه، ثم ركب حصانه وخرج إلى الناس يتحاشم ويريد  
مبارزتهم. وهنا تبدأ القصة الكبرى، حيث صار بها صاحبنا المسكين اعظم فارس  
على وجه الأرض.

انقلبت حياته إلى حلم رائع ضخم، فصار يتخيل أي شيء يريد أن يراه، ويفسر  
كل ظاهرة بما يشتهي، ولما نفتح أحد الرعاة في بوقه ليستدعي بها أغنامه. ظن  
صاحبنا أنه بوق جندي يرحب به في إحدى القلاع، ولما رأى قطيعاً من الغنم ظنه  
جيشاً عزمواً يقطع الطريق عليه. وهو لا يتردد عنمذ أن ينزل تلك الجيش  
الموهم وينهال عليه طعناً وتقتيلاً.

وحدث مرة أنه رأى طواحين هوائية، فظنها عملاقة تتحداه للمبارزة بلنرعها  
العديدة. فهجم عليها وأخذ يقاتلها قتلاً عسفاً حتى سقط عن حصانه مضرباً  
بالدماء.

وظل دون كيشوت يقوم بمغامراته على هذا التوالي. فبنتصر تارة وينهزم  
أخرى، وهنا لم لا مناص منه. فلتفارس الهمام معرض للهزيمة كما هو معرض  
للانتصار. يوم له ويوم عليه؛

وهو على كل حال فرح بما اتاه منه من الجلد وقوة العباس والشهامة. وظن بأن

الناس أخذوا يلهجون بذكره ويتغنون بمفاخره. بينما الناس كانوا في الواقع يضحكون عليه.

### دون كيشوت بغدادية

لم تنفرد إسبانيا وحدها بدون كيشوت. فقد ظهر من أمثاله كثيرون في مختلف الأمصار.

في أواخر العهد العثماني ظهر في بغداد رجل يشبه دون كيشوت شبهاً كبيراً. وقصة هذا الرجل معروفة لا يزال أهل بغداد يتناقلون أخبارها. لقد كان الرجل قزماً نحيلاً. ولكنه يريد أن يكون من أولئك القصوص الأقوياء الذين كان المجتمع العراقي يحترمهم. ومن الممكن أن ينطبق عليه قول القائل: "اضربوني مية واحسبوني من الحرامية".

ومعروف عنه أنه كان يحمل مسدسين كبيرين في خزامه، وكان حينه لا يخلو من قصص القتل والاعتداء والسطو على البيوت. ويعتبر ذلك من المفاخر. فإننا حدثت حادثة قتل لو سرقة كبيرة، ذهب إلى مركز الشرطة يسأل الناس: هل ورد اسمه بين السراق أو القتلة؟

حدثني أحد الثقات عنه أنه كان يشتهي أن يحكم عليه بالسجن في اللقعة، لكي يخرج من السجن بعد ذلك فيسميه الناس "قتلياً" والظاهر أن لقب "القتلي" في بغداد يومذاك يوازي لقب "الغارس" أيام دون كيشوت. وكان صاحبنا يذهب إلى المحكمة مرة بعد مرة فيعترف أمام الحاكم بأنه هو القاتل لو السارق في القضية انعروضة ولكن الحاكم يلبى أن يحكم عليه بالسجن يوماً واحداً. فيخرج صاحبنا مدحوراً.

الناس يقولون، "السجن للرجال"، وهو يتعنى أن يكون رجلاً بين الرجال. ولكن الحاكم يصبر على براءته في كل مرة، كأنه يعتمد ذلك لكي لا يفوز صاحبنا باللقب النشود.

ومن سوء حظّه أنه كان في حفيظة أمره جباناً خوّافاً، فربما سمع في محطته

صراً ينبئ بوجود لص فيها، لختفي في بيته دون أن يحرك ساكناً، حتى إذا  
هرب اللص أو قبض عليه، خرج صاحبنا من بيته وهو يحمل المستنسخين بكلمتا  
يديه ويصرخ "مين هو؟ دلوني عليه!" .

وظل صاحبنا مثل دون كيشوت حالاً طيلة حياته، إذ كان يتحيل بانه صار في  
نظر الناس من الأبطال الذين يشار إليهم بالبنان وكان الناس يسخرون به من  
حيث لا يدري .

### دون كيشوت كاظمي:

يعيش في الكاظمية الآن رجل من طراز دون كيشوت البغدادي، إلا أنه اتخذ  
سبيلاً آخر للحصول على المكافئة الاجتماعية .

إنه نعيم شعيد السمرة، وقد اعتاد أن يمشي في الأسواق حليفاً وبيده هراوة .  
وهو يكثر من التردد على مركز الشرطة، ويعتبر نفسه وجيهاً ذا نفوذ عريض  
لدى الحكومة، ولا تكاد تحدث في البلدة حادثة حتى يسرع مع الناس إلى الشرطة  
ليتظار في امرها وكيف يعالجها .

إنه يظن نفسه ركيزة البلد، ولولاة لكثير الخصام ولقفل بين الناس . فوجهته  
وسنار ربه ينفذان الناس من البلاء لحيناً كثيرة . والعقدة الكبرى فيه هي اعتقده  
بانه من قواد المهدي "صاحب الزمان" . ولهذا فهو يهدد الخونة والغساق والظالمين  
بالعقاب للشعيد يوم يظهر صاحب الزمان . وعندئذ سوف يضع الفيود في أيديهم  
ويسوقهم إلى للسلطنق أو السجن .

إنه يمشي في السوق أو يجلس في المقهى، ويتخيل أن الناس يرمقونه بنظرات  
الإعجاب ويشيرون إليه بالبنان . وهو لا يتردد أن يرفع هراوته يهدد بها من  
يضحك عليه أو يشك في عظمته للحاضرة أو المقبلة .

### ماهية الأحلام الكيشوتية:

إن الحالة التي رايناها في صاحبنا الكاظمي وفي زميله البغدادي يصح أن ننعها  
نوعاً من الأحلام، وهي التي أطلقت عليها اسم "الأحلام الكيشوتية" . نسبة إلى  
المرحوم دون كيشوت .

وهذه الأحلام تختلف عن أحلام اليقظة من حيث أنها تسيطر على حياة الإنسان كلها فتجعله يظن لنفسه العالم الذي يشتهي أن يعيش فيه. وبهذا تصبح حياته عبارة عن حلم متصل لا انقطاع فيه.

قد يصح أن هذه الأحلام نوعاً من الجنون. ولكن صاحبها يختلف عن بقية الجنان من ناحية معينة، هي أنه يستطيع أن يكسب الرزق وإن يعيل أهله ويربي أطفاله كما يفعل العقلاء. وكثيراً ما يسير في أعماله العاشية والعائلية سيرة غيره من الناس، حيث لا يظهر عليه من الشذوذ فيها إلا قليلاً. وهنا الشذوذ على أي حال محتمل لا ينشأ عنه ضرر اجتماعي كبير.

### كلنا نون كيشوت:

حين نسمع قصة نون كيشوت وامثاله نضدك عليها بملء اشتياقنا ونظن أننا منزهون مما جاء فيها. ولو درسنا أنفسنا لربما موضوعية لتبين لنا أننا في ذلك مخطئون.

إن قصة نون كيشوت ليست سوى صورة مضخمة لكل إنسان. فكل واحد منا يملك عن نفسه صورة خيالية أكبر مما هي عليه في حقيقة أمرها، ولكنه يكتفي في أعماق قلبه ولا يحب أن يعلم للذات عنها شيئاً كثيراً. وتختلف تلك الصورة الخيالية باختلاف العقدة التي تحتور قلب الإنسان. فلشباب الموهب ينخيل أنه أصبح يجمله وناقته معبود النساء. والأساتذ الجامعي يعتقد أنه بلغ في العلم مكانة لا يدانيه فيها أحد، والفقيه يرى نفسه قد فاق الأولين الآخرين بزمده واجتهاده، والوزير يظن أنه أعظم ساسة العالم حنكة وإخلاصاً، والخبز يعد نفسه ممثل الشعب وعماد الرأي العام، والكاتب يعتقد أن القرأه يذوبون إليه شوقاً وهياماً....

وكل واحد من هؤلاء يحفظ الأقوال التي قيلت في مدحه، بينما هو يقسى الأقوال التي قيلت في نعه. فإنا جامله الناس ووصفوه بالعظمة، قال عنهم أنهم أناس أفاضل يحترفون بلحق ولا يخشون فيه لومة لائم. أما إذا جابهوه بالتقد المير قال عنهم أنهم حسك النياء لعنة الله عليهم.

للإنسان غريبي تفساني يغربل به الظواهر الحيطة به. وهو لا يأخذ منها إلا تلك

النواحي التي تعجبه وتلد له . وهو بذلك يعيش في حلم لنهذ ولا يجب ان يوقظه احد منه .

### اصحاب عقدة النقص:

وهناك من الناس من يكون غريالهم معكوساً حيث لا يفهمون من للظواهر الا ما يسوءهم . وهؤلاء مرضى ، قد اناهم المجتمع واحتقرهم مدة طويلة فاعتادوا ان لا يلقوا منه سوى الاحتقار والاذى . انهم في الحقيقة معجبون بانفسهم ويريدون لها للعلم والمكانة . ولكنهم يعتقدون بانهم خلفوا في غير زمانهم وان الناس لا يقدرونهم حق قدرهم . وقد يدفعهم هذا الاعتقاد الى الانفصام عن الحياة الواقعية والى التحديق في الأحلام الكيوشوتية تحليقاً عالياً .

### ذو الفضل يفتنى:

ولا ينكر مع هذا وجود افراد مرستهم تجارب الحياة ، ولوتوا من الحكمة والذكاء قسطاً كبيراً . فاستيقظوا مما هم فيه من حلم لنهذ ولكنهم قليلون .

وهؤلاء يفهمون النخيا عارية ، فيضحكون عليها . ولهم بعض الحزاء في هذا الضحك . إنما هم انشقفاء فيما سوى ذلك .

ونرى ائدهم يحسن التكتة على نفسه وعلى الناس . وهو يتأمل في الحياة فيراها سلسلة من الرقاعات والمفارقات . ويتمنى ان يكون كغيره من الناس حالاً مخدوعاً . فالعلم نجدى للإنسان من الحقيقة المرة احياناً .

قد يفضل الانسان ان يكون من طراز بون كيشوت ييلرز للطواحين للهوائية ، على ان يكون من طراز تلك العاقل المتك الذي يحرف سر نفسه وسر للطواحين!

### الرقاعة البشرية:

اعتاد الإنسان ان يلاحظ الرقاعات التي تبدو من غيره وينتقدها او يسخر منها . وهو لا يدري انه مصاب بها ايضاً . انه محب لنفسه وهو يميل الى تبرير رقاعاتها بشئ الأعتار والحجج . وكذلك يبرر رقاعات ابيه واصدقائه القربين . اما خصومه ومنافسوه فهم في نظره من اكثر الناس رقاعة وسخفاً .

قد يلقي أحدهما خطبة في إحدى الحفلات، فيلوح يديه في الهواء ويهز رقبته ويتغمص صوته رقياً وخفضاً، والناس متوجهون بأبصارهم نحوه، فيظنّ لهم يكلمون يذويون إعجاباً به ويلوحى الذي ينزل عليه.

وعندما تنتهي الحفلة يحف به الأصدقاء ليجاملوه ويهنتوه على خطبته الرفيعة، وهو ينهب بعد ذلك إلى بيته فرحاً بما أتاه الله من المقام الرفيع، وإنما هو لا يدري ماذا كان خصومه ومتأفسوهُ يقولون عنه في غيابه. ولو درى به لحرمه لذيذ الرقاد.

إنه ينظر إلى نفسه كما ينظر الحب إلى حبيبته، أما خصومه فهم ينظرون إليه بعنظار آخر. إنهم يكرهونه ولهم رغبة كائنة في الانتقاص منه وتقليل شأنه. ولهذا صاروا يفسرون كل حركة من حركاته أثناء الخطابة تفسيراً غير لائق.

إنهم يصفونه بالرقاعة، ولو كان مكانهم لفعل فعلهم حين يكون أحدهم خطيباً، إنه حالم وهم مثله حالمون. وكثيراً ما تضيع الحقيقة بين الناس من جراء ذلك.

### وظيفة المجاملات الاجتماعية:

اعتماد الناس في حياتهم الاجتماعية أن يجامل بعضهم بعضاً، ولا بأس بعد ذلك أن يتحدثوا عن أحدهم في غيابه بغير ما يظهرون له في حضوره. وهذا ما يعرف عندهم بالغيبة.

ومما يجبر ذكره في هذه المناسبة أن الغيبة موجودة حيث يوجد الإنسان. إنما هي تقل وتكثر تبعاً لتعدد الحضارة. فكلما تعددت الحضارة قلت الغيبة فيها، حيث ينشغل الناس فيها بأمورهم عن أمور غيرهم. ولكن الغيبة على أي حال موجودة، لا يخلو منها مكان.

كل إنسان يقترف الغيبة قليلاً أو كثيراً، والعجيب في الإنسان أنه إن يغتاب غيره يظن أن الناس لا يغتابونه، كأنه كامل في جميع صفاته، فلا يجد الناس فيه عيباً ينفذون منه إليه. ولهذا يشتد غضبه حين يخبره أحد النمامين بما جرى في غيابه من حديث سيء عنه. ولو انصف لغضب على النمام.

إنه يرى الناس يجاملونه فيجره ذلك إلى الاعتقاد بأنهم يتحدثون عنه في غيابه

على منقول ما يجاملونه به في حضوره، مع العلم انه نفسه قد يجامل غيره ثم يفتابه دون ان يجد في ذلك غشاضة.

ومهما يكن للحال، فالجملات الاجتماعية تغهد الإنسان إذ هي تعطيه عن نفسه صورة جميلة فتجعله قادراً على تحمل مرارة الحياة.

من مصلحة الإنسان ان يأخذ عن نفسه صورة جميلة لكي يندفع في عمله الاجتماعي راضياً، ومن مصلحته كذلك ان يكتف هذه الصورة عن غيره، لكي لا يثير عليه غيرة ذلك الغير، فالخير منه يملك لنفسه صورة جميلة وهو لا يجب ان يناقسه عليها احد.

يجب عليه ان يجامل الناس إذا اراد من الناس ان يجاملوه. ولا خير في حياة يصلح الناس فيها بعضهم بعضاً ويلقى أحدهم الحقيقة المرة في وجه الآخر.

### الخمر والأحلام الكيشوتية:

يلجأ الإنسان الى الخمر أحياناً لكي يزياد لنطلاقه ويره الأحلام الكيشوتية. فمن مزايا الخمر انه يضعف في الإنسان اهتمامه بغيره، وبهذا يستطيع ان يطلق في الخيال فيخلق به للعالم الذي يشتهي.

ويتضح هذا في الحانات الوطنة التي يرتادها سفلة الناس وغوغاؤهم لا سيما في هذا البلد الأمين. ففي تلك الحانات قد يجد الباحث نماذج عارية من الطبيعة البشرية.

لا يكاد أحدهم يجلس في الحانة ويشرب قليلاً من الخمر حتى يشمخ بانفه كأنه اعسى اميراً، وهو قد يبدا بالغباه، والويل لمن لا يستطيع غتاعه.

وقد يقوم صاحبنا بعد قليل يريد ان يسقط "الدول السبع" ويخلف على ذلك بالمسي المصطفى. والقروض في جلساته ان يراعى عواطفه ويجاروه في امره. وهم قد يسقطون "الدول السبع" بدورهم إذا ان الأوان.

وقد يخرج صاحبنا الشاب فيصرخ يا صاحب الحانيت قللاً، "عزلوا يا ناس".

وهو يريد منهم ان يطلبوا امره فيخلقوا حوانيتهم لكي يذهب بعد ذلك الى اقرانه فيحدثهم عن بطولته الشمواء.

وقد تجد في هاتيك الحلقات لفراناً ساكتين. ولكن سكوتهم هذا مرعب، إذ يخفي تحته احلاماً كيشوتية كبرى. ولعلمهم من اصحاب المزاج الانطوائي، حيث يفضلون ان يتمتعوا باحلامهم وحدهم دون ان يشاركهم فيها أحد من اولئك "الحمقى الفسوحين".

### احلام الشباب

وتتشك الاحلام الكيشوتية لدى الشبان. لا سيما للراغبين منهم، ومعظم احلامهم تدور حول الغرام والشهوة الجنسية، وتعتلا ادمغتهم بالأضلة "الرومانتيكية"، حيث يشتهون ان يكونوا من اولي الجمال الفائق الذي تتحطم قلوب الفتيات به.

لا يكاد احدهم يلمح فتاة او سرباً من الفتيات قريباً منه حتى ياخذ بالتمسك الصلح وباطلاق النكت الفطيرة، وبالقيام بالحركات السخيفة التي يصعبها من دلائل الرجولة والعظمة. انه ينسى نفسه وينسى وجود من حوله من الرجال، ويمسي كانه نائم لا يحس من ننياه إلا بطلمه للنيذ.

حين تنتظر اليه يخيل إليك انه صار إنساناً آخر. لقد كان قبل لحظة شخصاً اعتيادياً يحسك ببساطة وبغير تصنع. ثم يتقلب فجأة حين يلمح للفتاة، فتبدو عليه شخصية جديدة تشبه شخصية الطبيب المنكر دون كيشوت.

ويتضح هنا وضوحاً كبيراً في المواسم النينية التي يتجمع فيها النساء قرب القابر لو في لاحتبات القنسة. وهناك يلخذ الشبان بالنوران حول النساء وهم في اتم زينتهم. ويتفنج احدهم في مشيته وهو يظن بان النسك كلهن ينظرن اليه ويعجبين بجماله الفئان.

ولهؤلاء الشبان جدول نقيق يعرفون به مواسم النساء والأمكن التي يتجمعن فيها. وهم يحرصون على حضور تلك المواسم، وربما تركوا اعمالهم الضرورية في سبيلها. وهنئناً لهم فالحيوة من غير احلام لا تطاق.

## في الأعراس والواكب:

وتظهر الأحلام الكيشوتية كذلك في حفلات العرس وفي الواكب التوافقية عندنا. ولناس ينتظرون مثل هذه المناسبات بفارغ الصبر لكي ينفسوا بها عن رغباتهم المكبوتة. وهم يشعرون بخيبة عظيمة حين يجدون النساء ينظرون إليهم ويطلقن صرخات المهوذة.

ففي الليلة التي تسبق ليلة الزفاف في الأعراس، وهي التي تسمى بليلة الحنة، يجتمع الأصمقاء في بهت العريس ليختوا ويرقصوا. وهناك تجلس النساء في شرفات الطابق الثاني لينظرون إلى الحفلة من وراء حجاب.

عند ذلك يتقمص الفتيان شخصية كيشوتية تلامد الجو الرابع الذي يسيطر على الناس. كل واحد منهم يتخيل بأنه أصبح مطمح انتظار النساء، فيأخذ بالغطاء أو الرقص أو إطلاق النكات لكي يهرمن على له جنم بتقدير الجنس اللطيف.

وقد لاحظت في الواكب المعروفة عند العشبة في شهر محرم أنها لا تخلو من هذه الظاهرة. فكثير من الذين يتصرون الواكب أو يشتركون فيها يشعرون بنوع من الأحلام الكيشوتية، لا سيما حين يرون النساء ناظرات إليهم من الشرفات أو على رصيف الشارع، وهن يطلقن صرخات اللويل والنبور.

ونجد بعضهم عند ناك يلطم من أجل الحسين كما يدعي، بينما هو في الحقيقة يلطم من أجل الفؤاد. وهو يحسب كل صرخة تنطلق من النساء بعناية هتاف له وتكريم لرجولته الجبارة.

## أحلام المتعلمين:

إن للمتعلمين ضعف في أحلامهم الكيشوتية من العوام الأميين. ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون أن يجربوا أنفسهم منها. ويظهر هذا لدى الطلاب الذين يدخلون الكليات المخططة لأول مرة في حياتهم.

فقد يأتي أحدهم من بلدة ليس فيها سفور أو اختلاط بين للجنسين. ثم يجد نفسه فجأة جالساً على مقعد الدراسة وبجانبه فتاة سافرة بعباءة. فيأخذ عند ذلك بإظهار براعته العلمية لكي يذال إعجاب الفتاة. وكثيراً ما يناقش اعتباراً أو يلقي

الأسئلة جزافاً لكي يقول "ها أنا ذا" والمظنون من الطلاب يتخلصون من هذه الأحلام تدريجياً عاماً بعد عام، منهم يعتادون شيئاً فشيئاً على مخالطة الفتيات، فيقل لمتسامه بهن - وقد يهبطون في السنة الأخيرة إلى عالم الواقع الذي لا رياء فيه.

وقد يتيح لي أن أقارن بين طلاب الجامعات الغربية وطلاب كلياتنا فوجدت بينهم فرقاً ملحوظاً، فالطلاب الغربي قد اعتاد على مخالطة الفتيات منذ طفولته، وهو لهذا ينظر إلى زميلاته الطالبات كما ينظر إلى زملائه الطلاب، فلا تنتابه إذن أحلام الراهقة على منوال ما تنتاب طلابنا.

### الجميل والنعيم:

كلما كان الفتى أقل جمالاً واناقة في الواقع كان لكثر احلاماً، والأحلام تعويض وسوى كما لا يخفى. ومعنى ذلك أن النعيم يحتاج إليها أكثر مما يحتاج إليها للجميل الأنثى.

وهذا يصدق على المرأة كثيراً، فالجمال لسعل المرأة، به ترفى وبه تهبط في معظم الأحيان، ولهذا تلجأ المرأة النعيمة إلى الأحلام فكيشوتية، لتخيل أنها من أكثر النساء جمالاً وفتنة، وهي تنظر إلى المرأة وتتمثل معها وانفها وعينها فتحسبها مقاييس عليا للجمال الصارخ.

والنعيمة تنظر إلى جمال غيرها من النساء فتعطف شفقتها احتقاراً، وهل يمكن أن يكون لغيرها مثل هذا الجمال الذي تملكه والحمد لله! وأنا وجدت أناس لا يقدرون جمالها لخصت عليهم باللائمة ووضعتهم بقسط الفوق.

وقد يصاب للرجل بعنل هذا الغرور الكيشوتي إذا كان دميماً وتا ميل شديد إلى النساء، فإننا وجد نفسه عاجزاً عن اللحاق بلقرانه في عالم الأفلام صار يخلق لنفسه عالماً خالصاً به إذ يصبح فيه معبود النساء - والعياذ بالله.

اعرف رجلاً قهقياً شديد السمرة ذا أنف كبير، وقد شاه سوء حظه أن يتعجب في بدأ شبابه إلى مرقص من المرقص للشرقية، فهله ما وجد في المرقص من ارداف ثقيلة وبطون ثقيلة، وساءه ان يرى المرقصات يجلسن مع غيره دون أن يتمكن

هو من الجلوس البهن أو من لفت نظرهن إليه على أقل تقدير . ومنذ ذلك الحين بنا يحلم ويتخيل بأنه غنا معشوق الراقصات .

وتسرع الرجل في أحلامه حتى وصل بها إلى 4 يوليو، فتخيل أن انتملات الشهيرات وقعن في غرامه من بعيد . فلقد وصل صيت جماله إيهن فلم يستطعن عليه صبراً . وأخذت الهدايا الثمينة تنهال عليه متهن . وغضب الرجل حين علم بأن الحكومة العراقية تحجز عنه هذه الهدايا . وأخذ يصرخ ويحتج مهدداً للحكومة بلؤيل ولشهور .

إنه الآن في مستشفى المجانين مع الأسف الشديد!

### الراقص الشرقية:

ويعتسبة ذكر الراقص الشرقية نود أن الفت نظر القارىء إلى انها في بلادنا من أكثر الأماكن ازدحاماً بالأحلام الكيشوتية .

والغالب في رواد هذه الراقص أن يكونوا من السكارى والرفعاء وأغنياء الحرب وشيوخ العشائر . فهم يشعرون بالجوع الجنسي ، فيلجأون إليها لكي ينفسوا بها عن جوعهم الخبيث هنا .

يذهب ادهم إلى الرقص بعد أن يصقل خديه ويفتل شاربيه ويلبس أجمل ما عنده من الملابس والجوارب والأحذية . فلما جلس ظن أنه سيكون شمعة للحفل ، ولن الراقصات سيقعن في غرامه عاجلاً أو آجلاً .

والراقصة الشرقية ذات خبرة عميقة بالطبيعة البشرية . فعندما تعتل خشية المسرح تأخذ بتوزيع بسماتها وغمزاتها هنا وهناك بغير حساب . فباعتقد كل واحد من الجالسين بأن الغمزات والبسمات موجهة إليه وحده . فهو وحده الجميل الأنيق من دون الناس .

إنه ينظر إلى من حوله فيجدهم دونه في الجمال والأنافة . وهو لا يستطيع أن يتخيل رقصة تفع في غرام ادهم . إنهم في نظره مخاليق من طراز ممسوخ أطلق عليهم لقب بني أم خطا . فهم بالقرود كشيء . وهو لا يدري انه فرد مثلهم .

## الراقص وأحلام الفقراء:

يشعر الفقير بالعجز عن مجاراة الأغنياء وشيوخ المشائز في اجتلاب قلب الراقصة. فهم يستطيعون أن يشترروا بدن الراقصة التام بأموالهم الوفيرة، بينما هو غير قادر على ذلك. فيضطر إلى التخليق في عالم الأحلام. ولعله يتمتع في هذا لعالم الخيالي أكثر مما يتمتع به الأغنياء في عالم الشحم واللحم.

وقد يلجأ الفقير إلى الخمر لكي يساعده على التخليق في الأحلام الكيشوتية. فهو يذهب إلى الحانة قبل نهبه إلى الرقص. وهذا سبب الانسجام الذي نجده في الحانات في الساعة التي تسبق ميعاد الراقص.

وكنهراً ما يلجأ الرجل إلى استكمال سكره في الرقص، فيشرب فيه قليلاً من الخمر لكي يواصل التخليق في خياله الجميل.

وإذا خله القدر أثناء التخليق فقلقه بإهانة تهبط به إلى الأرض تلم كئيداً وربما هاج كما يهيج للنور. فينقلب الرقص من جراء ذلك إلى ساحة حرب، تشبه الكرسي فيها مكان السيوف.

## وسائل إلفات النظر،

بمعض الفقير الذي يرتاد أراقص الشرقية حين يجد نفسه مهمللاً لا يشعر بوجوده أحد. ويزداد امتعاضه حين يرى الراقصات يهمن به دون أن يلتفتن إليه.

وحين تلعب الخمرة برأسه أحياناً يشتهي أن يقوم بعمل يلفت نظر إحدى الراقصات إليه. إنه واثق بجماله أو جاذبيته الجنسية ولو لم تكن الراقصة مشغولة بأولئك الأغنياء من اغتياهم الحرب وشيوخ المشائز لوقعت في شبكة غرامه حتماً. إنه في حاجة إذن إلى وسيلة قوية تجعل الراقصة شاعرة بوجوده، ثم يترك للطبيعة تجري في سبيلها المحتوم.

هناك طرق مختلفة يلجأ إليها الفقراء من رواد الراقص في سبيل لفت نظر الراقصات. وهذه الطرق كثيرة لا مجال هنا لحصرها. ولعل من المجددي أن نذكر في هذه المناسبة بعضها على سبيل المثال،

(1) طريقة المشاركة في الرقص. وهي طريقة شاذة تنل على قرعونة والحقق.

وخلاستها ان الرجل يحاول تقليد الراقصة في رقصها. فهو يقف على قدميه فيها  
رقبته ورفقيه. فيضحك المتفرجون عليه. وقد تضحك الراقصة معهم. فيظن هو  
بنتها تضحك له استحساناً وإعجاباً. ولعله سيقف لها بعد انتهاء الرقص عند الباب  
منتظراً ان تدعوه إلى بيتها.

(2) طريقة عمل الوقار. وهؤلاء يستنكفون ان يكونوا مثل صاحبهم في التهرج  
المقبت. فهم يجلسون في مقاعدهم بهدوء وسكينة. ويحاولون ان يكون مكانهم  
قريباً من المسرح لكي تتسلط لضولوه على وجوههم الجميلة. ففي هذا كناية لهم.

وقد يتصورون ان الراقصات يؤثرن للرجل الرصين على الرجل الأحمق الذي  
جعل من نفسه اضحوكة للناس. وقد لا يشرد احدهم مع هذا ان يقف في طريق  
الراقصة عند انتهاء الرقص متوقفاً دعوتها له إلى البيت العتيق.

(3) طريقة التشبيه بالأغنياء المترفين. وصاحب هذه الطريقة يقتصد من قوت  
يومه بضعة نانابر ثم يذهب إلى المرقص فيستدعي احداً الراقصات لتجلس معه  
على مائدة واحدة. وهو يعتقد ان الراقصة إذا جلست معه مرة فسوف تجلس معه  
مرات. إنها ستعشقه في المرة الأولى وستضطر إلى معاونة جلوسه معه بدافع الغرام  
الذي لا يرحم. إنه لأن يريد ان يقدم لها الطعام في اول الأمر لبعدهما به وسيتم  
بعند بلصمها للبيد مراراً وتكراراً.

(4) طريقة للتعليب. وقصة التعليب معروفة. فهو عندما عجز عن نيل العجب  
لثمه بغير حق انه حاضراً. وكثير من رواد المرقص الشرقية يستعملون طريقة  
التعليب هذه. إنهم يرون مولد الأغنياء عاهرة والراقصات جالسات حولها. فيتألمون  
جداً. ثم يسألون انفسهم على سؤال ما سأل التعليب نفسه. وأنا بهم يقولون انهم  
اسمى من ان يهبطوا بكرامتهم إلى ذلك الدرك الأسفل الذي يهبط إليه الأغنياء من  
أغنياء الحرب. ولرجح الظن انهم يشتهون من اعماق قلوبهم ان يكونوا كاولئك  
أغنياء وأغنياء.

(5) طريقة الأبياء. وقد أخذت هذه الطريقة تنتشر في مرقص بغداد اخيراً  
ويكثر اتباعها. ولعل كاتب هذه السطور من هؤلاء الأتباع الكرام.

ان الأبياء يذهب إلى المرقص وجهه خال إلا من رجمة الله. إنما هو شلمغ بلغم

ينظر إلى الناس حوله كما ينظر الفيلسوف إلى الهمج للزجاج. ولا يكاد يستقر به المكان حتى يعلن للناس قللاً "أنا هنا" فتتهافت عليه الراقصات كما تتهافت الحشرات على النار. ولا عجب في ذلك فالأنيب شمعة تحترق كما يقول عن نفسه. ولربل إن لا يصدق من راقصات وغير راقصات.

لست لسي أن هذه حثالة كل من يرتدون المراقص عندنا. ولكني واثق بأنها تصدق على الكثيرين منهم. وهم إذ يفحصون أنفسهم قد لا يجدون فيها شيئاً مما ذكرت. ولهم الحق في ذلك. ولعل نزعة التبرير قد غامت على عقولهم فجعلتهم ينكرون حقيقة أمرهم.

وهنيئاً لهم على ما يفعلون. فما تمس العاقل الحثك الذي لا يستعريء لذة الأحلام في حياته. إنه لا يشعر بطعم الحياة كما يشعر به أولئك لرقعاء الحالون.

## تلخيص واستنتاج

استعرضنا فيما سبق من الفصول نظريات وآراء متنوعة حول طبيعة الأحلام. ولي أن أقول هنا بأن هذه النظريات والآراء قد تكون في بعض نواحيها متحيزة أو مخلوطة. إنما هي من وجهة عامة ذات مغزى اجتماعي نافع، إذ هي تشير إلى مبلغ ما تورط به القسماء من خطأ وتهافت في تقديسهم لبعض الأحلام أو في تصديقهم بها.

إن الباحثين اليوم قد يختلفون في تعليل طبيعة الأحلام، ولكنهم مع ذلك يكادون يتفقون على أن الأحلام لا تصلح دليلاً على صحة عقيدة من العقائد الموروثة. فلقد انضح لدى الباحثين أن الأحلام بوجه عام ليست سوى وسيلة يستطيع الإنسان بها أن يتغنى عن مومته ويستعين بها على مجابهة الحياة القاسية. إنها كما قال أحدهم، هبة من الله للإنسان، ولولاها لتحصمت الذات البشرية على صخرة الواقع المرير.

الإنسان يشتهي من دنياه أموراً كثيرة، إنه في معظم الأحيان مخلوم أو محروم،

وهو يجد نفسه غير قادر على نيل ما حرم منه أو على الانتقام من ظالمه، فهلجا عندئذ إلى الأحلام يشخيل بها العالم الذي يشتبهه على صورة من الصور.

ومن الممكن القول بأن الإنسان يخلو في التطويق بأحلامه كلما اشتدت عليه أسوة الظروف المحيطة به. فلو قارناً بين شخصين أحدهما مترف ومرتاح والآخر بئس كادح، لوجدنا الأول منهما أقل التجأً إلى خيالات الأحلام وأكثر التصاقاً بالواقع وفهماً له، إنما هو لا يكاد يذوق شيئاً من مرارة الحياة حتى يمسي كزميله ليلئس غرقاً في بحر الأحلام.

ولينا فيما مضى كيف ان الأحلام تنقسم إلى أنواع شتى، ولستطيع أن أقول هنا بأن هذه الأنواع المختلفة لا تستحوذ على الفرد كلها بدرجة واحدة، إنما هي تأتيه تدريجاً، نوعاً بعد نوع، بمقتدر ما تشتد عليه وطأة الظروف المحيطة.

ومن المناسب أن ألخص أنواع الأحلام ومدى أثرها في الإنسان على التوالي التالي،

(1) أحلام النوم، وهذه الأحلام عامة يشترك فيها الناس جميعاً على نمط متشابه، وبها يستطيع الإنسان أن يشبع بعض شهواته التي امتنعت عليه لثناء اليقظة، فيفتش حبيته أو يكسر رأس عدوه أو يطير في الهواء رغم أنفـس الحسود... ولكنه لا يستطيع أن يتعمق في ذلك إلى أبعد الحدود. فقد تقلب الأحلام عليه ظهر اللجن، فيجد نفسه مغلوباً بدل أن يكون غالباً أو ساقطاً بدل أن يكون طليقاً، وقد يكسر العدو رأسه في الوقت الذي أراد هو أن يكسر رأس عدوه. وهنا هو ما أطلقنا عليه اسم الكلبوس أو الأحلام المفزعة.

(2) أحلام اليقظة، وهذه قد تكون أندر على لشباع الشهوات المحرمة من أحلام النوم، إذ يستطيع الإنسان أن يوجهها كما يريد لهيئاً. فليس عليه إلا أن ينكمش على نفسه ويعتزل الناس. وتراه عندئذ سائراً في أحلامه بصوتها ويجول فيحتضن من يحب ويصفح من يكره وينثر الأموال بين يديه بلا حساب.

(3) الأحلام الكهشوتية. وهذه الأحلام لا تحتاج إلى اعتزال الناس كما تحتاج إليه أحلام اليقظة. إنما هي قد تترعرع في حضور الناس. فيصبح صاحبها بها جميلاً تعشقه النساء أو مشهوراً يشار إليه بالبنان، وهو يفسر كل ليمامة تبو من الناس كأنها موجهة إليه حيث يتخيلها مقعمة بالاعجاب والاكبار نحو شخصه الكريم.

(4) أحلام الجنون، وهذه هي الملجا الأخير الذي يلجأ إليه الإنسان حين تعجز الأحلام الأخرى عن سد حاجته. وهي تدل على أن صاحبها قد بنس من الناس وأبرك أنهم سوف لا يقدرونه كما يريد هو أن يقدروه. وعندئذ يشطب عليهم وعلى أرائهم جميعاً، ويتخذ لنفسه الجو الذي يلائمه. فهو لا يبالي بما يقول الناس عنه ما دام هو راضياً عن نفسه. ولنا وجد منهم إنكاراً أو استهزائاً أو اتكى لقتع نفسه بأنهم مجانين وهو بينهم للحاقل الوحيد.

وهنيئاً له. فلقد صار أسعد خلق الله طراً

• • •

يجب أن لا ننسى أن الشعوب قد تلجأ إلى الأحلام للتدفيس عن معومها على منوال ما يلجأ إليها الأفراد تقريباً. فقد تظهر في الشعوب مثلاً أحلام اليقظة على شكل قصص خيالية من طراز ألف ليلة وليلة، حيث يدال البطل فيها ما ينسهي من نساء جميلات وقصور فضة وأطعمة دسمة ويتنقل الفقراء هذه القصص متلذذين بها. فيضحون أنفسهم موضع البطل من للقصة ويتخيلون لتنعيم مصحلاً بهم من كل جانب.

وتظهر في للشعوب كذلك أحلام كيشوتية على منوال ما ترى في بعض الطوائف للتينية. فالطائفة من هذه الطوائف قد تكون ذات عقائد وطقوس مستهجنة ولكنها على الرغم من ذلك تعتقد بتنها وحدها الفرقة الناجية من بين الضلوع اجمعين. والطفة قد تلعب في أحلامها الكيشوتية إلى بعد من ذلك حيث تتخيل بأن العقلاء في جميع أنحاء الأرض يعترفون لها بالأحقية وينظرون إليها باعجاب. وهي بهذا لا تختلف عن المرحوم نون كيشوت اختلافاً كبيراً.

وهناك نوع آخر من الأحلام الشعبية هو ما نسميه بعقيدة المنقذ الإلهي. وقد حدثنا التاريخ عن بعض الأمم القديمة أنها حيث وقعت تحت وطأة الظلم والاستغلال الطبقي وبنست من انقذ نفسها عن طريق الواقع، التجات إلى طريق الحلم حيث صارت تتخيل به أن الله سيرسل إليها منقذاً ينتقم لها من أعتائها الطغاة ويملا الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً؛

وحيث ندرس الأساطير التي لا تزال شائعة لدى بعض الشعوب حول عقيدة

للنقد الأدبي نجدها متروكة بالأمل والخيالات الاجتماعية الجميلة وهي تشير إلى الألم الذي يشعر به الناس تجاه ظروفهم القاسية. إنها تصور السعادة التي سوف تحل بالناس على يد النقد وكيف سيرتاحون بها من عندهم وينعمون بالشبع والري إلى لبعدهم الحبوب.

ومهما يكن الحال فإننا نستطيع أن نقول عن الأعلام الشعبية بوجه عام منظرنا قلنا عن الأعلام الغربية هو أنها ثقيل وتنبوي كلما تحسنت ظروف الناس وارتفع مستواهم المعيشي. فلو قارنا بين أساطير الشعوب المتحررة الحديثة وتلك التي انتشرت بين الشعوب المستعبدة القديمة لوجدنا بينها بوناً شاسعاً. ولا يجوز أن ننسى هنا أثر الثقافة العامة في تقليل شأن الأساطير والأعلام الشعبية بين الناس. وما نحن أولاء نشهد الشعوب الحديثة بدأت تستيقظ وتتخذ في حياتها سبيل الوعي الصحيح. وهي لذلك أخذت تترك أعلامها القديمة شيئاً فشيئاً وتفكر في أمورها تفكيراً واقعياً يقل الخيال فيه.



القسم الثالث

العلم وخوارق الأحلام



## الفصل الثالث عشر

### تنبؤات الأحلام

لنما نهبت في الناس وجدهم يتحدثون عن تنبؤات الأحلام، ولا تكاد تجلس في مجلس ويأتي فيه نكر الأحلام حتى تجد لحد الجالسين ينبري بالحديث عن حلم عجيب فيه شيء من التنبؤ بحولث مقبلة. اعرف صديقاً له مقدرة فائقة في هذا الشأن وقد حدثني عن نفسه ذات مرة فقال إنه حائر بامر احلامه لا يدري كيف يحصلها، وكثيراً ما يقع له انه يرى حلماً في الليل ثم يتحقق الحلم في اليوم التالي على وجه من الوجوه. ويجري له هذا مرة بعد مرة بحيث أصبح لديه لمرأ علمياً.

وقص علي صديق آخر عن حلم غريب راه ثم تحقق الحلم بعد اربعين دقيقة. وخلاصة القصة انه استيقظ ذات يوم مبكراً، فاخذ يقرأ كتاباً ثم استحوذت عليه غفوة اثناء القراءة فرأى كأنه في بيت امتلاً مائماً ثم سقط فيه ولد له عمره ثمان سنوات، ولسرع إلى الولد ينفذه من الغرق، وعند اخراجه من الماء وجده ميتاً لا حراك به. فاستيقظ الأب من غفوته فزعماً وقفز باحثاً عن الولد فوجده جالساً مع له في باحة البيت يتناول طعام الإفطار دون أن يظهر عليه أي شيء مريب.

وبعد ان اتم الولد تناول الطعام اضطجبه ليوه في طريقه إلى المدرسة. وما كان يتجاوزان عتبة البيت حتى نأر الولد على نفسه وسقط على الأرض. فنقله ليوه إلى

المستشفى وتبين بعد الفحص انه مصاب بمرض السحايا. وبعد ايام قليلة مات  
لولد بهذا المرض..

### قصة اخرى

ورسل لي طالب من طلابي القدماء عام 1953 رسالة ذكر فيها القصة التالية،

قال للطالب، انه رآى في منامه ذات ليلة كأن النار انهدمت عليه. فاستيقظ  
مرعوباً. ونظر حوله فلم يجد هناك ما يلفت النظر. ونام مرة ثانية فزأى الحلم  
نفسه. فاستيقظ ونام مرة ثالثة وأنا به ينهض فلقاً فيوقظ زوجته قائلأ لها بان  
النار ستهدم وأنه يسمع اصواتاً غير اعتيادية من السقف والجدران. وأسرع الى  
الشيليك يفتحها ويتطلع من خلالها نحو الخارج فلم ير شيئاً غير مألوف،  
وتحصس الجدران فلم يجد فيها ما يشير الى تصدع لو تضعض. وبعد ان اطمانت  
نفسه نام ثم لستيقظ في الصباح كعادته. وما هي إلا لحظات حتى سمع صراخاً  
وصوت انهدام شديد من نار مجاورة ليس بيتها وبينه سوى مسافة قصيرة. وقد  
مات لسوء الحظ تحت انقاض النار النهدمة شخصان.

### حادث شخصي:

إن هذه القصص التي نكرناها انفاً هي قليل من كثير مما يتحدث الناس به  
عن غرائب الأحلام. ولو حاولنا احصاء جميع القصص في هذا الشأن لعجزنا.

وقد كنت في بدء امرى استهين بهذه القصص واعدتها من قبيل الأساطير لو  
الأوهام. وبعثت على نلك زمناً طويلاً حتى وقع لي في ليلة من الليالي حلم انعلني  
وجعلني انظر في امر تتبوات الأحلام نظرة جديدة.

لا احب ان اتحدث عن هذا الحلم بجميع تفاصيله، إذ هو يمس بعض اصحابي  
وخصوصى مسلماً شخصياً. يكفي ان نقول هنا انى رايت في الحلم كأن رجلاً من  
شكل معين منغمسين حتى اوساطهم في عانة قوية لم اثنين كتتها جيئاً وهم  
يحاولوا التملص منها بكل جهدهم ويبدو عليهم الحنق والحقد ببشاعة واضحة.  
ولستيقظت في الصباح فنسيت الحلم ونهيت إلى عملى خالى البال. وكم كانت  
دهشتي عظيمة حين وقع لي في عصر نلك اليوم نزاع مخجل مع شخص له شبه

كبير بالرجال الذين رأيتهم في الحلم. ولم يكن للنزاع مما كنت اتوقعه، إنما هو قد حدث على سبيل المصانفة في أرجح الظن.

### روايات موثوقة:

إننا نستطيع أن نستعين بالقصص التي يرويها الناس عاديون في أمر تنبؤات الأحلام. ولكن من الصعب أن نستعين بها حين يرويها رواة ثقاة أو باحثون لهم وزنهم في الأوساط العلمية.

من هذه القصص ما نقلها الأستاذ راين. وهي قصة كان راين قد تأكد من صحتها بنفسه وتأكد من وثاقة راوبها. وخلاصة القصة أن شاباً رأى نفسه في المنام ذات ليلة كأنه في غرفة بيضاء مضاءة بمصباح سقفي، وقد تمدد فوق متضدة فيها جنمان ميت ارتفعت ركبته. وكان جنمان مغطى لا يبين منه سوى وجهه الذي كان مهتماً بحيث لا يمكن التعرف إليه. فاستيقظ الشاب مرعوباً. وفي اليوم التالي استدعى الشاب إلى المستشفى، وسيق إلى غرفة العمليات الجراحية فيه. وقد دهش دهشة عظيمة حين وجد الغرفة تماثل تلك التي حلم بها في الليلة الماضية. وكان جنمان عمه مطروحاً على متضدة في وسط الغرفة، وقد بدت ركبته ناتجة تحت الخطأ. وتضح أن سهارة دهست عمه أثناء خروجه من بيته صباحاً، فمات متأثراً من جراحه<sup>(1)</sup>.

ويروي الأستاذ راين قصة أخرى عن رجل يعرفه أنه في يوم من أيام شبابه أراد السفر، ولكنه رأى في منامه كأنه يركب القطار وتفتح في القطار حائثة اصطدام، فتسقط مدفأة لعربة عليه فتؤذي الأذى بالغا. فاستيقظ خائفاً ورفض أن يسافر من جراء ذلك. وعلم في اليوم التالي أن حلمه قد تحقق، فقد اصطدم القطار فعلاً، وسقطت مدفأة إحدى العربات على رجل فقُتلته<sup>(2)</sup>.

• • •

ومن الذين عتوا بأمر الأحلام بنحت آخر اسمه فيرل، وقد جمع في أحد كتبه عن تنبؤات الأحلام عدداً من القصص غير قليل، ننقل منها على سبيل المثال لتتبين.

الأولى، أن شخصاً بريطانياً اسمه اوكونر أراد السفر إلى أمريكا في عام 1912 على الباخرة الشهورة "فيتنيك"، ولكنه رأى في المنام كأن الباخرة موشكة على الغرق

وحولها ركبها ويجارتها يسيحون في الماء. وفي الذبلة التالية عاد اللحم إلى أوكونر مرة أخرى، فلم يعره أي اهتمام حيث أصر على السفر. وقبل أسبوع من إبطار الباخرة وصلت إلى أوكونر برفية من أمريكا تأمره بتأجيل السفر. فالتقى أوكونر بطلافته، وبقي في إنكلترا ينتظر برفية أخرى. ولشد ما كانت نهشته حين سمع بأن الباخرة غرقت بعد إبحارها حيث اصطدمت بجبل ضخّم من الجليد، ولم ينج من ركبها إلا قليل<sup>(3)</sup>.

وجاء في الفصّة لثانية، أن سيدة رأت عمها في مقامها نلت ليلة كأنه ميت ومطروح في الطريق الذي اعتاد الذهاب فيه إلى الصيد. وكان اللحم واضحاً بحيث شامت فيه نوع الملابس التي كان عمها يرتديها وهو مطروح وكيف نقل جثمانه بعدئذ بعربة فيها شيء من القش ويجرها حصلتان إلى داره، وكيف تناول الجنعان عند باب العار رجلان فصعنا به السلم، وكيف كانت يد الميت متلاة أثناء حمله حيث ارتطعت بجدار السلم. رأت السيدة في نومها كل ذلك ثم استيقظت مرعوبة. والغريب أنها رأت اللحم نفسه بجميع تفاصيله بعد سنتين، ثم رآته مرة ثالثة بعد ست سنوات. وشاء القدر أخيراً أن يموت عمها في عين المكان الذي شهدته في اللحم تماماً ثم حمل جثمانه على النمط الذي رآته فيه خطوة بعد خطوة<sup>(4)</sup>.

### ما هو السر؟

بما نلعل هذه القصة العجيبة وامثالها؟ هل يجوز لنا أن نتسرع في تكذيبها ونستريح كما يفعل بعض الأغوار من المتعلمين، أم نحاول وضعها على بساط البحث الموضوعي قدر الامكان؟

لواقع أن هناك كثيراً من الباحثين قد شغلوا بأمر تنبؤات الأحلام، وهم قد انفسعوا في تحليلها إلى فريقين. ولرى من للناسب هنا أن نستعرض آراء هذين الفريقين مستعرضاً حياياتهم وإثرك للقرىء أن يحكم في جانب هذا للفريق أو ناك.

أما الفريق الأول، وهو الذي يشمل جمهرة الباحثين في الأحلام من علماء النفس، فنحاول تحليل تنبؤات الأحلام بما يسميه بعامل الاتفاق والمصادفة. وعمن ذهب هذا المذهب في التحليل الدكتور ملاك جرجيس، الأخصائي للمصري في علم

لنفس. وفيما يلي لنقل نص ما قال في هذا الصدد كما جاء في مقالة نشرها منذ سنوات في مجلة مصرية، قال الدكتور جرجيس،

"إن نسبة الأحلام التي لا تتحقق عند الناس أكثر بكثير من نسبة الأحلام التي تتحقق. وليس هناك أي أساس علمي يمكن للفرد العادي أن يعتمد عليه لتفسير أحلامه... والحد الذي يتحقق يكون عادة نتيجة المصطفة أو لتوقع صاحبه حدوث ما حدث، ولو بأسلوب غير واع. وليس في ذلك شيء من التنبؤ كما يظن الكثيرون من الناس خطأ، فالشخص الذي يوقظ مخاوفه وقلقته النفسي على موضوع ما متخوفاً في يقظته من حدوثه قد يحلم أحلاماً مفعمة بهذه الأحاسيس ناتية وقد نشأ الصائفة أن يتحقق جزء مما حلم به، أو حتى يتحقق الحلم كله، لا بسبب الحلم ولكن لأن ما توقعه هو خاتمة منطقية للظروف المحيطة به. وليس لئلا على صحة هذا الرأي من أن أغلب الأحلام لا تتحقق سواء كانت أحلاماً تنبئ على شر أو تبتلى على خير".

#### مثال توضيحي:

لتوضيح هنا التحليل الذي جاء به الدكتور جرجيس ننكر مثلاً واقعياً رواه الاستاذ سلامة موسى في كتابه "العقل الباطن، ومؤياته من رجلاً كان مسافراً في البحر على باخرة، وحدثت ذات يوم أن مررت بالباخرة عاصفة هوجاء، وكانت الباخرة قديمة لا تتحمل عبء العاصفة بسهولة فصارت تترنح بشدة وتتواءم بركابها، فالتفت لركاب الخوف، كلن اشدهم خوفاً صاحبنا فأخذ يتوهم بأن الباخرة سوف تغرق حتماً. ونام أثناء ذلك قرأ في منامه كان الباخرة قد غرقت. فاستيقظ فرجعاً وعزم على أن يترك الباخرة في أول ميناء يصل إليه. وقد نفذ فعلاً ما عزم عليه، ثم شاعت الصائفة أن تغرق الباخرة بعد سفارتها ذلك الميناء. وشاعت قصة الرجل بين الناس حيث اعتبروها تليلاً على صحة ما تنبأ الحلم به. والحقيقة هي خلاف ذلك، بل إن الخوف هو الذي يجعل الرجل يحلم بغرق الباخرة، ثم غرقت الباخرة بحادث على سبيل الاتفاق وللاصدفة العمياء.

الواقع أن كثيراً من ركاب البواخر يلعبون بغرق باخرتهم عند هبوب العواصف الشديدة. ولكنهم ينسون أحلامهم بعد وصولهم إلى نهاية السفرة بسلام، فلا يذكرونها لأحد ولا يعيرونها أية أهمية. إنما هم لا يكتفون برون حلماً واحداً من

أحلامهم قد تتحقق حتى تتناهم الغدشة ويعدون نك نيلاً قاطعاً على صحة تنبؤات الأحلام كلها.

### طبيعة الغلو:

من الممكن أن نفور مثل هنا عن الأحلام بوجه عام، فالناس يرون في مناهم أحلاماً كثيرة لا يحصى لها عدد، وهم قد اعتدوا على إهمالها وتسيئتها وغالباً ما رآى أحدهم في نومه حلماً يقع له، كفقذ عزيز أو خسلرة مال أو ما أشبهه، ثم ينسى ذلك بعد أن يثبت لديه أن الحلم ذهب فتراج الريح دون أن يتحقق. ثم يحدث له في مرة من المرات، من باب الاتفاق المناس، أن يتحقق حلم واحد من أحلامه الكثيرة، وقد يكون الحلم بسيطاً ولكنه يحمد إلى تزويقه والمخالة فيه، ويتلاقف الناس خبره يتناقلونه وقد يضيفون إليه من عندياتهم ما يشتهون كما هو بابهم في رواية كل خبر غريب، وبهذا تصبح قحبة فبة في أيديهم، ويصير الحلم البسيط آية من الآيات.

يذكرنا هذا بما ينتشر بين الناس أحياناً من قصص مبالغ فيها في قضايا التنور التي تقدم إلى العابد والراقد المقدسة، فقد يتفق لأحد الناس أن ينجو من خطر أو يشفى من مرض بعد نذر تنوره، ويظن فناس أن النذر كان سبب النجاة أو الشفاء. وهم ينسون التنور الكثيرة التي لم تنفع أصحابها شيئاً، يحكى أن رجلاً دخل إلى معبد فعرض عليه السدنة عشرات اللوحات التي علقها فيه من انحلهم الله من الخرق استجابة لدعوتهم وتذورهم، ثم سنل الرجل، إلا يعترف بعد هذه الأدلة كلها بنفع التنور وقائدة الدعاء؟ فأجاب، ولكن ابن لوحات أولئك الذين عرفوا في البحر على الرغم مما تذروا ودعوا<sup>(١٥)</sup>؟

إن هذا الجواب الذي جاء به الرجل في شأن التنور لا يصح أن يؤتى به أيضاً في شأن الأحلام، إذا اتجح لبعض الأحلام أن تتحقق فتكون دليلاً على صحة التنبؤ فيها، فمانا نصنع ببعض الأخر من الأحلام التي لم تتحقق وهي كثيرة جداً؟

### تعليق الفريق الثاني:

إن لتعليق الذي شرحته لنعاء وهو الذي يعزو تحقق الأحلام إلى عامل المصادفة، هو التعليق المقبول لدى الكثيرين من علماء النفس كما قلنا. ولكن هناك جماعة

من الباحثين لا يقبلون به، وهؤلاء هم الذين أطلقنا عليهم اسم الفريق الثاني، وفي رأيهم إن عمل المصانفة قد يصح في تحليل كثير من تنبؤات الأعلام، إنما هو لا يصح في تحليلها كلها، ففي هذه التنبؤات جوانب غامضة لا يسهل تحليلها على منوال ما فعلنا في قضية المنور. وهذه الجوانب متعددة نقتصر فيما يلي على ذكر اثنين منها:

أولاً، إن الإنسان قد يرى في بعض أعلامه حادثة متشعبة كثيرة التفاصيل ثم يتحقق بعينه صدق الرؤية كأنها كانت مسجلة على شريط سينمائي. إن الحلم لم يكن خبراً مجرداً بل ظهرت فيه تفاصيل عديدة. ومن الصعب أن نتصور اجتماع هذه التفاصيل في الحلم وفي الواقع لو كان الأمر ناشئاً عن المصانفة المحضة. إن قوانين الاحتمال في علم الاحصاء تستبعد ذلك.

ثانياً، إن بعض تنبؤات الأعلام التي تتحقق فيما بعد لا تظهر للذم مرة واحدة، بل تتكرر أحياناً كأنها إنذار من مصدر خفي يحاول تنبيه الإنسان إلى خطر مقبل، وليس من الغائر أن يتكرر الإنذار خلال فترة طويلة من الزمن، ومثل هذا الحلم يصعب تحليله بعامل المصانفة. فنحن نعرف عن المصانفة أنها لا تتكرر على نمط واحد إلا في حالات نادرة جداً.

معنى هذا كله أن بعض تنبؤات الأعلام تصل على وجود حاسة خارقة في الإنسان تستطيع أن تفتقر حجاب الزمن وتستشف ما يكمن وراءه من حوادث مقبلة.

### مشكلة الزمان:

مهما يكن الحال فلنا إذا أخذنا بهذا الرأي الذي جاء به الفريق الثاني لتصبحت أمامنا مشكلة فلسفية عويصة هي كيف يمكن للنفس البشرية أن تخترق حجاب الزمان فتراه الحلم، أو بالأحرى، ما هو الزمان؟

إننا اعتدنا أن نفهم الزمان باعتباره مجموعة من اللحظات الآنية تتوالى علينا لحظة بعد لحظة. ومعنى هذا أن بيننا وبين لحوات القبلية حاجزاً من اللحظات التي نعددها بحساب السقائق والتواني أحياناً وبحساب الأعوام والأيام أحياناً أخرى. فهل في مقدور النفس البشرية أن تقفز فوق هذا الحاجز فتري ما يكمن وراءه كما يقفز الإنسان فوق حاجز المكان فيرى الأشياء للمختفية خلفه؟

يجيب بعض الباحثين على هذا السؤال بالإيجاب، وهم يستندون في جوابهم على نظرية انبساطية في مفهوم الزمان<sup>(6)</sup>. ففي رأي هؤلاء ان الزمان ليس مؤلفاً من تتابع لحظات اذية كما نتوهم نحن في مفاهيمنا المألوفة. إنما هو بالأحرى خط ممتد في الفضاء كماستند خطوط الطول والعرض والارتفاع. وهو إن بعد رابع يضاف إلى هذه الأبعاد الثلاثة المعروفة لدينا.

في ضوء هذا الفهوم تستطيع ان تقول بأن الدقائق التي نقيس بها طول الزمان ليست سوى مقاييس اعتبارية اصطلحنا عليها دون ان يكون لها أساس موضوعي. فالزمان واقف لا يتحرك ولكننا نحن الذين نتحرك بالنسبة إليه فنظن خطأ بأنه هو المتحرك ومن الممكن إننا نشبهه الانسان تجاه الزمان براكب القطار الذي ينظر من خلال النافذة إلى اعمدة للبرق فهراها تجري بينما هي في حقيقة امرها واقفة في مكانها لا تتحرك.

يقول الأستاذ جينزا ان الإنسان يعيش في حياته العادية كما تعيش بودة عمياء على بقعة صغيرة من الأرض. فالبودة لا تعرف من دنياها المحدودة سوى يمينين هما الطول والعرض، أما البعد الثالث الممتد فوقها نحو السماء فلا تعرف منه شيئاً<sup>(7)</sup>.

إن الانسان، بعبارة اخرى، اعتاد ان يحدد دنياه بأبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والارتفاع. ولكن هناك بعداً رابعاً ممتداً في الفضاء لا يعرفه الانسان منه إلا النقطة التي يمر بها في سيره خلال للزمان وهو يظنها لحظة عابرة بينما هي جزء من خط طويل لا يدرك مبداه ولا منتهاه.

### الأحلام والزمين:

ليس قصدي من شرح هذه النظرية التي اتيت بها حول طبيعة للزمان ان يفتتح القاري بصحتها. فهي نظرية قد تصح لو لا تصح.

وقد اردت من الاتيان بها ان بطلع للقاري على للركيزة الفلسفية التي يستند عليها بعض للباحثين في تحليل تنبؤات الأحلام.

فهم يعتقدون انه ما دام للزمان بعداً رابعاً ممتداً في للفضاء فمن المعقول إذن ان

نتصور وجود مقدره خفية في الانسان تمكنه من التحليق في احلامه فوق هذا البعد بحيث يتطلع بها الى ما يحتوي عليه الزمن من احداث لثية قليلاً او كثيراً.

إن من الممكن تشبيه ذلك بركب الطائرة. فهو يارتفاه فوق نهر من الأنهار مثلاً يستطيع ان ينظر فيه الى بعض النقاط البعيدة التي يعجز راكب الزورق عن النظر إليها. ومعنى هذا ان راكب الطائرة قد يكتشف أشياء في النهر هي مما يحدها راكب للزورق من احداث المستقبل التي سوف يراها بعد الوصول إليها.

### نظرية المستر دن:

ظهر في بريطانيا منذ سنوات باحث اسمه المستر دن حيث لصدر كتاباً بعنوان - " تجربة مع الزمن " كان له بوي في الأوساط العلمية هناك. وقد ذهب هنا للباحث في امر تنبؤات الأحلام إلى ما يشبه الرأي الذي أسلفنا ذكره (8).

يعتقد المستر دن ان الزمن القبل بجميع احداثه موجود امامنا كوجود الماضي ورائنا. ونحن قادرين باحلامنا ان ننظر الى المستقبل كما ننظر الى الماضي، غير اننا نعتمد في براسة احلامنا ان نتطلع إلى جهة الورد من خط الزمن دون ان نحاول للتطلع إلى جهة الإمام. ونحن في هذا كمثل من يرتقي سلماً وقد ولي وجهه نحو الجهة السفلى، فهو لا يرى من الدرجات سوى تلك التي مضت تحت قدميه، اما الدرجات التالية في الجهة العليا فهو لا يراها ولا يهتم بها إذ هي مختفية وراء ظهره، وفي وسعه ان يراها إذا انار وجهه نحوها.

بين الأحلام، في رأي المستر دن، هي عبارة عن خليط بين رؤى الماضي ورؤى المستقبل. ولهذا فهي تأتي في فعلة مشوشة حيث يصعب على الانسان ان يميز فيها بين الرؤى التي تنبعث من الحوادث الماضية وتلك التي تنبعث عن الحوادث المقبلة.

ويقول المستر دن انه ابتكر طريقة خاصة لتسجيل احلامه عند استيقاظه من النوم مباشرة، وذلك لكي يزيل عنها اثر المبالغة أو التزويق والتبرير الذي يصاحب تذكر الأحلام عادة. واستطاع بهذه الطريقة ان يعين الجزء الذي يخص المستقبل من احلامه. وهو يعتقد ان كي انسان قادر ان يفعل فعله في هذا الشأن، وقد

يمكن بذلك من أن يرى أحداث المستقبل في أحلامه وأن يعايشها ويعيش فيها على وجه من الوجوه<sup>(9)</sup>. اعترضوا ونقدوا:

تلك هي خلاصة النظرية التي جاء بها المستر من في كتابه "تجربة مع الزمن". ومما يجدر ذكره أن هذه النظرية لم تسلم عند ظهورها في بريطانيا من النقد والاعتراض. وقد نهض لزيادها باحثون كثيرون يشجبونها ويصفونها بالتخريف.

والواقع أننا لو سلمنا بصحتها لأدّى ذلك بنا إلى ما يشبه الإيمان بالقضاء والقدر، على مخلوق ما كان القدماء يفعلون. فلذا كل الأنسان قادراً أن يستشعر بأحلامه أحداث المستقبل فمعنى هذا أن أحداث المستقبل موجودة هناك في لوح القدر وإنها آتية لا ريب فيها، وليس للأنسان لزيادها إلا أن يستسلم لها دون أن يبدي حراكاً.

إن هذا على أي حال رأي قد يقبل به لوثنك الذين يؤمنون بالجبر وإن الأنسان مسير في أعماله لا مخير. لما الذين يؤمنون بحرية الإرادة البشرية وإن الأنسان قادر أن يصنع مصيره بنفسه فهم يجدون صعوبة كبيرة في تقبل هذا الرأي.

قد يصح القول بأن الأنسان كثيراً ما يكون مستزاً تحت وطأة الظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة به، ولكنه مع ذلك قد يجد بين تلك الظروف مجالاً يستطيع أن يكون فيه حراً مختاراً. وهذا أمر تلاحظه في أنفسنا كل يوم، وإننا كان الأمر كذلك فكيف يجوز لنا الاعتقاد بأن أحداث الزمن محتومة علينا وإننا قاسرون على اكتشافها بوساطة الأحلام؟

#### النتيجة:

استعرضت في هذا الفصل مختلف الآراء والنظريات التي جاء بها الباحثون في أمر تنبؤ الأحلام. وقد حاولت أن أقف منها موقف التلال التحايد فلم أتحيز لجانب منها دون آخر. وقد بذلت أقصى جهدي في أن أشرح وجهة نظر كل جانب كما يقول به أصحابه من غير تحريف أو تشويه.

وقد يسألني القاريء عن رأيي الشخصي لزياد تلك الجوانب المتناقضة. وهذا أود أن اعترف بعجزتي عن إيلاء أي رأي حاسم في هذا للوضوع، وجل ما أستطيع قوله هو

إننا لا نزال في أول الطريق منه. ولعل العلم سيكشف لنا عاجلاً أو آجلاً ما يرفع حجاب الغموض عن هذا الموضوع العميق.

وأود أن لا تفوتني الفرصة أخيراً لأبين خطأ بعض الأغرار من متعلمينا الذين اعتابوا أن ينظروا في هذا الموضوع نظرة استهانة واستهزاء، إذ لا يكاد أحدهم يستمع إلى حديث التنبؤ في الأحلام حتى يلوي عنقه عنه استكباراً ويعدده من قبيل الخرافة.

ينبغي أن يعلم هؤلاء أن هذا الموضوع أكثر جدية من أن تستهين به أو تشطب عليه بجرة قلم. إنه يحتوي على أغزى محيرة، وللواجب العلمي يقضي علينا أن نتحدث في هذه الأغزى ونحاول تحليلها بما يتيسر لنا من أساليب موضوعية. ولعلنا بذلك نساعدهم على اكتشاف بعض أسرار النفس البشرية كما ساعده أسلافنا على اكتشاف الذرة والكهرباء.

## هوامش الفصل الثالث عشر:

- (1) انظر: Rhine Reach of Mind. P. 59 .
- (2) انظر: Ibid, p. 71 .
- (3) انظر: Tyrrell, Personality of Man. P. 81 .
- (4) انظر: Ibid, p. 76 - 77 .
- (5) انظر: أحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ج 1 ص 64 .
- (6) انظر: علي الوردي، مهزلة العقل البشري، ص 177 - 182 .
- (7) انظر: Jeans, Mysterious Universe. P. 148 .
- (8) انظر: Dunne, An Experiment with Time .
- (9) انظر: Jaod Guide to Modern Thought. p. 172 - 173 .

## الفصل الرابع عشر

### تنبؤات الأحلام (تابع)

تحدثنا في الفصل للماضي عما يعزى للأحلام من مقدرة على التنبؤ بحوادث مقبلة، وراينا كيف اختلف للباحثون في امرها، ونود ان نتحدث في هذا الفصل عن مقدرة اخرى تعزى للأحلام وعن رأي الباحثين فيها.

والمقدرة التي نحن بصدد ما الآن ليست تنبؤية بالمعنى الدقيق، إذ هي لا تتنبأ عن حوادث مقبلة لم تقع بعد، إنما هي بالأحرى تنبؤاً عن حالت يقع أثناء الحلم في مكان ما بعيد أو قريب، لتفرض مثلاً ان شخصاً عزيزاً عليك غلب عنك في سفر وبغيت تفكر في أمره وتتخوف عليه. ثم تنام ذات ليلة فتري في منامك كان كارثة وقعت عليه، ويثين بعد ذلك ان الكارثة قد وقعت فعلاً في نفس الوقت الذي حلمت بها فيه.

لقد اجتمعت لدى الباحثين قصص احلام عديدة من هذا الصرل، فما هو تعليلها؟

#### أمثلة واقعية:

يروى الأستاذ سينر قصة حلم من هنا الطراز، خلاصتها ان سيدة من سكان لندن كلن لها ولد غلب عنها، وقد سافر الولد مع رفيق له في رحلة إلى وادي الأمزون في أمريكا الجنوبية، وفي صباح احد الأيام خرجت السيدة من تارها وهي في

تشد حالات الذعر والهلع وقالت انها رأت حُلماً مروعاً خيل إليها فيه كلن ولدها لو رفيقه افترسه وحش من وحوش الغابة. وبعد مدة غير قصيرة وصل الولد وحده إلى لندن وأخذ يحدث عن رحلته، فتبين من حديثه أن نعرماً هجم عليه وعلى رفيقه في نفس الساعة التي رأت أنه الحلم المروع فيها، وقد قتل الرفيق من جراء ذلك بينما أصيب هو بجراح غير معينة<sup>(11)</sup>.

ويروي الأستاذ راين قصة حلم مماثلة. خلاصتها ان استاذاً من زملاء راين في الجامعة كلن له وند يسكن في جاوة. وقد رأى الولد في منامه نلت نيلة كان الناس يمشون في جنازة امه، مدعه ذلك إلى ان يكتب إلى ابيه يستفهم منه عن حالة امه... والغريب ان امه كلنت قد ماتت في تلك الليلة نائماً<sup>(12)</sup>.

وروت جريدة الأهرام قصة غريبة حدثت في مدينة من مدن المكسيك، وقد بعث بها إلى الجريدة مراسلها لخاص هناك، وخلاصة القصة ان شاباً اسمه جيسوس اصيب بنوبة عصبية شديدة من جراء فزع مفاجيء انتابه، وسقط على الأرض جنة هامدة، فظن اهله بأنه قد مات، فدفنوه في قبر خاص بالعائلة، وفي الليلة التالية استيقظت ام الشاب وقد خالجه شعور غريب يخيؤها بأن ليتها لا يزال حياً. فتيقظت الجيران وأخذت بعض العمال معها إلى القبر تريد فتحه. وقد ترددت سلطة المحلية في الموافقة على فتح القبر ثم وافقت أخيراً، وعندما رفع الغطاء وجدت الأم ليتها جالساً وهو يبكي فذهلت عليه تضمه بين ذراعيها<sup>(13)</sup>.

### في غير الأحلام:

مما يجبر نكره ان نحل هنا الاحساس الغريب لم يقتصر حدوثه في نطاق الاحلام فقط، فهو قد يقع لبعض الناس احياناً في ساعات اليقظة على شكل خاطر مفاجيء لا يعرف سببه.

ولتوضيح ذلك نأتي على مثل له حدث للواء محمد نجيب، والواء بختنا عنه في كتابه "مصير مصر" حيث قال انه كلن في عام 1914 طالباً في كلية غوردن العسكرية في السودان، وفي مساء يوم من ذلك العام كان محمد نجيب جالساً في القسم الداخلي من الكلية يستعد للامتحان، فخيّل إليه على حين غرة كلن اياه قد جاءه يردد الإذلاء إليه يخبر عنليم الاممية. فاستحوذ على محمد نجيب هزن شديد

وصلت الدموع تنهمر من عيني حتى أحس به زملاؤه وأخذوا يحلقون فيه مندهشين. وفي الساعة الثالثة مساءً قفز محمد نجيب فجأة فمزق اردان ربلته مما دعا أحد المدرسين أن ياتي إليه ينتهره ويتهمه بلجئون. ولم يستطع محمد نجيب أن ينام تلك الليلة. وفي الصباح انثابته نوبة أخرى قرعى بطريوشه إلى الأرض وأخذ يدوسه يقدميه. وبعد لحظات جاء أحد المدرسين يندوه يموت أبوه. واتضح أن إياه مات في الليلة الماضية وفي وقت مقارب للساعة التي مزق محمد نجيب فيها اردان ربلته.

يقول محمد نجيب تعليقاً على هذه القصة، "واني لأمل أن لا أجدوا مؤمناً بالخرافات إذا قلت أن سلوكي الغريب يومئذ كان نوعاً من الأحساس المفرط".

ماذا...؟

بمعنا نفسر هنا الخاطر المفاجيء؟ هو نتيجة احساس مفرط كما قال محمد نجيب؟ أم هو خاطر عادي وقد تحقق بعنذ على تسلس من المصادفة والاتفاق التام؟

من الذين حاولوا الإجابة على هذا السؤال هو العالم الطبيعي المعروف أوليفر لودج. وقد قام لودج بدراسة احصائية في هذا الصدد استقصى فيها حالة عدد كبير من الناس. فوجد أن هناك (1300) شخص شعروا مرة في حياتهم بأحاسيس غريب يتبوهم بوقوع كارثة على أحد اقربائهم أو اصنفاتهم الأجزاء. وتبين أن هذا الاحساس لم يتحقق عند أولئك الأشخاص سوى ثلاثين مرة، أي أن معدل الصدق فيه يقارب نسبة 1 إلى 43 .

يقول الأستاذ لودج بأن هذه النسبة على الرغم من ضالتها الظاهرة لها دلالة احصائية كبيرة، إذ هي أكبر مما تأتي به المصادفة الجردة. وقام لودج بعمليات حسابية واحصائية معقدة لتأييد رايه هذا. واستنتج من ذلك أنه لا بد أن يكون بين ذهن من تقع عليه لكارثة وذهن من يتقيا بها نوع من الاتصال الجهول الذي لم يستطع العلم اكتشاف سره حتى الآن<sup>(4)</sup>.

وتتيح لباحث آخر، هو الأستاذ سدجويك، أن يصل في بحثه هذا الموضوع إلى نتيجة تشابه نتيجة الأستاذ لودج. فقد درس سدجويك سبعة عشر الف حالة

وقارنها إلى انحصارية الوفيات العامة فوجد ان احساس الانسان بوقاة احد الاعضاء عليه يصدق لكثير من صدق المصادفة الجيدة بأربعمئة وأربعين مرة<sup>(5)</sup>.

### ابحاث راين:

الأستاذ راين باحث أمريكي اشتهر بأبحاثه في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى ذات صلة به. ويعزى إلى راين الفضل الأول في تأسيس قسم خاص بهذه الموضوعات في جامعة نيويورك اطلق عليه "قسم للباراسيكولوجي".

وبحدثنا راين عن الحافز الأول الذي حفزه إلى تأسيس هذا القسم للجامعي. فيقول انه يوم كان تلميذاً يدرس في الجامعة سمع من احد اساتذته قصة حلم عجيبة كان الأستاذ شاهد عيان فيها. وخلاصة القصة ان سيدة من جيران الأستاذ رأت في المنام ذات ليلة كلن لخالها يموت منتحراً، فاستيقظت مرعوبة وايقظت زوجها فلنتم بجانبيها حيث اصرت عليه ان يحضر عربة لكي يذهب بها معاً إلى بيت اخيها الذي كان بعيداً عن بيته بمسافة تسعة أميال. ونهض الزوج تحت الحاج زوجته فذهب إلى عائلة جاره الأستاذ يطرق عليها الباب ويطلب منها عريتها. وبعد للحصول على العربة ذهب هو وزوجته إلى بيت اخيها. فوجداه بالفضل منتحراً. والقريب ان الأخ المنتحر كان مطروحاً في عين المكان وعين الوضع اللذين رآه اخته فيهما لثناء الحلم<sup>(6)</sup>....

يقول راين ان هذه القصة التي سمعها في عهد شبابه قد قممته وجعلته في حيرة من امره. فهو لم يتمكن من تصديقها ولا من تكذيبها. إنه لم يكن قادراً على تصديقها من جهة لأنها كانت في نظره غير معقولة وهو لم يكن قادراً على تكذيبها من الجهة الأخرى إذ ان رايها الذي كان شاهد عيان فيها يعتبر علناً رصيناً ذا شهرة عالية.

ومرت الأيام على راين فاخذ يسمع بقصص أخرى من نوع تلك القصة. ولكنه وجد الناس الذين يتناقلون مثل هذه القصص غير مكترثين لها وكانهم يعدونها من القصص الملوقة التي لا تدعي للعجب منها. وكان لكثيرون منهم يحاولون تحليلها بحامل المصادفة.

ومن هنا صار راين يسأل نفسه، ما هي المصادفة؟ هل هي عشواء كما يظن

عاملة الناس أم هي تجري على قوانين؟ وإذا كانت الصلابة تجري على قوانين فهل من الممكن دراسة الأخلاق والأحاسيس العجيبة في ضوء تلك القوانين؟

كانت هذه الأسئلة بمثابة الشرارة التي قدحت في ذهن راين عزمًا على أن يقوم بأبحاث وتجارب مختبرية يستخدم فيها الأساليب الإحصائية. وكانت من نتائج هذه الأبحاث أن توصل راين إلى رأي هو أن الإنسان يملك في أعماق نفسه مقترنة على اختراق حجب الزمن والمكان، وهذه القدرة تختلف في قوتها باختلاف الأشخاص، وهي قد تكون لدى الشخص الواحد قوية في بعض الأحيان وضعيفة في الأخرى.

وقد تطلق راين على هذه للقدرة الخارقة اسم "الإبرك من غير حلقة" (7).

### علماء أمريكا

يؤسفنا أن نقول بأن أبحاث راين هذه قد قوبلت في أمريكا بالسخرية والنقد اللاذع. واخذ الكثيرون من العلماء ومسائذ الجامعات هناك يتسبون تلك الأبحاث إلى الخرافة. ومما يحكى في هذا الصدد أن أحد الباحثين الأمريكيين استهوته أبحاث راين، وشرع يجري عليها التجارب سرًا حيث توصل بها إلى نتائج تؤيد رأي راين. ولكنه أخفى ذلك عن الناس مخافة أن يتهموه بالتحريف..

وعند اجتماع مؤتمر الإحصاء الرياضي في أمريكا عام 1937 نوقشت أبحاث راين فيه. واتفق المؤتمر بعد انفضاضه للبيان التالي،

"إن أبحاث راين لها ناحيةان، تجريبية وإحصائية. والرياضيون لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن الجانب لتجريبية منها، أما عن الناحية الإحصائية فقد أظهرت الأبحاث الرياضية الحديثة أن التحليل الإحصائي فيها صحيح. وإذا كان من الممكن أن تتأجم أبحاث راين فإنها ينبغي أن تتأجم من ناحية أخرى غير الناحية الرياضية" (8).

### رأي سينل

الأستاذ جوزيف سينل باحث متخصص في علم الأحياء والتطور الحيواني، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته في دراسة ظاهرة الأحاسيس الخلق لدى الإنسان

والحيوانات. وتوصل بهذه الدراسة إلى الاعتقاد بأن الإنسان يملك في مخه جهازاً خاصاً قادراً على التقاط الأمواج الكهرومغناطيسية الصادرة من مخ آخر كما تنتقط العين لمواج الضوء أو كما يلتقط المذياع الأمواج فلاسلكية للصادرة من محطات الإذاعة.

يطلق سيندل على هذا الجهاز البشري اسم "الحلقة السانسة". وسوف نتحدث عن هذه الحلقة بشيء من الاسهاب في فصل قادم. يكفي ان نقول هنا بان الحلقة السانسة هي في رأي سيندل ضعيفة جداً حيث تعمل في الإنسان بخفوت شديد، والإنسان لا يلقي باله إليها في حياته الاعتيادية إذ هو مشغول بأمور معاشه يفكر فيها ويدبر الخطط لها، وبهذا نضيق عليه نبضات الحلقة السانسة كما يضيع صوت صرصور إذا لتطلق أثناء حفلة موسيقية صاخبة<sup>(19)</sup>.

ويتطرق سيندل إلى حالة الحلم التي يشعر الإنسان بها أحياناً بكثرة تقع على شخص عزيز عليه في مكان بعيد، فيقول في تحليلها ان مخ الحالم قد يكون "متناغماً" مع مخ الشخص الذي تقع عليه الكثرة، وبهذا يستطیع ان يلتقط الأمواج للصادرة من تلك المخ البعيد على منوال ما يفعل للمذياع حين يكون متناغماً في طول للوجة مع محطة معينة من محطات الإذاعة. فالأم التي يخبب عنها ولدها في سفره مثلاً تنظل مشغولة بالمال تحوه وذهنتها معلق به ليلاً ونهاراً. ومعنى هذا في رأي سيندل ان جهاز الحلقة السانسة في مخ الأم يبقى "متصوباً" باتجاه ولدها، وهو قد يكون عندئذ ذا قلبية خاصة للتقاط ما ينبعث من مخ فولد من امواج.

### قرائن مؤيدة:

يجوز القول بأن هذا الرأي الذي جاء به سيندل في شأن ما يسميه بالحاسة السانسة ليس سوى "فرضية" قد تصح أو لا تصح. ولكننا مع ذلك نستطيع ان نقول بأن الأبحاث الفيزيائية والفلسفية الحديثة تعيل إلى تليدها قليلاً أو كثيراً.

لقد نلت تلك الأبحاث مثلاً على ان المخ البشري يصدر لمواجاً كهرومغناطيسية من نوع معين. وقد صنع مؤخراً جهاز خاص لتسجيل هذه الأمواج واتضح للعلماء بالتجربة ان امواج المخ تختلف في ساعات النوم عنها في ساعات اليقظة، وفي وقت فتتكير عنها في وقت الدهور، وفي فترة المرض عنها في فترة الصحة، ويذهب الدكتور نابفس إلى القول بان كل فرد يطلق من راسه امواجاً خاصة به لا يشترك

فيها غيره . أي أن لمواج الخ مثل بصمة الأصلح لا يتشابه بها اثنان من البشر<sup>(10)</sup> .

ولنا كان الأمر كذلك فليس من الصعب علينا إن لن نتصور حدوث تناغم موجي بين مخ وآخر على الرغم من بعد المسافة بينهما، وبهذا يستطيع احد المخين ان يحس بما يجري في المخ الآخر بعيد عنه من انفعالات ذهنية قوية .

لا ننكر ان لمواج الخ ضعيفة جداً، فهي تبدو عند تسجيلها في الجهاز الخاص لتلك تخير محدود جداً لا يتعدى نطاقه المسافة القصيرة. ولكن هذا لا يعني انها محدودة الأثر بهذا المقار فعلاً. فقد ثبت علمياً ان لية موجة كهربائية تستوعب في تأثيرها الكون كله، ولا فرق في ذلك بين ان تكون الموجة ضعيفة او قوية .

#### اعتراضات تيرل:

مما يجدر ذكره في هذه المناسبة ان هناك كثيراً من الباحثين يحترفون بوجود حاسة سابعة او ما يشابهها في الانسان . إنما هم لا يوافقون على تعليلها بالأمواج الكهربائية. ومن هؤلاء باحث معروف اسمه الاستاذ تيرل . ففي رأي هذا الباحث ان الفرضية " الموجية " لا تصلح لتعليل الحاسة الخارقة . وهو يقدم ضدها لربعة اعتراضات<sup>(11)</sup> . نجملها في ما يلي:

1 . يقول تيرل انه لو كانت الحاسة الخارقة ناشئة عن تناغم موجي بين مخين لوجب ان يكون في احد للمخين جهاز اناعي قوي قادر على ارسال الأمواج عبر المسافات الشاسعة، وان يكون في الخ الآخر جهاز لالتقاط تلك الأمواج . هذا مع العلم ان العلماء لم يكتشفوا في الخ البشري أي جهاز من هذا القبيل او ذلك بتلاتاً .

2 . ويقول تيرل ان لدى العلماء الآن آلات حساسة جداً تستطيع ان تسجل ادى للأمواج الكهربائية، ولم يعرف عن هذه الآلات انها سجلت او اكتشفت امواجاً تحمل الأفكار بين مخين متباعدين .

3 . ويقول تيرل ان من طبيعة الأمواج الكهربائية بوجه عام انها تتناقص في وقتها طردياً بنسبة مربع المسافة . كما هو معروف في الأبحاث اللاسلكية . ولنا كانت الحاسة الخارقة نتيجة انتقال لمواج كهربائية فلا بد لها من ان تخضع لهذه القاعدة العامة، بينما نجد في الواقع انها لا تتأثر ببعد المسافة .

4 . ويقول تيرل في اعتراضه الأخير انه لو كانت الأمواج الكهرومغناطيسية هي التي تنقل الأفكار بين مخ وآخر لوجب ان يكون معها نوع من الشفرة أو اللغة لكي يتمكن المخان من ان يفهما بوساطتهما.

### رد الاعتراضات:

لست لشك في ان اعتراضات تيرل هذه قوية، إنما هي ليست بتلك الدرجة من القوة بحيث يصعب علينا تفنيدها لو الرد عليها. ويبدو لي من اعتراضات تيرل انه رجل ذو إطار فكري محدود، فهو ينظر في فرضية الأمواج من زاوية معينة لا يتعلها.

ومما تجدر الإشارة إليه ان تيرل قضى شطراً كبيراً من عمره في دراسة اللاسلكي، إذ كان مهتماً في شركة ماركوني وقد ساهم في نصب المحطات اللاسلكية في المكسيك وغيرها. والظاهر ان مهنته تلك جعلته ينظر في الأمور من خلال ما اعتاد عليه من تجارب ذات نطاق محدود.

ولعل تيرل قد تأثر فوق ذلك ببعض الأفكار الميتافيزيقية حيث صار بها ميالاً إلى رفض أي تحليل فيزيائي للحاسة الخارقة في الإنسان.

وحيث تدرس الاعتراضات التي لوردها تيرل ضد الفرضية الموجبة نجد فيها نقاط ضعف لا تلائم المنهج الموضوعي الذي يدرس الأمور من زوايا مختلفة. وإلى القارئ بعض نقاط الضعف هذه.

### الآلات العلمية

يقول تيرل في احد اعتراضاته انه لو كانت هناك أمواج كهرومغناطيسية تنقل الأفكار والانفعالات الذهنية بين مخ وآخر لاكتشفناها الآلات العلمية الدقيقة. ومنا اسأل تيرل، هل ان الآلات العلمية الموجودة لدينا الآن قد تمكنت من اكتشاف جميع الأمواج الكهرومغناطيسية التي يزرخ بها الكون؟ وإذا كانت هذه الآلات قد اكتشفت حتى الآن بضعة أنواع من الأمواج فهل يصح القول بانها سوف لا تكتشف أنواع أخرى منها في وقت قريب أو بعيد؟

المعروف عن الأنواع المكتشفة من الأمواج ان العلماء عثروا على بعضها مصادفة

نون ان يكون لهم نية على لكتشافها من قبل. فالاشعة السينية مثلاً اكتشفها رونتجن عام 1896 حين كان يقوم ببعض التجارب العلمية التي لا صلة لها بموضوع الأمواج، ثم تبين له أخيراً أنه عثر على اشعة نفاذة ذات امواج قصيرة. ومثل هذا ما حدث لعلماء آخرين عند اكتشافهم الأشعة الكونية أو الأشعة الجسيمية لو غيرها. فهل من المنطق العلمي إن ان نقول بأن العلماء قد اتموا اكتشاف جميع الأمواج الكهرومغناطيسية في الكون؟

اضف إلى ذلك ان الآلات التي يستخدمها العلماء الآن في اكتشاف الأمواج أو في تسجيلها قد تعتبر دقيقة بالنسبة لآلات القرن الماضي. ولكنها ستعتبر غير دقيقة طبعاً بالنسبة لآلات القرون القادمة. ومن يدري ما سوف يأتي به المخترعون من الآلات عجيبة في مستقبل الأيام.

إنني اعتقد بأن للعلم سيخترع لنا في يوم قريب لو بعيد، جهازاً قادراً على تسجيل الأمواج التي تعجز أجهزتنا الحالية عن تسجيلها، وربما استطلاع هذا الجهاز ان يحرف "طول الوجه" في مخ أي إنسان. وبهذا قد يتمكن من قراءة الأفكار التي تدور فيه.

من يدري؟

### لفز المادة الحية

أما قول تيرل بأن العلماء لم يكتشفوا في المخ البشري جهازاً لإرسال الأمواج لالتقاطها، فهو قول مردود من أسنسه. ويخيل لي ان تيرل لا يريد ان يتقبل التحليل الموجي للحاسة الضارفة إلا إننا رأى في مخ الإنسان جهازاً كالأجهزة للأسلكية التي اعتاد عليها تيرل في حياته المهنية، وهو يتسنى الفرق الكبير بين طبيعة المادة الجامدة وطبيعة الحجيرات الحية.

نحن نعلم ان بعض الكائنات الحية لواطنة تلتقط امواج الضوء وتتأثر بها دون ان يكون لها عين لو أي جهاز آخر يشبه العين في وظيفته. الا يجوز إن ان يكون في حجيرات المخ البشري، مقدره خاصة على التقاط بعض الأمواج الكهرومغناطيسية الصادرة عنها من مكن بعيد؟

ونحن نعلم كذلك بأن الملح البشري يصدر أمواجاً كهروطيسية من نوع معين .  
كما نشرنا إليه من قبل، فكيف يتاح لحجيرات الملح ان تصدر الأمواج مون ان يكون  
فيها جهاز لثاعي خالص بها؟

الواقع ان حجيرات الملح هي كحجيرات الأجسام الحية كلها لا تزال تحتوي على  
لسرار غير معروفة. إن العلماء لم يتوصلوا بعد إلى اكتشافه جميع اسرار المادة  
الجامدة، وهم بالأحرى لم يتوصلوا إلى اكتشافه جميع اسرار المادة الحية. ولكننا  
ولتقون من ان العلم سيكشف لنا في المستقبل عن كثير من تلك الاسرار التي  
تجعلنا نفهم كيف تستطيع الحجيرات الحية ان تكون مرسله للأمواج ولاقطه لها  
في وقت واحد.

### السفلة وقوة الأمواج

يقول تيرل في اعتراضه لثالث ان الأمواج الكهروطيسية تضعف كلما لبتعدت  
السفلة بها بينما نجد الحاسة لا تنتثر بالسفلة.

وقد جاء الاستاذ راين بمثل هذا الاعتراض أيضاً. فقد وجد في بعض تجاربه ان  
الحاسة للخارقة في بعض الأحيان تزداد قوة كلما ازديت بعداً. وهذا يدل في نظر  
راين على ان الحاسة الخارقة قلتما على مينا آخر غير مينا الأمواج.

وقد رد على راين بعض علماء الفيزياء حيث قالوا بان العلم ربما اكتشف  
للأمواج في المستقبل قوتين جديدة يمكن لعمل الحاسة الخارقة بها، ولكن راين لم  
ينخذ بهذا الرد. فهو يرى بان هناك شفرة لم تسد بين طبيعة الحاسة الخارقة  
وقوتين الفيزياء، ونحن نكتشف للعلم قوتين فيزيائية جديدة قد يكتشف كذلك  
اسراراً جديدة في الحاسة الخارقة مما يجعلها اشد عموضاً وأكثر لبتعلاً عن طبيعة  
تلك القوتين<sup>(12)</sup>.

يبدو لي على كل حال ان رأي علماء الفيزياء اقرب إلى النهج العلمي من رأي راين  
او رأي تيرل. ان راين يأتي بالحكم القاطع في هذا الشأن، وليس من الجائز في النهج  
العلمي ان يحكم الباحث على شيء قيل ان يستكمل لوجه البحث فيه. وكثيراً ما  
اصدر القدماء احكاماً قاطعة على بعض الأمور ثم تبين اخيراً انهم كانوا فيها  
مخطئين.

## لغة الأمخاخ

بقي علينا أن نفحص الاعتراض الرابع الذي جاء به تيرل حيث قال بأن تناقل الأفكار بين مخين يحتاج إلى شفرة أو لغة يتفاهم المخزن بها. وهنا الاعتراض في رأيي تافه جداً، وفيه يتضح مبلغ تأثير المهنة على تفكير الاستاذ تيرل.

اعتاد تيرل في أعماله للاسلكية أن يخبر غيره بوسلطة شفرة مصطلح عليها، وقد دفعه ذلك إلى الظن بأن المخ يحتاج إلى مثل هذه الشفرة عند اتصاله للوحي بمخ آخر. نسي تيرل أن اللغ يدرك الصور من غير حاجة إلى ترجمان أو وسلطة. فالخ مثلماً يدرك اللون الأحمر عند رؤيته حالاً. واللون الأحمر ليس سوى سلسلة من الأمواج ذات طول معين ترتطم بشبكة العين فينتقل تأثيرها إلى المخ. ولكن هنا اللون له اسماء أو رموز بمصطلح عليها فنادس عند التخاطب والمخاطبة.

معنى هذا أن الأمخاخ تحتاج إلى اللغة أو الرموز عندما تتخاطب من خلال الحواجز التي اصطنعها للبشر فيما بينهم. إنما هي في تخاطبها اللزاني لا تحتاج إلى ذلك. فلا تكاد ترسم الصورة في مخ ما وتنبعث عنها الأمواج الخاصة بها حتى يدركها المخ التناغم معه على وجه من الوجوه.

## الخلاصة

استخلص مما سلف أن في الإنسان حلقة خارقة يظهر أثرها في الأحلام أحياناً وفي غير الأحلام أحياناً أخرى. وهي ليست من قبيل القوة الميتافيزيقية التي لا يمكن تحليلها تحليلاً فيزيقياً مقبولاً. أرجح الظن أنها تشبه المداع أو التلغاز في عملها ولا بد أن يكشف العلم عما غمض من سرورها في يوم قريب أو بعيد.

## هوامش الفصل الرابع عشر

- (1) النظر : سبتل ، الخامسة السادسة ، ص 75 .
- (2) انظر : Rhine, Reach of Mind, p. 46 .
- (3) انظر: جريدة الأهرام المصرية بمبداها الصادر في 1956/9/22 .
- (4) انظر : القسطنف ، رسائل الأرواح ، ص 109 - 110 .
- (5) انظر: وليم جيمس ، إرادة الاعتقاد ، ص 23 .
- (6) النظر : Rhine, New Frontiers of Mind. p 14 .
- (7) النظر : Rhine, Extra - Sensory Perception .
- (8) النظر : Rhine, New Frontiers of Mind, P. 211 .
- (9) انظر: سبتل، الخامسة السادسة ، ص 34 .
- (10) انظر : فزاد سرروف، اتفاق المعلم الحديث، ص 232 .
- (11) النظر : Tyrrell, Personality of Man, P. 68 - 69 .
- (12) انظر: Rhine, Reach of Mind, p. 50 .

## الفصل الخامس عشر

### أحلام التنويم المغناطيسي

#### من تاريخ التنويم

لصبح للتنويم في هذا العصر موضوعاً علمياً محترماً له خبراءه والمختصون فيه. وقد اعترف به العلماء في اقطار العالم الختلفة شرقاً وغرباً. ومن اللؤسق أن نجد الكثيرين من متعلمينا لا يعرفون من حقيقته العلمية إلا قليلاً، ولعل بعضهم لا يزالون يستهينون به ويستهزئون.

ومما يجدر لكره أن للتنويم فن قديم كان الناس يستخمنونه في بعض شؤونهم منذ عهود بعيدة دون أن يدركوا كنهه او يطلقوا عليه لسمأ. والواقع انه كان مختلطاً بالسحر والشعوذة والكهانة، وصار من جراء ذلك محاطاً بهالة من الخرافة.

ولول من اكتشاف التنويم علمياً وتمكن من تنقيته من شوائبه لخرافية هو الجراح الإنكليزي للعروف، جيمس بريد، وذلك في عام 1841 م. وهو الذي اطلق عليه اسمه الحديث الذي يعرف به اليوم في الاوساط العلمية.

#### مصر

ونحن إذ نعرف بفضل جيمس بريد في هذا الصنف، يجب أن لا ننسى فضل رجل آخر ظهر قبله ومهد الطريق له. وهذا لرجل فرنسي اسمه لثطوني مسمر، وهو يعد لول رجل لفت الأنظار إلى التنويم في العصر الحديث.

وكان مسمر يعتقد بأن التنويم نوع من المغناطيسية الحيوانية ، وقد استخدمه في شفاء المرضى لا سيما المصابين منهم بالأمراض النفسية - فانتال النساء عليه من كل جانب واكتسب بينهن صيتاً رائعاً. ومن سوء حظ مسمر انه عاش في عهد الثورة الفرنسية، وهو عهد كان الناس فيه يكرهون كل ما يشم منه رائحة الخرافة. ولهذا قامت قيامة العلماء والأطباء ضده واتهموه بالشعوذة وانهالوا عليه بالتحقير والتعريض.

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد ان إحدى الصحف كتبت ذات يوم تستهزئ بالرجل فأعلنت على لسانه وصفة نهكية بعنوان "الأكسير المغناطيسي" جاء فيها قوله ، "خذ من زيت الخوف والزعفران أربع أونانص، ومن روح الوهم رطلين، وضع الملتين في زجاجة للضياء، لتركهما فيها ليالماً، ولشرب من تلك لربعين نقطة في الصباح، فتشفى من كل الأسقام"<sup>(1)</sup>.

واخيراً، في عام 1815 ، مات مسمر وهو كسهر القلب مخذول. مات دون ان يحصل من الناس على أي اعتراف له بالفضل. وهذا هو شان الناس في كثير من الأحيان - سألهم الله!

### تجربة شهنشها

لا اکتتم الفارزى اني في بداية امرى كنت كخيري من المتعلمين لسمع بالتنويم فاستهين به واعتيره من الالاعيب السحرية الملقوفة. ثم حدث لي في عام 1938 ان شهدت بنفسى، لأول مرة في حياتى، تجربة عملية في التنويم. وبهذه التجربة تبدلت نظرتى نحو التنويم وأصبحت اهتم به اهتماماً جدياً.

وخلاصة القصة ان منوماً مغناطيسياً محترفاً جاء لى للعراق في ذلك العام من احدى البلاد العربية، وكان معه وسيط شب ادعى انه ابنه. وقام هو وابنه للزعوم ببعض الاعمال التنويمية على بعض مسارح بغداد وغيرها، ولتيح لي ان اذهب اليه في الفتنق فاذي نزل فيه فطلبت منه ان يجري لىامى تجربة تنويمية خاصة بعد ان اتفقت معه على الأجرة.

لا احب ان اذكر هنا تفاصيل التجربة. يكفي ان اقول انى حاولت ان اكون فيها مدققاً غاية التدقيق لنلا يحدث فيها اى مجال للغش والتليس. وعندما نام

الوسيط وجدت انه كان قادراً على التقاط لية فكرة تخطر في ذهن منومه على الرغم من وجود مسافة لا باس بها بينهما. ومما فعلته لذلك اني كتبت لسعي واسم ابي ولقبى ومهنتي على ورقة صغيرة. ولم يكف يقرأ النوم الورقة ويسأل الوسيط عن محتوياتها حتى شهدت الوسيط يجيب عنها بدقة انهلنتني، هنا مع العلم ان الوسيط كان أثناء ذلك معصوب العينين من جهة، وكان لا يعرف اي شيء عني من الجهة الأخرى.

كيف كانت للعلوم تنتقل من رأس النوم إلى رأس الوسيط يا ترى؟ قد يقول قائل في جواب ذلك ، ان النوم والوسيط ربما كانا قد اتفقا سابقاً على تبير حيلة يتفاهمان بها بحيث يحرف احدهما ما يريد الآخر على وجه من الوجوه. الواقع اني لا اميل إلى قبول هذا التعليل. فقد كنت لثناء للتجربة شديد الاحتياط والحذر تجاه ما يبدر من الوسيط والنوم. ومعا يحذر نكره اني لم اكن إذ ذاك معتوهاً أو وليداً بحيث كانا يستطيعان ان يستغفلاني أو يعبثا بعقلي.

### تجارب أخرى

كانت التجربة الأتفة الذكر أولى تجاربي أو مشاهداتي في التنويم المغناطيسي. وهي على الرغم من بساطتها كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي، إذ اني كنت واعياً لما يجري فيها ومخاطماً له كما قلت.

وقد شهدت بعدئذ تجارب أخرى في التنويم. وكانت كلها تقريباً مما يعرض على الناس في المسارح العامة. واعترف ان هذه التجارب أو المشاهدات لا تصلح ان تكون بلهلاً كافيهاً على صحة ما يظهر فيها من خوارق نفسية. إنما هي على أي حال قد تكون قرينة اثبت لصحة ما شهدت في التجربة الأولى.

مما يعرفه كل مشاهد للحفلات التنويمية ان الوسيط يثمر في كثير من الأحيان على معرفة ما يختفي في جيب احد الحاضرين من مسبحة أو نقود أو مفاتيح. فقد يقوم شخص في احدى الحفلات يسأل الوسيط عما في جيبه. فيجيبه الوسيط عن سؤاله مع العلم انه جالس على المسرح معصوب العينين وهو بالإضافة إلى ذلك لا يعرف من هو السائل ولا يعرف ما في جيبه.

إن استطع ان نستنتج من كل هذا انه لا بد ان يكون بين ذهن الوسيط وذهن  
السائل نوع من الاتصال الموجه يشبه الاتصال بين المذيع ومحطة الإذاعة. فهل هذا  
الاستنتاج صحيح؟

لكي نستطيع الجواب على هذا السؤال يجدر بنا ان نعرف شيئاً عن طبيعة  
التنويم من الناحية الفلسفية.

### ما هو التنويم

بعد التنويم من الناحية الفلسفية أمراً بسيطاً جداً، فهو نوع من الذهول أو  
الأغماء يعثرى الإنسان لسبب من الأسباب فينسل الوعي فيه قليلاً أو كثيراً. إن  
التنويم إذن لا غربة فيه بحد ذاته. لما ما ينتج عنه من غرلب أحياناً فنلشء عن  
كونه يختار العمليات الإرادية في الإنسان، وبهذا للتخدير بنشط اللاشعور أو يتحدر  
من قيوده الواعية فيتمكن عندئذ من التقلط الأحاسيس التي كان عاجزاً عن  
التقلطها بوضوح اثناء الوعي واليقظة.

والتنويم لا يختلف عن النوم الطبيعي إلا بشيء واحد، هو انه نوم لصطناعي  
يطرا على الإنسان من جراء إيهاء يسلط عليه. ويقع لناثم من جراء ذلك تحت  
تأثير الشخص الذي سلط عليه الإيهاء، وهو الذي اسميناه بالنوم. ويجوز أحياناً  
ان ينؤم الإنسان نفسه، كما يحدث لبعض للتصوفة وفقراء الهند. ويطلق العلماء  
على هذه الحالة اسم "التنويم الذاتي".

يقول جان لرميت، من اساتذة كلية الطب بباريس، ان الفرق بين النوم  
طبيعي والنوم المغناطيسي هو فرق بالدرجة لا بالنوع ففي كليهما يخف الوعي  
وتضعف العمليات الإرادية التي تتميز بها حالة اليقظة<sup>(2)</sup>.

وهناك طرق شتى لأحداث التنويم في الإنسان. اهم تلك الطرق وأبسطها هي  
التي استخدمها جيمس بريد. فقد اكتشف هذا الباحث ان الإنسان، إننا حدق في  
نقطة لامعة وركز ذهن فيها مدة، تخدرت اعصابه وبخل في نوع من الغيبوبة أو  
الذهول. وهذه هي الطريقة التي كان يستخدمها كهان بني اسرائيل قديماً حيث  
كانوا ينومون لانفسهم بوساطة التحديق في الحجارة المقدسة الموجودة في دروعهم<sup>(3)</sup>.

ويستخدم بعض النومين المحترفين عيونهم في سبيل ذلك، وهم يملكون عادة عيوناً وسيمة ثقالة، فتركزون نظراتهم في عيني الشخص الذي يريدون تنويمه ويسلطون عليه الإيحاء بالنوم. فهناك المسكين طوع إرادتهم ويمسي عتقداً خاضعاً لهم متأثراً بإيحتهم إلى حد كبير.

### أحلام النوم والتنويم

عندما ينام الإنسان نوماً طبيعياً ينطلق اللاشعور من عقله وتنشأ عن ذلك الأحلام المتنوعة، كما أسلفنا ذكره في القسم الثاني من هذا الكتاب. ويحدث مثل هذا في التنويم، بيد أن لأحلام التنويم تختلف عن لأحلام النوم بكونها خاضعة لتوجيه للنوم وإرادته. ومعنى هذا أن النائم قادر أن يجعل النائم يرى كل شيء يوحي به إليه.

ويصح القول بأن الشخص الذي يقع تحت تأثير التنويم هو نائم ويقظان في آن واحد. فهو نائم لأنه لا يشعر بما يحدث حوله ولا يرى منه شيئاً وهو يقظان من حيث اتصاله بالنوم إذ هو يرى كل ما يريد النوم منه أن يراه. وقد تظهر في هذه الحالة مفارقات ومعجائب مضحكة. فهو لا يراك مثلاً وفنت ممتصبة لملمه ولكنه يرى الأشياء الخفية في جيبك أو الأفكار المضمرة في رأسك إذا أمره النوم بذلك.

### التنويم وتصديق الأوهام

نالت التجارب العلمية التي أجريت على التنويم أن الإيحاء التنويمي قادر أن يجعل من الأوهام حقائق واقعية لدى بعض الناس. يقال إن رجلاً وقع ذات مرة تحت تأثير نمط خفيف من التنويم ثم قذف النوم هنيئاً وأوحى إليه أنه كتب يفتز إليه. فالتفت الرجل للتدليل باعتباره كلياً وبقي يعامله كالكتب بعد استيقاظه. وفي تجربة ثانية أوحى للرجل بأن قرنين نبتا في رأسه، فصدق للرجل بهذا الإيحاء واعتقد بأنه قد أصبح ذا قرنين<sup>(4)</sup>.

ويقول الأستاذ مورث إن للنوم قد يقرب من انف النائم زجاجة تنبعث منها رائحة كريهة ثم يوحي إليه بأنها رائحة الورد والريحان، فبشمها للنائم وهو مرتاح كأنه يستنشق الورد والريحان فعلاً. ومن الممكن أن يوحي النوم إليه بأن أحد

أعضائه مصاب بالشلل فيشعر بان العضو قد شل حفاً وهو إذن لا يقدر على تحريكه<sup>[5]</sup>.

من لطرف التي تروى عن بعض البارعين في التنويم ان أحدهم قد يتحدث إلى رجل سانج ثم يسلط عليه ايحافاً تنويمياً خفيفاً حيث يوهمه بأنه قد نسي اسمه. وينسى المسكين اسمه فعلاً، ويمسي كالفارة التي تبلع الزنبق، يدور بعينه في سبيل ان يفكر اسمه فلا يقدر.

### التنويم والألم

لا يقتصر فتر الإيحاء التنويمي على التصديق به فقط، إنما هو قد يتعداه إلى ما هو أبعد من ذلك. فلما وضعت كرة من الحديد البارد على يد شخص قابل للتنويم ثم أوحيت إليه بلن الكرة ساخنة جداً، ظهرت آثار الاحترق على يده فعلاً وأخذ هو يتأفف من حرارتها ويتألم. وعلى العكس من ذلك لو أنك وضعت على يده جمرة من الفلر، وأوحيت إليها بأنها ياقوتة، لتناولها دون ان يحس بحرارتها وربما حاول اختطافها لو أخفاتها في جيبه ظناً منه أنها من الأحجار الكريمة حقاً.

يروى عن المرحوم الدكتور مصطفى مشرفة، عميد كلية العلوم بالقاهرة سابقاً، انه أجرى تجربة على رجل ولحق تحت تأثير التنويم الغناطيسي، فدفع ديوساً طويلاً في فخذة. ومس الديوس عظم الفخذ فلم يتحرك الرجل او يتلوه. والأعجب من ذلك ان قطرة واحدة من الدم لم تخرج من مكان اللبوس.

وقد شهدت بنفسي في بغداد وسامراء وثكريت افراناً من المتصوفة يجرحون انفسهم بالخناجر والحراب والسفوفيد من غير ان يعقب ذلك فيهم لذي. انهم يقعون فتناء تلك تحت تأثير نمط معين من التنويم، وهو ما نسمينه بالتنويم الذاتي.

### التنويم والجراحة

أخذ بعض النومين المحترفين في السنوات الأخيرة يطالبون الأطباء في ان يستخدموا التخدير التنويمي بدلاً من البنج في العمليات الجراحية. ولكن الأطباء ابوا ان يستجيبوا لهذه الدعوة في اول الأمر. مما يجدر نكره ان كثيراً من هؤلاء الأطباء

لا يزالون ينظرون إلى التنويم كما كان ينظر إليهم لسلافهم قبل قرن من الزمان، إذ هم يعدونه من قبيل الشعونة.

حدث في لندن منذ عهد قريب أن ظهر ورم خبيث في صدر فتاة اسمها جانيس لميستون، بحيث كانت في حاجة ملحة إلى عملية جراحية عاجلة. وكانت هذه الفتاة لا تحتمل البنج ولا تطبيق التخدير به، فحار الجراحون في أمرها. وقد اضطروا أخيراً إلى أن يلتجأوا في تخديرها إلى التنويم لأن الورم الخبيث كان يودي بحياتها. واستعانوا في ذلك بأحد المنومين المشهورين في بريطانيا، وجاء النوم إلى الفتاة بينما كانت مطروحة على سرير العمليات، فتخذ يوحى إليها بأنها جالسة في مكان جميل على ساحل البحر، وأنها تشعر ببرد خفيف في صدرها، ولكنها غير شاعرة بأي ألم، وأخذت الفتاة تسرح في أحلامها التنويمية كما أراد المنوم لها أن تسرح، بينما يبضع الجراح بنفذه بمشرطه في أعماق الورم. وبعد انتهاء العملية استيقظت الفتاة وعلى فمها ابتسامة ودية. وصارت تحدث الحاضرين عما رآه أثناء العملية، فقالت: "لقد كنت حلاماً رائعاً حقاً. كنت أتنزه في مدينة بيضاء في جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض وكنت أرى من الشرفة لشجار الخضيل التي تطل على مياه البحر الزرقاء".

مهما يكن الحال فالظلم لن الأملباء بوجه عام قد تنازلوا عن رأيهم السابق في التنويم. وقد أخذت الأخبار ترد علينا في الأيام الأخيرة وهي تشير إلى انتشار استخدام التنويم في العمليات الطبية والعمليات الجراحية في مختلف أنحاء العالم، ومن يدري لعل البنج سيصبح في يوم من الأيام في خبر كائن.

### التنويم والسحر

يجب أن لا ننسى أن التنويم ليس كله من نمط واحد، إنما هو يقع للناس على أنواع متفاوتة. فمنه للنمط الشديد وهو الذي تحدثنا عن بعض ظواهره آنفاً، ومنه للنمط الخفيف الذي يقع للإنسان عادة دون أن يشعر به<sup>(16)</sup>.

هناك أفراد من الناس لهم قلبية لأن يتأثروا بالإيحاء التنويمي في حياتهم العادية. فقد نقول لأحدهم وهو يمشي في زقاق مظلم مثلاً أن في زاوية الزقاق جنياً يتربص به. وينظر صاحبنا إلى الزاوية فيرى شبح الجنى منتصباً وعينه تقذفان

شراً، وعند ذلك يطلق ساقيه للريح ثم يأخذ بالتحصن إلى الناس عما راى من  
لهوال الجن. والناس قد يصدقون حديثه، وهم لا يترددون بعند ان يشهروا شبح  
الجنى في الزاوية نلتها حين يعمرون بها.

بن حكايات المنطل والسعلاة والبيع والغول وما تشبه كلها من هذا الطراز. إذ  
هي تشيع بين العوام من جراء الإيحاء للتويمي الذي يلقيه بعضهم على بعض في  
لساطيرهم وأحاديثهم للعلية.

ويعتقد الأستاذ سينل ان جلسات مناجاة الأرواح التي تولع بحضورها كثير من  
الناس في هذه الأيام ليست في حقيقة امرها سوى أوهام لو احلام تنويمية. فلذا  
جلس عدد من الأشخاص بسكون ووقاره في حجرة هائلة قليلة الضوء، يتلمسون  
علامة تدل على وجود روح احد الاموات بينهم، فإنيهم يشاهدون في كثير من  
الاحيان ظواهر يخيل إليهم انها تؤكد صحة تلك الأوهام<sup>171</sup>.

ويرجح في ظني ان كثيراً من عجائب السحر التي يتناقلها الناس منذ قديم  
الزمان هي من هذا القبيل أيضاً. فالناس الذين يشهدون اعمال السحرة هم في  
معظم الاحيان من السذج المغفلين الذين يتكثرون بالإيحاء التويمي تثاراً كبيراً.  
ويقوم الساحر ببعض الحيل التي تخفي أسرارها عليهم ثم يوحي إليهم بانها اعمال  
خارقة للعادة. وهم يصدقون بما يقول وقد يروونه عياناً من جراء التويم الذي  
يسلطه الساحر عليهم.

### سحرة فرعون

يقول التعليق عن السحرة في عهد موسى وفرعون انهم جاؤا بالعصي والحبال  
يحملها ستون بعيراً فلقوا بها في الوادي والناس ينظرون إليها عن بعد، فلذا بها  
حيات كامثال للحيال قد ملات الوادي يركب بعضها بعضاً. فخاف منها موسى  
خوفاً شديداً، ولكن الله امره ان يتشجع ولن يلقي بعصاه عليها. وعند هذا انقلبت  
عصا موسى إلى ثعبان اسود منلهم يرب على اربع قوائم قصار غلاظ شتاء، وله  
ذنب لا يضرب به على شيء الا حطمه، وله عينان تلتهبان ناراً، ومنخراته يتفخلن  
سموماً، وعلى قفله شعر كامثال الرماح، ويخرج من فمه فحيح وكشميس وصريف  
وصرير. ومال للثعبان إلى حيات السحرة فبلعها واحدة بعد الأخرى حتى لم يبق

منها في اللواحي قليل أو كثير وانهزم الناس هاربين منقلبين فتزاحموا وتضاغطوا ووطئ بعضهم بعضاً حتى مات منهم حينئذ خمسة وعشرون ألفاً، وانهزم فرعون مع الناس متخوفاً مرعوباً وقد استطلقت عليه بطلته في يومه ذلك أريحته مرة. ثم إن موسى عاد راجعاً إلى قومه والعصا على خالها حية تتبعه وتبصص حوله وتولد به كما يولد للكلب الكلوب بصاحبه، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها وقد ملتوا رعباً.... (8).

### التنويم والتجريم.

إن الذي يتأثر بالإيحاء التنويمي قد يكون في بعض الأحيان خاضعاً لإرادة منومه وقد يطيعه فيها طاعة عمياء. وقد اثبتت في الأونة الأخيرة مشكلة قانونية حول هذا الأمر بين فقهاء القانون. فالنوم قد يدفع من يقع تحت تأثيره إلى ارتكاب جريمة، فما هي المسؤولية القانونية المترتبة على ذلك؟

لو أنك استطعت تنويم أحد من الناس وأعطيته سيفاً رمزياً من الورق المقوى ثم نوحيت إليه بأنه سيف يمان، إن الواجب يقضي عليه أن يهاجم به الناس ويعمل فيهم تقطيعاً وقتيلاً. إن من الممكن أن يطيع الرجل ما امرته به، وإن يهاجم الناس بسيفه الورقي كما هاجم دون كيشوت طواحين الهواء، والمشكلة إلى هنا بسيطة قد لا تخلو من فكاهة. إنما هي قد تكون مشكلة جنية حين تعطي الرجل سيفاً من الحديد بثوراً وتلمره بقتل الناس فعلاً، فمن هو المسؤول عما يفعل عند ذلك؟

لست أقول هنا على سبيل التخييل لو الافتراض. فقد حدثت في الواقع حوادث غير قليلة اقترف بها بعض الأفراد أعمالاً مختلفة للقانون بتأثير إيحاء تنويمي سلط عليهم. من هذه الحوادث حادثة وقعت في اللانمرك عام 1951 وكان لها نوي كبير، وخلاصتها أن أحد النومين استطاع أن يدفع وسيطاً له إلى السرقة والقتل، وقد غتم من جراه ذلك مالاً وفيراً. وكان الوسيط شياً ساجداً نا براءة وإيمان عميق. وقد سيطر النوم عليه من هذه الناحية، فلوحي إليه بأن أبواب الجنة مفتوحة بين يديه، وأنه يجب أن يسرق المصارف خدمة لوطنه ولن هناك ملاكاً خاصاً يحرسه أثناء السرقة وهو مسؤول عنه. وكان الشرب يسرق ثم يسلم المال المسروق إلى منومه. وكان النوم يقول له: ما دعت ستذهب إلى الجنة فما فائدة هذه

الأشياء الجنوية الغانية. وذهب الشاب ذات يوم إلى أمين الصندوق في أحد الصارف فهدنه بمسلس ولمعه يابن يسلم جميع المال الموجود في صندوقه. وعندما لبى أمين الصندوق فن يفعل ذلك، اطلق الشاب عليه مسدسه واربعه قتيلاً... ثم خرج إلى الشارع يمشي بهنوء كأنه لم يقترب تنبأ كبيراً، فقد كان مطمئناً إلى أن الملاك يحرسه وأنه لم يقم إلا بما هو واجب عليه في سبيل الله والوطن.

كانت هذه الحادثة بيعة المعلم، والمسؤولية القانونية فيها واضحة. وقد نظرت فيها إحدى المحاكم الفانماركية بعد تحقيق طويل ساهم فيه بعض علماء النفس فثبت لديها أن الشاب بريء، وأن المجرم الحقيقي هو النوم. فاصدرت حكماً عليه بالأشغل الشاقة للويدة. ولكن السؤال الذي يخطر في البال، هل أن جميع الجرائم التويميية واضحة على هذا النمط، وهل أن جميع المحاكم في العلم تعترف بوجود شيء اسمه التويم وتصدر احكامها في ضوءه؟

إن هذا السؤال يفتح لنا باب الخيال على مصراعيه. فكلم من الناس انبنوا بجرائم في اللاشيء، ولا يزالون ينانون بها حتى يومنا هذا، بينما هم قد قاموا بها تحت وطأة التويم، وبقي النوم الموحى لهم بارتكاب الجريمة طليقاً ينعم بأطياب الحياة.

يكاد يجمع فقهاء القانون الآن على أن الذي يقع تحت وطأة التويم غير مسؤول عما يقوم به من جرائم. فالتويم يعد عاصلاً من عوامل الإكراه، وهو إنن يشبه إعطاء مسكر أو مخدر لشخص ما في سبيل انتهاك حرمة او بفعه إلى جريمة. بني اود أن نضع هنا الرأي امام فقهاء القانون عندنا ليرقروا كلمتهم فيه.

### مشكلة أخرى:

وهناك مشكلة أخرى في التويم ذات أهمية نفسية أكثر مما هي ذات أهمية قانونية، هل أن الانسان يتدفع في تنفيذ جميع الأوامر التي تلقى إليه أثناء التويم مهما كانت، أم أن هناك حد يقف الانسان عنده في ذلك؟

اجاب الأستاذ لويس على هذا السؤال بقوله إنه فأنر ان يجعل من الذين يقعون تحت تكرر التويم الات بيده يحركها كما يشاء<sup>(9)</sup>. ولكن هنا الرأي لم يلق قبولاً

تماماً لدى جميع الباحثين. ففي رأي أكثر الباحثين ان قناتم لا يقوم بالأعمال التي يوحي بها إليه إلا في نطاق معين، فالعمل المخالف لضمير القناتم لو الذي يخالف رغبته فواعية لا يمكن ان يقوم به القناتم مهما دفعه التوهم إليه. معنى ذلك انك لا تستطيع ان تدفع قناتم الى عمل ما إلا إذا كان العمل ملائماً لتقييم التي كان القناتم يؤمن بها قبل تنويمه.

خذ مثلاً ذلك الشاب اللبناني الذي لقترف السرقة والمقتل أثناء تنويمه. فقد كان، كما قيل، شيئاً جاهلاً نا أخلاص وسناجة. ومن شأن هذا الشاب وامثاله انهم لا يترددون في حياتهم الاعتيادية ان يرتكبوا افطع الأعمال إذا قبل لهم انها من باب الجهاد في سبيل الله أو الكفاح من اجل الوطن. والتنويم إذن لا يؤثر فيهم إلا من حيث تضخيم هذا الميل فيهم وبعث الحرارة فيه.

من القضايا المشهورة في هذا الخصوص قضية حدثت في مصر منذ سنوات، وخلصتها ان طبيباً أنتهك عقاب فتاة كانت تعمل خادمة عنده، وذلك بعد ان نوّمها تنويماً مخدّطيسياً. وقد نظرت إحدى المحكم المصرية في هذه القضية وحكمت على الطبيب فيها بالعقوبة الشديدة. ونحن ندرس هذه القضية من الناحية النفسية نستطيع ان نفترض ان الطبيب ما كان قادراً على اغراء الفتاة لو لم يلجأ عند تنويمها الى الضرب على الوتر الحساس من قلبها كأن يقول لها مثلاً انها أصبحت زوجته ولن الزواج امر مشروع يرضى عنه الله والرسول. وليس من المستبعد ان تستطبلب الفتاة هذا الإيحاء وان تفعل ما تؤمر به فيه.

حدث مرة ان امرأة سئلت أثناء تنويمها عن عمرها الحقيقي فراوغت في الإجابة. فلما لوحى إليها بضرورة الإبانة عن عمرها بالضبط للحصول على جواز سفر لم تعط جواباً مباشراً. وتعليل ذلك ان هذه المرأة لا تحب الافصاح عن عمرها أثناء يقظتها، والإيحاء للتنويمي إذن قد لا يؤثر عليها حتى لو كان فيه جواز سفر الى المريخ.

لجريت تجربة تنويمية على امرأة أخرى كان لها كلب صغير وهي تحبه حباً جماً. وقد لوحى إليها أثناء التنويم ان كلبها مصاب بالطاعون وان رعاية الصحة العلة تقتضي اعلمه. ثم اعطيت فلماً باعتبار انه سكن، وحقيبة صغيرة باعتبار انه للكلب الذي يجب قتله. وصدقت المرأة هذا الإيحاء كله، غير انها ثارت ثورة

عارمة عندما طلب منها النوم ان تقتل الكلب المزعوم بالسكين المزعومة. لقد صرخت بالنوم قللة، "إذهب إليها الرجل الغضبي. لن أقتله.. لن أقتله... لن أقتله..." وببكت تتشنج والدموع تنهمر من عينيها. واضطر النوم عند ذلك ان يبذل جهناً في سبيل ان يعيد لها رصانتها<sup>(10)</sup>.

## التنويم والافتقار

لن التنويم كما قلنا على درجات متفاوتة، منه الشديد ومنه للخفيف. وتركز الأبحاث النفسية والقلنوتية لتمامها على الشديد منه. ولكننا يجب ان لا ننسى ان التنويم للخفيف قد يكون ذا اثر بالغ في الحياة النفسية والاجتماعية. يتضح ذلك جلياً حين يحاول احداً لقتاع غيره على شيء.

لن قوة الافتقار في الانسان تعتمد على عوامل شتى بلا ريب، ولكن هناك عاملاً يجعله كثير من الناس مع انه مهم في الافتقار، وهو القدرة على الإيحاء والتنويم. وصاحب هذه القدرة قد يستخدمها في معاملاته مع الناس، ولها دخل كبير في نجاحه، بينما هو غير شاعر بها او مدرك لأهميتها في حياته. وهذه القدرة هي جزء مما ينسبه الناس إلى الحظ. والخط منها بريء.

قد يأتيك شخص ممن يملكون هذه القدرة التنويمية فيسلط عليك نظرفته النفاذة وإيحاءه القوي. إنه فيما يزعم يحاول لقتاعك بالحجة المنطقية، ولكنه في الواقع ينومك تنوياً خفيفاً من حيث لا تدري. إنه يوحي إليك بما يشاء من افكار وأخيلة، وهو يصبها عليك مرة بعد مرة حتى يخضعك لإرادته أخيراً فلا تستطيع منه خلاصاً.

ويأتيك شخص آخر ممن لا يملكون القدرة على التنويم، لو هي ضعيفة فيه، فتجد نفسك لإزائه طليقاً تستطيع ان تقول له "لا" وانت مرتاح. ولعلك قادر ان تقلب عليه اثر التنويم فتكون انت النوم له.

ويغلب على مثل هذا الشخص الذي تضعف فيه مقدرة التنويم انه يعتمد في الافتقار على الحجة المنطقية أكثر مما يعتمد على قوة الإيحاء، ظناً منه ان الانسان حيوان عاقل. وكثيراً ما يؤدي به هذا الظن إلى الفشل في الحياة.

المعروف عن بعض الذين يتعاطون للظلمات الجنسية وينجحون فيها انهم لا يملكون الجمال الذي يؤهلهم لها. ويبدو انهم يملكون بدلاً من الجمال شيئاً آخر هو قوة الإيحاء. فالرجل منهم قد يؤثر على المرأة ويفرّجها بمحسول حديثه وتغافل بصره. والمرأة ترتخي بين يديه دون أن تدرك أنه يتوهمها مغناطيسياً.

لعلني لا اغالي إذا قلت أن الحياة الاجتماعية كلها عبارة عن شبكة من التنويم للتبادل، حيث يقوم الناس بعضهم بعضاً ويوحى بعضهم إلى بعض دون أن يشعروا. وكثيراً ما يتنفع الإنسان في عمل أوحى به إليه وهو مغرور بحقله يظن أنه يقوم بالعمل عن اقتناع وروية.

ومهما يكن للحال فالظاهر أن الناس يتفاوتون في درجة تلتزم بالإيحاء للتويمي. فمنهم من يتأثر به إلى الدرجة التي قد يرتكب فيها أفعال الجرائم، ومنهم من يتأثر به ضمن نطاق محدود جداً. وقد يصح القول بأن الفرد كلما كان ذا إرادة قوية وتفكير ناضج صعب على المنوم إخضاعه لإرادته. ولعل من الناس من لا يمكن تنويمه على الإطلاق.

### التنويم الاجتماعي

جدير بنا أن نتذكر قبل أن ننتهي من هذا الفصل، أن التنويم لا يقتصر حدوثه على شخصين أحدهما يقوم الآخر، إنما هو قد يكون على نطاق اجتماعي واسع وهو الذي اسميته في فصل سابق بالتنويم الاجتماعي.

تشهد وطأة هذا التنويم عادة في المظاهرات التي تحدث فيها جماهير غفيرة من الناس ويحدث فيها الهرج والهرتاف. وهنا نجد الأفراد الذين يشتركون في التجمهر لا يشعرون بما يفعلون، حيث تسيطر عليهم فكرة معينة فتجعلهم يقفون وعيهم إلا من ناحية واحدة، هي تلك الناحية التي ينصب فيها الهتاف. وزيارهم لهذا يتدفقون في أفعال مستهجنة جداً كالتمنيب والنبج والتمثيل، دون أن يدركوا مغبة ما يفعلون. ومن الممكن تشبيههم حينئذ بذلك الشاب الداعركي الذي صر سرق ويقتل وهو مؤمن بأن أبواب الجنة مفتوحة بين يديه.

أن الذي يسمع عن الفضائح والجازر التي تقوم بها الجماهير أثناء التنويم الاجتماعي قد لا يصدق بها لشدة ما فيها من هول تقشعر منه الأبدان. والغالتمون

بالمجازز انفسهم قد لا يصدقون بصحة ما ينسب اليهم بعد انكشاف غمة التنويم عنهم. فهم يظنون يدورون برؤوسهم متسلسلين، اصحيح انهم انفسهم قلموا بتلك المجازز الغلطية؟

والتنويم الاجتماعي له اثر بالغ في شل التفكير. فالذي يقع تحت وطائه لا يستطيع ان يفكر الا في حدود ما يميل عليه الإيحاء التنويمي العام. وانت لا تستطيع ان تجادله نو تباحثه مهما يكن لديك إليه صراحاً، إن إظهاره للعقلي مخلوق بشكل لا ينفذ فيه اي برهان مهما كان. إنه ينتظر في الأمور من خلال تلك الإطار. وهو قد يهيج كالثور حين تحاول ان تأتي له بما هو خارج عن نطاق تلك الإطار.

كنت اتحدث ذات يوم مع شاب في الكاظمية عن بشاعة تلك العادة التي يطلقون عليها اسم "التطبير"، حيث يجرح بعض الناس رؤوسهم بالحرايب ويتعرضون فيه للموت. وكان الشاب يصغي لي ما أقول حتى حسبته قد اقتنع بصحة رأيي. ثم اتضح لي بعد ذلك ان ارى الشاب نفسه في يوم عاشوراء وهو يشهد موكباً من مواكب التطبير. ولم يكذب بلحني الشاب من بعيد حتى خلت الشرير يتطبير من عينيه. إنه كان إذ ناك واقعاً تحت تأثير التنويم الاجتماعي وقد خلب ليه منظر الدم وزعيق اليكين فاصبح لا يفهم من بنياه سوى تلييد التطبير والانذفاع في سبيله. ولا حاجة لي بالقول اني اطلقت سلكي لتريح مخالفة ان يتركني الشاب فيمسك بتلابيبي ويفعل بي تبخاً وتمثيلاً، وكم من الناس من ذهبوا ضحايا بريئة في منا لسبيل!

يصح القول ان التنويم الاجتماعي موجود ايضاً وجد الانسان. ولا يد لكل انسان من ان يقع تحت وطائه قليلاً نو كثيراً. ولكننا نستطيع ان نقول عن التنويم الاجتماعي مطلقاً اننا قلنا عن التنويم الفردي هو انه كلما ازديت ثقافة الناس وتفتحت عقولهم ضعف فيهم اثر التنويم وقلت مخاطره.

## هوامش الفصل الخامس عشر:

- (1) انظر: المقطف، رسائل الأزواج، ص 29 .
- (2) انظر: بول جاعو، التوهم المغناطيسي ، ص 5 .
- (3) انظر: سينل، الحاسة السادسة : ص 58 .
- (4) انظر: Humphry, Story of Man's Mind, p. 269 .
- (5) انظر: Woodworth, Study of Mental Life .
- (6) انظر: سينل، الحاسة السادسة ، ص 88 - 93 .
- (7) انظر: المصدر السابق، ص 77 .
- (8) انظر: الثعلبي، قصص الأتباء، ص 106 .
- (9) انظر: وليم سورجويس، التوهم المغناطيسي، ج 1 ص 149 .
- (10) انظر: المصدر السابق، ج 1 ، ص 152 .

## الفصل السادس عشر

### عبقرية الأحلام

تحدثنا فيما مضى عن الأحلام من حيث صلتها بالتنبؤ وبالتنويم، ونود الآن أن نتحدث عن الأحلام من ناحية أخرى هي علاقة الأحلام بالانتاج الفكري والعلمي. فقد اشتهر عن بعض المبدعين من الفنانين والمخترعين أنهم توصلوا إلى إبداعهم الرائع أثناء النوم لو ما يشبه النوم من أوقات الذهول والاستجمام.

#### أمثلة واقعية،

تروي لنا الكتب العلمية في هذا الشأن قصصاً كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال قصة اكتشاف "الأنسولين" وهو الدواء الذي يعالج به الآن مرض بول السكر. وقد كان هنا الممرض من الأمراض الخبيثة التي استعصى علاجها على الأطباء، إلى أن تمكن باحث كندي اسمه فوردريك غرانت من اكتشاف الأنسولين، وقد حصل غرانت من جراء ذلك على جائزة نوبل في عام 1923 .

ويحدثنا غرانت عن كيفية اهتدائه إلى اكتشاف الأنسولين، فقل له كل من كان له ليلة يحد محاضرة عن مرض بول السكر، وبعد أن تعب في اعتماد للحاضرة غلبه التعب فنام، وفي الساعة الثانية من بعد منتصف الليل استيقظ فجأة فضاء الصباح وكتب ثلاث عبارات في مفكرته، ثم عاد إلى النوم. وقد أصبحت تلك العبارات فيما بعد مفتاحاً لاكتشاف الدواء الذي نقدر الملايين!



ويحكى مثل هذا عن الرجل الذي اخترع ماكينة الخياطة. فقد أكمل هذا الرجل اختراع الماكينة ولم يبق منها سوى تصميم شكل الإبرة المناسبة لها. وظل حزيناً مدة طويلة لا يدري ما يصنع. ثم حدث له مرة أن أدركه النوم بعد أن بلغ اليأس منه ميلغه. فراك نفسه في المنام وكأنه محاط بجماعة من الزنوج البعلين وهم يريدون قتله. وحدث منه فتعلت إلى الحروب التي وجهها للزنوج نحوه فوجد في كل حربة منها ثقباً قريباً من رأسها. فلستيقظ من نومه مرعوباً ولكنه أدرك حالاً أنه قد عثر على ضالته المنشوبة، فلنكب على الإبرة يصنعها على متوكل ما رأى في حراب الزنوج.

\*\*\*

ويقال عن تباركاته أنه كشف كشوفه العظيمة وهو نائم في فراشه صباحاً. وكذلك يقال عن هنري بوانكاريه، فاعلم الرياضي المشهور أنه توصل إلى حل مسألة رياضية عامة وهو في حالة نوم<sup>(1)</sup>.

ويحدثنا هنري فابنر عن بعض أحلامه فيقول: "أنا وميضاً لامعاً يتلوى في مخه فيثب من سريره، ويشعل مصباحه ويسجل الحل مخافة أن يضيع من نلكرته. إن هنا الوميض كضوء البرق يخفتي فجأة كما يظهر فجأة..."<sup>(2)</sup>.

### مع أهل الفن:

ولم يقتصر الأمر على العلماء والاختراعين وحدهم بل تعداه إلى أهل الفن. من ذلك ما يحكى عن الموسيقار السر آرثر سيمون سولفيان، حيث كان قد وضع أغنيته المشهورة "الوتر الضائع" في اللحم، وعندما استيقظ تذكر منها للقطوعات الأولى فسجلها. أما بقية الأغنية فقد ضاعت إلى الأبد.

ويحدثنا صاحب الأغاني عن شاعر جاهلي اسمه عبيد بن الأبرص أنه كان يرمى مع اخننه غنماً له. فتعرض له رجل من بني مالك ومنتعه من ورود الماء ثم أهانه وأتهمه باخته. فغنى عبيد إلى شجيرات هناك فاستظل مع اخته بها وهو حائق. ثم نام. فراك في المنام كان شخصاً ياتيه بكية شعر ويلقيها في فمه. فاستيقظ عبيد وهو يرتجز هجاء شديداً، هذا مع العلم أنه لم يكن يقول الشعر من قبل<sup>(3)</sup>.

## الإعتاد النفسي:

المعروف عن بعض المفكرين أنهم لا يكتفون بما أتى به الأحلام من فائدة على سبيل المصانفة، بل يعمدون إلى شيء من التفسير قبل النوم يهيئون به لذهانهم نفسياً لاقتناص الفائدة المتوقعة من الأحلام. من هنا ما يروي عن الفيلسوف للعربي ابن سينا. يقال انه كان إذا استعصت عليه مسألة فلسفية توحاً وصلّى ثم نام، فيرى جواب تلك المسألة في منامه.

وتحقن لا نستطيع أن نتكرر اثر الوضوء والصلاة في هذا الشأن، إذ إن ذلك يؤدي إلى تهينة الذهن وتركيزه على المشكلة التي يرد حلها أثناء النوم. ومن الممكن للوصول إلى النتيجة ناتماً بآية طريقة نفسية أخرى غير الوضوء والصلاة.

يقال عن رجل لسمه وليم جيس، وكان من رجال الإنارة العروفيين، أنه كان يتوصل إلى حل المشكلات المستعصية عليه بعد أن يركز عليها تفكيره وهو منطرح على فراشه يريد النوم، وقد اعتاد أن يضع فلاماً وورقاً بجانب فراشه. وكثيراً ما كان يستيقظ من نومه وفي رأسه فكرة مجدية، فيسرع إلى تسجيلها قبل اختفائها من ذاكرته<sup>(4)</sup>.

وكانت الأستاذة فورستر تلجأ إلى مثل هذه الطريقة عندما كانت طالبة في الجامعة. فقد كانت تضع إلى جانب سريرها ورقة لتكتب فيها جواب ما عجزت عن حله من المسائل في يحفظتها<sup>(5)</sup>.

## رأي ابن خلدون،

مما تجدر الإشارة إليه أن ابن خلدون فطن إلى هذه الحقيقة قبل ستة قرون تقريباً. فقد كان يعتقد بأن الأحلام تستطيع أن تحل بعض مشاكل اليقظة على شريطة أن يعد الحالم نفسه لها إعتاداً نفسياً قبل أن ينام.

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته طريقة طريقة لهذا الغرض، وهو يقول عنها انه وجدما في كتب بعض المدجمين وجربها بنفسه فانتجت له رؤى عجيبة، وملخص الطريقة، كما جاء بها ابن خلدون أن الانسان يقول بعد فراغ السر وصحة فتوجه "تعالمس بعد أن يسواك وغداس تنوفنا غلمس". ثم ينام. وعندئذ يرى ما كان يتشوق إليه أثناء يقظته.

وابن خلدون لا يرى في هذه الكلمات لأعجمية أية مقدرة سحرية لو سر خفي، إذ هي ليست سوى مجموعة من الألفاظ الجوفاء مما يعتاد النجمون على تسطيرها في طلاسهم ولقي لا معنى لها في ذاتها، ولكنها تنتج فيمن يعتقد بها استعداداً نفسياً فتجعله قادراً على توجيه قوله الذهنية نحو الحل المطلوب.

ويخلص ابن خلدون رايه بعبارة رائعة، تشبه في بعض الوجوه ما يقول به علماء النفس المحنون، حيث يقول، "فالقدره على الاستعداد غير القدره على الشيء"<sup>(6)</sup>. إنها إذن قضية استعداد وتوجه نفسي، وليس من المهم عندئذ أن يكون الاستعداد عن طريق فوضوه والصلاة أو عن طريق كلمات اعجمية جوفاء من امثال "تماغس نوقنا غلس...".

### رأي برجسون:

مهما يكن الحال فقد ظهر بين الباحثين من يشكك في مفكرة الأحلام على الإبداع أو على حل للمشكلات المستعصية، من هؤلاء برجسون، الفيلسوف الفرنسي المشهور. ففي رايه أن الإبداع لا يقع للنتيجه على التحقيق، إنما هو يأتي في حالة بين النوم واليقظة.

يعتقد برجسون أن العقل عند الإبداع يجب أن يكون قادراً على بذل جهد يمكنه من التنظيم والترتيب، وهذه المقدرة لا تتلئ للإنسان أثناء نومه، إذ إن اللاشعور يكون عند ناك ملغائاً أو مرتبكاً<sup>(7)</sup>.

يجوز لنا أن نناقض برجسون حول رايه هنا. فنحن لا ننكر أن الإبداع يحتاج إلى جهد واع يبذله الذهن في التنظيم والترتيب، ولكن، هل يكفي هنا الجهد وحده للإبداع؟ خذ مثلاً اختراع ماكينة الخياطة الذي اشرنا إليه، فقد اتم المخترع تصميم تلك الماكينة بعد جهد طويل وتفكير مركز، ولم يبق منها سوى صنع الابرة الملائمة لها. وأخذ يواصل التفكير في هذا السبيل دون جدوى. لقد كان مصير الاختراع كله متوقفاً على شكل الابرة، إذ يجب أن يكون الثقب فيها قريباً من الرأس، ولكنه لم يهتد إلى ذلك مهما اجهد ذهنه في التفكير. وأخيراً، ويلمحة خاطفة، جاءته الفكرة أثناء النوم، فاستيقظ وهو بهتف كما هتف أرخميس من قبل، وجدتها... وجدتها!

نستطيع ان نقول مثل هذا عن كل مخترع او مبدع، فهو يبحث في المشكلة المستعصية ويقلب لوجه النظر فيها، ولكنه يبقى مع ذلك عاجزاً عن الحل، وربما كان الحل كامناً في فكرة بسيطة جداً كبساطة موضع الثقب من لبرة ماكنة الخياطة. وهذه الفكرة قد لا تتخطر بالبال ما دام الانسان يفكر من اجلها تفكيراً واعياً. ويصح ان نقول انه كلما اجهد نفسه في التفكير ليتحدث عنه، كلما هو لا يكاد ينساها حتى تأتيه فجأة كلمح البرق.

### الاقتناص الأفكار:

مما يجب تذكره في هذا الصدد ان للفكرة الابداعية الخاطفة لا ينحصر ظهورها في وقت النوم وحده، انها قد تأتي في اي وقت اخر ينهل الانسان فيه عن نفسه ويخمد نشاط عقله الواعي. وكثيراً ما وصل العباقرة الى افكارهم للكبرى لثناء مشيهم في للشارع او دخولهم في المرحاض او انطراخهم على اريكة الراحة.

معنى هذا ان العبقرى المبدع لا يجوز ان يكتفٍ بنشاط عقله الواعي وحده، بل عليه بالإضافة الى ذلك ان يترصد بومضات عقله الباطن ويقف مستعداً لاقتناص ما تأتي به من افكار خاطفة، وانا تردد عن اقتناص تلك الافكار في حينها فقد تضيع منه فرصة العمر.

وهذا الذي نلاحظه في المبدعين قد يلاحظه كل واحد منا في نفسه. فنحن نحاول احياناً ان نتذكر شيئاً ما وقد يكون هذا شيئاً مما تفكره في كل حين، ولكننا لا نكاد نركز نهنا عليه حتى يختفي من ذاكرتنا، ان هذا هو ما يعبر عنه العامة حين يقولون عنه انه "على طرف لسانهم". والغريب اننا لا نكاد نهمل الشيء الذي نزيد نتكره ونغفل عنه حتى يأتينا فجأة، وهو قد بقي بعد قوات الأوان.

ويحدث لنا مثل هذا حين نحاول ان نلقي نكتة بالمناسبة، وكلما اجهدنا نفسنا في سبيل ان نتذكر النكتة الملائمة لزيد عجزنا عن العثور عليها، وما هو الا ان تنتهي المناسبة حتى نجد نهنا قد امثلاً بالنكتات الرائعة، مع الاسف الشديد.

### فريجة الشعراء:

من هنا لقبيل ما ترويه القوريات الانبية عن الشعراء قديماً وحديثاً، فالواحد منهم

يحاول نظم الشعر أحياناً فيستعصي عليه النظم، ثم تأتي عليه بعد ذلك لحظات ينطلق الشعر على لسانه انطلاقاً فوّاراً كأنه يعمل عليه من قوة خارجة عن إرادته.

كان عرب الجاهلية يقولون عن تلك اللحظات التي تفيض بها القريحة الشعرية أنها من عمل الجن. ولا لوم عليهم في ذلك، فهم لا يعرفون السر الذي يجعل قريحتهم تفيض تارة وتنضب تارة أخرى دون أن تكون لإرادتهم الواعية يد فيها، ولا بد لهم من أن يعزوه إلى الجن لأنهم اعتادوا أن يفعلوا مثل ذلك في تحليل كل ظاهرة عجيبة.

يقول العماليبي<sup>٨</sup> وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقى على أفولها الشعر وتلقنها إياه وتعينها عليه، وتدعي أن لكل قحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه، فمن كان شيطانه لمرء كان شعره أجود، وبلغ من تحقيرهم وتصديقهم بهذا الشأن أن تكروا لها أسماء، فقالوا إن اسم شيطان الأعشى مسحله، واسم شيطان الفرزدق عمرو، واسم شيطان بشار شنقنلق...<sup>(٨)</sup>.

يروى عن الفرزدق مثلاً أنه قال: "قد تمر على ساعة وقلع ضرس من لضرسي أهون علي من عمل بيت من الشعر". وحدث للفرزدق مرة أن أهانه رجل من الأنصار وتحده أن يقول شعراً كشعر حسبان بن ثابت الأنصاري، فانصرف الفرزدق مغضباً ثم أخذ يحاول النظم فلم يقدر، وظل يصارع قريحته دون جدوى. والظاهر أن صاحبه الجني كان غلباً عنه يومئذ، فاضطر الفرزدق أن يأخذ بزعام تلقته ويخرج إلى جبل خارج المدينة يبحث فيه عن صاحبه. وصاح هناك بأعلى صوته: "أخلكم أخاك لبا ليني!". وشاء الجني أن يشفق على الفرزدق، فلم يكن للفرزدق يحقل تلقته ويتوسد ذراعها حتى جاش الشعر في صدره كما يجيش الرجل. ولم يقم حتى نظم لبياتاً جاوز عددها المئة بيت من جيد الشعر.

وحدث مثل هذا لجرير. قيل إن أحد فلولاة أرسل إليه يطلب منه قصيدة، فمكث جرير لميلته يجتهد أن يقول شيئاً من الشعر فلم يوفق. وعند هذا هتف به صاحبه الجني من زاوية البيت، "لأعمتك لك تقول الشعر... ما هو إلا أن غبت عنك ليلة حتى لم تحسن أن تقول شيئاً..."<sup>(٩)</sup>.

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن الفرزدق جاء إلى الحسن البصري فلت

يوم وهو يقول له، "إني قد هجوت إبليس"، فقال له حسن ثبصري متعجباً:  
"كيف تهجوه وعن لسانه تنطق؟" (10).

### شعراء الأفرنج:

احس كثير من شعراء الأفرنج في العصر الحديث يمثل ما احس به شعراء  
العرب في قديم الزمان. ولكنهم لم ينسبوه إلى الجن، إنما قالوا عنه بأنه حالة  
غامضة شعريتهم فتجعلهم ينظّمون الشعر عن غير وعي أو إرادة (11).

من هؤلاء الشاعر الإنكليزي المشهور شيلي. والمعروف عن هذا الشاعر أنه كان ذا  
سلوك شاذ حتى ألهمه قومه بالجنون. وقد شوهد ذات مرة في غابة جالساً عند  
شجرة والأوراق مبعثرة حوله وفيها سطور مترلكمة بعضها فوق بعض بشكل  
مخيف. وعندما سئل شيلي عن ذلك قال، "إن دعاغي حين يستحر بالأفكار  
سرعان ما يهتلي فيقذف بالأخيلة والكلمات قذفاً أسرع مما تستطيع التقاطه".

ومن الأراء التي أبدعها شيلي في هذا تصد قوله، "إن الشعر ليس من قبيل  
التفكير الذي يسيطر عليه القصد أو الإرادة. فالإنسان لا يستطيع أن يقول، أريد أن  
نظم شعراً. وليس في مقدور أعظم شاعر أن يقول مثل هذا القول".

ويقول كيتس، وهو شاعر معروف أيضاً، أنه عندما يقرأ قصائده التي كتبها  
من قبيل في لحظات الإلهام، يعجب منها حيث تنبؤ له وكأنه لم ينظمها إنما  
نظمها له شخص آخر غيره.

ومثل هذا ما قالته جورج إليوت حيث اعترفت بأن خير ما كتبت لم يصدر  
عنها، وكأنه صدر عن شخصية أخرى. ولم تكن هي سوى آلة تسجل ما تعلى  
عليها الشخصية الذاتية (12).

وكذلك قال وليام بليك حيث صرح بأنه كان يكتب من لشعر ما يعلى عليه (13).

لواقع إن هناك شعراء كثيرين، غير هؤلاء الذين نكروناهم، اعترفوا بسيطرة  
حالة غامضة عليهم عند نظم الشعر. إنهم لا يعزونها إلى الجن كما كان يفعل

اسلافهم من شعراء العرب القنامي . وأحسب أنهم لو كانوا يعيشون في أيام الجاهلية لما تردوا عن وصف تلك الحالة الغامضة بأنها من عمل الجن أو للشياطين .

### وسائل حث القريحة:

لكل شاعر تقريباً وسيلة خاصة به يستحث بها قريحته عندما تستعصي عليه . فكان بعض شعراء الجاهلية مثلاً يخرجون إلى القفار الوحشة اعتقاداً منهم أنهم يلاقون الجن هناك . والجن في زعمهم تعيش في الأماكن القفرة لخالية من البشر . وكثيراً ما يظهر لهم الجن هناك بتأثير الوهم والإيهام الذاتي .

يحدثنا الشاعر كثير عزة عن نفسه فيقول : " بينما أنا يوماً نصف النهار لسير على بعير لي بالنعيم لو يقاع حمان ، إذ راكب قد ننا مني حتى صار لي جنبي فتاملته فزنا هو من صفر وهو يجز نفسه جراً . وقال لي : قل الشعر . ولقاه علي . قلت : من أنت ؟ قال ، أنا قرينك من الجن ... " (١٤) .

لا يصعب علينا تصور ظهور الجن لهذا الشاعر . فقد كان للشاعر يعني نفسه بلقاء الجن ويترقبه ويوحى إلى نفسه به . انه كان يخوم نفسه تنوياً ذاتياً ، فيذهب به الخيال إلى رؤية ما كان يترقبه . وعند هذا يفيض الشعر عليه فيضاً لا شعورياً وهو يظن بان الشعر قد لقاها عليه قرينه من الجن .

وهناك من الشعراء من يستحث قريحته بطريقة أخرى ، كان يعرض نفسه إلى البرد أو الحر ، أو يتناول للخدرات أو المنعمات ، أو يقوم بعمل يشبه أعمال الحمقى والمجانين . فمن طريف ما يروي عن أبي تمام مثلاً انه كان إذا أعينه الحيلة يععد إلى صهريج ماء اعده في بيته فيخطس فيه ، وعند هذا يؤاتيه الشعر . ويروي عن جرير انه كان عتد استعصاء قشعر عليه يخلع ثيابه كلها ثم يأخذ بالتمرغ على الرمل كما يفعل الحمامة وقد يحبو لثناء ذلك ويهمهم حتى يخال الناظر إليه انه مجنون . ويقال عن شعراء آخرين من امثال الأخطل وابي نولس والخيام أنهم كانوا يستحثون قريحتهم الشعرية بشرب الخمر .

والعروف عن كثير من البدعين في عصرنا أنهم لا يستطيعون ان يفتخروا شيئاً إلا إذا اكلوا من التدخين أو افترطوا في تناول القهوة أو تناولوا جرعة قوية من الخمر

لو الحشيش لو غيرهما من العقاقير للخبرة . وهم لا يكلون يمتنعون عنها حتى يشعروا بجفاف مزعج في قريحتهم .

ليس من السهل علينا تعداد مختلف الوسائل التي يلجأ إليها الشعراء والفنانون في هذا الصدد . وعلى أي حال ، فمن الممكن القول أن هذه الوسائل على اختلاف أنواعها لا يقصد بها سوى تخدير العقل الواعي وذلك لكي يتمكن اللاشعور من إظهار نشاطه على وجه من الوجوه .

### الصرع والأبداع:

مما بلغت النظر أن بعض العباقرة المشهورين في التاريخ كانوا مصابين بالصرع على وجه من الوجوه ، حيث لا تتفتح قريحتهم إلا إذا لتألمهم للصرع بين فترة وأخرى . وقد يعجب القارئ من هذا القول إذ أن الصرع في نظر أكثر الناس مرض وبيل يحطم شخصية من يبتلى به .

الواقع أن الصرع يحطم شخصية صاحبه في بعض الأحوال لا سيما إذا كان المصاب به من الأغبياء أو المعتوهين . أما أصحاب الذكاء اللامع والقريحة الغياضة فقد ينتفعون من الصرع إذ هو يخدر عقلهم الواعي أحياناً ويصبح للاشعور فرصة للعمل الخلاق .

مما يجتر نكره أن الصرع ليس كله على شاكلة واحدة ، وليس كله من تلك النمط الشديد المعروف لدى الناس . فهناك مثلاً نمط خفيف منه لا يضر شخصية صاحبه شيئاً ، إذ هو ليس سوى فترة ذهول أو إغماء يغيب فيها الوعي قليلاً وقد يصاحبها شيء من العرق . وهذه الفترة قد تكون نفع حيث يخرج صاحبها منها وهو مفعم بالأفكار الجديدة .

يبدو أن هذا هو الذي جعل بعض الشعوب القديمة تطلق على الصرع اسم "المرض المقدس" والمعروف عن الأفوام البيثاغية أنها تعد الصرع مظهراً من مظاهر الاتصال بالآلهة والأرواح<sup>(15)</sup> .

### ابن الفارض:

لا يسعنا المجال هنا أن نذكر لاسماء الذين لبثوا بالصرع من عباقرة الأمم . يكفي

ان نذكر واحداً منهم هو الشاعر المصري الملمم ابن الغارض المتوفى عام 632 هـ .  
وحيث تدور سيرة هذا الشاعر كما هي في كتب الأدب العربي لا نجد فيها ذكراً  
للصرع . ولكنه في الحقيقة كان مصاباً بالصرع . بيد ان صرعه كان من النمط  
الخفيف الذي لا يدعو ان يكون فترة من فترات التواجد الصوتي والخيوية .

يقول المؤرخون عنه انه نظم اكثر شعره تحت تأثير الخيوية الصوفية . وقد  
حدثنا ولده عنه مرة فقال : " راهت الشيخ نهض ورقص طويلاً وتواجد وحنناً عظيماً  
وتحمر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه وخر الى الأرض واضطرب اضطراباً  
عظيماً ولم يكن عنده بخيري ثم سكن وسجد لله تعالى فسأله عن سبب ذلك  
فقال : يا ولدي فتح الله علي بمعنى في بيت لم يفتح علي بمثله . . " .

وكان ابن الغارض يصف غيبوبته بانها سكرة بخر محبة الله .

### ذهول العباقرة

لشتهر كثير من العباقرة بانهم اولو ذهول شديد يقفلون به عن انفسهم ومن  
حولهم من الناس . فتري احدهم ينتظر اليك وتحسبه يصغي الي ما تقول بينما هو  
لا يفهم منك حرفاً واحداً . وكثيراً ما ينسى العبقرى من جراء ذلك اسم لقرب  
الأصدقاء اليه ، لو يتحرك حركة شلاء غير متوقعة منه في الشارع او في المجلس .

إننا نحن العامين قد تعثرنا احبباً لحظلت ذهول ننسى فيها انفسنا وتعلق  
في لا شيء . ولكن هذا الذهول فينا من طراز خفيف سرعان ما يزول عند اقل بادرة  
تقع حولنا . لما ذهول العباقرة فهو من طراز آخر . وقد تمتلئ الدنيا حولهم صرخات  
وصخباً بينما هم ساهرون في عالم الغريب يجترون احلامهم ولا يحسون بما  
حولهم من الدنيا شيئاً .

يحكي عن ارخميس مثلاً انه كان ذات يوم في ساحة ناره منكباً على الأرض  
يرسم عليها خطوطه وحساباته ، فجاءه على حين غفلة جلاوز يستعصيه الى ذلك  
عاجلاً . فلم يسمع لارخميس نداء الجلاوز ، وظل منهمكاً بخطوطه . فظن الجلاوز  
ان ارخميس يستهين بامر الملك . وكيف يتأتى لجلاوز ان يفهم ذهول العباقرة ،  
فهجم عليه وقتله (16) .

ويقال عن نيوتن انه كان مصاباً بمثل هذا الذهول الشديد. حدث له مرة انه را ان يضع بيضة في ماء مغلي فيسلقها. ولكنه بدلاً من ان يلقي البيضة في الماء التي فيه لساعة التي كانت في يده. والغريب انه ابقى البيضة في يده وظل ينظر إليها كأنه كان يريد بها تحديد الوقت الذي يتم سلق "لساعة" فيه.

وحدث مرة اخرى ان دعي جماعة من اصديقه الى تناول الغداء معه. فلما حضروا تركهم وذهب الى مكتبه حيث جلس مدة طويلة يتأمل. وعندما سمم الاصغاء من الانتظار نهضوا ومروا عليه فقللين له، "شكراً جزيلاً"، فحاجبهم بكل هدوء، "لا شكر على واجب".

ويحكى عن عبقري آخر من قرياضيين انه كان يمشي في الشارع ونهذه مشغول بمسألة عويصة. فراكى عربة سولده واقفة في الطريق، فاخرج من جيبه قطعة من الطباشير واخذ يكتب على ظهر العربة معادلاته الرياضية، ظناً منه انه يكتب على لوحة سولده موجودة في بيته فكريم، ولم يظلم في نفسه الا بعد ان تحركت العربة، فعلمت الأرض به وخيل إليه انه نصيب بالدوار...

### الاشعور والإبداع:

نستخلص مما سلف ان الإبداع ليس كله مما يدركه الإنسان نتيجة وعيه لتقاصد أو تكبهره المنظم. لا شك ان التفكير المنظم ضروري للإبداع ولكنه لا يكفي وحده في ذلك. فمهما حاول الفكر ان يصل الى فكرة جديدة شعر بالعجز ما لم يسعفه الالاشعور بلمحاته الخائفة التي تنير له السبيل.

يقول الاستلا سير بيرت في الطريقة التي يتوصل بها العباقرة والفنانون الى القيام بانجازاتهم الرائعة ما يلي:

" ان الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسي على الاحلام واحلام اليقظة قد الفت جانباً كبيراً من الضوء على عمل العقل عند الفنان. فالعمل الانشائي الذي يقوم به للفنان يكون في الغالب - مثل حلم اليقظة - نتيجة عملية لا شعورية. وما يبدو للعين مجرد لمحة من الالهام أو ميلاً انشائياً فريئاً، إذا أنت فحصته بدا لك في طبيعته المعقدة منبعثاً من ميول عدة، تعمل في الأعماق تحت سطح الشعور. هذه الفبول تستمر في عملها الالاشعوري ما بقيت مكبوتة، وتبقى آثارها بسيطة وغير

مفهومة ما بقيت مسانرها خفية، ولكن متى تحقق الناس أن العقل . حتى في مشكلاته العادية . يقوم بسلاسل من النشاطات اللاشعورية، تكشف لهم الغاز الانتاج الفعلي لكل التكشف<sup>(17)</sup>.

وكذلك قال الاستاذ كنمير عند بحثه في العبقورية- فالابنواع العبقري في رايه هو "الطريق الغرب الذي ننصب منه الأفكار الجديدة والمكتشفات العجيبة على العبقري، من حين إلى حين، نايحة من معين مجهول لا يعرفه هو نفسه ولا يستطيع العقل الشعوري أن يدركه"<sup>(18)</sup>.

ونذهب إلى مثل هذا الرأي الدكتور برون حيث قال: إن الغدائيات الذهنية التي تعمل على حل مشكلة ما ليست هي مما يمكن للعقل المفكر للسيطرة عليه أو للشعور به<sup>(19)</sup>.

## الذكاء

إن هذه العلاقة الوثيقة بين اللاشعور والابنواع تجعلنا نتساءل، ونطرح في التساؤل، عن السبب فيها. إنها مسألة دقيقة ومهمة، وفي رأيي أننا لا نستطيع أن نفهم حلاً لها قبل أن نعرف شيئاً عن طبيعة الذاكرة في الإنسان. فما يحدث للميدع قد يحدث لأي واحد منا حين نحاول أن نتذكر شيئاً، كما لمشردنا إلى ذلك من قبل. فنحن كلما أجهدنا انفسنا في أن نتذكر شيئاً نزيد صعب علينا امره، ولكننا لا نكاد نهمل ونغفل عنه حتى ياتينا فجأة كاللمح للخاطف.

ومشكلة الذاكرة بوجه عام ليست بالمشكلة الهينة، فقد حاول العلماء لكشف عن اسرارها ربحاً طويلاً من الزمن دون جدوى، وبقي قسم من العلماء حتى يومنا هذا يعدون الذاكرة لغزاً غير مفهوم، وفي الأونة الأخيرة جاءتنا الصحف بخبر ظهور اكتشاف مهم في شأن الذاكرة على يد عالم روسي اسمه الدكتور بلومنغلد. فقد قام هذا العالم ببعض التجارب المخبرية على الخلايا الحية، لا سيما تلك التي توجد في أنسجة المخ ونخاع العظام، فوجد أنها تحتوي على خواص كهربائية مغناطيسية تشبه إلى حد بعيد تلك الخواص التي تتصف بها أجهزة اللاسلكي الدقيقة. وقد أعلن العلماء أن هذا الاكتشاف قد يؤدي إلى لكشف عن اسرار الذاكرة في الإنسان، ولعل الذاكرة ليست سوى عملية معقدة للتسجيل للمغناطيسي يجري

في تدخل المخ القشري: على منوال ما يجري التسجيل المغناطيسي في العقول  
الالكترونية المعروفة.

اعتقد ان هذا الاكتشاف العلمي ذو دلالة كبيرة في موضوع الابتاع. فنحن نعرف  
ان اي ابتاع لفكرة جديدة ليس سوى ربط او تاليف بين فكرتين معروفتين  
سابقاً<sup>(20)</sup>. ومعنى هذا ان المبتدع لا يستطيع ان يخلق الشيء من عدم، بل هو  
يولفه من اشياء موجودة قبلاً، وليس له من فضل في ذلك سوى فضل الربط  
والتركيب.

ولما علمنا بالإضافة إلى ذلك ان المخ يحتوي على ملايين الأفكار والفكرات التي  
لخزنها من اختياراته السابقة جاز لنا القول بان بلن الفكرة الجديدة هي نتاج عملية  
لاشعورية تجري في داخل المخ حيث تتربط بها فكرتان قيمتان كما تتربط  
العلوم المختلفة المخزونة في العقل الالكتروني...

#### سؤال آخر:

قد يراود القارئ في هذا الصدد سؤال آخر هو: لماذا يصعب على المخ ان يقتصر  
الفكرة الجديدة في حالة الوعي والتفكير القاصد، بينما هو يقتصرها بسهولة عندما  
يغفو العقل الواعي او يهفل عن نفسه؟

يبين ان العقل الواعي ذو طبيعة تحليلية لا تركيبية. فهو يستطيع ان يبحث  
ويفكر ويستقصي، إنما هو لا يستطيع ان يبتكر إلا قليلاً. ولعل السر في ذلك ان  
العقل الواعي ميال إلى التركيز والدقة في النظر. فهو عندما يدرس لمرأ ما يحاول  
التركيز على نقطة واحدة منه. ولهذا فلمس من السهل عليه ان يستوعب نقاطاً  
عدة من خلال نظرة واحدة. فتراه عند البحث يجمع الأفكار ويستقصي تغلقها،  
ولكنه لا يقدر على الربط بين فكرتين متباعتين منها.

وهنا سيب ما نرى بين الحفظ من عجز عن الفهم والابتاع. فهم يكتسبون من  
حفظ للمعلومات ومن تكرارها والتعشق بها، ولكنهم يظلون كالبيضاء غير ملمين  
على استخلاص لية جدوى مما يحفظون. وعلى العكس من تلك الانكباء للهموم،  
إذ هم يهابون على تفهم الأفكار المتنوعة ثم ينسونها. ومعنى هذا انهم يتركونها

مخزونة في اغوار عقلمم للباطن، فتتفاعل هناك وتتشابك، ولهذا نجدهم لبرع في الجواب واقتدر على حل للمشكلات من اولئك الحفاظ "التراخين".

### كيف يفيض الشعر:

المفروض في الشاعر انه يحفظ كثيراً من الشعر الروي قيل ان يكون شاعراً. وليس من الممكن ان يكون الانسان شاعراً من غير ولع سابق له بالشعر وحفظ له. معنى هنا ان محفوظاته الشعرية تنغمس في اعماق عقله الباطن وتختزن هناك، حيث تتلاقح وتتفاعل.

وابنا كيف ان الشاعر يصعب عليه ان ينظم الشعر الجيد حينما يريد. فالإرادة هنا تصيب بمثابة العقبة تسد الباب على اللاشعور وتعرقل عليه الغيوض. والشاعر محتاج ان يلاحظ ينفو فيها عقله الواعي وتفعل الإرادة. وعتخذ يكون لللاشعور حراً مرتاحاً فيتم التلاقح والتفاعل فيه من غير قيد او عقبة.

يحكي عن الخروج معروف الرصافي ان احد الرقماء جاءه ذات يوم يطلب منه قصيدة عاجلة لتلقى في إحدى المناسبات الطارئة. وظن هذا الرجل بان الشاعر قادر ان يقول الشعر متى شاء، وقد تعجب حين وجد الرصافي يحترق عن اجابة طلبه ويصر على الاعتذار. وعندما عاود الرجل صاحبه غضب الرصافي منه وقال له كلمة لا يجمل بنا نكرها هنا، إنما هي تدل على ان الشعر فيض تلقائي لا يخضع للإرادة.

### اهمية الوقت:

سمعت ذات مرة شويعراً يلقي قصيدة طويلة في حفل ونالت استئصال بعض الحاضرين. وعندما انتهى الشويعر من إلقائه اخذ يفخر بنفسه قائلاً بأنه نظم القصيدة كلها في دقائق معدودة. وكان يقصد من ذلك انه على الرغم من ضيق الوقت انتج قصيدة رائعة ولو اتيح له وقتاً اطول لكأنت قصيدته لروع وأعظم. نسي هذا الشويعر ان طول الوقت قليل الأهمية في امر جودة الشعر. ورب شاعر مجيد يحاول نظم الشعر اياماً عتيبة فلا يقدر، وهو قد ينظم القصيدة الخالدة بعد ذلك في بضع دقائق.

مشكلة الإبداع بوجه عام أنه لا يخضع لحساب الزمن ولا يفهم جدول لضرب،  
إنه ليس من قبيل العمل لترتيب فني يزيد إنتاجه بمقدار ما يطول الزمن به.

أرجو أن لا يفهم القارئ من هنا أن الوقت لا أهمية له في هذا الشأن بتاتاً. الواقع  
أن الوقت مهم جداً إذ هو يتيح للمبدع مجالاً يقتصر فيه فيض الفريضة. وكلما  
طال به الوقت كانت فرص الاقتناص بين يديه أكثر. ويصدق هذا عند المبدع الذي  
يستلهم قريحته في فترات متقطعة. فهو في كل مرة يضيف شيئاً جديداً في ما  
لبداع سابقاً. وبذلك يضيف إلى إبداعه وينفع فيه فترة بعد فترة حتى يتجمع له في  
نهية المطاف كثير من لوجه الكمال.

يصح أن نقول مثل هذا عن كل مخترع عظيم في المجالات العلمية. خذ على  
سبيل المثال اختراع التلغون فقد اكتف السيد غراهام بيل على هذا الاختراع طيلة  
سنوات عديدة، يكبح ويثابر على الكدح فيه. وكانت تقف في طريقه مشكلة  
مستعصية بين كل فترة وأخرى، وهو قد كان محتاجاً إلى استلهام اللاشعور مرة  
بعد مرة، حتى استطاع أخيراً أن يكمل اختراعه الذي اجتمعت فيه نتائج الجهد  
الإعجابي ومضات اللاشعور جنباً إلى جنب<sup>171</sup>.

### تصنع العبقرية:

يحلو لبعض الناس أن يتصنعوا العبقرية ويتكفؤوها تكلفاً. يقع هذا بصفة  
خاصة لدى الصبيان الذللين من أبناء الترف، فهم قد نالوا من دنياهم ما يشتهون  
من مال وجاء فضيل إليهم فابرون على نيل العبقرية كذلك كأن العبقرية حاجة  
تكسب بالمال كما تكسب به الفانية الجميلة والقصر الفاخر.

وقد يسمع هؤلاء عن زمول العبقرة فيحاولون التشبه بهم فيه. فترامهم  
يطيلون شعرهم ويتصنعون النظرات العميقة ثم يستدون رؤوسهم على أكفهم،  
ويطافون الحشرات تلو الحشرات. وإذا جلسوا إلى الناس اختوا يخرجون للكلام من  
توفهم ويملؤونه بالمصطلحات الرنانة. وليس من الغر أن يلتف حولهم الناس  
متزلفون يمدحونهم ويصفقون لهم فيخفون أنهم أصبحوا عبقرة حقاً. وقعايد بأنه:

وهناك ناس آخرون يشتهون العبقرية دون أن يكونوا من لولى لوجه والمال.  
ولعلمهم يشتهونها ليسدوا بها النقص الذي يشعرون به من جراء الحرمان والفضلة.

انهم يقولون في كتب التربية القديمة ان العبقرية تنال بالسمي وحده ون كل من سار على الدرب وصلء فيحسبون ان باب العبقرية مفتوح بين ايديهم وانهم واصلون إليها حتماً إذا عملوا من اجلها واستخدموا فيها التفكير الصحيح.

مشكلة هؤلاء انهم لا يصلون الى غاياتهم للشهوة، ولكنهم يتخيلون انهم وصلوا إليها. وحين يجدون ان الناس لا يقدرون 'عبقريتهم' حق قدرها، ينطوون على انفسهم حائقين وينسيون ان الناس الغباء لو الحسد، ثم يملأون الفخيا صراخاً واسفاً على موت العبقريات في هذا البلد الأمين.

يتضح هنا بشكل يلفت النظر عند بعض طلاب الأدب عتدا، فاحدهم يريد ان يصير انبيأ عبقرياً بمجرد ان يدرس الأدب وتاريخ الأدب ويملا عقله للواعي بالمحفوظات الأنبية الكثيرة. وهو قد يكبح في سبيل ذلك كبحاً لا يستهان به، وحين ينتهي من ذلك يظن انه لم يبق بيته وبين العبقرية سوى ان يخرج لتواجه الى الناس فينهال الناس عليه بالاعجاب والتصفيق. وقد يفعل فناس له ذلك على سبيل الجامعة فيتخيل انه فائق بابه الأولين والآخرين، ويأخذ عندئذ بالتفتنج والتنتطم.

عيب هنا المسكين وامثاله انهم يقدمون اكثر مما يبديعون. فهم قد يعجبون بانبي مشهور ثم يحولون تقليد اسلوبه وبعض عباراته. وما نام تلك الأنبي قد صار عبقرياً فلعنا لا يصيرون هم كذلك للهسا بشرأ مثله؟ وعند ذاك يبدون ينثر جواهرهم نلقدة على رؤوس الناس. والويل للناس ان امتنعوا عن التقاط تلك الجواهر.

### من خصائص العبقرية:

إن هؤلاء الذين يتصنعون العبقرية لو يحولون تقليد اصحابها يجهلون شيئاً هاماً هو ان العبقرية لا تنال بالتصنع والتقليد. الواقع ان الابداع والتقليد امران متعاكسان حيث لا ينجح الانسان في احدهما إلا حين يفشل في الآخر. ومن خصائص العبقري البدع انه همقت التقليد ملقأ شديداً، فهو لا يحب ان يأتي بشيء إلا بعد ان يفتخ فيه من روحه وبطبعه بطبعه الخاص.

لا ننكر ان العبقري يستعد جنور ابداعه من عبقريات سليقة له، ولكنه يلاقح بيتها ويعيد النظر فيها حتى ينتج منها شيئاً جديداً يختلف عما انتجه السابقون. انه

بعبارة اخرى يدرس كثيراً ويحفظ كثيراً، إنما هو يحفظ لينسى، والذين له وظيفة نفسية كبيرة في هذا الشأن إذ هو ينقل المعلومات للحفظة من العقل الواعي إلى العقل الباطن ويجعلها جزءاً من كيان العبقري اللاشعوري، وتبقى تلك المعلومات مخزونة في اعماق النفس كأنها تتخمر، وعلى حين غرة، حين يكون العبقري سائراً في دعوته أو غامطاً في نومه، تنبث لفكرة جديدة من مخه كما تنبث الشرارة، وهي لا تخرج عند ذلك للعبقري لكي يتباهى بها ويحتلّق، إنما هي تخرج له لكي يقدح بها النار اللهبية في اعماقه، وهو لا يبالي إن ذلك أن يحترق بتلك النار لو يستضيء بها.

### تشبيه وتوضيح:

من الممكن تشبيه العبقري من هذه الناحية بالمدكت البارغ. وقد لا يخلو للمدكت البارغ من عبقرية على وجه من الوجوه.

والدعوى عن المدكت البارغ انه لا يتصنع للمدكت ولا يعتمد الإتيان بالمدكت حشراً في كل مجالس بغية لتظاهر بالطرفة كما يفعل الرقعاء الذين لبتل بهم الناس في كل زمان ومكان، وكثيراً ما نراه يعجز عن الإتيان بالمدكت للاندما بنا طلب منه ذلك، بينما هو حين يسترسل على يديه قد ياتي بالمدكات الرلعة بتتابع عجيب كأنها تفيض على لسانه فيضاً نون أن يعرك هو ملامها في نفسه، وهو لا يبالي عندئذ أن تكون للمدكت له أو عليه، ولا فرق بين أن تلذعه أو تلذع غيره.

ومما يجدر تذكروه أن هذا المدكت قد يجمع نكاته من نواير الناس الملوقة لو يقتنصها من مظاهر الحياة الفاتحة، إنما هو ياتي بها بعد ذلك على نمط جديد، وليس من الصعب أن نلاحظ طابعه الشخصي واضحاً فيها، كأنها من صنعه هو لا من صنع الآخرين الذين لقتبسها منهم، إنها تخرج منه بعد أن تخلخلت في كيانه اللاشعوري وتلونت بلونه.

وياتي الرقعاء أخيراً يهللون تقليد صاحبنا هنا بحركته وكلماته، ظناً منهم أن الأمر ميسور لهم، فما نام صاحبنا قد اضحك الناس بنكاته فليس عليهم إذن إلا أن يتمثلوا به فيها حرفاً حرفاً، ونراهم يبحنون عن مستمعين لكي يقيتوا على رؤوسهم للمدكات التي حفظوها عن ظهر قلب، ولا يملك المستمعون لزاء ذلك إلا أن يضحكوا معهم ضحكاً يشبه البكاء:

ويشتهر ابتلاء حين يكون أحد هؤلاء لرقعاء من اصحاب النفوذ أو اللال .  
 كالصاحب بن عباد مثلاً . فهو يأتي بالنكات التقليدية في كل مجلسه ويلخذ بالتمتيع  
 والتخللق . فيضحك الجالسون له تزلزلاً ، ولو كان الأمر بيدهم لأطروه بوابل من  
 الأحذية . يحكى أن منيراً في إحدى السوائر كان من هذا الطراز الرقيق ، وكان  
 الموظفون في دائرته يقهقهون لكل نكتة سخيفة يدلي بها ، وربما نضحوا على بعض  
 منهم " إعجاباً بها " . وحدث ذات مرة أن رأى المنير أحد الموظفين لا يضحك مع  
 الضاحكين ، فسأله عن السبب . فأنجلبه للوظف بكل برود . " لا داعي للضحك يا  
 سيدي المنير فإني من دائرة أخرى " .

إن هذا المنير الرقيق لا يختلف عن لولئك الأنبياء الذين يريدون أن يكونوا عباقرة  
 عن طريق الحفظ والتقليد . إنهم لا يعرفون من الأسب سوى العبارات التي يقرؤونها  
 في كتب الأنبياء الكبار ، فهم يمجسون بها ويحاولون للتشبه بهم فيها من غير أن  
 تكون لديهم تلك الشرارة النادرة التي تمكنهم من الابتاع للخلاق .

## هوامش الفصل السادس عشر:

- (1) انظر : Sullivan, Outline of Modern Belief, Vol III, P. 811 .
- (2) انظر: فوفيق الطويل، الأسلام، ص 150 .
- (3) انظر: ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 19 ص 76 .
- (4) انظر: وليم سورجوس، القوى الخفية، ص 79 .
- (5) انظر: Forester, Studies in Dreams, Ch, 6 .
- (6) انظر: ابن خلدون، المقدمة ، ص 105 .
- (7) انظر: فوفيق الطويل، الأسلام، ص 150 .
- (8) انظر: عيد الرزاق حميدة، شياطين الشعراء، ص 89 .
- (9) انظر: جرجي زيدان، تاريخ الآداب العربية، ج 1 ، ص 292 - 293 .
- (10) انظر: ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 19 ، ص 33 .
- (11) انظر: Harding, An Anatomy of Inspiration .
- (12) انظر: Tyrrell, Personality of Man, p. 30 - 36 .
- (13) انظر: Kenmare, Stolen Fire, p. 16 .
- (14) انظر: جرجي زيدان، تاريخ الآداب العربية، ج 1 ، ص 293 .
- (15) انظر: Murphy, Abnormal Psychology, p IX .
- (16) انظر: Wilson, Great Men of Science, p. 49 .
- (17) انظر : صبول بومنه، كيف يعمل العقل ، ج 2 ، ص 218 .
- (18) انظر: Kenmare, Stolen Fire, p 1 .
- (19) انظر: Broad, Mind And its Place in Nature .
- (20) انظر: الفصل السادس من هذا الكتاب .
- (21) انظر: كلارين شين، اعتراف الهاتف .

## الملاحق

هذه فصول متفرقة كتبها مؤخراً وهي كما يلاحظ القارئ لا تتصل بموضوع الأعلام اتصالاً مباشراً ولكني أرجو مع ذلك أن لا تكون خالية من فائدة للقارئ اللبيب.



## الملحق الأول

### مهزلة العقل البشري

اصبوت في عام 1956 كتاباً بعنوان "مهزلة العقل البشري"، وكان قصدي منه تفنيد "لعقل" للتجريدي الذي يلزمه البيطانيقيون والطوبانيون من أمثال فلابلون والفراي وابن طفيل وابن رشد ومن لف لفهم. وقد اوردت في ثنايا الكتاب نماذج من مفكرين يعيشون في عصرنا وهم لا يزالون يفكرون على نمط ما كان يفكر به اولئك القماء.

الواقع اننا لنبطنا بهذا النمط من التفكير فديماً ولا يزال الكثيرون منا مبطلين به حتى يوم الناس هذا. ولا يقتصر الأمر على الرجعيين منهم بل هو قد يشمل بعض الشبان من أبناء الجيل الجديد الذي يزعمون انهم تقدميون أو مجددون. وإذا جاز لنا أن نصف الرجعيين بأنهم مصابون بمرض الشيخوخة جاز كذلك أن نصف بعض التقدميين بأنهم مصابون بعرض الطفولة.

مشكلة هؤلاء واولئك جميعاً انهم يسرون في تفكيرهم على اساس من المنطق الشكلي القديم. وتراهم حين يتجافون في قضايا العصر الراهن لا يترددون عن استخدام القياس الذي كان القماء يستخدمونه في جنابهم إذ هم ياتون بالمقدمة المنطقية، يتلفونها من هنا وهناك لكي يستنتجوا منها النتيجة التي يشتهونها. وقد يفعل البعض منهم هنا من حيث لا يشعرون ظناً منه انه يجري في تفكيره طبقاً لمعيار التفكير السليم الذي لا يتطرق الشك إليه.

لا ننكر أن المنطق الشكلي صحيح. ولكن الذي يجب أن لا ننسياه أن هذا المنطق له مجال معين وهو صحيح في حدود ذلك المجال، أما إذا أخرج منه فإنه يفقد أهميته وقد يؤدي استعماله إلى نتيج مغلوطه. وقد فصل كيدروف حين وصف المنطق الشكلي بأنه كجدول الضرب حيث يجب على الطالب المبتدئ أن يتعلمه وأن يسير عليه في تعلمه الحسابية، إنما هو لا يجوز أن يكتفي بجدول الضرب أو يعتمد عليه اعتماداً كلياً حين يمارس الرياضيات العالية. إنه يحتاج عند ذلك إلى جداول أخرى لوسع نطاقاً وأكثر تعقيداً.

يقول كيدروف أن المنطق الشكلي لا يصح إلا في حدود الحقائق الثابتة نسبياً، كقولنا "مات فلان في يوم كذا"<sup>(1)</sup>. فنحن نستطيع أن نستنتج من هذه الحقيقة نتيجة منطقية صحيحة هي أن فلاناً لا بد أن كان حياً في يوم سابق لليوم الذي تحقق موته فيه. ولكن المشكلة أن ليس كل حقائق الكون هي من هذا الطراز البسيط، إن الكون في تطور صاخب وتبدل مستمر، والحقائق لا بد أن تتطور معه. فالقائمة المنطقية التي تصح في يوم ما قد لا تكون صحيحة في يوم آخر. ومن هنا جاء المنطق الحديث بالبناء القليل أن المعرفة عملية تطور لا تقف عند حد.

### الشكل والمحتوى

من الفروق التي يختلف بها المنطق القديم عن المنطق الحديث أن الأول منهما يهتم بالشكل بينما الثاني يهتم بالمحتوى. فقد يتجامل لفتان من اصحاب المنطق القديم حول فكرة معينة، ولكن كل واحد منهما يستنتج منها نتيجة منطقية مخالفة لما يستنتجه الآخر. ولهذا يطول جدلهاما ويتشعب نون جدوى.

سبب ذلك انهما يهتمان بشكل الفكرة ولا يهتمان بمحتولها. وما يجدر ذكره أن الفكرة تحتفظ بشكلها ثابتاً على الرغم من تبدل الظروف المحيطة بها، لما محتولها فمن طبيعته أن يتغير مرة بعد مرة تبعاً لتغير الظروف.

خذ مثلاً فكرة تحريم الربا التي جاء بها الإسلام وشدد عليها. فنحن تعلم أن الإسلام إنما حرم الربا لأنها كانت تحتوي على ضرر اجتماعي بليغ حيث كان الأغنياء يستغلون الفقراء بها وينتهكون كرامتهم. وجاء الفقهاء بعد ذلك فلم يهتموا بمحتوى الربا بل كان جل همهم منصباً على شكله. إنهم صاروا يجرمون الصارف

بشئى أنواعها لأنها تتعاطى قريبا على زعمهم. أما الرأى الذى يغلب عمله باسم بيع لو رهان فلا بأس عليه، ولهذا وجدنا لبلاد الإسلامية تعج بالمتدينين الذين يتعاملون الربا فعليا وينكروونه نظرياً. ترى أحدهم يطيل لحيته ويكثر من الصلاة والتسبيح بينما هو في حقيقة أمره مراب فظيع، وهو حين يقوم بمعاملة الربا يتخذ لها صيغة شرعية كمن يقول تلمفترض: يعنك هذا الشئ بالتمن للعلوم، ثم يقدم له بعض الحلوى باعتبارها الشئ الذى تجرى المعاملة عليه. وبأخذ المقترض الحلوى وهو يعرف أنه إنما يأخذ قسماً الزعاف ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم؛

إن المنطق للحديث لا يعترف بعنل هذه السفساف والتاويلات الفارغة. فاللحوى هو الأسس الذى نقيم أحكامنا عليه، ولا يهمنا بعد ذلك شكله مهما كان. إننا تؤسس المصارف ونوسع فروعها في كل مكان ما لممت تتفق الناس. ونحن في الواقع نجمع الربا والمربى بتأسيس تلك المصارف حيث تضيق عليهم بها المجال الذى يعملون فيه. ولا يجوز لنا أن نتقاعس في الوقت ذاته أن تكافح أي مصرف يريد أن يستغل الناس على متوال ما يفعل المرابون.

### اختلاف التشابه

إن هذا المثال الذى جئنا به في شأن الربا قد ينطبق على كثير من الماحكات الشكلية التي يتمشيق بها اصحاب المنطق القديم، سواء في ذلك شيوخهم والأطفال. فهم يتون بالفكرة كما هي في شكلها الثابت فيجعلونها مقدمة لأقيستهم المنطقية ثم يستخرجون منها النتيجة التي يشتهونها، بغض النظر عن محتواها الذي يتبدل تبعاً لتبدل الظروف.

قد يكون هناك فرق ظاهري بين "الشيوخ" و"الأطفال" في هذا، فالشيوخ يستندون في تفكيرهم على مقدمات قيمة بينما الأطفال يستندون على مقدمات حديثة. ولكنهم جميعاً يتعصبون لمقدماتهم ويؤمنون أنها تصلح لكل زمان ومكان.

واللاحظ في اصحاب مرض الطفولة أنهم تركوا مصطلح "الدليل العقلي" الذي كان القدماء يتجحون به في جدلهم، وانزموه بدلاً عنه مصطلح "الدليل العلمي" فإنا ارادوا مدح رأي من الأراء قالوا عنه أنه "علمي"، بينما كان القدماء يقولون عنه أنه "معقول" أو "منطقي" ولست أرى أي فرق جدي بين مفهوم "العلم"

ومفهوم "العقل" في هذا الصدد، إذ هم يتخذونه كالسيف القاطع يصلون به متى شأؤوا، ولا يترددون أن يستعملوه مرة أخرى على الضد مما استعملوه من قبل.

## العلم والعقل

هناك طائفة من المتعلمين، لا ندري ماذا نسميهم، لا يرون فرقاً بين اللبيل العلمي واللبيل العقلي. فهم يخلطون بينهما ويعدونهما شيئاً واحداً. وقد حدث بيبي وبين أحدهم ذات مرة جدل عنيف في هذا الشأن، فلم يستطع أن يقتني ولم استطع أن أقتنه. إنه يقول بأن العلم والعقل لا يمكن أن يختلفا؟ فما بأم العقل سليماً يعتمد على مقدمات منطقية صحيحة، فهو لا بد أن يأتي بعين النتيجة التي يأتي بها العلم على أي حال.

الشكلة أن صاحبي مولج بما كان القديما يسمونه بالتفكير السليم، ولا ادري ماذا كانوا يقصدون به، فكل إنسان تقريباً يعتقد جازماً بأن تفكيره هو التفكير السليم. ومن هنا وجدنا القديما يتنازعون ويتجاللون وكل فريق منهم يتهم الآخرين بالخلطلة والكبيرة. فمن منهم كان صاحب التفكير السليم يا ترى؟

هنا تظهر ميزة العلم. فالعلم لا يعترف بوجود مقدمات منطقية صحيحة مهما كانت بديهية أو متفق عليها من قبل العقلاء جميعاً. وما كثر المقدمات التي اتفق على صحتها العقلاء ثم ظهر أخيراً أنها ليست سوى مألوفات فكرية اعتاد عليها الناس وهي غير قائمة على أساس من الواقع. إن العلم لا يقول بصحة رأي إلا بعد أن يطرحه على بساط للبحث الموضوعي والتجربة الحسية. وهو مع ذلك لا يجزم بصحة ذلك الرأي إلى الأبد، إنه رأي صحيح في حدود البحث الذي قام به العلم. ومن يدري لعل العلم سيكتشف في الأمر البحوث جوانب لم يكن قد اكتشفها من قبل، وهو يعتقد مضطراً أن يبطل رأيه فيه.

حدث ذات يوم أن اجتمع نفر من المفكرين في الفرون الوسطى وأخذوا يتجاللون حول لسان الحصان، كم هي؟ وظلوا يتجاللون ويتقاذفون بالوسائد والتعلل، مع العلم أن الحصان كان موجوداً في السطيل قريب منهم وكانوا قادرين أن يذهبوا إليه ليحسوا لسانه. إنهم يظنون أن في الإمكان التوصل إلى العدد المطلوب عن طريق التفكير السليم، فلا حاجة لهم إذن بأن يجهدوا أنفسهم فيذهبوا إلى الحصان يلوثون

ليتهم بالفارده. وكانت النتيجة فهم لم ينتهوا بجدلهم إلى رأي حاسم، إذ أن كل واحد منهم كان يأتي بقرول استنفاً على مقدمة منطوية يرتئها وهو يحسب نفسه "سيد العارفين".

### وظيفة الاستنتاج المنطقي

لا ننكر أن للاستنتاج المنطقي وظيفة في قبحوت العلمية. والعلم لا يستطيع أن يستغني عنه. إنما هو لا يستطيع أن يقيم استنتاجاً على مقدمة اعتمد عليها الناس كما يفعل المفكرون القدماء.

إن العلم له ركنان متلازمان لا يمكن أن يفصل احدهما عن الآخر هما، التطبيق والنظرية. لو هما بعبارة أخرى، التجريبية الموضوعية والاستنتاج المنطقي<sup>(2)</sup>. فالعلم يختبر الشيء أولاً ثم يستنتج الفكرة منه ثانياً. وهو في نموه التصاعد لا يتوانى عن الاختبار والاستنتاج مرة بعد مرة.

وقد شرح الأستاذ ملوتسي تونغ هنا الموضوع شرحاً رائعاً حيث شبه تطور المعرفة العلمية بالمرحلة اللولبية التصاعدة. فكل مرحلة عنها لها جانبان هما جانب الإدراك التجريبي أولاً وجانب الاستنتاج المنطقي ثانياً. وحين تستوعب المعرفة هذين الجانبين في إحدى مرحلتها تسمى نحو المرحلة التالية لها. فالتت مثلاً إذ تريد السير في طريق العلم تبعاً أول الأمر بالاتصال بالحيط الخارجي تنطلق عنه المبركات الحسية. ثم تأخذ بعدئذ بتنسيق تلك المبركات لتستنتج منها مفهوماً فكرياً معيناً حسبما يتراءى لك في حينه ولكن لا يجوز لك أن تقف عند هذا الحد بل يجب عليك أن ترتفع بمعرفتك نحو مرحلة أخرى. حيث تحاول بها تطبيق المفهوم الذي استنتجته سابقاً على مبركات حسية جديدة. فالمبركات الحسية تتغير بتغير الزمان والمكان. ولا بد لك إذن من أن تتطور بمفاهيمك تبعاً لتغيرها مرة بعد مرة.

إن الوقوف عند مفهوم فكري معين، مهما تراءى لك صحيحاً في حينه، يؤدي بك إلى الجمود "العقلاني". وهذا هو شأن العقل التجريبي لا شأن العلم النامي<sup>(3)</sup>.

### تراكب الأوهام

كان العقل التجريبي ركيزة للقدماء فيما يزعمون من سعي وراء الحقيقة. إنهم

يعتقدون أن في امكانهم الوصول إلى الحقيقة كاملة عن طريق التفكير السليم كما قلنا. ولهذا وجدناهم يجلسون على مقاعدهم المريحة يستنون رؤوسهم بكتفهم ويأخذون بالتأمل، بحجة أن هذا هو الطريق الوحيد للتفكير السليم. إنهم يظنون عما في الدنيا من تطور صاخب وينفون أن ينزلوا عن برجهم العاجي إلى الدنيا يدرسونها دراسة عملية. كل همهم أن يفكروا ويفكروا ويفكروا. وبهذا يكون نمو تفكيرهم ناتياً. وكلما ازداد تفكيرهم على هذا النمط ازداد بعدهم عن الواقع وصاروا يطلقون في سماء تخييل والوهم العريض.

يقول الأستاذ بوليتزير: " ... إن الأفكار تملك قوة تتسلسل خاصة بها. وهي متى وجدت توجد في ناتها. وبعبارة أخرى، يستطيع نشاط اللغز أن يجري بقوى ناتية نسبية، وذلك بأن يفصل عن التطبيق الذي يملك وحده القدرة على التحكم على قيمة التركيبات الفكرية التي تتكون بعيداً عنه. وهنا يكون التطبيق هو الوسيلة الوحيدة لتحديد الخطأ لأن يفرض على الفكر أبعاد حقيقة، أي أنه يجذب الفكر إلى الأرض" (4).

### قيمة العقل:

لا نريد بهذا أن نبخس للعقل قيمته. الواقع أن العقل موهبة كبرى امتلأ بها الأنسان عن الحيوان واستطاع أن يرتفع بها في سلم الحضارة ارتفاعاً منهشاً، ولكن الذي يجب أن لا ننساه في هذا الصدد هو أن العقل حين يغالي في تفكيره الناتق ويتجرد من قيود الخبرة الموضوعية يصبح كالنار العارمة تنمو من غير رادع، وهو بذلك يضر ولا ينفع.

نحن نعرف عن النار أنها ذات نفع كبير حين يحدد نطقها وتوضع في الحبل اللامع لاستثمار الطاقة منها. كذلك العقل، فهو ذو طاقة كبيرة على الإبداع والكشف إننا أحسن استخدامه ووضع في الحبل للاتق به. فما إننا ترك طليقاً يفكر كما يشتهي من غير قيد أو شرط فإنا لا نضمن الضرر منه.

يقول الأستاذ ماوتسي تونغ في وصف أصحاب مثل هذا العقل الطليق، "لقد وجد في تاريخ الفلسفة من يدعون بالعقلين الذين لم يعترفوا إلا بحقيقة العقل وانكروا حقيقة الخبرة، والذين اعتبروا أن العقل وحده هو المعول عليه، أما خبرة الأبرار

الحسي فلا يمكن الركون إليها، إن أخطاء هذه المدرسة تكمن في محاولة قلب الحقائق رأساً على عقب<sup>(65)</sup>.

### اعتراض العقلين:

يقول العقليون أننا لا نستطيع أن نقيد العقل بالخبرة الحسية لأن الخبرة تتغير بتغير الواقع الذي نعيش فيه، وهذا يفقدنا المرتكزات الثابتة التي نقيم عليها معاييرنا الفكرية. إن العقلين يريدون باعترافهم هذا أن يظهروا صحة ما يأتي به العقل التجريدي من حقائق مطلقة لا تتغير أبداً.

وهذا الاعتراض وجيه في ظاهره، إنما هو في حقيقة أمره لا يخلو من خطأ فظيح. فنحن نوافق العقلين على وجود الحقيقة المطلقة في الكون ولكننا نختلف معهم في كيفية التوصل إليها، فهل نتوصل إليها عن طريق العقل الجرد أم طريق العقل اللغوي بالوقائع الحسية والتطبيق العملي<sup>(66)</sup>.

لقد رأينا فعلاً ماتيك "للحقائق المطلقة" التي توصل إليها العقليون بتفكيرهم لتجرد فوجدناها أقرب إلى الأوهام المطلقة منها إلى الحقائق المطلقة، وللقارئ أن يقرأ كتب هؤلاء لهدرك صحة ما نقول. فقد جاؤوا في كتبهم بمصطلحات غامضة لا معنى لها، ويقراءها الرجل العادي فيشعر بالجزع عن فهمها ويظن أنها تحتوي على سر الكون، بينما هي في الواقع ليست سوى غلظ جوفاء تشبه ما يكتبه النجمون في طلاسهم.

يقول الأستاذ وتجنشتين في هذا الصدد "معظم ما كتب من قضايا وما سئل من أسئلة عن الموضوعات الفلسفية، ليس باطلاً فحسب، بل خالياً من المعنى، فلسنا نستطيع لذلك أن نجيب عن هذه الأسئلة إطلاقاً وكل ما نستطيعه حيالها هو أن نقرر خلوها من المعنى، إن معظم أسئلة الفلاسفة وقضاياهم نتيجة عن عدم فهمنا لنطلق لغتهم... فلا عجب إذن أن تكون أعرق مشكلاتهم ليست بمشكلات<sup>(67)</sup>".

### البهاة الفلسفية:

نحن نريد من المعرفة أن تساعدنا على فهم طبيعة الواقع لكي نتكيف له ونستفيد منه. أما العقليون فيريدون منها أن يرتفعوا عن الواقع لكي يتباهوا على عالمة بما يتكون به من مزخرفات فكرية ومصطلحات رنانة.

يحكى ان الاسكندر القوي عندما خرج إلى الفتح سمع بان استتلاه لرسطو طاليس نشر عدة كتب في الفلسفة، فنار الاسكندر من جراء ذلك ثورة شديدة وكتب إلى استتلاه يقول له، "...لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء الباطنة من العلم، وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس إذا جعلت لمعرفة العليا التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم اجمع". فرد عليه لرسطو طاليس قائلاً، "لقد نشرتها ولم تنشرها...ولن يصل إلى فهمها إلا من درس علينا ملك".

يوسفنا ان نقول ان بقية من هذه اللياماة الفلسفية لا تزال شائعة بين الكثيرين من اخواننا المثقفين والانباء. فهم لا يحبون ان ينزلوا في مفاهيمهم ومصطلحاتهم إلى المستوى الذي يشترك معهم به عامة الناس. وتراهم يحرصون في خطبهم وكتباتهم ان يتوا بالافكار العالية جداً والفرغة جداً، واعتاد الناس ان يقبسوا عمقها الفلسفي بمقننر ما يجهلون منها. فإنا فهموها انحطت في قيمتها لديهم.

### الخطأ والصواب:

من عيوب العقليين انهم يعتبرون للخطأ والصواب صنفين متميزين لا يجوز امتزاجهما في امر واحد ايئاً. فالفكرة إما ان تكون صحيحة كلها لو خاطئة كلها، وليس من العقول في نظرهم ان تكون صحيحة وخاطئة في الوقت ذاته. وهذا هو الذي جعلهم يستكفون عن الاعتراف بخطأ فكرة آمنوا بها من قبل. ومن هنا رهبانهم يصرون على الخطأ ويتحون بالأدلة العقلية ليمرهنوا بها على انهم كانوا ولا ينزلون على صواب.

الاعتراف بالخطأ يدل في نظرهم على سقم التفكير، وهم لا يحبون ان يوصموا بالتفكير السقيم على أي حال. فإنا نبحثهم لظروف احياناً إلى التحول عن فكرة قديمة إلى فكرة أخرى مضادة لها فإنهم يحاولون التلليل على انهم لم يتحولوا ولم يتبلوا في تفكيرهم ولأنهم كانوا يعتقدون الفكرة الجديدة منذ زمن بعيد.

إن هذه النظرة إلى الصواب والخطأ قد جالستهم من نقتهم بصحة قانون "قهوية" الذي يقوم عليه المنطق الشكلي القديم. فلهي، حسب هذا القانون هو هو ولا يمكن أن يكون هو ونقيضه في أن واحد. وقد ظهر الآن بطلان هذا القانون في نطاق الواقع المتطور.

## اتجاه للنطق بالحديث:

لقد أوضح النطق بالحديث ان فيه فكرة لا يمكن ان تكون صحيحة بشكل مطلق. فهي ما نامت انعكاساً عن واقع معين فلا بد ان تكون محدودة في صحتها بحدود ذلك الواقع. ومن الجدير بالذكر ان الواقع الذي هو خارج نطق العقل لبشري له وجوه عديدة. ومن طبيعة العقل انه لا يستطيع ان يكتنه جميع وجوه الواقع بنظرة واحدة. انه في حاجة الى ان يتحرك في نظره من زاوية الى اخرى، وهو في كل مرة يكتشف من الواقع وجهاً جديداً.

من الممكن تشبيه الحقيقة الواقعية بالهرم ذي الأوجه المتعددة. والانسان ان يقف تجاه الهرم لا يستطيع ان يرى منه سوى وجه واحد. اما إذا تحرك الانسان حول الهرم ففي امكانه ان يرى الأوجه المختلفة منه.

عيب العقليين انهم لا يؤمنون بالحركة. فلذا صحت لديهم فكرة في زمان ومكان معينين عمدوا الى تحميل تلك لفكرة على كل زمان ومكان. ومن هنا كان العقليون عقائدين، تسيير الدنيا بهم وهم واقفون.

مثلهم في ذلك كمثل من يقف تجاه وجه معين من الهرم فيراه مثلاً ذا لون اخضر، وهو يعمم هذا للقانون على جميع الهرم خارجاً وبخلاً. وتلقى أنت الذي درت حول الهرم، لو فحصت شيئاً من باطنه، تجلجل الرجل فيما رايته. فلا تجد منه سوى التعصب والقصور. إنك بولد وهو بولد آخر

## بين العقليين واللائهيين:

ظهر تجاه العقليين قوم من الفلاسفة يطلق عليهم لسم "اللائهيين". وهؤلاء يعتقدون بان العقل البشري عاجز تمام العجز عن إدراك شيء من الحقيقة المطلقة. وهم في هذا لراي يقفون والعقليين على طرفي نقيض.

لن العقليين كما رأينا يتقون بمقدرة العقل على رؤية للحقيقة المطلقة بنظرة واحدة. بينما لللائهيون يرون للعكس من ذلك، فالحقيقة المطلقة في رأيهم خارجة عن نطاق ما يستطيع العقل فهمه، وكل ما يقدر العقل عليه في هذا الصدد هو فهم الظواهر السطحية التي هي بعيدة كل البعد عن كنه حقيقة الوجود.

لنعد إلى مثال الهرم الذي شبهنا الحقيقة المطلقة به. يقول اللاهوتيون إن الإنسان غير قادر على التعامل في داخل الهرم وعلى اكتشافه ما يكمن في أعماقه. إن مقدرة الإنسان في ردهم محصورة في الدوران حول الهرم وفي النظر إليه من زوايا مختلفة. وهنا كله لا يكفي لفهم حقيقة الهرم في زعمهم.

ولستنتج اللاهوتيون من ذلك أن جميع الأفكار التي جاء بها البشر هي نسبية لا تنرك من الحقيقة المطلقة شيئاً وما على المفكر الحر إن إلا أن يقف إزاء هذه الأفكار المختلفة موقف المتفرج، يضحك عليها ويستهن بها جميعاً.

### الرأي الأوسط:

يقف بين العقليين واللاهوتيين قوم آخرون يمكن وصفهم بأنهم أصحاب رأي الأوسط. وهو الرأي الذي يعيل إليه أكثر العلماء والفلاسفة في عصرنا.

إن هؤلاء لا ينكرون نسبية الأفكار البشرية جميعاً، لكنهم يعتقدون بأن هذه الأفكار لا بد أن تؤدي، على الرغم من نسبيتها، إلى فهم الحقيقة المطلقة في نهاية المطاف. فكل فكرة نسبية هي في الواقع خطوة إلى الأمام نحو إرناك الحقيقة المطلقة.

وهذا هو مصداق ما لشرنا إليه سابقاً من أن المعرفة البشرية هي عملية تطور ونمو. فكل اكتشاف نكتشفه المعرفة خلال نموها المتواصل إنما هو وجه واحد من أوجه الحقيقة. ويتركب الأوجه المتنوعة يبنيق لدينا للتدرج مجموع متكامل منها. معنى هنا أنه كلما كثرت لدينا الحقائق النسبية على توالي الأيام ازدد بها اقتربنا من حقيقة انطلقت قليلاً لو كثيراً.

يقول الأستاذ اسماعيل الهدي، "فالحقيقة المطلقة لا توجد كاملة تماماً، بل هي تتقدم نقماً تاريخياً يتخللها عدد لا نهاية له من الأخطاء الجزئية. ثم إن الحقيقة النسبية ليست كما يتصور اللاهوتيون نسبية تماماً، بمعنى أن النظرية العلمية التي تكون صحيحة في هذا الجيل يمكن أن تصبح في الجيل القادم محض خطأ. كل ما في الأمر أن الناس الذين "يعكسون" مواقع الخارجي، يعيشون في ظروف نسبية، من حيث مدى التقدم العلمي والفني في عصرهم، ومن حيث التكوينات الفكرية التي تؤثر فيهم، وهكذا. وهذه للظروف فنسبية للحدود هي التي تجعل معارفهم العلمية نسبية ومحدودة، أي هي التي تدخل فيها بعض

الأخطاء الجزئية أو تجعلها في حاجة إلى توسيع أو تضيق، ولكن إذا نظرنا إلى  
البشرية في أجيالها النهائية، استطعنا أن نكتشف الإمكانيات غير المحدودة وغير  
النسبية التي يمتلكها الفكر البشري، وفي هذا تكمن الحقيقة المطلقة...<sup>(7)</sup>

### مثال من علم الفلك:

خير مثال يمكن أن تأتي به لتوضيح هذا الرأي ما ظهر في علم الفلك من  
نظريات متعاقبة وصلت بنا إلى المفهوم الجديد للكون.

كان الإنسان في أول أمره يعتقد بأن الأرض التي يعيش عليها مسطحة وأن  
السماء مبنية فوقها كالسقف تتبلى منها للنجوم كالقناديل، وهذه نظرية ساذجة  
تلانم عقلية الإنسان البدئي كل الملازمة.

وجاء بطليموس بعد ذلك بتظريته المعروفة عن كروية الأرض وكيف أنها ثابتة  
في مركز الكون تدور حولها الأجرام السماوية، وكانت هذه النظرية كما لا يخفى  
ساذجة أيضاً إنما هي على أي حال أصح من النظرية السابقة لها ولتقرب منها إلى  
حقيقة الوجود.

وظهر كوبرنيكس في القرن السادس عشر ففند نظرية بطليموس وقال بأن  
الشمس هي مركز الكون، وما الأرض إلا تابع من توابعها، ثم جاء كبلر بعد قليل  
يقول بأن نظرية كوبرنيكس، على الرغم من صحة بعض جوانبها، مخطئة في  
جوانب أخرى، فهي تصور الأرض والكواكب السماوية تدور في أفلاك دائرية بينما هي  
في الواقع تدور في أفلاك إهليلجية، وعلل كبلر الأفلاك الإهليلجية بأنها نوع من النوع  
السماوي، فالشمس جسم لروح سماوي، والكواكب تحذف يدورانها حول الشمس  
موسيقى الكون فتضطرب لها روح الشمس<sup>(8)</sup>.

لقد كان كبلر مصيباً باكتشافه الشكل الإهليلجي في الأفلاك، ولكنه كان مع ذلك  
مخطئاً حين علل هذا الشكل بأنه نوع من النوع السماوي، فليس هناك دليل على  
أن الشكل الإهليلجي أكثر بطراً من الشكل الدائري عند ملائكة السماء.

عند هنا جاء نيوتن بنظريته الشهيرة عن قوانين الجاذبية، وكانت هذه النظرية  
في حينها خطوة كبرى نحو فهم الكون، إذ هي فسرت حركات الأجرام السماوية

وشكل أفلاكها تفسيراً رياضياً مقبولاً وقرح الفلكيون بهذا الكشف العظيم واستطاعوا أن يوشعوا به معلوماتهم عن السماء إلى الدرجة التي ظنوا بها أنه لم يبق في السماء سر غير خاضع للقوانين الرياضية التي جاء بها نيوتن. وصار زاد في تغافلهم أن بعضهم توصل عن طريق الحسابات للنيوتونية إلى اكتشاف كواكب ساهرة غير معروفة ثم تحققت صحة حساباتهم عن طريق الناظير والمراصد.

بقي الفلكيون على تغافلهم هذا زمناً غير قليل، حتى جاءهم يوم اكتشفوا فيه ظواهر فلكية لا تخضع لقوانين نيوتن. فعطارد مثلاً الذي يدور قريباً من الشمس يخالف تلك القوانين مخالفة لا يستهان بها<sup>(9)</sup>. فبملانا يمكن تحليل ذلك؟ افترض الفلكيون في بادئ الأمر وجود كوكب صغير يدور بين الشمس وعطارد مما يجعل عطارد منحرفاً في مسيره عن الفلك العميق له. وقد اطلق الفلكيون على هذا للكوكب لسم "فولكانو". ولكن الأبحاث الفلكية الدقيقة لم تستطع أن تكتشف مثل هذا الكوكب المزعوم. ولم يجد الفلكيون إزاء ذلك إلا أن يعلنوا تشكيكهم بنظرية نيوتن.

هنا ظهر لينشتاين بنظرية النسبية. وعرفنا في ضوء هذه النظرية أن قوانين نيوتن صحيحة ضمن حدود معينة، لكنها لا تكاد تتعدى تلك الحدود حتى يظهر خلطوها. فالسؤال إذن ليست مسألة صواب محض أو خطأ محض، إنما هي بالأحرى مسألة نسبية يتوقف خلطوها وصولها على الحد الذي تقف عنده. فهي صحيحة هنا ومخطئة هناك، ولا بد للباحث من أن يدرك مدى الإطار الذي يبحث فيه قبل أن يعرف مبلغ الخطأ والصواب منه.

استبدل لينشتاين بقوانين نيوتن قوانين أخرى أوسع منها نطاقاً وأكثر تعقيداً. معنى هذا أن نظرية لينشتاين لم تنسخ نيوتن إنما هي قد حددت لها الإطار التي تصح فيه. ومن بدري لعل نظرية لينشتاين نفسها ذات إطار خاص بها. وربما اكتشف العلم في مستقبل الأيام ظواهر لا تخضع لقوانين لينشتاين. وتصبح عندئذ في حاجة إلى نظرية جديدة أوسع منها إطاراً.

خلاصة ما نستنتجه في هذا الشأن أن أية نظرية علمية تتوصل إليها المعرفة البشرية لا يمكن أن تكون لبدية خالصة. فهي عرضة للتبديل والتطوير. وذلك لا يعني أنها مخطئة كل الخطأ. إنها صحيحة ما بلغت تستمد أصولها من الواقع

الموضوعي. لكن صحتها محدودة بحدود ذلك الواقع. وكلما توسع إدراكنا للواقع توسع به الإطار الذي تصح به النظرية.

### النظريات الاجتماعية:

يجوز ان نقول مثل هذا القول عن النظريات الاجتماعية. فقد بقي باحث اجتماعي عبقري يضع لنا نظرية رائعة عن طبيعة المجتمع البشري وعن تطوره بحيث تنتسخ النظريات السابقة لها. ونحن حين ندرس هذه النظرية ونعجب بها لا يجوز لنا ان نعصب لها ونقف حجر عثرة تجاه أي نظرية تأتي بعدها.

إن الباحث قد استمد جذور نظريته من المرحلة الاجتماعية التي عاش فيها. ونظريته إذن لا تصح إلا في حدود تلك المرحلة. معنى ذلك أنها تعطينا حقيقة نسبية لا مطلقة ونحن بهذا لا ننكر وجود الحقيقة المطلقة في المجتمع كما لم ننكر وجودها في الكون الأكبر. إنها موجودة هنا وهناك ولكننا لا نستطيع التوصل إليها دفعة واحدة كما يقول العقليون، بل يجب علينا ان نسير نحوها من خلال الحقائق النسبية المتعاقبة.

المعرفة البشرية بوجه عام سائرة في طريقها خطوة بعد أخرى، فهي لا تستطيع ان تقف ولا تستطيع ان تقفز. إنها تنمو كما ينمو الكائن الحي مرحلة بعد مرحلة. وكل نمو جديد إنما هو تمهيد لنمو يأتي بعده. فلن متى وحتى متى؟ وهل هناك حد نهائي يقف تطور المعرفة عنده حيث يقول الانسان انه وصل به إلى الصوب الذي ما بعده صوب؟ لست أعري!

### العقائد والنظريات:

هناك فرق كبير بين النظريات والعقائد في درجة خضوعها للتطور. فمن طبيعة العقائد بوجه عام أنها مبالغة إلى الجمود والثبات. وأرجو من القارئ ان لا يفهم من هذا أننا ننتقص من شأن العقائد كلها أو نستهيئ بها. الواقع ان العقائد ذات اثر كبير في حياة الانسان منذ خلق الانسان، إذ هي تمتح لليونان والعلمانية وقد تساعده على مجابهة أزمات الحياة من جهة، وهي تدفعه إلى الحماس والنضال من الجهة الأخرى. والأمة التي لا عقيدة لها قد تصبح ضعيفة كل الضعف ليزاه اعتلائها.

ولكننا مع ذلك يجب ان لا ننسى ان العقيدة شيء والمعرفة للتطورة شيء اخر. كل منهما له مجال يختلف عن مجال الاخر.

ميزة المعرفة المتطورة انها باحثة مشككة تتطلع كل يوم الى رأي جديد لم تألفه من قبل. اما العقيدة فستألف الوثوق والإيمان الراسخ. وللإنسان ان يؤمن بنية عقيدة يشاء إذ هو حر في ذلك، إنما هو لا يمكن ان يسمي نفسه باحثاً علمياً، إنه مخير بين ان يتحرك سبيل البحث العلمي نهائياً لو ان يأخذ منه الجانب الذي لا تتدخل عقيدته فيه. فما إذا اراد ان يجمع بينهما في مجال واحد، فإن ذلك ليل على انه لا يفهم ولا يريد ان يفهم.

من الأخطاء الشائعة عندنا هو اننا نطلق على رجال الدين اسم "العلماء"، وهذا خطأ اتفرنا به من بين جميع الأمم. يصح ان نسميهم "عقلاء" ولكننا لا يجوز ان نسميهم "علماء"، انهم اصحاب عقائد ثابتة لا يحبون ان يتحولوا عنها، وهم يعدونها من الضرورات العقلية التي لا يتجادل في صحتها اثناً، ونحن لا ننتقدهم من هذه الناحية، ولعلمهم يقومون فيها بما هو واجب عليهم تجاه ربهم، إنما ننتقدهم من حيث أنهم يسيرون الى نيتهم أحياناً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لقد اعتاد رجل الدين ان يتلقى مألوفات طائفته وتعاليمها كأنها حقائق مطلقة لا يتطرق إليها الشك، وقد تكون تلك التقاليد بعيدة كل البعد عن روح الدين. إنما هو لا يبالي بذلك. نأبه ان يجمع الأئمة العقلية والتقليدية لتأييدها وهو واثق ان طائفته هي "الفرقة الناجية" من بين الخلق اجمعين.

ان هذا امر شهدنا مصداقه في مجتمعنا بوضوح، ولنا عليه امثلة عديدة اتينا على بعضها في كتاب "مهزلة العقل للبشرى". فنحن نعرف مثلاً هاتيك التقاليد والطقوس السخيفة التي يقوم بها الكثيرون في العراق باسم الإمام الزائر الحسين بن علي، والواقع ان هذه لتقاليد والطقوس لم تنشأ لدينا إلا بتشجيع ورعاية من فئات استغلالية نعرف مقاصدها للدنية كل المعرفة، وعلى الرغم من ذلك نجد بعض "عقلاء" من رجال الدين وغيرهم يتون بالأئلة العقلية المتنوعة يملؤون بها الكتب لتأييد تلك السخافات، ونحن نجلس الى هؤلاء "العقلاء" نستمع الى

أحاديثهم نجدهم يتمسكون بالنطق والعقل السليم، ويصنفون أنفسهم أنهم يسهرون في عقائدهم وأرائهم كلها حسيما يمليه عليهم النهج العلمي.

ليس من قصدي هنا انتقاد طائفة معينة دون غيرها، أنا موافق أن جميع الطوائف الدينية عندنا من هذا الطراز. كل طائفة تنظر إلى نقشة في عين غيرها بينما هي تنسى الضحية التي في عينها. وكذلك قد يفعل بعض أصحاب الأفكار الحديثة للذين يزعمون أنهم متحررون أو مجددون.

رحم الله امرأً شغله عييه عن النظر في عيوب الآخرين!

## هوامش الملحق الأول:

- (1) منظر كيدروف، الشطرنج الشكلي... ص 14 .
- (2) جورج بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة ، ص 113 .
- (3) ماوتسي تونغ، حول التطبيق، ص 24 .
- (4) انظر: جورج بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة، ص 103 .
- (5) انظر: ماوتسي تونغ، حول التطبيق، ص 24 .
- (6) انظر: زكي نجيب محمود، معرفة المتنازعات، ص 2 - 4 .
- (7) انظر: بوليتزير، المادية والمثالية في الفلسفة، ص 229 .
- (8) انظر: ميرماند وصل، الثورة الكوبرنيكية، ص 19 .
- (9) انظر: Sullivan, Outline of Modern Belief Vol. III, p. 374 .

## الملحق الثاني

### بين الممكن والمستحيل

بين يدي الآن كتاب لأحد متكلمي القرن الثامن الهجري هو الحسن بن الطهر الحلبي الذي اشتهر باسم "العلامة الحلبي"، وقد كتب المؤلف كتابه هذا للرد على الأشاعرة حيث نشب بينه وبينهم جدل كلامي عنيف، ونحن لا يهمنا من هذا الجدل شيء إذ هو قبيح حقيقته لا يختلف عما يسطره علماء الكلام في كتبهم عادة. إننا نريد هنا أن نستعرض ما أورده الحلبي في مقدمة جملته من رأي حول شروط الإدراك في الأنسنة، وهو رأي يتصل بموضوعنا الراهن اتصالاً وثيقاً.

يقول المؤلف إن الإدراك مشروط بأمور ثمانية لا يحصل بدونها هي:

- (1) سلامة الحاسة
- (2) للقبلة لو حكمها كما في الأعراض والصور في الرأيا، فلا نبصر شيئاً لا يكون مقابلاً لنا ولا في حكم للقليل.
- (3) عدم القرب المفرط فإن الجسم لو التصق بالعين لا تمكن رؤيته.
- (4) عدم البعد المفرط فإن البعد إذا فرط لم تمكن الرؤية.
- (5) عدم الحجاب فإن مع وجود الحجاب بين الرائي والرئي لا تمكن الرؤية.
- (6) عدم الشفافية فإن الجسم الشفاف الذي لا لون له كالهواء لا تمكن رؤيته.
- (7) تعدد الرائي للإدراك.

(8) وقوع الضوء عليه فإن الجسم الملون لا يشاهد في الظلمة.

\*\*\*

يعلق الحلّي على هذه الشروط فيقول إن العقلاء جميعاً اجمعوا عليها عنا الأشاعرة فإنهم لم يجعلوا للإدراك شرطاً من هذه الشروط. ونك منتم، كما قل للحلّي، سفسطة ومكابرة محضة لا يشك بفسادها عقل.

ويعرض الحلّي في كتابه آراء الأشاعرة في هذا الخصوص، فيذكر منها: أنهم جوزوا أن تكون بين يدينا جبال شاهقة إلى عتق السماء، محيطة بنا من كل جانب وملاصقة لنا، تملأ الأرض شرقاً وغرباً بلوان مضيئة ظاهرة، ونحن لا نشاهدها ولا نبصر منها شيئاً البتة. وكذلك جوزوا أن تكون بحضرتنا أصوات هائلة تملأ أقطار الأرض بحيث يترجع منها كل أحد يسمعهها، ونحن لا نحس بها مع قلعنا أن حواسنا سليمة ولا حجاب بيننا وبينها ولا بعد، بل هي في غاية القرب منا. ولكنهم من الجهة الأخرى يجوزون في الأعمى إذا كان في المشرق أن يشاهد اتقاء الليل المظلم نعله سوداء على صخرة سوداء في طرفه للمغرب، وكذلك يجوزون أن يسمع الأطرش في المشرق أخفى صوت في المغرب...

ويختم الحلّي من ذلك فيقول: "لا شك أن هذا هو عين السفسطة، والضرورة تقضي بفساده. ومن يشكك في هذا فقد انكر لظاهر الحسوسات عندنا"<sup>(10)</sup>.

### هل هي سفسطة؟

يبدو أن هذا القول الذي جاء به الحلّي كل له رواج كبير في الأزمنة القديمة، وكان الحلّي قديراً أن يفهم به خصومه وأن يتلهم في الجدل. وهنا نريد أن نتساءل، لو بعث الحلّي حياً في عصرنا هذا وأخذ يبلّي بأقواله التي أدلى بها في القرن الثامن للهجري، فهل يمكن أن تلقى رواجاً على منوال ما كتبت تلقى في عصره.

مشكلة الحلّي من الناحية العلمية أنه لم يأت بتلك الشروط نتيجة استقراء شامل وتمحيص موضوعي. إنه فعل كما اعتاد أمثاله من الفكريين القدامى أن يفعلوا، حيث جلس يفكر طويلاً فوجد أن تلك الشروط لا بد أن تكون من اليديهيّات والضرورات العقلية، إنه يشعر بصحتها في مجال حياته الاعتيادية فيحسب أنها لا بد أن تكون صحيحة في كل مجال من هذا الكون الواسع.

إننا حين ندرس الآن الشروط التي جاء بها قد نوافقها عليها ونقول معه إنها صحيحة. ولكن الذي يجب أن لا ننساه هو أن صحة تلك الشروط ربما كانت محدودة بحدود الواقع الضيق الذي نعيش فيه والذي تستوعبه حواسنا، وهي تملأ الأرض حولنا دون أن نحس بها لو نعرف عنها شيئاً؟

### حدود الحس البشري:

مما قرره العلم الحديث أن لكل حاسة من حواسنا الخمس نطاقاً محدوداً لا تتحده عند الاحساس بشيء خارج عنها. فخذ حاسة السمع مثلاً، فإذ لا تستطيع أن تسمع الصوت إلا إذا كانت ذبذبت ضمن حد معين، فإذا زالت الذبذبة على ذلك الحد لو نقصت عنه عجزت الأذن عن سماعها. معنى هذا أن أصواتاً عالية جداً قد تملأ الجو حولنا ونحن لا نأهون عنها لا ندركها ولا نحس منها شيئاً.

ويحدث مثل هذا بالنسبة لحاسة البصر فيها، فالعين لا تحس من سلم الأمواج الكهرطيسية إلا بسبع درجات فقط، وهي تلك التي تعطينا إياها الألوان السبعة المعروفة، إن للفضاء بين قد يكون مشحوناً بأضواء هائلة وصور متنوعة ولكننا لا نرى منها شيئاً إذ هي خارجة عن نطاق حاستنا البصرية.

إن هذا هو الذي حنا بالعلماء إلى القول بأن حواسنا الخمس ليست سوى منافذ صغيرة يتطلع الإنسان من خلالها إلى الكون الهائل. والإنسان بهذا يشبه المسجون المحجور في غرفة ضيقة ليس فيها من النوافذ غير ثقب صغير هنا وهناك، فهو لا يرى من أحداث الكون إلا جزءاً محدوداً جداً، وتبقى الأجزاء الأخرى مختفية عنه وراء الجدران.

### توسع الثقوب:

مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الثقوب الصغيرة التي يتطلع الإنسان منها إلى العالم الخارجي لا تبقى على حالها من غير توسع، فقد وضع العلم في يد الإنسان أجهزة متنوعة تستطيع بها أن يوسع مجال إدراكه للكون. وهذه الأجهزة في نمو مستمر وتحسن لا يوقف عند حد.

كان الإنسان في نول أمره لا يملك تلك الأجهزة طبعاً، فكان حينذاك ينظر إلى الكون من خلال حواسه المجردة، ولهذا كانت معرفته للكون محدودة جداً. وقد لجأ

عقله من جراء ذلك. إلى الأساطير يسد بها الخثرة الكبيرة بين ما يرى وما لا يرى من غرائب الكون.

ثم شرع يعنقد يوسع "الغيوب" شيئاً فشيئاً. فاخترع المناظير والمقاييس والأجهزة للحقيقة... ولخذ يكتشف بها في كل مرة سرّاً جديداً من أسرار الكون. وكان من شأن كل اكتشاف جديد أن يقلص الأساطير التي كانت تسيطر على عقل الإنسان.

### نتيجة العاقبة:

أشرنا من قبل إلى أن كثيراً من التبسيهات والضرورات العقلية التي كان المفكرون القدماء يتقنون بصحتها ثقة مطلقة ليست سوى مآخوذات لاعتبارية اعتاد عليها الناس زمناً طويلاً حتى حسبوا أنها حقائق ثابتة لا يمكن أن يشك بها عقل. فقد مضى زمن طويل على الإنسان مثلاً وهو ولثق بأن الأرض مسطحة. وكيف يمكن أن تكون غير ذلك وهو يراها رأى العين. وعندما ظهرت فكرة كروية الأرض استهزأ بها الناس وكذبوها تكتيباً قاطعاً. وعندما كثير منهم من باب الكفر الذي لا يرضى عنه الله والرسول<sup>(2)</sup>.

ويجوز أن نقول مثل هذا في شأن الحولس للضمس. فقد اعتاد الناس عليها حتى ظنوا أنها تشمل بإحساسها الدنيا كلها. لما إنا حدث في الدنيا أمر لا يستطيعون الإحساس به فلا بد أن يكون من عمل الجن أو الأرواح. وهكذا لتقسم للعالم في نظرهم إلى قسمين متميزين. أحدهما محسوس والأخر غيبي.

وجرى للفلاسفة على هذا المنوال أيضاً حيث وجدناهم يقسمون العلم إلى قسمين. فيزيقي وميتافيزيقي. ولا تزال آثار هذا التقسيم الموهوم واضحة في تفكير كثير من الناس حتى يومنا هذا.

### قصة ذات مغزى:

يحكى أن أحد الرعاة في قدم الزمان كان يمشي في منطقة جبلية وكان ينتعل حذاء فيه مسليمر من الحديد. وعلى حين غرة شعر الراعي بأن حذاءه التصق بالأرض التصاقاً شديداً. فقد كان في الأرض شيء من حجر المغناتليس، فلتجنبت إليه مسامير الحذاء. ولكن الراعي الساكن في بلد الجن تعبت به فهلج قلبه واشتد

به الخوف. ولم يجد مناصاً آخر الأمر إلا بأن يخلع حفااء ثم يفر هارباً وهو يلعن  
الجن بغير حساب.

لا يلام هنا الزراعي فيما فعل. إنه لا يعرف تعليلاً لما حدث له. فهو لا يدري  
بوجود شيء اسمه المغناطيس وأنه يجذب الحديد. وهو لا بد أن يلجأ إلى لسطورة  
الجن يرمح بها عقلة الحائر.

وهنا قصة أخرى شبيهة بهذه القصة، إنما هي قد حدثت في القرن العشرين  
ولم تحدث في قديم الزمان.

حدثنا الشيخ حافظ وهبة، الوزير السعودي المعروف، أن مشايخ قدين في نجد  
لم يستطيعوا أن يصدّقوا باللاسلكي عندما نصبت محطاته لأول مرة في المملكة  
السعودية عام 1928<sup>(3)</sup>. فعقولهم لم تتحمل كيف يمكن أن ينتقل الخبر بين  
مكة والرياض في لحظة واحدة بينما تقطع الأبعاد هذه المسافة في عدة أيام. لا بد  
أن يكون في محطة اللاسلكي سر جهنمي أو العوبة من الأعياب الكفار لعنة الله  
عليهم. وبعد تأمل طويل، استنتج المشايخ أن الذي ينتقل الخبر من محطة إلى  
أخرى هو الشيطان، إذ لا يستطيع غيره أن يقوم بهذا العمل العجيب.

يقول حافظ وهبة أن بعض المشايخ كانوا يترددون على المحطة اللاسلكية التي  
أنشأت في الرياض، فيسألون العامل فيها عن موعد زيارة الشيطان؟ وهل  
الشيطان الكبير في مكة أم في الرياض؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في وظيفة  
نقل الأخبار؟

لقد لدى بهم لجهلهم أخيراً إلى أن الشيطان لا يقوم بعمل في خدمة الإنسان إلا  
بعد أن يذبح الإنسان له قربان يذكر عليها اسمه من نون الله. وبناء على ذلك فقد  
ذهب أحدهم سراً إلى المحطة وأخذ يبحث عما تبقى من نبلج الشيطان كلقرون أو  
العظام أو الصوف، وربما قدم للشيخ رشوة إلى العامل ليحصل منه على سر  
الشيطان.

بخيل لي أنه لو كان المغناطيس غير معروف لدى مشايخ نجد، ثم راوه لأول  
مرة في حياتهم لأسرعوا في الحكم عليه على متوال ما حكم عليه الزراعي للسكين،  
ولربما اصنروا فتولمهم بتصريح استعماله على كل مسلم ومسلمة.

الظاهر ان مشايخ نجد اصبحوا اليوم موقنين بان الشيطان لا يدخل له في امر اللاسلكي. فهم انما استتكروا اللاسلكي في اول الامر لانهم لم يكونوا قد رأوه من قبل، ولكنهم بعدما اعتادوا عليه وشهدوا للذباغ يلقي عليهم اضبار العالم كل يوم، سهل عندهم ان يصدقوا به وسلموا امرهم الى الله؟

الواقع ان هذه هي طبيعة العقل البشري بوجه عام. فهو لا يستطيع ان يصلح بكى لمر غريب لم يكن يالقه من قبل، وربما هذه مستحيلاً، انما هو لا يكاد يعتاد عليه حتى يتحول الامر في نظره من نفرة المستحيل الذي لا يقبله العقل الى دلالة الممكن العقول.

ان للفرق بين الممكن والمستحيل في نظر عامة 'العقلاء' هو كالفرق بين الشيء المألوف الذي اعتادوا عليه والشيء الذي لم يالفوه من قبل. إنه لمن فرق اعتيادي يضيع من داخل ذهن لا من خارجه.

عندما شاع استعمال الذباغ في العراق رابت رجلاً بسخر منه ويسخر من الناس الذين يصدقون به. كان يقول عن الذباغ انه بضاعة تجارية اريد بها الغش، فليس من المعقول ان يلتقط للذباغ صوتاً متبعثاً من بلد بعيد، ولو كان الذباغ صانقاً لاستطعننا ان نسمع به صوت الحاج محمد الساكن في ناحية الدجيل، وعندما سالت للرجل عن مصدر الصوت الذي نسمعه في الذباغ قال انه لا بد ان يكون قد جاء من مكان قريب عن طريق السلك الكهربائي على منوال ما يحدث في التليفون.

ان هذا الرجل قد اعتاد على استعمال التليفون فاعتبره امراً معقولاً واخذ يفسر به اعجوبة الذباغ. ارجح الظن انه لو كان من ابناء جيل سابق وشهد للتليفون لاول مرة في حياته لحكم عليه كما حكم على الذباغ. ولست امرى ماذا يقول الآن حين يشهد لعجوبة التلغراف<sup>(١٤)</sup>. بلم عينيه؟

#### البراهين النسبية:

عندما ورنث نظرية تاروين الى العراق في لواخر العهد العثماني، هب 'العقلاء' يشجبونها ويسخرون منها. فليس من الممكن في نظرهم ان يتطور الانسان من الحيوان، وهل يقبل عقل ان يكون جنه قريباً لو حماراً؟ كلا والله العظيمة!

يقال ان احد الشيوخ الكبار في النجف الأشرف كتب رسالة ملوية جمع فيها مختلف الأدلة العقلية والتنقيية لتفنيد نظرية داروين، وارسلها إلى الأستاذ شينى شمهل في مصر إذ كان هذا الرجل حامل لواء تلك النظرية في العالم العربي يوم ذاك. ظن الشيخ ان الأستاذ شمهل سيقرا براهينه وسيعترف بصحتها حالاً. كيف لا وهي براهين ساطعة كالشمس في رابعة النهار. وبقي الشيخ ينتظر جواب الأستاذ شمهل على أحر من الجمر. وجك الجواب المنتظر بعد لثني، ففسرع الشيخ إلى الغلاف يقضه بلهفة ولكنه لم يجد في داخله سوى عبارة واحدة هي: "عذرك جهلك والسلام".

لقد تبين أخيراً ان الأستاذ شمهل كان يقرأ براهين الشيخ فيضحك عليها مثلما كان الشيخ يضحك من جنبه على براهين الأستاذ. كل واحد منهما كان يفهم الأمور من خلال اللطائف الفكرية لفتي اعتاد عليها، وكل منهما يعتقد جازماً بأن الحق في جانبه.

### في البلاد الرافدية:

لرجو ان لا يظن القارئ بان هذه الأمور لفتي نكرناها يقتصر حدوثها على بلادنا وحدها، فهي قد تحدث في كثير من البلاد التي تنسب إليها الرقي وعند كثير من الناس الذين نطلق عليهم اسم العلماء.

يحدثنا الأستاذ وليم باريت، انه عندما عرض جهاز الحاكي (الفوتوغراف) لأول مرة في الأكاديمية للعلوم بباريس أعلن العلماء الحاضرون جميعاً انه مستحيل حيث لم يكن من المعقول في زعمهم ان يسجل صوت الإنسان على مسطوئنة من العبن. والأدهى من ذلك انهم اتهموا صاحب الحاكي بانه يخفي تحت للتضفة رجلاً ينطق بشكل خاص ليوهم الحاضرين بان الصوت منبعث من الحاكي ذاته.

ويروي مثل هذا عن الأستاذ تيت من جامعة انبره. فقد قال عند سماعه باختراع التليفون. "كل ما في الأمر ملحنء ذلك ان اختراع مثل هذا الشيء مستحيل من الناحية الفيزيائية"<sup>(5)</sup>.

ويحدثنا افا خان في مذكراته انه قابل في شبليه للورد كالفن الذي كان يومئذ معدواً كأعظم عالم فيزيائي في العالم. وقد أكد كالفن في حديثه مع افا خان ان

للطيران بالآلات أثقل من الهواء مستحيل من وجهة نظر المادية، وأن ليس في مقدور البشر بلوغه على الإطلاق<sup>(6)</sup>.

### كالفن والسيد محسن:

يبدو أن الأستاذ كالفن لا يختلف من هذه الناحية عن جدي السيد محسن رحمه الله، يحكى عن جدي أنه لم يصلق بخبر الطائرة عند سماعه به لأول وهلة، فقد قيل له ذات يوم بأن الأفرنج اخترعوا عربة تطير في الهواء وهي مصنوعة من الخشب والحديد. فقال لن هذا امر غير معقول بتاتاً، وأخذ يدلي بالأدلة العقلية للبرهنة على استحالة طيران عربة مصنوعة من الخشب والحديد. ثم انتفت إلى مطرقة كانت مطروحة بجانبه فقال: "هذه مطرقة مصنوعة من الخشب والحديد فهل من الممكن أن تطير؟". فتهف للحاضرون معه: "لا تطير... لا تطير!...".

كان لسيد محسن لا يستطيع أن يتصور عربة تتحرك من غير أن يكون أمامها حيوان يجرها، فكيف يستطيع إن أن يتصور عربة تطير في الهواء. تلك امر لا يقبله إلا الجنين!

مهما يكن الحال فقد عاش السيد محسن إلى اليوم الذي شهد فيه العربة تطير في السماء بخشبها وحديدها، وأخذ يدور بعينيه في السماء لا يدري ما يقول. وتو انه عاش مدة أطول لرأي حقيقته، الذي هو كاتب هذه السطور، يركب تلك العربة للطائرة وهو شامخ الأنف!

### استدراكه

ليس من الأنصاف أن نتخذ السيد محسن أو نتخذ غيره على تلك الأحكام القاطعة التي أصدرها اعتماداً على الضرورات العقلية التي وثقوا بصحتها في وقت ما، فنحن جميعاً قد نصير مثل هذه الأحكام ثم يظهر لنا لخييراً باننا كنا مخطئين كل للخطأ فيها. إن هذه هي علة العقلاء في كل زمان ومكان، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ولكننا نستطيع أن نستدرك فنقول بأن هذه العادة قد تشتد في بعض الناس فتجعلهم يصرون على التمسك بها على الرغم من تجاربهم المرة فيها، وهي

قد تضعف في البعض الآخر فتجعلهم يتربدون عند كل حكم يصدرونه إذ هم لا يدرون ماذا سوف تأتي به الأيام من مستحدثات عجيبة.

مما تجدر الإشارة إليه ان هذه العادة لخذت تضعف بوجه عام في القرن العشرين. فبعدما كان لعلماء قبل هذا القرن لا يختلفون عن سائر العقلاء اختلافاً كبيراً، إذ كانوا يعملون الى تكنيب أي امر غريب غير مالوف، أصبحوا اليوم في حيص بيص لا يدرون ماذا يكتبون وماذا يصفقون.

### علماء القرن الماضي:

وقف أحد العلماء في لواخر القرن الماضي يخطب في حشد من العلماء فقال، إن من المحتمل أن تكون أهم المكتشفات في علم الطبيعة قد انتهت خلال القرن التاسع عشر. وإن تكون للمكتشفات القليلة أية أهمية كبيرة. إن تجارينا القائمة لن تكون إلا تكراراً للتجارب السابقة، وسوف تقتصر نتيجها على تعديل للنظريات التي نعرفها<sup>(7)</sup>.

والأغرب من هذا خبر نشرته جريدة التليغز اللندنية في سنة 1886 جاء فيه، ان مدير إدارة تسجيل الاختراعات قدم إلى الحكومة تقريراً طلب فيه إلغاء إدارة التسجيل إذ ليس من المنتظر ان تظهر من الاختراعات في المستقبل غير اشياء قليلة جداً، فلقد تم الآن اختراع كل شيء فعلاً.

حين نقرا الآن هذا الخبر نندم من منه. الواقع اننا لا ننكر ان للاختراعات والمكتشفات العلمية التي ظهرت في القرن التاسع عشر كانت عظيمة جداً، وكان من حق العلماء ان يفخروا بها، ولكننا حين نقيسها بمكتشفات القرن العشرين ومخترعاته نكاد نشعر بانها تافهة وكنها شبيهة بالاعيب الأطفال.

### الثورة الكبرى:

لقد شهد القرن العشرين ثورة علمية كبرى لا تقاس بآية ثورة حدثت في الماضي. وكان من نتائج هذه الثورة ان صار لعلماء اضعف إيماناً بصحة الضرورات العقلية القديمة واقل اعتماداً عليها في إصدار الأحكام القاطعة. وقد ذهب بعضهم الى القول بأن لم يبق في الكون امر مستحيل<sup>(8)</sup>.

إن أهم مطهر من مظاهر تلك الدورة العلمية هو التفسير الذي حدث في مفهوم "المادة". فقد كان علماء القرن الماضي يعتقدون بأن الكون كله مؤلف من أمرين لا ثالث لهما هما، المادة والحركة. ولو فتيح لنا أن نسلطهم عن سر المادة لأجبنوا بأنها شيء لا سر فيه، فهي هذه المادة التي نلمسها بأيدينا ونقبسها ونعالجها في شؤوننا اليومية.

لم يكن العلماء آنذاك يعرفون شيئاً عن أعماق الذرة وما يكمن فيها من طاقة هائلة. فلقد كان يمسكون الحجر بأيديهم مثلاً ويفحصونه بالإنهم فلا يجدون فيه شيئاً خفياً وخيل إليهم من جراء ذلك أن مادة الكون كلها هي من نوع هذا الحجر.

جاء دالتون في أوائل القرن التاسع عشر بتظريته المعروفة عن الذرة. ولكن نظريته تلك لم تكن تختلف في أساسها عن نظرية جيوهر الفرد التي قال بها فلاسفة الأبيقري. إنها جزء صغير من المادة لا يمكن تجزئتها وهي لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة العنصر الذي يتألف منها.

وفي عام 1897 كان أحد العلماء يمرر تياراً كهربائياً في أنبوب مفرغ من الهواء. فلكتشف في الأنبوب هيئات دقيقة جداً هي أصغر بالفي مرة من أية ذرة بالتقوية معروفة. لقد كانت هذه لتجربة حثاً هاما في تاريخ العلم، حيث أدرك العلماء بها لأول مرة أن الذرة يمكن تجزئتها وإنها ليست على النمط الذي كانوا يتخيلونه من قبل. وتوالت من بعد ذلك تجارب أخرى عرف العلماء بها طبيعة تلك الهياكل الدقيقة، إذ هي "الكثرونات" مؤلفة من أمواج كهربائية.

يقول الاستاذ جينز، أن ليس هناك فرق جوهري بين قطعة لئلة التي نتناولها بأيدينا وشعاع الضوء الذي نلمحه بإبصارنا، كل منهما مؤلف من أمواج كهربائية. إن الفرق الظاهري بين اللئلة والشعاع سببه أن أمواج اللئلة معلية نو مجمعة حيث تدور في أفلاك صغيرة داخل الذرة بينما أمواج الشعاع منطلقة في الفضاء... (9)

إننا صرح قول جينز هذا جاز لنا أن نقول بأن المادة التي نلمسها بأيدينا هي من وهم حولتنا المحدودة. فهي ليست "مادة" بالمعنى الذي كان علماء القرن التاسع يفهمونه من هذه الكلمة، إنما هي بالأحرى طاقة معلية. ولو استطعنا فرضاً أن

نجم مغداراً كبيراً من نشعة الضوء وجعلناها تدور حول نواة لصارت ذرة مادية من نوع هذه الذرات، التي تتكون منها أحجار الأرض والسماء.

إن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن ان يصنعوا المادة من الأشعة ولكنهم استطاعوا ان يحولوا المادة إلى أشعة عندما فجزوا الفنبلة الذرية، ومن يدرينا ماذا سوف يصنعون غداً؟

### المادية والبيتا فيزيقية،

نستطيع أن نقول عن مائة القرن الماضي انها تقرب إلى الميترافيزيقية من مادية القرن الحالي. فلقد كان علماء القرن الماضي يعتقدون بأن المادة ساكنة بطبيعتها إذ هي مؤلفة من ذرات جامدة، ولهذا فهي في حاجة إلى دافع خارجي يحركها. ومن هنا جاء رأيهم في الكون باعتباره مؤلفاً من أمرين متميزين هما المادة والحركة.

وحيث نأخذ برأيهم هذا يجب علينا أن نسلل عن مصدر للحركة الدافعة للمادة، وهنا لسؤال يجزنا إلى الإيمان بقوة غيبية تحرك للكون من خارجه كما يحرك الإنسان المكتبة. وتلك هي إحدى السمات المميزة للفكر البيتا فيزيقي<sup>(10)</sup>.

إن الأبحاث الذرية الأخيرة قد اعتدنا عن أي تفسير ميكانيكي للكون. فقد اتضح من هذه الأبحاث ان ليس هناك انفصال أو تمايز شلني بين المادة والحركة. وقد يصح للقول بأنهما مظهران لحقيقة واحدة. فللادة حركة والحركة مادة، أو عما بعبارة أخرى طاقة كهربائية مغناطيسية تظهر لحولنا الصبودة بمظهرين مختلفين.

### فضاؤها العجيب:

إن هنا المفهوم الجديد للعامة يجعلنا نفهم الكون على غير ما فهمه القدماء. فالعلماء اليوم يفترضون، كما قلنا سابقاً ان في الكون عدداً لا يحصى من الأمواج الكهربائية وهي تتصادم وتتغلغل في فضاينا دون ان نعرف عنها شيئاً. ولو كان لدينا من للحواس ما ندرك بها جميع امواج الفضاء لأعني علينا من شدة ما نرى فيه من ملايين الألوان والصور والأشياء المتنوعة.

يقول العالم الفيزيائي روبرت سلكان، ان الأمواج الكهربائية تنطلق بلا انقطاع

من كل مادة في الوجود فتصطدم بما حولها من مواد وتؤثر فيها<sup>(11)</sup>. معنى هذا أن الإنسان يعيش في هذا الكون وكفنه "أطرش في زفة" كما تقول العامة، فهو يمشي ساهياً ولا يدري أن الدنيا حوله في صخب شديد، إنه مغرور بحولته واثق بها بينما هي لا تدره من الكون إلا قدرأ ضئيلاً. ولعل من الضير له أن يكون احساسه محدوداً بهذا المقار فلو أدرك الإنسان الهول للحيط به لربما انقلبت الدنيا كلها إلى نار للمجانين:

### بعض العلماء:

إن هذا المفهوم الجديد للكون دفع بعض العلماء إلى القول ببطلان الفلسفة اللغوية. وقد اشتهر من هؤلاء العلماء ثلاثة هم السير لورث فيتكتون ولسر جيمس جينز والفيزيائي المصري الدكتور محمد مصطفى مشرفة.

في رأي هؤلاء العلماء أن المادة لم يبق لها وجود معترف به في الكون، فقد حلت للطاقة محل المادة. ولما كان العلم عاجزاً عن إدراك كنه الطاقة فلا بد لنا من ترك كلاب مفتوحاً للوصول إلى المعرفة عن غير طريق العلم<sup>(12)</sup>.

الواقع أن هذا الرأي صحيح إن أخذنا بنظر الاعتبار مادية القرن التاسع عشر، لا سيما تلك التي نادى بها بخترو ومن لف لفته، فهذه المادية قد أصبحت في هذا القرن باطلة إذ هي في أساسها مادية سلاجفة لا تختلف عن مادية رجل الشارع حين ينظر إلى اثاث بيته وبضائع دكانه، فما مادية القرن العشرين فهي من طراز آخر.

إن المادية في هذا القرن لا تنبالي أن يكون الكون مؤلفاً من طاقة أو من غيرها، إنها مفتوحة الذهن إزاء أي رأي يأتي به العلم، وهي لا تتوانى عن أن تتخذ لنفسها وجهاً جديداً مع كل اكتشاف علمي عظيم<sup>(13)</sup>.

كل ما تقتضيه المادية الجديدة من الباحث هو أن يكون موضوعياً في تفكيره يسير به أينما سارت التجربة العلمية، فلا يتعصب لفكرة سابقة أو يفتر بنظرية مهما كانت في حد ذاتها رافعة، ومن هنا صح القول أن المادية الجديدة ليست سوى تعبير عن النزعة الموضوعية في البحث، ولعل من الجائز أن نضع "المادية" و"الموضوعية" كلاً مكان الآخر بلا تفرق، إذ هما اصطلاحان مترادفان يعطيان مفهوماً واحداً.

الخلاصة ان اللبنة انقلبت في القرن العشرين من كونها فلسفة ثابتة الى كونها منهجاً علمياً، وهي لذلك تستعد احكامها من الواقع الخارجي لا من الاعتبارات الذهنية التي اعتاد عليها العقل.

### عود إلى مرض الطفولة:

لعل من الغريب هنا ان اعود مرة اخرى الى دغشة اولئك الذين وصفتهم من قبل بانهم مصابون بمرض الطفولة. إنهم يزعمون انهم ملابيون او موضوعيون في تفكيرهم بينما هم لا يعرفون من اللبنة سوى تلك الصورة السالفة التي اعتادوا عليها منذ عهد ماضي.

خيرت "ملابية" هؤلاء حين اصدرت كتاب "خوارق للاشعور" عام 1952 . فقد كنت في تأليف الكتاب حريصاً على اتباع النهج العلمي جهد امكاني، ولكنهم انبروا يسخرون منه ويستنكرون ما جاء فيه بحجة انه يناقض العقل ويخالف المفاهيم المألوفة.

تحدثت مرة الى احدهم وهو اليوم مصباح من مصابيح الفكر في العراق، وكان الحديث يدور حول الاحساس بالخارق الذي اكتشفه الباحثون في بعض الافراد، فقال صاحبنا انه من الامور المستحيلة التي لا يقبلها العقل. عند هذا تناولت حجراً صغيراً من الارض وقلت له: كيف يقبل العقل ان تكون في مثل هذا الحجر طاقة هائلة قادرة على تحريك باخرة كبيرة حول الارض عدة مرات؟

لعل لا اغالي انا قلت ان بعض متعلمينا هم كالقطار لا يستطيعون ان يخرجوا في سيرة تفكيرهم عن السكة للوضوعة امامهم. إنهم حفظوا بعض المفاهيم العلمية في ايام تلمذتهم الاولى فخيّل إليهم انهم تناولوا بها سر الكون. وما نروا ان المفاهيم العلمية في تطور مستمر يوماً بعد يوم.

### حجة مكافحة الخرافات:

هناك نوع آخر من المتعلمين يجارون الافكار التي جنت بها في كتاب "خوارق للاشعور" بحجة انها تشجع الخرافة بين الناس وتساعد على نشر الافكار "الغيبية" بينهم.

الواقع اني لا اختلف هؤلاء في وجوب مكافحة الخرافات والافكار الغيبية. ولكن السؤال الذي يراود ذهني في هذا الصدد هو، هل يصح ان نتلطف في امر مكافحة للخرافة الى الدرجة التي نعرقل فيها سير العلم واليحث الموضوعية؟ وبعبارة اخرى: هل يجوز ان نسد باب العلم عن كل قضية فيها شبه بالاساطير التي كانت سائدة بين الناس قديماً؟

في رأيي ان الذين يطربون بحث الخوارق النفسية بحجة مكافحة الخرافة إنما هم يشجعون الخرافة من طريق غير مباشر. لنفرض اننا وافقناهم على سد هذه الابواب ولتهدمنا كل من يحاول البحث فيه بانه مخرفه، فمالنا تكون النتيجة؟

فقد يشهد احدنا عملاً خارقاً من اعمال التنويم المغناطيسي مثلاً، فيعجب منه وتتملكه الحيوية الشعبية فيه. انه يريد تحليلاً لما شاهده بنفسه عيناً. فلما لم تقدم له التعليل الموضوعي اضطر هو الى اتخاذ تعليل نالني يخلقه لنفسه اخلاقاً، وربما لجا من اجل ذلك الى الافكار الغيبية القديمة او الى الايمان بالسحر والارواح. وبهذا نفتح بين يديه ابواب الخرافة فيبتعد بها عن مفاهيم الحضارة الجديدة.

### بلاء الشرق:

لقد ابتلى الشرق بالسحرة والنجمين والمشحوتين منذ قديم الزمان ولا يزال مبتلياً بهم حتى يومنا هذا. فالذي يتجول في لفة بغداد اليوم لا يغوته ان يرى في هذه الزاوية او تلك احد النجمين وقد بسط بين يديه لرقى وقطلاسم، ويتهاقت عليه الفقراء يسألونه اين ذهب حظهم للتاعس من هذه الدنيا، ويطلبون منه ان يسعفهم بشيء من عون الجن. ولا يقتصر الأمر على الفقراء وحدهم، فهناك امراء واغنياء مترفون بلجؤون الى السحرة والنجمين ويصدقون بقولهم. والنجمون قد يقومون ببعض الخوارق من جراء امتلاكهم لبعض المواهب التنويمية او غيرها، فتشيع اخبارهم بين الناس وتشيع الخرافات معها، وبهذا قد يضيع كثير من الاموال والجهود البشرية عبثاً، وقد يقع ثناء ذلك كثير من الضحايا ايضاً.

لا فائدة من مكافحة هؤلاء النجمين كفناً مباشراً. فانا كناحنهم هنا ظهوروا هناك، انهم يلغون سوقاً رائجة بين الناس. ونحن لا نؤثر في الناس حين ننصحهم

بأن يكونوا "عقلاء" وأن يكذبوا كل ما يأتي به النجمون من خزعيلات. فلناس قد يجيبوننا بأنهم عقلاء فعلاً وأنهم شهدوا يوم فعيتهم عجائب التنجيم.

أعتقد أن خير علاج تعالج به هذا الوباء الاجتماعي هو أن تنتشر الأفكار العلمية بين الناس حيث نحاول بها تحليل تلك الخوارق التي يقوم بها النجمون تحليلاً موضوعياً. إنها قد تكون خوارق واقعية أحياناً ولا جدوى إن من أن نتخذ لإضعاف طريقة التعامة التي تخفي راسها في الشراب عند مطاردة لصياد لها، فهي لا تراه وتحسب أنه لا يراها أيضاً.

انقل للقارىء فيما يلي نص ما قاله أحد العرفيين اثر زيارته للصين الشعبية في عام 1957،

"وأغرب ما شاهدته في كانتون عدة تجمعات ضخمة من الناس متجمعين حول "السحرة" التي الذين يلعبون ألعاب الخفة ووقفنا بين جملة من هذه الجماعات، الساحر ومعاونوه يمزقون منديلاً ثم يخرجونه من جيب احد الأشخاص، يكسرون بيضة ثم يعينونها... إلى آخره من ألعاب الخفة التي تدل على مهارة فائقة معروفة عند الصينيين. ولقد عجبنا لهذه المشاهدة، كيف لا تمنع الحكومة الشعبية مثل هذه الألعاب؟ هنا ما سألنا أنفسنا عنه. ولم نعتز له على جواب معقول إلا بعد زيارتنا لمدينة شتقهاي حيث عرفنا أن التنويم المغناطيسي وألعاب الخفة هي من جملة الواد التي يدرسونها للأطفال مع الموسيقى والرقص والتمثيل وغيره، وفهمنا انذاك السر في تعليمها للأطفال، فهم يطلعونهم عليها حتى يتعرفوا بأنفسهم إلى أنها مسائل متعلقة بالخفة وليس في الأمر أي عامل خارجي، لا أرواح ولا شياطين. وهم بذلك يقلعون الاعتقاد بها من أذهان الأطفال من الجذور" (14).

## هوامش الملحق الثاني:

- (1) انظر: العلامة الحلبي، كشف الحق ونهج الصدق: ص 5 - 6 .
- (2) أعرفه رجلاً كبيراً من رجال الدين كان يعيش في بغداد وقد مات منذ سنوات معدودة، وكان حتى أخيراً من حياته يحفظ أن الأرض لا يمكن أن تكون كروية أبداً ويقول: "كيف يجوز لنا أن ننكر ما يأتيه من الخس يا ناس... وإذا كانت الأرض كرة تدور فلماذا لا تسقط النياز... يا ناس!؟".
- (3) انظر: حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص 270 - 273 .
- (4) أود أن أتهنئ هذه الثابتة لأقول بأنني أفضل استعمال كلمة "التلفاز" بدلاً من التلفزيون، التي هي غريبة على اللسان العربي. ومن الجهة الأخرى، نستطيع أن نشق من هذه الكلمة فعلاً ومصدراً فنقول "تلفز يتلفز للتلفزة". فما هو رأي اخواننا النحويين في ذلك؟ اتقوا مأجورين!
- (5) انظر: Tyrrell, Personality of Man, p. 266.
- (6) انظر: اتخاخان، مذكرات اتخاخان، ص 26 ، 106 .
- (7) انظر: عبد الحميد أحمد أمين، الطاقة الذرية، ص 11 .
- (8) انظر: Rhine, Reach of Mind, p. 58 .
- (9) انظر: Jeans, Mysterious Universe, p. 91 .
- (10) انظر: بوليتزير، المادة والمثالية في الفلسفة، ص 28 .
- (11) انظر: ميل، الحاسة السادسة، ص 14 .
- (12) انظر: محمد مصطفى مشرف، النظرية النسبية الخاصة، ص 50 - 51 .
- (13) انظر: بوليتزير، المادة والمثالية في الفلسفة، ص 44 .
- (14) انظر: حميد حمدي، عراق في العجى الشعبية، ص 20 - 21 .

## الملحق الثالث

### الحاسة السادسة

#### غرائب الحيوان

لاحظ الباحثون في علم الحيوان ظواهر غريبة جداً لا يسهل تحليلها بالحواس الخمس للحروفة. فخذ حمام الزاجل مثلاً، فالشهور عنه انه يحمل في صندوق مقلق ويسمير به مسافة طويلة عبر الجبال والبحار، فإنا اطلق بعد ذلك رجح إلى مكانه الأول...

كان علماء القرن الماضي يعللون مقدرة الحمام هذه بأنها "غريزة". ولكن هنا لتعليل تصبح اليوم غير مقبول، إذ هو يشبه من يفسر امرأ مجهولاً بمجهول آخر. فلماذا كانت الغريزة هي سر تلك القدرة الخارقة، فما هو سر الغريزة نفسها؟

\*\*\*

مما له صلة بهذا الموضوع ما حدث لأحد علماء الحشرات. فقد عثر هذا العالم يوماً على يرقة نوع كبير من الحشرات فحملها إلى بيته ووضعها في صندوق وترك الصندوق في غرفة مكتبه. وبينما هو جالس في غرفة الطعام إذ دخل عليه خادمه فزعاً ولخبره بأن غرفة مكتبه امتلأت بفوج كبير من الحشرات الضخمة. فلما ذهب العالم ليرى ما حدث وجد أن يرقاته تركت طور البلوغ وأن عنداً من نكورها يحوم حول الصندوق. ولما كانت الحشرات من نوع غير مألوف في تلك المنطقة فقد استنتج العالم بأنها لا بد أن جاءت من مكان بعيد جداً.

وجمع العالم تلك الحشرات لتوليفة فقطع ملامسها التي تتركز فيها حاسة الشم ووضعها في كيس ثم وضع الكيس في قمطر وحملها إلى غابة تبعد عن بيته بما يماز الليل، ولم تمض على ذلك بعض ساعات حتى وجد الحشرات كلها متجمهرة في غرفة مكتبه حول الأنثى مرة أخرى<sup>(1)</sup>.

لقد كانت هذه تجربة ذات دلالة علمية لا يستهان بها، فما الذي أرشد الحشرات إلى مكان الأنثى؟ إنها لم تستعن في ذلك بحاسة الشم أو بحاسة البصر طبعاً، فهل استعانت بطاسة أخرى من حواسها الخمس، أم بحاسة سابعة لا نعرفها؟

### عجوبة الخفاش:

من الظواهر الغريبة التي لفتت انظار الباحثين أيضاً ما شوهد في الخفاش من مقدرة خارقة على رؤية الأشياء في الظلام، فأخفاش يكاد يكون أعمى، إذ إن له عيتين صغيرتين جداً، وهما ليستا بذات فائدة له على أي حال، حيث يصعب عليه أن يبصر بهما شيئاً في ضوء النهار، ولكنه بحسي قوي البصر في ظلام الليل، حيث يستطيع أن يطير فيه بسرعة كبيرة دون أن يرتطم بما حوله من الجدران وغصون الشجر.

وبعد دراسة مستفيضة اكتشف العلماء في الخفاش جهازاً خاصاً به غير موجود في غيره من الحيوانات. اتضح أن الخفاش لا يبصر الأشياء بهذا الجهاز إنما هو يسمعها به، فهو يصدر أصواتاً ذات ذبذبة عالية، وهذه الأصوات ترتطم بالحواجز اللينة ثم تنعكس عنها كما ينعكس الصدى، والخفاش يلتقط بجهازه الخاص صدى لصوته وبه يعرف مقدار التبعد بينه وبين تلك الحواجز بكل دقة وتفان<sup>(2)</sup>.

مما يجدر نكره في هذا الصدد أننا نحن معاشر البشر لا نستطيع أن نسمع أصوات الخفاش لأن أذاننا اعتادت أن لا تسمع من الأصوات إلا ما كانت ذبذبته تقل عن العشرين ألف ذبذبة في الثانية، أما الخفاش فهو يصدر صوتاً ذا خمسين ألف ذبذبة في الثانية، وهو يسمعه وحده لا يشركه فيه حيوان آخر.

وقد ثبت أن كل خفاش له ذبذبته الخاصة حيث يتميز بها بين زملائه الخفافيش، بالرغم من اشتراكه معهم في نوع الذبذبة العم. وهو بهذا يشبه

محطات الإذاعة التي تنبع على موجات متفاوتة. ولذا فإن أصوات الخفافيش لا يحتلظ بعضها ببعض حينما تطير جماعة في مكان واحد.

والغريب أن الخفاش يواصل إصدار الصوت والتقاطه حتى عند وقوفه. وهو بذلك يستطيع أن يفحص الأشياء المحيطة به ويتبين الخطر المحتمل مجيئه منها. إن الخفاش، بعبارة أخرى، ينظر إلى الأشياء بأخذه على متوال ما ينظر بنو آدم إليها يعيونهم

### مقارنة واستنتاج:

مهما يكن الحال فإن اعجوبة الخفاش قد تفتح لنا باباً للتساؤل فإننا كان الخفاش يستخدم أمواج الصوت في سبيل التعرف إلى الأشياء القريبة منه فعلاً يستخدم حمام الزاجل لكي يتعرف إلى معالم طريقه البعيد.

يقال إن اعجوبة الخفاش هي التي حفزت العلماء على اختراع الرادار. فهم عندما درسوا جهاز الخفاش خطر بيالهم أنهم قالون على صنع جهاز مثله يرى الأشياء من بعيد، لا سيما إذا استعملوا بأمواج الصوت الأمواج اللاسلكية. وتم للعلماء أخيراً ما أرادوا فكان الرادار!

نحن نعرف أن أمواج للصوت ذات مدى قصير وسرعة قليلة جداً بالمقارنة إلى الأمواج اللاسلكية التي هي نوع من الأمواج الكهرومغناطيسية. فهل يجوز لنا أن نفترض الطبيعة قاصرة عن إنتاج جهاز في بعض الحيوانات يستخدم الأمواج الكهرومغناطيسية كما أنتجت جهاز الخفاش الذي يستخدم الأمواج الصوتية؟

لا يصح أن نتعصب لحواصنا الخمس بحيث نعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله لم يخلق غيرها في الحيوان أو الإنسان، فلننا بيننا التعصب لا تختلف عن الدودة التي لا تملك حاسة البصر وتظن أن هذه الحاسة غير موجودة في جميع الأحياء.

### خبر مهم:

روث إندى المجلات الأمريكية مؤخراً خيراً هو في رأيي ذو أهمية بالغة بالنسبة لهذا الموضوع الذي نحن فيه.

تقول المجلة إن جمعية حمام الزاجل في أمريكا أطلقت في الآونة الأخيرة

(1700) حمامة، فلم يرجع منها إلى لماكنها للمدينة سوى أربعين حمامة فقط. حدث هذا في الوقت الذي كانت للحكومة الأمريكية فيه تجاري تجارب نووية جديدة في صحراء نيغلا من الولايات المتحدة. وقد صرح احد ارباب جمعهم في هذه المناسبة فتلأ: ان للحمام ربما سار في نطاق الأشعة الذرية مما جعله يفقد "غريزة التأويب" (3).

لنا صح هذا الخبر كان في إمكاننا ان نستنتج منه ان حمام الزاجل يعطك في مخه جهازاً قادراً على التقاط الأمواج الكهروطيسية الصادرة إليه من المكان الذي نشأ فيه، وهو حين يرجع إلى ذلك المكان إنما يهتدي بتلك الأمواج على وجه من الوجوه. والظاهر ان الانفجارات النووية تترك الحمام وتمنعه من التقاط الأمواج الخاصة التي يستعين بها في تنويبه. وهذا هو الذي جعله عاجزاً عن الامتناء إلى محله الأول. كما رأينا.

ان هذه على اي حال فرضية لا نعرف مبلغ تطبيقها على الواقع وتكون من الجائز لتكون إليها ما دعنا لا نجد من القران ما يخالفها، والفرضيات العلمية بوجه عدم تبلى صحيحة حتى تظهر إزامها قران جديدة مناقضة لها.

### رأي سينل:

نكرنا الأستاذ سينل وبعض اراءه في فصل سابق، ولا بأس هنا من نكر آراءه نه اخرى ذات صلة وثيقة بموضوع الحاسة السادسة.

يعتقد سينل انه ما دام الكون مشحوناً بالأمواج الكهروطيسية من كل نوع، فليس من العسير ان نفترض وجود جهاز في الخ الحيواني يشبه جهاز المنياخ في وظيفة وأنه قادر على التقاط بعض الأمواج به.

ويركز سينل انتباهه في هنا لقشان على تنوع صغير موجود في مخ الحيوان يسميه العلماء "الجسم التصنوبري"، فهذا الجسم لم يعرف العلماء له اية وظيفة حتى الآن. ويزعم سينل يانه جهاز الحاسة السادسة في الأحياء، أما الطريقة التي يستطيع الجسم للتصنوبري ان يلتقط بها امواجاً معينة دون غيرها فهي انه يضبط خلاياه او شعيراته التي تخصصت لهذا الغرض بحيث يجعلها في حالة

تندب مطلق لذبية الأمواج المطلوبة، وهو بهذا يكون "متناغماً" مع تلك الأمواج على منوال ما يتناغم الذياغ مع محطة معينة من محطات الإذاعة<sup>141</sup>.

### مخ الإنسان:

من الثابت ان الجسم الصنوبري موجود في مخ الإنسان ايضاً بيد انه هناك صغير جداً. وهو في الذكر من البشر اصغر مما هو في الأنثى، وفي البالغ اصغر منه في الطفل.

يقول سهيل أن مخ الإنسان قد تخصص للتفكير وهو لذلك قد اعمل له تخليام الجسم الصنوبري، معنى هذا ان الإنسان اعتاد ان يشغل نفسه بمشكلاته اليومية يفكر فيها وينجز لها الخطط ويضرب من اجلها الأخماس بالأسداس. وهو إذن لا يجد مجالاً يصغي فيه إلى ومضات الحاسة السادسة التي يحس بها لجسم الصنوبري.

اما الحيوان فهو يختلف في هذا عن الإنسان. إنه لا يعرف التفكير ولا يشغل نفسه به، وهو إذن قادر على استخدام حاسته السادسة، يستشف بها مقتضيات حياته مباشرة من غير تردد او روية، ولهذا وجدنا الجسم الصنوبري في الحيوان اكبر منه في الإنسان. وهو يزداد حجماً كلما كثر الحيوان اوطاً في ستم لتصور.

لا يعني هذا ان الحاسة السادسة معنومة الأثر في الإنسان نهجياً، الواقع انها قد تؤثر فيه أحياناً على الرغم من ضعفها الشديد وقد اتينا على ذكر بعض ظواهرها للعجيبة في فصول سابقة عندما بحثنا عن تنبؤات الأحلام وخوارق التنويم، حيث رأينا كيف انها تظهر في الإنسان في الأوقات التي يغفو فيها العقل الواعي وتخدم لإرادته.

الظاهر ان هناك تعاكساً بين قوة التفكير وقوة الحاسة السادسة في الإنسان، فكلما اشهد للتفكير فيه خفت لديه قابلية الأثر بومضات تلك الحاسة. ولعل هذا هو الذي جعل المرأة اصح حساً من الرجل في بعض الأمور التي لا تحتاج إلى تفكير، فالمرأة لطول مكوئها في البيت وقلة اتصالها بمشكلات الحياة، صارت أكثر اعتماداً على حاستها السادسة من الرجل<sup>142</sup>.

في رأي سيندل فن الحاسة تسلسلة ذات اثر واضح في حياة البيئيين الذين لا يزالون يعيشون على الغطرة. هؤلاء لم يعتادوا على التفكير المركز الذي اعتاد عليه التمدنون، وهم لذلك قادر على استعمار الحاسة السلسلة من اخوانهم المتمدنين.

### نماذج بشرية ضادة:

مهما يكن الحال، فقد يظهر بين اتمدنين أحياناً افراد لهم حاسة سلسة قوية، وهم قادرون على استعمارها بشكل يلفت للنظر ويثير الدهشة.

من هؤلاء رجل عاش في القرن الثامن عشر لسمه سويدنبرغ وقد اشتهر هذا الرجل بحلسته السلسلة شهرة واسعة، ومما تجدر الإشارة إليه انه كان يعيش في غوتنبرغ وهي المدينة التي كان يسكنها كلنط الفيلسوف الألماني المعروف. وقد اتيح لكلنط ان يدرسه وان يسجل في احد كتبه شيئاً عن اعماله للخارقة.

يقول كلنط ان سويدنبرغ رجع ذات مساء الى بيته وهو مصغر الوجه مرعوب، فاعلم بان ناراً مائلة تشب في ستوكهلم وهي توشك ان تلتهم داره هناك، وكان سويدنبرغ يملك داراً في ستوكهلم، وبعد قليل اعلن سويدنبرغ ان الدار قد سلمت وان النار اخمدت على بعد اطار منها. وقد اثار عمل سويدنبرغ هذا استغراباً بين سكان غوتنبرغ فمدينة ستوكهلم تبعد عن غوتنبرغ بما يناهز الثلاثمئة ميل، ولم يكن في ذلك الوقت من وسيلة لنقل الخبر بين المدينتين سوى ما يأتي به المسافرون والسعاة. فما الذي تمكن سويدنبرغ من العلم بنشوب النار وهو على تلك المسافة الكبيرة منها؟ اكلن يملك في رأسه تلافزاً؟

يقول كلنط: ان حاكم غوتنبرغ اضطر عند سماعه الخبر الى استدعاء سويدنبرغ للتحقيق معه. وبعد يومين جاء رسول من ستوكهلم يؤيد ما قال سويدنبرغ تنبيهاً تاماً<sup>15</sup>.

### رجل آخر:

واشتهر بحلسته السلسلة رجل آخر اسمه لدوغ كهن، وقد حضر هذا الرجل الى المعهد الفلسفي بباريس عام 1925 حيث احربت عليه التجارب العلمية. وكان ممن اشترك في تلك التجارب العالم المعروف شارل ريشيه الذي كان حينذاك استاذ

الفسلجة في كلية الطب في جامعة باريس، وإلى القاري، نص لشهادة التي لبى بها  
ريشه بعد انتهاء إحدى التجارب.

قال ريشه، لما حضرت الجلسة في المعرض الفلسفي مع كثيرين غيري كنت لا  
أزال كثير الشك في صحة دعوى الرجل، ولعل ذلك يجعل لشهادتي قيمة، فقد  
طلب مني الرجل أن أكتب جعلتين على ورقتين فكتبتهما وكنت في جانب من  
مكتبي بينما كان الرجل في الجانب الآخر منه. ثم طويت كل ورقة ثماني طيات  
ووضعت إحداهما في عيني والأخرى في يساري، ولم اسمح له أن يلمسهما. فوقف  
متردداً نصف دقيقة ثم أخبر بما كتبت في الورقتين بالنص. ثم أجريت تجربة  
ثانية حيث ذهبت إلى غرفة أخرى وجلست فيها وحدي فكتبت أربع فقرات في أربع  
ورقات، وضعت إحداهما تحت كتاب واحرقته الثانية، ولمسكت بالباقيتين في يميني  
ويساري. ثم دعوت الرجل فلما هو يخبر بما جاء في الأوراق الثلاثة، أما الورقة  
المحروقة فلم يعرف ما كان فيها إلا بعد أن تمهل نحو ثلاثة أرباع الدقيقة، ثم نطق  
فأصلب... (7).

### الوانار البشري

قرات في إحدى المجلات انصرية عام 1951 تقريراً مدعوماً بالصورة عن رجل  
لسمه توجانز ظهر على بعض مسلح القاهرة وكان يستطيع ان يقرأ افكار  
التفريجين بشكل عجيب. وقد أطلقت للجله على هذا الرجل لسم لوانار البشري  
وقالت عنه انه يملك حاسة سداسة. ويروي توجانز كيف اكتشف لحسة السادسة  
في نفسه في اول الامر، فيقول انه اثناء الحرب العالمية الأولى اصيب برصاصتين في  
رأسه. فتنقل إلى المستشفى وظل في غيبوبة طويلة تقارب العشرين يوماً. وعندما  
افاق من غيبوبته تذبذباً بين التجريب الذي كان ينام بجواره سيموت في خلال يومين.  
وقد تحققت نبوءة توجانز فعلاً ثم تحققت له نبوءات اخرى تطلق بها بعد ذلك.

وفي عام 1921 خرج توجانز إلى الريف يتريض فيه مع بعض اصدقائه. ولكنه  
لم يكد يمر بجانب حقل للقطن حتى اغمى عليه. وتبين أخيراً ان هذا الحقل كان  
متبعاً قديماً للنمط. وخرج توجانز مرة ثانية إلى الريف فمر بالقرب من أحد حقول  
التفط. فأغمى عليه كذلك وبعد الفحص عليه في احد معاهد الاشعاع ظهر ان

إشعاعات جسده أقوى جداً من تلك التي تنبعث من احصاد الآخرين عادة، وأنه يثار بامواج المدون المختفية تحت الأرض لا سيما امواج التفتط..

ولا تقتصر مقدرة توجانز على ذلك وحده، بل هو يستطيع كذلك ان يفهم ما يجول بخاطر اي شخص قريب منه ولو كان ذلك الشخص يتكلم بلغة لا يفهما توجانز. ويستطيع توجانز أيضاً ان يعرف علة المريض انا لامس جسمه، ان هو يشعر عندئذ بنفس الألم الذي يشعر به المريض.

ولعل اعجب خورق توجانز انه يستطيع ان يقود سيارة ويسير بها في أشد الشوارع إزدحاماً وهو معصوب العينين. حدث له مرة ان كان يفعل ذلك في شوارع مدينة الجزائر فاصيب بنوبة إغماء حادة فامرّه الأطباء، بقر لا يعلود التجربة مرة اخرى لتلا وقع له مالا تعدد عقباة<sup>(8)</sup>.

### قصة مماثلة:

لا تكتم لقاري، اني عندما قرأت قصة توجانز هذه ظننت انها من صنع البلاغات الصحفية. ونحن نعرف ما تقوم به الصحف والمجلات احياناً من مبالغات وتزويق في نقل الأخبار. ولكن اطلمت أخيراً على قصة مماثلة لقصة توجانز في مصدر موثوق مما جعلني اميل الى تصديق القصة الأولى. في بعض آخراتها على الأقل.

والغصة الثانية ترويه جمعية الباحث، النفسية في بريطانيا وقد اثبتتها في سجلاتها بعد ان تكلمت من صحتها. وخلاصة القصة ان رجلاً هندياً اسمه كونا بوكس جاء الى بريطانيا وأخذ يسير على دراجته في الشوارع المزدهمة وهو معصوب العينين. وقد اراد احد الأطباء في مدينة مانجستر ان يمتحنه بنفسه، فوضع على عينيه عجباً خاصاً من شتته ان يحجز الضوء حجراً تاماً، ثم نفهما بعصابة كثيفة، وقال له: "انك تستطيع الآن يا عزيزي. ان تتنزه فوق دراجتك في شوارع المدينة كما تشاء، ولكني لو كنت مكلتك لتريدت متة مرة قبل الاقترام عل هذه الغامرة الخطرة". ونهض الرجل فاعطى دراجته وسار بها في الشوارع المزدهمة كانه كان مفتوح العينين، ودخل انارة منه، واخذت السيارات تصطدم بعضها ببعض اشفاقاً عليه من موت محقق. اما هو فقد كان في منتهى الهدوء والطمأنينة...

من الممكن تحليل هذه القدرة الخارقة التي رايهاها لدي كونا بوكسر او نوجانز او غيرهما بانها نوع من الحاسة السادسة، ولكن الذي يصعب علينا تطيينه هو لانا ظهرت الحاسة السادسة في هؤلاء الافراد ولم يظهر في غيرهم بهذا الوضوح؟

يجيب بعض الباحثين على هنا بقولهم ان هؤلاء الافراد قلبية خاصة على لتتويج النقي، اي انهم قادرين ان ينهوا انفسهم بانفسهم، وبهنا يوقفون حركة تفكيرهم ويسمحون للحاسة السادسة ان تقوم بعملها من غير تشويش. ولعلمهم فوق ذلك يملكون قسطاً من هذه الحاسة لكبر مما يملكه سائر الناس عادة.

يبدو ان الأستاذ سينل يذهب هذا المذهب في التحليل، فهو يعرف فتاة لها حاسة سادسة قوية، وكان يجري عليها التجارب طيلة ثماني سنوات. يقول سينل ان الفتاة قد تكون في بدء التجربة مشغولة ذهن بامر ما، وهي لذلك تعجز عن القيام بالتجربة، ولكنها تقوى نه، اصير قلباً لا يد من اخلاء فكري". - ويعد ان تتمكن من تصفية ذهنها واعادته تقول: "والآن لنا على استعداد"، ثم تقوم بالتجربة وتخرج فيها نجاحاً كبيراً.

يعتقد سينل ان بعض المشهورين باكتشاف الغيبات عن طريق التحديق في الماء او الكرة البلورية او نقطة الصبر او الفجائن، إنما هم يستخدمون هذه الوسائل لوقف حركة التفكير في اذهانهم، وبذلك يساعدون حاستهم السادسة على العمل. وكل هذه وسائل قديمة العهد ظهرت بظهور التاريخ لو لعلها ظهرت قبله، واية ذلك ان قماء المصريين كانوا يستخدمونها جميعاً، ونشأ عن ذلك طائفة "البصاريين"، اي الذين ينعمون النظر في شيء ما، وقد كانت الحجارة المقدسة في دروع كهنة اليهود تستعمل لهذا الغرض نفسه، فكان الكاهن ينطق بالامور العجيبة بعد ان ينظر في تلك الحجارة ملياً<sup>(9)</sup>.

#### اعتراض وحيه:

قد يعترض معترض فيقول، انا صبح لدينا وجود افراد لهم مقبرة على اكتشاف الغيبات عن طريق حاستهم السادسة، فلماذا لا يستطيعون ان يكتشفوا بها الكونز للتمينة الخفية تحت الأرض مثلاً فيهلوا بها الذروة العريضة؟

إن هذا اعترض وجيه حقاً، وقد خطر مثل هذا الاعتراض ببال أحد الأعداء في بريطانيا حين سمع عن الأعمال الحارقة التي يقوم بها بعض الأفراد هنالك. وزاد الرجل أن يتحدى أولئك الأفراد تحدياً عملياً صارخاً، فأعلن في الصحف أنه وضع ورقة نقدية قيمتها ألف جنيه داخل مطروف، ووعد أنه سوف يعونها مكافأة لكل من يستطيع أن يثبنا عن رقم تلك الورقة بحلسته السليسة. وظل الرجل يعلن عن المكافأة مدة طويلة دون أن يأتيه أحد للفوز بها. وكانت النتيجة أن فشلت التجربة. وقد اتخذ الكتاب في بريطانيا هذا القشل دليلاً على كذب ما يقال عن وجود حلسة سائسة في الإنسان.

يلق الأستاذ سينتل على هذه التجربة فيقول، إن الأمر بالحصول على ورقة قيمتها ألف جنيه يبعث في صاحب الحاسة السائسة فحرص والثفكير المتقصد، وعن شأن هذا التفكير أنه يعرف تصفية الخ وبمنح صنحه من توجيه ذهنه نحو اكتشاف رقم الورقة. معنى هذا: إن الإنسان ما نام يريد شيئاً ويفكر في الحصول عليه فإنه لا يستطيع أن يستخدم حلسته لسائسة استخداماً مجدياً. إن الحاسة السائسة موهبة تلقائية تنبعث من اللاشعور، وكلما شغل العقل الواعي بامر كان ذك حاجزاً يمنع اللاشعور من العمل. وربما صح القول بأن الإرادة القاصدة والهام اللاشعور شينان متعاكسان حيث يقوى أحدهما بمفقد ما يضعف الآخر<sup>(10)</sup>.

إن هذا على أي حال لمر نلاحظه في جميع ما يتصل باللاشعور من مواهب تلقائية، لا فرق في ذلك بين الحاسة لسائسة أو غيرها. ففت حين تريد أن تقابل رجلاً كبيراً من رجال الدولة مثلاً، فكلما كان حرصك شديداً على التأثير عليه بصديئك شعرت بالعبز ورجعت بالخيفة. إن حرصك هذا يحجب عنك ما ينبعث فيك من حركات ولقوال تلقائية ملانعة. أما إذا قابلت الرجل الكبير على رسلك وطوع يديتهك، من غير تكلف وتقصد، فإذك تكون أقدر على الإفصاح له والتأثير فيه غلباً.

ومثل هذا يمكن أن نقول في شأن الخطيب الذي يلقي كلمة ارتجالية، أو القائد الذي يجابه موقفاً عسكرياً مفاجئاً، أو الجراح الذي يقوم بعملية جراحية دقيقة، فكل هؤلاء وغيرهم إنما ينجحون في مواجهة ساعة الحرج بمفكر ما يسترسلون فيها على بديتهم وينفذون فيما يلهمهم به اللاشعور من غير حرص أو تكلف.

ومن هنا نعرف سبب العشل الذي يصاب به المتحذلقون المتكفرون في كثير من الأحيان، فهم يهتمون ومضت عقلهم للباطن ويهتمكون في أمور مصطنعة يتعمدونها نفعاً إذ هم بحسبونها مفتاح للنجاح بينما هي في الحقيقة مفتاح الخيبة.

### الحظ والجلسة السادسة:

يعتقد الكثيرون من أبناء هذا الجيل أن للحظ حيث خرافة وأن نجاح الإنسان في الحياة يكون بمقدر ما يبيده الإنسان فيها من جد ومثابرة وتفكير مركز. قوامع بن هذا رأي صحيح في حدوده المولسعة، وليس لنا اعتراض عليه من الناحية المنبئية، إلا أن هناك موهبة لاشعورية قد تظهر في بعض أناس فتكون عاملاً مساعداً في نجاحهم بالإضافة إلى ما لديهم من عوامل للنجاح الأخرى. وهذه الموهبة قد نطلق عليها اسم الحظ أو نطلق عليها اسماً آخر. ولا عبيرة بالأسماء في هذا الصدد.

وقد فطن أهل السوق عندما إلى هذه الحقيقة بطريقة ساذجة. فهم يعرفون من تجاربهم العديدة أن السعي والتفكير لا يكفیان وحدهما لنهل النجاح في التجارة. فكثيراً ما يكبح تاجر في عمله ويجهد تفكيره فيه. فلا ينال منه ما يكفي معاشاً متولفساً، بينما يأتي تاجر آخر فينال الأرباح ثلث الأرباح دون أن يكون لديه أي حرص على الجهد والتفكير. إن هذا هو الذي جعل أهل السوق عندما يقولون في أمثالهم الفارسية، "الذي يدخل السوق يجب أن يضع عقله على لرف".

التعليل الذي أمهل إلى الأخذ به في هذا الشأن هو أن للجلسة السادسة لثراً غير قليل في النجاح التجاري وفي غيره.

حين نقتصم سلوك التاجر الناجح في السوق نجد أنه دائماً يستقبل عملاءه دون أن تبدو عليه أية علامة من علامات الحرص أو التوتر الفكري. وقد يأتيه الدلال يعرض عليه صفقة تجارية كبيرة فيجيبه التاجر بكلمة "لا" أو "نعم" من غير مبالاة وكأنه يريد أن يشرب كأساً من الماء.

لعلمي لا اخطيء إلا قلت أن هذا للتاجر كان يستلهم حاسته السادسة أثناء عمله، وربما كان يستشف بها حالة العرض والطلب وما سوف يتشا عنها من

ارتفاع في الأسعار أو انخفاض، ويصح القول أنه كلما كان أكثر هدوءاً أثناء العمل ازدهرت قدرته على استثمار حاسته السادسة.

أما التاجر الفشل فهو مشغول بعمومه الواعية يريد بها الربح ويحرص عليه. وهذا الحرص يصبح في ذهنه بمنابة العقدة تحجز عنه ومضات لحاسة السادسة. وعند هذا يصدق عليه التل القائل 'مركس والعشة خبار'.

ليس هنا شأن الفشل والفشل في حقل تجارة وحدها، إنما هو شأنهما في مختلف حقول الحياة، ويستطيع أن نشهد أمثلة واقعية له حتى عند الشحاذ أو العمال أو راقع الأحذية. فالواحد من هؤلاء قد يجد نفسه دون زعلانه في الرزق مع العلم أنه لا يفتص عنهم في ظاهر الأمر شيئاً، فيأخذ بالتساؤل عن السر في شحة رزقه، وقد يحلو له في ساعة لئس أن يعزوه إلى القدر - وللقدر منه براءة!

### حاسة سابعة؟

بعد هذا الذي ذكرناه عن وجود حاسة سابعة في الإنسان ومبلغ أثرها في حياته، نود أن ننقل نظر القارئ إلى رأي أخذ الباحثون بشبهون إليه مؤخراً هو احتمال وجود حاسة سابعة في الإنسان. والباحثون لا يميلون إلى تسمية هذه الحاسة الجديدة بالحاسة السابعة، كما نريد أن نسميها تجاوزاً إنما هم يطلقون عليها اسماً خاصاً هو (psychometry). ومن يربطها لعلها جزء من الحاسة السادسة أو وجه خاص من وجوهها المتنوعة.

إنها على أي حال حاسة عجيبة للغاية، وقد يصعب على القارئ التصديق بها عند سماعه بها لأول مرة، ولكي يعرف القارئ بعض خصائصها أنقل في ما يلي خلاصة قصة ولقعية عنها، وهذه القصة طويلة لها تفاصيل متشعبة، وهي الآن محفوظة بجميع تفاصيلها في سجلات الجمعية الطبية في المكسيك وفي سجلات جميعتي الباحث النفسية في بريطانيا والولايات المتحدة.

### خلاصة القصة:

في عام 1921 لتحتك سيدة مكسيكية اسمها السنيرة ماريا ريس من أرق أصابها، وهي من عائلة محترمة في المكسيك وأبوها حاكم إحدى المقاطعات هناك. وكان في عاصمة المكسيك يومذاك طبيب ثلاني مشهور يدعى الدكتور باجنستيخر.

فذهبت السيدة إليه، لجأ الطبيب، في علاجها إلى الثنوروم المغناطيسي. ثم وجد أنها نشاء التويم تملك مقدرة نفسية خارقة، فهو لا يكاد يضع بين يديها شيئاً حتى يجدها قد بدأت تذكر تفاصيل دقيقة عن تاريخ تلك الشيء وعن مصدره وعن صفة صاحبه. وقد لار هذا الخبر دهشة كبيرة بين الباحثين، وجاء الدكتور والتر فرانكلن برنس، رئيس جمعية الباحث النفسية الأمريكية، إلى السيدة لكي يدرس عن كتب مقدراتها العميقة.

من التجارب التي أجريت عليها أن جيء بقطعة من المرمر انتزعت من احد المسارح الرومانية القديمة التي لا تزال باقياها قائمة في روما. فاخذت السيدة ماريا نصف السرح كأنها تنظر إليه من ناحية معينة. مع العلم أنها لم تكن تعرف من قبل شيئاً عن قطعة المرمر تلك.

وجيء إليها، في تجربة أخرى، بحجر بركاني انتزع من قعر إحدى البحيرات. فشرعت السيدة ماريا تصف الأسماك التي نمر فوق الحجر لثناء وجوده في قعر البحيرة.

وحدثت تجربة الكبرى روم وصلت إلى الدكتور بنجنستيخر رسالة من صديق له في اليابان، والرسالة تحتوي على ورقة مختومة قيل عنها لها وجدت في قنينة طافية في مياه المحيط، وتناولت السيدة تلك الورقة واخذت تقص ما جرى عليها من الحوادث وإذا الفيت في المحيط بدأخل قنينة. فقلت السيدة أن الورقة كتبها رجل كان في سفينة تعبر المحيط ثم أوشكت على الغرق. وعلامة الرجل الفارقة أن له فوق حليبه الأيسر نبتة جرح قديم، وهو عندما احس بالخطر وراى ركب السفينة فرعين يتصلبان وقد تمنطقوا بأحزمة النجاة، لتتزع ورقة صغيرة من مفكرته فكتب عليها رسالة إلى زوجته جاء فيها، "السفينة تغرق، وداعاً يا عزيزي لويزا، احرصي على أن لا ينسائي أولادى... اسأل الله أن يرعاني ويرعك. وداعاً. زوجك رامون". ووضع لرجل الورقة في قنينة ثم سدها ورمها في الماء.

تبين بعد البحث أن الرجل من أهل هافانا في كوبا، وأنه ركب الباخرة لوزيتانيا عام 1916، وهي الباخرة التي أغرقها الأتلكل أثناء الحرب العالمية الأولى. واستطاع الباحثون أخيراً أن يعثروا على عائلة لرجل في هافانا. وجاءت زوجته فقرات الورقة

وأيدت أن الخط خط زوجها وأنه قد غرق فعلاً مع الباخرة لويزيانا وأن له علامة خارقة هي ندبة جرح قديم فوق حاجبه الأيسر.

### دراسة جامعية،

اتضح لدى الباحثين أن السيدة ماريا ليست الوحيدة في امتلاكها لتلك القدرة العجيبة. فهناك أشخاص آخرون يشابهونها في ذلك قليلاً أو كثيراً. وقد حاولت جامعة لندن أن تدرس حالة هؤلاء الأشخاص دراسة موضوعية. وتقدم إلى الجامعة عام 1940 باحث اسمه هنتجر حيث كتب في هذا الموضوع رسالة احتوت على كثير من الأسرار<sup>(11)</sup>.

حاول هنتجر في هذه الرسالة أن يجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات المتوفرة في هذا الشأن، ووضحها بجداول احصائية وخطوط بيانية متنوعة. ثم خرج هنتجر من البحث قائلاً بأن تلك للقدرة الخارقة حقيقة موجودة ولكنها لا يستطيع لها تعليلاً.

### رأي أسبورون:

يحدثنا أسبورون عن وسيط كان يملك مثل تلك القدرة. وكان أسبورون يجري عليه التجارب بنفسه. حدث له مرة أنه كان في استراليا ثم وصله خطاب من صديقة له في بريطانيا. وتناول الوسيط الخطاب وهو في داخل للطرف دون أن يفتحه لو يقرأ ما كتب على ظهره. وقال إن كاتب الخطاب امرأة ذات شعر لبيض تغلب عليها البياض والرقرة. ثم أخذ الوسيط يذكر ملامح كاتب الراءة تفعل أثناء كتابة الخطاب، ومن كان واقفاً بالقرب منها وما هي صفاته النفسية وللخلفية.

يميل أسبورون إلى الظن بأن مقدرة الوسيط هذه تشبه أن تكون من قبيل تنقل الأفكار بين مخن. ففي رأي أسبورون أن الوسيط لم يستخلص للمعلومات من الخطاب، إنما هو استخلصها من ذهن أسبورون نفسه<sup>(12)</sup>. وهذا أمر ميسور لكثير من الوسطاء حين يقومون تحت تأثير التنويم الوجه، كما هو معروف.

ويميل الأستاذ تيرل إلى تأكيد هذا التعليل. فهو عند ذكره قصة السنبورة ماريا قال بأن السنبورة ربما كانت تستخلص المعلومات من ذهن الذوم الواقف بفرجها، وليس من الشيء الذي يوضع في يدها أثناء التنويم. ومما يذكره تيرل في هذا الصدد

ان السنبورة ماريا كانت تتجاوب نفسياً مع النوم فأي وخز لو احسلس يشعر به النوم كان يصل إليها بطريقة ما فتعص به<sup>(13)</sup>.

### تعلييل آخر:

من الذين حاولوا تعليل هذه المقدرة النفسية العجيبة كاتب انكليزي لسمه هوبرت ستانسيري. وهو ضابط بحري متقاعد اشتغل في الدراسات اللاسلكية والكهربائية فيما يخص حركات السفن الحربية. وقد ألف كتاباً لسماه " في البحث عن الحقيقة "، وهو كتاب لا بأس به من حيث قيمته العلمية.

يقول هنا الكاتب، ان الجمادات قد تستطيع في ظروف معينة ان تتلقى بعض التأثيرات الكهربائية من افكار الشخص الذي يتناولها او يذوق منها، وهي قد تستطيع كذلك ان تنقل هذه التأثيرات إلى مخ شخص آخر. فلجماعات بهذا الاعتبار تسمى كالمطرية الخازنة. تلحظ الكهرباء تارة وتفرغه تارة أخرى<sup>(14)</sup>.

ويميل سيندل إلى تلييد هذا الرأي الذي جاء به ستانسيري. وقد وجد سيندل في بعض التجارب التي اجراها في هذا الضمار، ان الفتاة التي كان يجري عليها التجربة قد شعز احياناً ان تكتشف ما يرسم في ورقته إلا بعد ان تقول له " اسمح لي ان امسك بيدي قلم الرصاص الذي استخدمته " . فلذا أمسكت بالقلم انجلى في مخيلتها للرسم بشكل واضح. فما معنى هذا؟ الا يعني ان القلم قد خزن شيئاً مما خطر في مخ سيندل. ثم نقله إلى مخ الفتاة بعد ان أمسكت به<sup>(15)</sup>.

يبين ان هذا التعليل وجيه من بعض الوجوه. ولعل الأبحاث الفيزيائية الحديثة تؤيد هذا للتعليل قليلاً لو كثيراً. فنحن لو جننا بلسطوانة صغيرة من مادة الفوسفور مثلاً، ووضعناها بالقرب من مصباح شديد الضوء مدة من الزمن، فلننا نجدها تخزن شيئاً من الضوء الملقي عليها. وانا وضعناها في الظلام بعد نك ريلناها تشع للضوء الذي خزنته. الا يجوز ان تكون كل مادة في الكون هي كالفوسفور تخزن الأمواج الكهربائية الواردة إليها ثم تطلقها بعدئذ بشكل غير منظور.

نحن نعرف ان الأمواج الكهربائية عديدة ومتنوعة، وليست امواج الضوء سوى جزء يسير منها، كما اشرونا إلى ذلك من قبل. فما الذي يمنع إن من ان

تخزن بعض المواد أمواجاً غير منظورة على منوال ما تخزن مادة الفوسفور أمواج للضوء، وما الذي يمنع كذلك ان يدرك بعض الأفراد من قولي الجلسة الخارقة تلك الأمواج الخفية كما تدرك نحن أمواج الضوء بحيث إذا تتلور لديهم قطعة من المادة تأثرت مخيفته بما يصدر عنها من أمواج وصار يرى ما حدث على القطعة من حوادث او لطيع فيها من افكار.

### من أماني العلماء:

من الأماني التي تراود اذهان بعض العلماء أحياناً ان سيأتي يوم على العلم يكون فيه قادراً على اختراع جهاز يمكن به رؤية حوادث التاريخ وسماع أصواتها، إن هذه أمنية يعهد التحقيق طبعاً وربما كانت مستحيلة، إنما هي مما يمكن احتمالها وللتكثير فيه على أي حال في ضوء الدراسات العلمية الحديثة. فمن المحتمل مثلاً ان تكون جميع الأمواج والذبذبات التي انبعثت من حوادث التاريخ موجودة بيننا الآن، إذ هي لا تزال تتصادم في أركان الفضاء المحيط بنا، وربما اختزن بعضها في الأثار القديمة التي شهدت تلك الحوادث.

لا شك ان الأمواج تضعف بمرور الزمن، ولكنها لا يمكن ان تفتن تماماً. وإذا كنت اجهزتنا العلمية في حالتها الراهنة لا تستطيع ان تكتشف الأمواج الضعيفة جداً، فإننا لا يجوز ان نفقد الأمل بمقدرة العلم على اختراع أجهزة أدق منها بحيث نستطيع ان نكتشف بها أمواج الأزمنة الماضية.

لتوضيح ذلك دعنا نتأمل في الضوء الذي يأتينا من النجوم البعيدة. فهذا الضوء قد وصل إلينا بعد ان سار في لفضائه ملايين عديدة من السنين، إن من المحتمل ان تكون إحدى النجوم قد انفجرت واختفت من لوجود قبل بضعة ملايين من السنين، ولكنها حين ننظر إليها الآن نراها لا تزال باقية في مكانها، لسبب في هذا ان ضوء انفجارها لم يصل إلينا بعد، ولعلنا نحتاج إلى ملايين أخرى من السنين حتى نكتشف ما حدث لها من انفجار. ونحن سنظل نشاء هذه الملايين المقيمة ننظر إليها ونحسب انها موجودة في مهبنا.

معنى هذا ان النجمة قد صارت حدثاً من أحداث الماضي السحيق في القدم ولكنها

ننظر إليها ونظن أنها من أحداث الوقت الحاضر، وسعارة أخرى، إننا حين نتأمل إلى  
قنجوم في ليلة صاحية إنما نبصر بعيوننا تاريخ السماء!

لنا كان الأمر كذلك، فهل من المستحيل أن يبتدع العلماء يوماً ما جهازاً  
نستطيع أن نبصر به تاريخ الأرض، ونرى الأحداث الفلزية التي حدثت فيها؟

إنني أشتقي أن أعيش إلى ذلك اليوم الذي أستطيع أن أشتري فيه من السوق  
مثل هذا الجهاز، فإذهب به إلى المستوصية مثلاً لأشهد هناك الغزالي وهو يلقي  
على تلاميذه محاضرة فلسفية، أو أذهب به إلى طاق كسرى لأشهد أتوشروان  
جالساً على عرشه وهو محاطاً بالجلالين والجلالوزة.

### في قصور فرساي

لا أحب أن أنتهي من هذا الفصل قبل أن أنقل قصة عجيبة حدثت للأنتستن  
موبيلي وجوردين، وهما من أساتذة جامعة أكسفورد سابقاً، وخلاصة القصة أن  
هاتين الأنتستن زارتا باريس عام 1901 فخرجتا على فرساي، وبينما كانتا تتجولان  
بين قصور فرساي التاريخية شعرتا بالكتابة وانقباض الصدر، ثم اتراعا لهما بعد  
قليل كأنهما فيصيران ماري لتطولت زوجه لويس السادس عشر بملابسها  
التقليدية وهي جالسة على شرفة أحد القصور. ثم بدأت بعض المناظر التاريخية  
تظهر لهما وكنهما تعيشان فيها... لم يحدث هنا للأنتستن مرة واحدة فقط بل  
حدث لهما عدة مرات.

وقد قامت الأنسة جوردين وحدها بعد ذلك بزيارة فرساي مرتين، فمرت  
بتجارب مماثلة، حيث رأت شخصاً من القرن الثامن عشر وتكلمت معهم. وقلت  
الأنسة في زيارتها الأخيرة أن المنظر بدا لها كأنه قد مرته مرة مقابنة قصيرة الأمد  
فارتج كما ترتج استارة على المسرح.

وفي سنة 1914 حضر لمقابلة الأنتستن ثلاثة رجال، وقد كان هؤلاء قبل ست  
سنوات يسكنون قرب فرساي ويشرفون على تنسيق حدائقها، فقالوا أنهم رأوا مثل  
ما رأت الأنتستن واعتادوا على ذلك ولكن تلك الرؤى آثرت في أعصابهم وأرهقتها  
فخلعوا المكان لأنهم أرادوا أن يعيشوا في القرن العشرين وليس في القرن الثامن  
عشر (16).

امرض هذه القصة على القارئ، وأنا اشعر بالحيرة منها. إنها قد تكون نتيجة وهم سيطر على الأنستين المحترمتين عند تجولهما بين قصور فرسلي، ولكنها قد تكون غير ذلك. إن من المحتمل أن تكون لدى الأنستين حاسة خارقة تستطيع أن تحتفظ أمواج التاريخ من تلك القصور. ولكني اسأل هنا، لماذا ظهرت تلك المقبرة في الأنستين عند تجولهما بين قصور فرسلي ولم تظهر فيهما في مكان آخر؟

اعود فاقول ما كتبت قد قلته سابقاً هو أننا لا يجوز أن نحكم في هذه الأمور حكماً قاطعاً. ومن يدري ما سوف يلقي به العلم من رأي فيها في مستقبل الأيام.

## هوامش الملحق الثالث:

- (1) انظر: سينل، الخامة السادسة، ص 21 .
- (2) انظر: عبد السلام فهمي، البساط السحري، ص 8 - 9 .
- (3) انظر: Life Magazine, July 22, 1957 .
- (4) انظر: سينل، الخامة السادسة، ص 31 .
- (5) الرجاء من المرأة أن لا تغضب من قلوبنا هذا، فحين نأمل أن تخرج المرأة إلى ميدان الحياة ونساجم في بناء الحضارة مثل مساهمة الرجل فيه. وعند هذا سوف لا يلقى أي فرق بينها وبين الرجل في طريقة التفكير أو في مستواه. قل: إن شاء الله.
- (6) انظر: Sullivan, Outline of Modern Belief, Vol. II, p. 908 .
- (7) انظر: المقطع، رسائل الأزواج، ص 22 - 23 .
- (8) انظر: مجلة آخر ساعة، بعددها الصادر في 21 / 11 / 1951 .
- (9) انظر: سينل، الخامة السادسة، ص 57 - 58 .
- (10) انظر: علي الوردي، خوارق اللاشعور، ج 1 ص 201 .
- (11) انظر: Heltinger, The Ultra Perceptive Faculty .
- (12) انظر: Obsom, The Superphysical .
- (13) انظر: Thsall, Personality of Man, p. 187 .
- (14) انظر: Trostbury, In Quest of Truth, p. 187 .
- (15) انظر: سينل، الخامة السادسة، ص 113 .
- (16) انظر: Juad, Guide to Modern Thought, p. 175 - 177 .

## الملحق الرابع

### ما هو اللاشعور

قد يلاحظ القارئ أني أكثر في هذا الكتاب من التحدث عن اللاشعور أو العقل الباطن<sup>(1)</sup>. وكذلك فعلت في مختلف كتبي السابقة، حيث اعتبرت اللاشعور من أهم العوامل في تكوين الشخصية البشرية. وهذا أمر لم يرتج له كثير من الكتب والنقاد في العراق، وقد اتهمني بعضهم بلغوا فيه تارة ويبتخرون تارة أخرى. ولهذا وجدت من المناسب هنا أن أبحث في ماهية اللاشعور كما أراه.

#### هل هو موضوع ميتافيزيقي؟

يجلو لبعض النقاد في العراق أن يصفوا اللاشعور بأنه موضوع ميتافيزيقي. وقد جابهوني بهذا الوصف غير مرة. وليس لي ما أقول في هؤلاء النقاد إلا أنهم يتصدون للنقد أحياناً بون أن يكون لهم اطلاع كاف في الموضوع الذي ينقدونه. وكثيراً ما تجنهم يطلقون بعض العبارات من هنا وهناك ثم يتخذونها في أيديهم كالسيوف القاطعة يصلون بها متى شاؤوا، والويل لمن يقف في طريقهم إن هو يصح عند ذلك رجحاً أو وكهلاً للاستعمار. والعياد بلغة!

وهيون الأمر لو أنهم فهموا تلك العبارات التي يصلون بها فهماً حقيقياً. لكنهم مع الأسف يكتبون منها بحفظ نصها الظاهر، وبهذا يضيع عليهم مغزاهما الأصلي.

اشرت في الفصل السادس من هذا الكتاب الى ان فرويد كان نول من لغث الأنظار الى موضوع اللاشعور. وكان هذا العمل من فرويد نافعاً كل النفع في حينه إذ قد اظهر فيه خطأ العقنيين القدماء الذين كانوا يتقون بالتفكير الواعي ثقة عمياء ويجعلونه الأساس الوحيد الذي يقوم عليه السلوك البشري. ايلان فرويد ان الانسان لا يسير في سلوكه دائماً بناءً على ما يعليه عليه التفكير أو الإرادة. فهناك في اعماق النفس حوافز خفية تدفع الانسان نحو عمل ما من غير ان يعرف الانسان مآتها من نفسه.

لا نستطيع ان ننكر فضل فرويد في هنا الاكتشاف الذي فضح به خفايا النفس البشرية، ولكننا لا نستطيع كذلك ان ننكر لتطرف الذي تورط به فرويد في هنا الصدد. كان فرويد ككل ذي نظرية في هذه الدنيا يصيب من ناحية لخطيء من الناحية الأخرى. انه نظر الى الحقيقة من زاوية معينة فتعصب لها وافرط في التركيز عليها، وبذلك اهمل ما في الحقيقة من زوليا أخرى متعددة.

#### ميثافيزيقية فرويد:

حين ندرس نظرية فرويد في اللاشعور نلاحظ فيها شيئاً من النزعة الميتافيزيقية قليلاً أو كثيراً. انه عدّ اللاشعور بعنابة قوة غيبية تخلق مع الانسان منذ بداية تكوينه دون ان يكون لها سبب موضوعي في ولقع للحياة الذي ينشا الانسان فيه.

ونحن إذ نعترف بوجود النزعة الميتافيزيقية في نظرية فرويد لا يجوز ان نتطرف في تلك الى درجة نرفض بها النظرية كلها بجميع ما فيها. الواقع أننا لو جردنا نظرية فرويد من قشرتها الميتافيزيقية لبقى لدينا نواة صالحة نستطيع ان ننتفع بها في دراسة الشخصية البشرية نفعاً لا يستهان به.

لو فحص كل واحد منا نفسه وتامل في تصرفاته المتنوعة لما استطاع ان ينكر وجود حافظ غير ارادي في نفسه يدفعه الى بعض الأفعال والأقوال من حيث لا يشعر. وهنا الحافظ قد لا يكون مطبقاً لغاهم فرويد، إنما هو موجود بمعناه القطري في كل إنسان. ونحن قد نطلق عليه اسم "للشعور" لو نطلق عليه اسماً

الخر، والتسمية لا أهمية لها في هذا الشأن. الذي يهمنا هو أن ندرک ان وراء عقلنا المفکر عقلاً ثانياً يدفعنا إلى اتخاذ سلوك معين نحو الناس والأشياء نون ان تكون لنا إرادة واعية فيه.

معنى هذا أننا نوافق فرويد على قوله بوجود الحوافز اللاشعورية في الإنسان، لكننا نختلف معه في تعليل تلك الحوافز. فنحن نحللها بما يقع للإنسان في حياته من أحداث وتجارب واقعية، بينما هو يعللها بمفهوم الغريزة أو غيره من المفاهيم التي اعتمد عليها المفكرون في القرن التاسع عشر.

### مخزن المخ

تقع للإنسان في كل يوم من حيلته أحدث شتى يكاد لا يحصياها عناً. وهو يتخذ بها لو يتالم، وينتفع لو يتضرر. ويمر الزمن عليها بعد ذلك فتذهب في طي النسيان ويحسب صاحبها أنها زالت من ذهنه إلى غير رجعة. وكذلك يحفظ الإنسان معلومات جمّة فينسى أكثرها ويظن أنها أصبحت غير مفيدة له إذ هي في زعمه اختفت من ذهنه اختفاً ابدياً.

الواقع أن جميع الأحداث التي تقع للإنسان تؤثر في ذهنه على صورة من الصور، ويبقى تأثيرها كامناً في أعماق الذهن مهما طرأ الإنسان له نسيها، وليس التسيلن إلا اختفاء لفكرة من العقل الواعي، إذ هي تذهب عند ذلك إلى العقل الباطن، وتظل كلمة هناك تنتظر الفرصة الملائمة للظهور. وهي كثيراً ما تظهر في الأوقات التي يتخدر فيها العقل الواعي أو ينام - كما رأينا سابقاً.

لقد اظهرت أبحاث الدكتور بلومنتفيلد، كما ذكرنا في الفصل السادس عشر، كيف ان المخ البشري يشبه العقول الالكترونية التي اخترعها العلماء مؤخراً. فهو يخترن في أعماقه كل خبرة تطرا عليه. وهنا يجب أن لا ننسى أن العقل الالكتروني يختلف عن المخ البشري بكونه يخترن المعلومات لنافعة التي يسجلها العلماء فيه عن قصد وتصميم. أما المخ البشري فهو يخترن جميع الأحداث التي تمر بالإنسان، سواء الضرارة منها والنافعة. ومن هنا وجدنا للاشعور يسف ببعض الناس فيجعلهم مجتئين أو رقعاء، ويسمو بأخريين فيجعلهم عياقرة أو لولي مواهب

قارقة. وهذا هو مصداق ما قال الأستاذ مايرز حين وصف النشاط اللاشعوري في الإنسان بأنه يحتوي على منجم من الذهب وكومة من الأقدار<sup>(2)</sup>.

ليس من مصلحة الإنسان أن ينكر أثر اللاشعور في حياته، إذ هو يهمل بذلك جانباً هاماً من تركيب شخصيته. وهذا الأهمال قد يؤدي به إلى استفحال بعض الانبعاثات النفسية فيه من جهة، وإلى ضعف استثمار مواهبه اللاشعورية من الجهة الأخرى.

### الروحيون واللاشعور:

العرب له في الوقت الذي نجد فيه بعض مناس يصفون اللاشعور بأنه موضوع ميتافيزيقي، نجد فيه اناساً آخرين يصفونه على العكس من ذلك حيث يعدونه مفهوماً "مادياً" يؤدي إلى الإلحاد.

من طريف ما ينكر في هذا الصدد أن قرأت في إحدى المجلات الدينية الصادرة في العراق مقالاً يعني فيه كاتبه على المسلمين لتشار لأفكار اللادينية بينهم، وهو يطالب وزارة المعارف بتطهير أجهزة التعليم منها. ومن جملة ما طالب به هنا الكاتب المخوار هو تطهير المدارس من نظريات، ناروين وغرويد وغيرها من النظريات المخالفة للقرآن والدين الإسلامي<sup>(3)</sup>.

وظهر في مصر كاتب آخر، وهو هذا المنحى، لسمه أحمد أبو الخير. وقد انثال هذا الكلب باللوم والنقد العنيف على علماء النفس الذين يقولون بوجود اللاشعور في الإنسان. إنه يريد أن يلغي مفهوم اللاشعور ليضع مكانه مفهوم الروح، وهو يعتقد أن التفسير الروحي للظواهر النفسية أقرب إلى النهج العلمي من غيره<sup>(4)</sup>.

الظاهر أن هناك كتيرين من امثال أبي الخير في الشرق والغرب. وقد أخذ عنهم يزيد في الأونة الأخيرة لسبب لا يخفى على القارئ اللبيب. ونست هنا بصد مناقشتهم على رأيهم، إنما أود أن الفت نظر للقارئ إلى أنهم على الرغم من تظاهرهم باتباع النهج العلمي فيما يكتبون ليسوا سوى اناس "عقلانيين" يسرون أفكارهم في ضوء ما تعلم عليهم العقيدة الموروثة، ثم يريدون من العلم أن يتبعهم فيها رغم نفاقه.

## رأي مكدوجل:

وليم مكدوجل من علماء النفس المعروفين. وقد صار له في عام 1908 اسم مدري عندما حاول ان يضع علم النفس في خدمة العلوم الاجتماعية، وكانت له في ذلك مدرسة خاصة به. وليس من قصدا هنا ان نبحث في مدرسة مكدوجل النفسية، إنما نريد ان نقول بان مكدوجل كان من خصوم "اللاشعور" وقد هاجمه مهاجمة عنيفة، وتكرر وجوده على النمط الذي جاء به فرويد واتباعه. وقد اتخذ بعض اليسطاء لراه مكدوجل حجة يفيدهم حيث حاولوا بها تبيان خطأ نظرية "اللاشعور" من أساسها. ومن المؤسف ان نجد بعض الأساتذة في العراق يجرون وراء أولئك "لبسطاء" في هذا السبيل.

يصح القول ان مكدوجل لم يتسلف مفهوم اللاشعور من تسلسله، إنما هو قد اظهر خطأ المفهوم "الفرويدية" له. انه بعبارة اخرى قد اعترف بما في اعماق النفس من حوافز خفية تدفع الانسان الى السلوك من حيث لا يشعر بها. نستصح اليه يقول،

"إنني لقبيل بلا تحفظ الرئي الذي يقول بأن كثيراً من تفاعليات الذهنية تحدث خارج نطاق جهد الوعي منا. ولست امانع من تسمية تلك التفاعليات باللاشعور ولين كنت افضل تسميتها بما تحت الشعور... وهذه التفاعليات لها اهمية كبرى...".<sup>(١١)</sup>

## ناكرة طريفة:

ارجو ان يسمع لي تفاركة ان اقطع عنه سلسلة هذا الحديث لأقص له نادرة وقعت لي في النخلة التي اكتب فيها هذه السطور. فقد كان امامي وانا مشغول بالكتابة، فنجان قهوة ودواة حبر. وقد بدأت افتح النواة لكي املا منها للقلم، ولكني بدلاً من ان اضع القلم فيها رفعتها الى فمي كأنني اريد ان اشرب منها... ولم افطن الى خطاي إلا بعد ان كاد الحبر ينسكب على فمي وشيبي.

إن هذه القصة قد تعطي للتفاركة مثلاً بسيطاً يتبع به كيف يحمل اللاشعور في الانسان. فلما عندما رفعت النواة الى فمي كنت مدفوعاً بنافخ شرب القهوة الموضوع امامي. معنى منا ان نية شرب القهوة خطرت ببالي اول الامر ثم نسيتها

بعد أن شعرت بجفاف قلبي الذي أكتب به، ولكن تلك النية بقيت كامنة في عقلي الباطن وهي التي دفعتني إلى محاولة شرب الحبر بدلاً من شرب القهوة.

لا حاجة إلى القول بأن هذا العمل الذي فمت به قد يقوم به أكثر الناس في مختلف شؤون الحياة، وقد لا يقتصر الأمر عندهم على مثل هذا العمل البسيط، بل يكون أحياناً ذا شأن خطير له عواقبه المصودة لو غير المحمودة، فكثيراً ما يتدفع الإنسان في عمل وهو يريد غيره لا سيما في الحالات التي يتصادم فيها دافع الشمو واللاشعور، وهو قد يقسم عندئذ بالله على أنه غير متعمد لما فعل، فلا يصدق الناس!

وقد يسهو الإنسان أحياناً فيعجز عن رؤية شيء قريب منه لأن عقله الباطن متجه إلى غيره، وهو يظل يبحث عن ذلك الشيء دون جدوى. يحكي ابن إمراة كانت تحمل طفلها على ذراعها وتبحث عنه، فهي تسأل عنه الناس، أين ذهب؟ والناس لا يبرون أنها تسأل عن الطفل الذي تحمله. سبب ذلك أنها كانت تخاف على ابنتها من الضياع. وقد كمنت فكرة للخوف هذه في عقلها الباطن، مما جعلها تتخيل ضياعه على الرغم من وجوده بين سمعها وبصرها.

### تجربة بافلوف:

نعود الآن إلى دراسة اللاشعور من حيث طبيعته الموضوعية، ولعل من الجدي هذا أن أتحدث عن التجربة المشهورة التي قام بها الأستاذ بافلوف على الكلب. ففي ربي أن هذه التجربة ذات مساس كبير بموضوع اللاشعور في الإنسان.

خلاصة التجربة أن بافلوف جاء بكلب فنقب فكه الأسفل ثم وصل النقب بأنوبة تسمح للعباب أن يتسرب فيها إلى وعاء خاص معد للقياس. وكان بافلوف يحضر للكلب مرة بعد مرة طعماً لذيذاً في عن الوقت الذي يهق فيه جرساً، والقصد من ذلك أن يكون تناول الطعام مصحوباً برنج الجرس في كل مرة.

وعمد بافلوف أخيراً إلى الاكتفاء بهق الجرس من غير تقديم للطعام. فوجد بان لعباب الكلب أخذ يسيل مع صوت الجرس. عند هذا استنتج بافلوف القاعدة العلمية المعروفة وهي أن من الممكن لأي مؤثر ثانوي أن يصير مؤثراً لونياً متى

صحب مؤثراً اولياً عدداً كبيراً من المرات، وقد اطلق بقلوب على هذه القاعدة اسم  
"الاستجابة المشروطة"<sup>16</sup>.

### الانسان والاستجابة المشروطة:

لتضح أخيراً ان الاستجابة المشروطة تصدق على الانسان كما تصدق على  
الكلب، واصبح في الامكان تفسير كثير من المظاهر النفسية بها.

لتفرض على سبيل المثال ان شياً من اهل الهيام والغرام اتيح له ان يجتمع  
بحبيبتة في بستان بضعة ايام، فكانت تلك الايام اسعد فترة في حياته، وتفق ان  
كل في البستان تاعور يتبعث منه صوت خاص طيبة تلك الفترة، فمانا تكون  
النتيجة؟ ان الشاب قد ينسى بمرور الزمن تلك الفترة السعيدة التي مرت به،  
ولكنه مع ذلك يبقى مولعاً بصوت التاعور وبالي صوت آخر له شبه به. وهو قد  
يطرب للصوت ويهتز له دون ان يعرف السبب فيه، من الممكن القول ان لثر  
للصوت قد تغلغل في اعماق نفسه وصل يوتر في سلوكه تأثيراً لا شعورياً لا ارادة له  
فيه.

ان كثيراً من مظاهر لسلوك البشري تجري على هذا النمط، والانسان يقوم بها  
دون ان يعرف مصدرها في نفسه. فانت قد تشاهد شخصاً ما لأول مرة في جيلك  
ولكنك تشعر بكرهية شديدة له. وحين تسال عن سبب هذه الكراهية الاعتبارية لا  
تستطيع ان تأتي بالجواب الوافي له، الواقع انك تكرهه لسبب مدفون في اعماق  
نفسك وانت لا تعرفه معرفة واعية.

ان الشخص المكروه ربما كان شبيهاً في ملامح وجهه او حركته بشخص آخر  
كل قد اعتدى عليك او انك في سالف الايام، فكرهته في حينه كرهماً شديداً وربما  
حاولت الانتقام منه فلم توفق، وموت بعندك عليك ايام فنسيت بها حادثة  
الاعتداء، لئما بقيت تكره أي شيء يذكرك بها.

### مثال واقعي:

يحدثنا الروحوم سلامة موسى عن رجل يعرفه انه كان يكره لتدخين كراهية  
بالغة فكان ان اضطر الي تناول سيجرة عمد فوراً الى الماء يعسل يده به. وسبب  
ذلك ان الرجل كان في طفولته برعاية خادم سمين ضخيم، ولم تكن علاقته بالخادم

مرضية لأن الخادم كان يحمله أحياناً إلى المدرسة مرغماً. وكان للخادم بالإضافة إلى ذلك طريقة قدرة في جمع اعقاب السجائر وتدخينها فتدبعت منها رائحة خبيثة تؤذي للطفل حين يحمله الخادم. فلما شب الطفل رست في عقله اليلطن عقدة للكراهية للتدخين على الصورة التي رأيناها<sup>17</sup>.

### الإنسان والكلب:

كان فرويد يفسر هذه الظاهرة النفسية وامثالها بأنها ناتجة عن رغبة مكبوتة. أما بافلوف فيفسرها بقاعدة الاستجابة المشروطة كما أسلفنا. وسواء اصح فيها تفسير فرويد أم تفسير بافلوف فلن النتيجة واحدة، هي أن الإنسان قد يقوم بعمل ما نون أن يكون له فيه وعي أو تفكير.

ومما يجدر نكره في هذا الصدر أن بافلوف لم يكن قاصداً بتجاربه أن يدرس اللاشعور البشري. إنه كان متخصصاً بعلم الفسلجة وقد درس فسلجة الكلب باعتبارها شبيهة من بعض الوجوه بفسلجة الإنسان. وفي الحقيقة أنها كذلك، إذ إن الإنسان لا يختلف عن الكلب أو غيره من الحيوانات اللبوبة من الناحية الفسلجية اختلافاً كبيراً. ولكننا حين نقارن بين الكلب والإنسان من الناحية النفسية نجد بينهما فرقاً لا يستهان به. فالكلب لا يملك العقل الواعي ولتفكير على منوال ما يملكه الإنسان. معنى هنا أن الكلب يدفع باستجاباته المشروطة كما تدفع الآلة للصماء تقريباً، فلا يميز بينها وبين غيرها من الاستجابات العادية. أما الإنسان فهو حيوان مفكر، ولهذا فهو قد يعاني أحياناً شيئاً من الصراع النفسي بين ما يدفعه إليه تفكيره الواعي وما تدفعه إليه لاستجاباته المشروطة.

فالإنسان حين يكره شخصاً دون سابق معرفة به لا يستطيع أن يتدفع بعاملته هذه لتفاهاً الواً كما يفعل الكلب. إن عقله الواعي يردعه عن ذلك. وهو يمسى عتنته في موقف حرج، حيث يصعب عليه أن يهمل نداء العقل من جهة، فيتعرض لغضب الناس واستنكارهم، ويصعب عليه من جهة الأخرى أن يركبت عاطفته من غير تنفيس.

### تجربة جنسية:

أجرى أحد الباحثين تجربة على كلب تشبه تلك التي اجراها بافلوف. فقد أحضر

كلياً ذكراً وورثه معه في المنزل وكان يحضر له الإناث للتعريف ويتركه معها ثم يرقبه عن كثب. وإلا هم الكلب أن يستجيب لغريزته الجنسية مع إحدى الكليات سلط عليه للباحث تهازاً كهربائياً مما يجعله يعوي ويهرب. وأعد الباحث التجربة مرة بعد مرة حتى جاء وقت على الكلب المسكين صار فيه يهرب من كل أنثى يلحقها بين الكلاب<sup>(8)</sup>.

إن منه التجربة على بساطتها قد تساعتنا على فهم الانحرافات الخلقية التي نشهدها في بعض الناس لحيفاً، ومدى تأثير اللاشعور فيها. فالإنسان قد يعيل بطبيعته إلى شيء، ولكنه يصبح كرهاً له بعد أن يمر بتجارب فلسية من شأنها تكرية الشيء إليه.

خذ مثلاً الانحراف الجنسي الذي شاع بين الرجال في العهد العثماني عندما. فنحن نعرف أن كثيراً من هؤلاء الرجال يعيلون بطبعهم إلى المرأة ولكنهم عاشوا في محيط كانت المرأة فيه قدرة جاهلة لا تعرف من دنياها سوى العويل والشكوى، وكان المفروض في الرجل أن يستكبر عليها فلا يجالسها أو يعطيل الكوث معها، وإنا نشتهر رجل بالليل في مجالسة المرأة لتهمة اقترانه بالتحنت ونقص الرجولة.

من الممكن القول بأن هذا الوضع الاجتماعي يشبه ما حدث لئلك الكلب الذي كان معرضاً لهزة التهاز لكهربائياً كلما افشرب عن الأنثى، والمرجل الذي يعيش في مثل هذا الوضع يعيل إلى التعمييض عن حب المرأة بحب الظلمن، والمشكلة هنا لا تعدو أن تكون عقدة لا شعورية تؤدي بالرجل إلى التفرز من المرأة قليلاً أو كثيراً، وهو حين يفعل ذلك لا يعرف مصدره فيه، إنما هو يتدفع فيه بنافع العقدة لنفسية التي لوردها انحطذ الاجتماعي فيه.

من طريق ما يروى في هذا الصدد أن شاعراً عراقياً من أبناء القرن التاسع عشر سمعه الشيخ صالح التميمي كان يكره النساء ويتفرز من ثرتهم وشكل لجسادهن، وقد قال مرة في أحد قصائده يصف صدر المرأة بأنه ورم يتلاشى بمرور الزمن<sup>(9)</sup>. أرجح الظن أن للشاعر قال هذا القول تحت تأثير عقدة النفسية، ولو كان خائباً منها لجاء بقول آخر معكس له، وعند هذا يصبح صدر المرأة في نظره لجعل نتوء خلفه فتة وتقلب ثرتها في سمعه كشدهو اليلابل.

إن هنا مو شان كثير من الناس في مختلف مظاهر سلوكهم وأخلاقهم. فهم

يسببون فيها تحت تأثير الإيحاء الاجتماعي الذي تعلق في عقولهم البنيوية، ثم ياتون بعد ذلك بالاعتذار والحجج المنطقية لتبرير ما صنعوا.

### الأراء والمعتقدات:

لا يقتصر تأثير للاشعور على مجال الأخلاق فقط، بل هو قد يؤثر كذلك في مجال الأراء والمعتقدات التي يؤمنها بها الانسان وهو يظن أنه توصل إليها بعد تفكير سليم.

خذ مثلاً أولئك المترجمين الذين يتعصبون لعادة الحجاب تعصباً شديداً ثم ياتون بالادلة العقلية والمنطقية للبرهنة على أن تلك العادة خير حصن لشرف المرأة وعفتها، علة ذلك أن كل واحد منهم قد عاش في مجتمع تشتد فيه عادة الحجاب بحيث صار الناس يصفون المرأة لشريفة بأنها " بنت بيت " لا يسمع صوتها ولا يرى اصبع واحد منها.

ان هذا الإيحاء الاجتماعي يتغلغل في النفس، وكلما ازداد تكراره على الانسان اشتد تغلظه في أعماق عقله الجاهل. وحين يفكر الانسان بعد ذلك يشعر بأنه حر في تفكيره، إنه لا يدري بوجود النافع للاشعوري الكامن تحت سطح تفكيره والذي يدفعه إلى التفرغ من كل فكرة تنبؤ إلى تبدل الحجاب.

### التعصب والعقيدة:

ينشأ الانسان عادة في بيئة ذات عقيدة معينة، فهو لا يكاد يفتح عينه للحياة حتى يرى امه وشاه وأهل بيته ولقوانه يقدسون صنماً لو قيراً أو رجلاً من رجال التاريخ، وينسبون إليه كل فضيلة. وعقل الانسان ينمو في هذا الوضع حتى يصبح كأنه في قالب، وهو لا يستطيع أن يفكر إلا في حدود ذلك القالب. إنه مقيد ويحسب أنه حر. ولهذا نجد كل ذي عقيدة وثقاً من صحة عقيدته وثوقاً تاماً، أما الخالفون له فهم متعصبون - تعساً لهم!

أرى احياناً بعض الطائفين الذين ورثوا عقائدهم من آباؤهم وهم يقولون انهم اعتنقوا تلك العقائد بعد أن بحثوا في مختلف العقائد الموجودة لدى الناس وقارنوا بينها، وقد قرأت لأحد هؤلاء في الأونة الأخيرة مقالة رنانة يقول فيها بكل تكلمة وجزم، ان جميع اصحاب الأديان متعصبون ما عداه وعننا لقليلين امثاله، ان هنا

الرجل، سامحه الله، لا يدري أن أصحاب الأيمان الأخرى يقولون عن أنفسهم مثلما يقول. فكل واحد منهم بجول بذنه بين الأيمان فلا يرى شيئاً أفضل من بينه. انه اعاد عليه منذ نشأته الأولى وبهذا أصبحت جذور العقيدة الورثة ممثلة في أعماق عقله للباطن، وهي بنى تغديره من حيث لا يشعر. وهنا كان من العوامل الرئيسية التي جعلت لكثير الناس يقاومون الأتيه ويضطهدونهم ويفذقونهم بالأحجار، لا فرق في ذلك بين محمد لو عيسى لو بوذا أو سقراط. ولو كان كاتب المقالة المشار إليها في زمان تبييه لكان من الحارمين له في أرجح الظن.

لقد صدق الجاحظ حين قال، فن أراء الانسان وعقائده ليست إرادية، بل هي مفروضة عليه فرضاً. ولها نتيجة حتمية لكيفية تكوين عقله وما يعرض عليه من أراء. فمن عرض عليه دين فلم يستحسنه عقله فهو مضطر إلى عدم الاستحسان، وليس في الامكان ان يستحسن. وهو إذن ليس مسؤولاً عن اعتقاده، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. فمن اصاب بمعنى الألوان فرأى الأحمر اسود فلا لوم عليه في ذلك إذ ليس في استطاعته إلا ان يفتح عينه او يغلها، اما ان يرى هنا اسود او احمر فلا دخل له فيه. وكذلك الشئ في العقولات....<sup>(10)</sup>

رحم الله الجاحظاً إنه فطن إلى تأثير اللاشعور في الأراء والعقائد قبل الف سنة تقريباً، مع العلم ان كثيراً من أبناء القرن العشرين لا يزالون يجهلون.

### البراهين والعقيدة:

كان المفكرون القدماء، باستثناء نفر قليل منهم، يحولون نشر مبادئهم وعقائدهم بواسطة البراهين العقلية وحدها. إنهم يحدون التحصب أمراً طارئاً على العقل البشري إذ هو ينتج عن الجهل وسقم التفكير. ولهذا رأيناهم ينهالون بالبراهين العقلية على كل من يتعصب لعقيدة غير عقيدتهم، ظناً منهم انه لا يكاد يستمع إلى براهينهم حتى يفتتح بصحتها ويترك تحصبه القديم. فإنا وجدوه لا يثار بها اغناضوا منه وربما اضطهدوه لو قتلوه قربة إلى الله.

إنهم يجهلون أن البراهين التي هي قوية في نظرهم قد لا تكون كذلك في نظر غيرهم، والإنسان إنما ينظر في البراهين من خلال العاير اللاشعورية المتخلطة في عقله الباطن. فليس هناك برهان عام يراه كل الناس كالشمس في رابعة النهار كما

يقولون- ونو كل في لدينا مثل عدا اليرهمان لاستراح للناس وفراحوا منذ زمان بعيد.

إنك لا تستطيع أن تفنح أهدأ بصحة عقيدة جديدة إلا إذا تمكنت أول الأمر من تغيير معاييره فلا شعورية بحيث تكون ملائمة لتلك العقيدة. وهذا هو ما أدركه الحنكون من دعة للعقل واليدى قديماً وحديثاً إذ هم يحاولون جنب الجماهير إلى عقيدتهم عن طريق الشعتر والاحتفالات والمواكب والهاثافك، أكثر ما يجذبونهم عن طريق البراهين العقلية المجردة. وهم مع ذلك لا يهملون أمر هذه البراهين، إنما هم ياتون بها من خلال الشعتر والهاثافات فيجعلونها أقدس على فتخلخل في اعماق النفس.

كان دعة العقل قديماً يستعملون الأدعية والصلوات والشعتر البينية لترسيخ العقيدة في عقول أتباعهم. أما دعة للعقل في هذا الزمن فهم يستخدمون الهاثافات وللظاهرات والمواكب والهرجانات. وسواء أكانت هذه أو تلك، فإنها من طبيعة واحدة وثلت تأثير متشابه.

طبيعة هذه الأعمال الاجتماعية أنها تؤثر في الزمن تأثيراً لا شعورياً عميقاً. فالإنسان حين يشترك فيها يشعر بحرارة للعاطفة تسرى في أعوار نفسه. وكلما اشتدت الهاثافات حول فكرة معينة وتكررت فيها خيل إلى الإنسان أن تلك الفكرة أصبحت حقيقة ملموسة يصعب الشك فيها وهو يكاد يراها رأى العين. فإذا كنت تجرات وجادلته فيها غضب منك واعتيرك لعمى. إنه يرى ما لا ترى!

وقد يحدث لثل هذا الإنسان أن يتحول عن تلك الفكرة التي آمن بها إلى فكرة جديدة. وهو لا يستحي عنقذ أن يعزو لعمى إلى الذين لا يتحولون معه عن فكرتهم القديمة.

### دافع المصلحة الخاصة:

لا ننكر أن كثيراً من الذين يحاربون الأفكار الجديدة هم من أصحاب المصالح القائمة، فهم يكرهون الفكرة الجديدة مخالفة أن تنهل مصالحهم بها. وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم القرآن اسم "المترفين". وهنا نستطيع أن نفهم ما جاء في

للقرآن حيث قال: " ما أرسلنا في قرية من نذر إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرين " (١١)

هذا ولكن المترفين في كل مجتمع قلة، وقد لا يتجاوز عددهم أحياناً عدد أصابع اليدين والرجلين. أما الكتلة الكثرة من الناس فهم قد يحاربون الفكرة الجديدة على الرغم من ملائمتها لمصالحهم، والسبب في ذلك أن أفكارهم وعقائدهم القديمة قد تنفست في أعوار نفوسهم، ويأتي المترفون بعد ذلك فيرفعون راية الحرص على تلك العقائد "المقسة"، فيتبعهم بقية الناس فيها كالأغنام.

والمترفون أنفسهم قد يحاربون أنفسهم أحياناً من حيث لا يشعرون. فمصالحهم الثابتة قد يكون لها جذور فكرية ممتدة في أعماق عقولهم الباطنة وهي لأن قد تحفزهم نحو إخفاء الحقيقة، على أنفسهم وعلى الناس، من حيث يظنون لهم مجاهدون في سبيل الحقيقة.

إن الذين حاربوا الدعوة الحميدة مثلاً كانوا فريقين، فالفريق الأكبر منهما هو المؤلف من غوغاء الناس وجمهرتهم الغالية. وكانت الدعوة الحميدة ملائمة لمصالح هؤلاء الناس، غير أنهم كانوا يحاربون محمداً بتأثير الدعوة المضللة التي شنّها عليه فذريق الأصغر المؤلف من الرابين والتجار وأهل قجاة، وحين تدرس نفسية هؤلاء تجدهم لا يعترفون بحقيقة المنافع الأصلية لهم في محاربة محمد، بل يزعمون أنهم إنما يكافحونه في سبيل صيانة التراث للقدس الذي ورثوه عن آبائهم، ولعل بعضهم مؤمن بصحة ما يزعم، حيث انطلقت عليه للحيلة التي اختلقها هو نفسه. وعند هذا يصيح بلاؤه على المجتمع شديداً إذ اتحد في أعماق نفسه بلطف الصلحة وبلغ العقيدة معاً، وهو لمن يتدفق في قتل الأبرياء وانتهاك الحرمات اندفاعاً طائشاً لا يقف عند حد.

### الاشعور والأخلاق:

بدأت التربية الحديثة تعالج أخلاق الإنسان في ضوء نظرية بلغوف التي أجراها على الكلب أكثر مما تعالجها في ضوء الواعظ الجردة التي كان المفكرون القدماء يستخدمونها في دعواتهم الطوبائية.

الإنسان حيوان قبل أن يكون إنساناً، ولت حين تنصحه بما يخالف عاداته

ولستجلبانه المشروطة قد يستمع إليك باحترام وقد يقول لك، "احسنت بارك الله فيك" ولكنه يبقى كما كان مثابراً على عاداته القديمة، وهو لا يتردد أثناء ذلك ان ينصح غيره بما تصحته به، ان عقله الواعي يفكر على تعط، بينما عقله لباطن يدفعه نحو تعط اجر وشتان بين النمطين:

اشنكى لي صديق من اخلاق لولاد- فهو قد رباهم في زعمه تربية صالحة- وقد وصف لي تربيتهم لهم فقال، "كنت لشدت عليهم في النصيح، فلا فزع ساعة تمر دون ان انصحهم بنصيحة نفعهم... ولكنهم كبروا مع الأسف على غير ما كنت اريد لهم".

يظن هذا الرجل ان النصائح هي التي تهذب فخلق الانسان، فلنا امثلاً الانسان بالافكار العالية اخذ بسلك في الحياة طبقاً لها، وهذا هو ما كان يؤمن به اكثر الرزين في الأزمنة القديمة، ولا يزال بعضهم يتبعونه حتى يومنا هذا، انهم لا يعترفون بوجود شيء اسمه اللاشعور في الانسان- وهم لا يعرفون سوى العقل الواعي حيث جعلوه مصدر لسلوك البشري كله. فلنا شد الانسان في سلوكه عللوا تلك بوجود نقص في تفكيره وآخذوا يمحطونه بالنصائح والمواظ السامية بغية لصلاحه في زعمهم، غير انهم لا يجنون من ذلك كله سوى نفع الرماد!

كان للقدماء يعدون "العارف لغافم" الذي يجمع في عقله كثيراً من العظومات التقليدية لكنه نمودج الشخصية الكاملة، فلنا قصر في سلوكه عما يفعلون منه اظهروا له بهشتهم وقلوا عنه انه يسلك سلوك العوام الذين لا يفهمون- انهم بعبارة اخرى يجعلون المعرفة الجردة منبع للفضيلة وهم لا يدرون ان المعرفة الجردة لا بتعدى تأثيرها نطاق الأقوال والحلقات اللفظية، اما الأعمال فهي تقع تحت تأثير آخر هو ما يتبعث من اعماق الشخصية من حوافز غير واعية-

دلت تجارب بافلوف ان الكلب لا يترك علفه تجاه رنين الجرس الا إذا مر بتجارب جديدة تعاكس في تأثيرها التجارب القديمة التي اعتاد عليها، وكذلك يفعل الانسان، فإنه لا يترك علفه الا بعد ان يجد من مجتمعه ما يشجعه على لتخاذ عادة اخرى معاكسة لها- ولهذا وجدنا للناس اختياراً في المسجد لا سيما بعد ان يستمعوا الى المواظ الرنانة، ولكنهم لا يكونون يفرجون الى السوق حتى ينقلبوا الى

لصوص. وهم لا يجدون في الأمر غنصاصة لأنهم لا يلقون من اهل السوق احقراً على ما يفعلون.

### عود على بدء،

أشرنا من قبل إلى أن الانسان قد يقع احداثاً في مواقف حرجة. فهو من جهة يعيش في بيئة لها مآلوفاتها وقيمها الاجتماعية وهو من الجهة الأخرى يحمل في اعماق نفسه رغبات خاصة تخالف تلك القيم والمآلوفات فمأنا يصنع؟

هناك ثلاث وسائل يستطيع الانسان بها معالجة مثل هذا الموقف الحرج،

1. إنه يحاول قيل كل شيء ان يكبت رغباته الخاصة فلا يظهرها للناس مخافة ان يضحكوا عليه او يعاقبوه. ولكن تلك الرغبة قد تكون في بعض الأحيان قوية بحيث تظلت من بين يديه من حيث لا يشعر بهاء كمن يشرب الحبر بدلاً من القهوة، لو تسلط نظرت مريبة على ارفاف حسناه تتفتح اعلمه في الشارع.

2. عند هذا يلجأ الانسان إلى حيلة "التبرير"<sup>(1)</sup>، أي أنه يلجأ إلى اُصطناع حجة ظاهرية او عذر منطقي يستر به فعله الشنيع. فهو قد يقول مثلاً أنه شرب الحبر لأنه مفيد للصحة، او يقول انه نظر إلى بطيخ البقال لا إلى ارفاف الحسناه. ايأ والله العظيم!

3. وقد يأتي على الانسان وقت يعجز فيه عن كبت رغباته للخاصة، وهي قد تظلت منه بشكل فاضح يعجز هو عن تبريرها. وكلما حاول التغطية عليها وتبريرها ضحك الناس عليه. وعند هذا يجد الانسان نفسه مضطراً إلى اعلان انفصاله عن المجتمع الذي يعيش فيه، فيندفع برغباته للعامة لا يبالي بما يقول الناس عنه. وذلك منه اول خطوة في طريق الجنون!

### اشكال التبرير:

إن التبرير الذي يستخدمه الانسان لتغطية مآلوفه الغربية يتخذ فشكلاً متنوعة ويكون على مستويات متفاوتة. وكلما كان الدافع اقوى كان تبريره ارفع وأكثر تطليقاً في سماء الخيال والمثل العليا. فالناظر إلى ارفاف الحسناه قد يبرر فعله، كما قلناه بأنه كان يتظر إلى بطيخ البقال. أما الذي يحارب فكرة جديدة فهو يبرر فعله بأنه يجاهد في سبيل الله لو الوطن او الأخلاق او الحق والحقيقة او ما نشبه.

مشكلة الانسان انه كلما ازداد معرفة وبراعة في فنون الكلام كان اقدر على التبرير واكثر استعمالاً له في معاملاته اليومية، وهذا تقنين مبلغ الضرر من اولئك المتفهمين الذين يحسنون الجدل، فهم لا يختلفون عن غيرهم من الناس بدوافعهم اللاشعورية إلا انهم بتظاهرون بالمثل الحظيا يصفحون بها من لا يداري دوافعهم او يجاريهم فيها.

إن هؤلاء اشد ضرراً على المجتمع من جهلاء العامة، فالجاهل حين يكرهه، كرهماً لا شعورياً قد يشتمك او يصفعك او يشهر عليك خنجره، أما المتفهم الجدل فهو لا يفعل ذلك حين يشعر بالكرامية نحوك، إنه هو لا يتربد لئ يشهر في وجهك سيف البراهين العقلية والنقلية، ولعل سيفه هذا أخطر عليك من خنجر الجاهل الصانع من الحديد.

### تجربة بسيطة:

إذا زرت إن تختبر حفيظة الناس ومبلغ تأثير المعرفة الجدلية على سلوكهم فعليك إن تقوم بتجربة عملية بسيطة لا تكلفك سوى قليل من الجهد والمال. مضعون التجربة هو أن تهيء وليمة دسعة تتوافر فيها صنوف متنوعة من المأكولات والمشروبات واللطوعات مما يسيل له اللعاب، ثم تتعهد بهدنة إن تدعو إلى الوليمة قريباً من أصلقائك من حيث تهمل الفريق الأخرى والأفضل إن يكون الفريق المهمل من أولئك المتعلمين المتعشدين باسم و ثقافتهم ونسوج عقولهم. وانتظر بعد انتهاء الوليمة بضعة أيام لترى ما سوف يفعل بك هؤلاء 'العقلاء' الآفون".

أرجح لظن أنهم سيضمرون لك حقداً وكرامية عميقة، وسوف لا ينفع فيهم ما تقدم لهم من اعذار عقلية لو براهين علمية. إنهم لا يفهمون كتحفل والعلم في هذا المجال، كل ما يفهمونه انه قد اهملتهم واحتقرتهم بينما احترمت غيرهم ممن لا يستحقون الاحترام في زعمهم.

وإذا أردت أن تكون فتجربة ذات نتيجة واضحة فكرر القيام بها مره بعد مره، وبهذا سوف تجد الأصدقاء قد انقلبوا إلى اعداء، وانقلبت محاسنك في نظرتهم إلى

مساوية. ولويل لمن يريد أن يبالغ عنك عندهم، فهو يمسى في نظرهم مثلك من الخائنين للوطن لو المارقين عن الدين.

### مغزى التجربة،

تلك تجربة بسيطة، ولكنها ذات مغزى نفسي واجتماعي كبير، فهي نموذج لكثير مما يحدث بين الناس من صلات الحب والكره، وظواهر التعاون والتنازع. والناس قد لا يصسون بالتواضع الحقيقية التي تدفعهم إلى ما يفعلون في هذا الشأن، ولعلمهم ينسون تلك الدوافع بمرور الأيام لكنهم لا ينسون نتائجها اللاشعورية في أنفسهم. وتراهم يتمشدقون بحب لله والوطن، أو بالسعي وراء الحق والحقيقة. ولكن هنا لا يمتنعون من إيفالك أو الكيد لك أو التشهير بك، وإنما سئلوا عن ذلك قالوا لنهم إنما فعلوه في سبيل الله والوطن طبعاً

حدث لي مرة يعد صدور كتاب من كتبي السابقة ان دخلت مجلساً صغيراً من مجالس احد الأصدقاء. فرليت الوجوه متجهمة. ولم يكد يستقر لي القيام حتى انهال بعض الحاضرين ينقدون كتابي نقداً لاذعاً. ثم لاحظت على وجوه بقية الحاضرين انهم يؤيدون ما قال أولئك تليداً عاطفياً واضحاً. وكنت لحسن الحظ احصل معي في تلك الساعة نسخاً من كتابي الجديد تكفي لجميع الحاضرين. وقد تسرعت باهتزازها حالاً مع تسجيل شيء من "الإعجاب" بهم على ظهر كل نسخة مهتلة. عند هنا لاحظت لفتشاشاً مفاجئاً يسود الوجوه، وبنا حينئذ يتجه نحو المذبح شيئاً فشيئاً حيث اصبحت في نظرهم استحق النقدير على الجهود العلمية التي ابدلها في خدمة هذا الوطن الأمين؛

ارجو ان لا يفهم القارئ، من هنا ان الناس كلهم من هذا الطراز فالتاس قد يختلفون من هذه الناحية كما يختلفون في التواضع الأخرى. ولكني مع ذلك، استطيع ان اقول بلته اختلاف في الدرجة لا في النوع. من الناس من تحفزه نوافعه اللاشعورية نحو لمتراف المنكر وانتهاك الحرمات، ومنهم من تحفزه إلى الامتناع وقلعتب البسيط، ولكن للناس جميعاً لا يستطيعون ان يتخلصوا من نزعة التبرير شخصياً تماماً. وهم قد ينكرون ذلك عن انفسهم حين يتجادلون او يتنازعون. وفي الحقيقة لنهم كالبون، ولعلمهم لا يبرون انهم كالبون.

## شخص اعرفه:

اعرف شخصاً مملوفاً بالعقد النفسية على الرغم من ثقافته الواسعة فهو يظن السوء بكل احد، فلا يكاد يلمح حركة من احد حتى يفسرها تفسيراً خبيثاً. ومن النادر له ان يعزو نية طيبة الى انسان مهما كان، وهذه صفة تدر على لؤم صاحبها، ان هو لنسيم ويظن ان الناس كلهم لئام مثله.

والظاهر ان هذا الشخص درس موضوع اللاشعور دراسة لا بأس بها، انما هو لم يجز من دراسته هذه فائدة عملية او يتعلم منها ما ينفعه في حياته. فتراه يتدفع في اكثر اعماله تبعاً لما توحي به ظنونه السيئة وعقده النفسية. فإذا جادلته فيها نهلت عليك بالبراهين العقلية والعلمية، وربما التقلية أيضاً، ليبرهن بها على ان ما يريده هو الصحيح والواجب الذي ينبغي ان يسير عليه الناس جميعاً. انه قادر على تبرير اي امر يشتميه بالبراهين الختلفة. وقد يتفق له ان يشتهي امراً اخر بعد ساعة، وهو لا يعجز عن الاتيان بالبراهين لتأييد الامر الأخير ناسياً البراهين المناقضة التي جاء بها قبل ذلك.

ومن صعقت هذا الشخص انه لا يقتنع بكي برهان غير برهانه يياه لذي ياتي به في ساعة معينة. فلما ذكرته ببرهان له سابق مناقض لبرهانه الحالي، عمد الى الإنكار وجاء ببراهين جديدة لتأييد إنكاره. معنى هذا ان حجاته الفكرية اصبحت سلسلة من البراهين يتلو بعضها بعضاً... الى ما لا نهاية له.

انه يريد كل شيء من الناس ولا يحب ان يعطي اي شيء لهم مقابل ذلك، وبراهينه تؤيده طبعاً في كل ما يريده. وكلت نتيجة امره ان صار مكروهاً من قبل اكثر الناس.

لعل لا اغالي إذا قلت ان كل انسان يحمل في ثنايا نفسه بذرة صغيرة او كبيرة من هذه الصفة التي رثناها في صاحبنا، فكل انسان يحمل عقداً نفسية خاصة به، وكل انسان يملك نزعة التبرير لتسوية تلك العقدة. ولكن اكثر الناس لا يدفعون في هذا السبيل لدرافعاً شديداً، لأنهم يدركون بفطرتهم انهم لو فعلوا ذلك في كل حين لضر منهم المجتمع واضمر الحقد لهم.

ان الحياة الاجتماعية عبارة عن شبكة من الأخذ والعطاء. ولا بد لمن يرجو

التجاح في حياته أن يذري الناس ولن يعطيهم بمقدار ما يأخذ منهم. كما إننا نصر على التمسك بجميع مطالبه باعتبار أنها الطاليب المعقولة والواجبة، فإن الناس سيحبونه يمثلها، وبهذا تنقلب الدنيا عليه وعلى غيره جميعاً لا يطاق.

### الخلاصة:

نستخلص من هذا الفصل الطويل أن موضوع للأشعور وأثره في حياة الإنسان موضوع مهم جداً لا يجوز لنا التغاضي عنه لو التقليل من شأنه. ومن مصنحة كل إنسان أن يدرس هذا الموضوع ليتفتح به في يستثمر مواهبه النفسية من جهة، وفي معالجة عقده النفسية من الجهة الأخرى. ولكن الدراسة لا يجوز أن تكون "حفظية" على متوكل ما رايها في صاحبتنا الأنف الذكر. ورب محفوظة تضر وتتفع. ولا خير في معرفة بطلبها الرء على غيره دون أن يتفع منها لنفسه شيئاً.

## هوامش الملحق الرابع:

- (1) اللاشعور والعقل الباطن كلمتان مترادفتان في الماضي. ولما بطل ذكره أن أول من أذاع اصطلاح "العقل الباطن" في البلاد العربية هو الزحوم سلامة موسى. ولكنه في أواخر أيامه ترك هذا الاصطلاح وأخذ يدعو إلى استعمال "العقل الكامن" مكانه بحجة أن الاصطلاح الأخير أقرب دلالة وأصح معنى. فلم تلق هذه الدعوة أذناً صاغية لدى جمهوره الكتاب العرب. بعد أن شاع استعمال الاصطلاح الأول بين الناس.
- أما أنا فقد اعتدت على استعمال "اللاشعور" و"العقل الباطن" كليهما بلا تمييز، وكنت أبا لي أن يكون هذا أو ذلك خطأ أو صواباً ما دلم القراء قد فهموه وراح بينهم، معنى هذا أنني أتبع القاعدة المعروفة "رب خطأ شائع غير من صحيح مهجور".
- (2) انظر: Tyrell, Personality of Man, p. 26.
- (3) مسكينة وزارة المعارف. فلو أنها استجابت لجميع ما يطلب منها في هذه الأيام لما بقي في مناهج مدارسها شيء من العلم!
- (4) انظر: أحمد فهسي أبو الحير، السيكولوجيا والروح، ص 11 - 13.
- (5) انظر: Macdgal, Psychoanalysis and Social Psychology, p. 18 - 19.
- (6) انظر: يعقوب قام، المذهب السلوكي، ص 3 - 4.
- (7) انظر سلامة موسى، أسرار النفس، ص 19 - 92.
- (8) انظر: يعقوب قام، المذهب السلوكي، ص 6.
- (9) انظر: داود سلوم، الأدب العرفاني، ص 68.
- (10) انظر: أحمد أمين، صحح الإسلام، ج 3، ص 132 - 134.
- (11) انظر: القرآن، سورة سبأ، آية 34.
- (12) يطلق علماء النفس على حيلة التبرير هذه اسم Rationalization وهو اسم مشتق من Ration الذي هو العقل.



## الملحق الخامس

### بين الجنون والعبقرية

#### وجهة نظر:

في شهر نيسان من عام 1958 لقي أحد الأساتذة المختصين بعلم النفس محاضرة عامة في قاعة كلية العلوم تعرض فيها إلى موضوع اللاشعور ولثره في سلوك الإنسان. ومما جاء به الأستاذ في محاضرتة قوله: '... إن تأثير اللاشعور يتناسب عكسياً مع ثقافة الفرد وصحته النفسية. فكلما كان الفرد ملكاً لعقله وفكره قلّ تأثير اللاشعور على سلوكه. إن قولنا بسيطرة اللاشعور على سلوك الإنسان يعني حتماً ضعف تأثير العقل والتفكير على سلوكه. وهذا يتفق حتماً مع الملاحظة البسيطة لحياة الأفراد اليومية.

ولضاف الأستاذ على ذلك مؤكداً فقال، 'نعم قد يحاول اللاشعور أن يعمل ويظهر في منطفة الشعور. ولكن هناك رقيباً يمتعه، هذا الرقيب هو العقل. وفي الوقت الذي يصبح اللاشعور موجهاً لسلوك الأفراد، في ذلك الوقت نقرا على الدنيا السلام. في حالة واحدة فقط يسيطر اللاشعور على سلوك الإنسان ويوجهه. هذه الحالة هي عندما يكون الإنسان مريض العقل'<sup>(1)</sup>.

## نقد وتعليق:

هذا هو ما قاله الأستاذ بالحرف الواحد. وهو قول صحيح إننا نعلمنا اللاشعور بالمعنى الضيق الذي ندرجه عليه علماء التماثل النفسي. وهؤلاء العلماء، كما لا يخفى، يقصرون مفهوم اللاشعور على العقد واليول والرغبات انكبوتة التي تناقض مفاهيم العقل الواعي، وهي إذن لا تسيطر على السلوك إلا في حالة ضعف هذا العقل ومرضه.

مهما يكن الحال فإننا نستطيع أن نستنتج من قول الأستاذ نقطتين:

الأولى: أن تأثير اللاشعور يتناسب تناسباً عكسياً مع ثقالة الفرد.

الثانية: أن تأثير اللاشعور ينحصر في الجانب السيء من سلوك الإنسان، فهو يضر به ولا ينفع.

وقد اتضح لنقاريء من الفصول السابقة أنني اختلف مع الأستاذ في هاتين النقطتين، ونقلت آراء بعض العلماء الذين يؤيدونني في ذلك. ولست أدري على أي حال من هو المخطيء منا والمصيب.

إنني أعتقد، كما ذكرت من قبل، أن الثقافة لا تجدي أحياناً في كبت الدوافع العارمة التي تندبع من اللاشعور، فالثقافة قد لا يختلف عن زميله الأمي في هذا الجبل، ورب ثقافة ساعدت صاحبها على تحرير ما يقوم به من أفعال الحقد أو الحسد لو العنجهية، وهي بذلك تفتح له الطريق ليندفع برغباته الكبوتة ثم يدمي له إنما فعل ذلك سعياً وراء فحوق والحقيقة.

ذكرت في الفصل السابق قصة ذلك المثقف "العارف" الذي هو مملوء بالعقد النفسية، وهو يتدفع بها ثم يأتي بالبراهين لتأييد ما يفعل، وليس هنا التقف نادراً بين اخولتنا المثقفين والأستاذة والجهتهين الكبار، وربما كان للتعاقد والتنافس اللينيم بين هؤلاء أكثر مما هو بين لاسوقفة. ولكن السوقوة مفضوحون تظهر جوفانهم اللاشعورية على ملامح وجوههم وقتلات، تستهم، أما المثقفون فهم قادرون على أن يظهروا ما لا يضمرون، إنهم بعبارة أخرى أقدر على تقطيع دوافعهم للخفية بواسطة المعلومات "الرائعة" التي ملأوا المعنهم بها، ولهذا كان يلاءمهم على المجتمع أشد وانقطع. مع الأسف الشديد.

## النقطة الثانية:

أما من حيث النقطة الثانية التي جاء بها الأستاذ في محاضرته السابقة الذكر، فإنني أعتقد أن تأثير اللاشعور لا ينحصر في الجانب السيء من سلوك الإنسان، بل ولي ان للاشعور، كما اشرت إليه سابقاً، عيلرة عن مخزون كبير يحتوي في اتصاله على امور ضارة ونافعة في آن واحد. وقد تتغلب الامور النافعة في نفسية فريق من الناس فتجعله عبقرياً أو نا مواهب خارقة، وقد تتغلب الامور الضارة في نفسية فريق آخر فتضعه نحو الالتفات العصبي لو نحو الرقاعة والحنون.

إن هذا هو رأي كثير من الباحثين والعلماء. وقد جازوا فيه ببحوث مستفيضة لا مجال لنكرها هنا. وسوف اكتفي في هذا الفصل بتركيز الانتباه على جانب واحد من هاتيك البحوث وهو الذي يخص اوجه الاختلاف وللتشابه بين العبقرية والجنون وكيف انهما ينبعان من منبع واحد - اللاشعور؟

وهذا ارجو من القاريء ان لا ينتظر مني شرح هذا الموضوع الدقيق على متوال ما يجده في الكتب العلمية، فهنا امر لا اري فيه كبير فائدة لا سيما وانا اكتب للقاريء العلم ونيس للعلماء. وقد اعتدت في جميع كتبي ومقالاتي ومحاضراتي على اتباع طريقة لتبسيط والتوضيح وللتكرار، وهي طريقة قد لا يرضى عنها بعض الاساتذة بحجة انها تنافي الدقة العلمية، ولكنني لا ابالي بما يقولون فيها، إذ هي في نظري انفع للناس من الطريقة لجافة العقدة التي يتبعها بعض الاساتذة لفضلاء. إنني تاجر وهم علماء. ولأحمد لله الذي لا يحمد على مكرره سواه!

## اسطورة قديمة:

مما يجدر ذكره في هذه المناسبة ان عرب الجاهلية كانوا يعزون الجنون والعبقرية سماً إلى فعل الجن. فالجنون في زعمهم رجل دكبه للجن وعينوا بعقله، اما العبقري فهو رجل يستلهم لبلاده من وادي عبقر وهو الوادي الذي كان الجن يسكنونه كما كانوا يقولون.

ولم يكن عرب الجاهلية وحدهم على هذا الزعم، بل شاركهم فيه كثير من الأمم القديمة. ومن هنا وجدنا لفظة العبقرية في لغات الافرنج قربية من لفظة الجن العربية. فهي في الانكليزية والفرنسية والالمانية، "جينس" أو "جيني" أو ما

نشبه، وهي عن اختلاف أشكالها تقابل لفظة "ديمون" الأخرقية ومعناها الشبونة أو الشيطان<sup>11</sup>.

ولم يكتف القدماء بهذا بل رفبناهم بضطون بين العبقرية والجنون خلطاً عجيباً، حيث جعلوا بعض الجنين عباقرة كما جعلوا بعض العباقرة مجانين. وقد حدثنا التاريخ عن كثير من العباقرة أنهم اثموا بالجنون في بداية امرهم.

مشكلة الناس بوجه عام أنهم يتوقعون من كل إنسان أن يكون مثلهم في عاداته وأفكاره، وعندنا بسمونه "عقللاً"، وهم لا يكادون يلمحون فيه شيئاً من الشذون عن مالوفاتهم حتى يسخروا منه ويصفونه بالجنون. إنهم لا يبالون عندئذ أن يكون هذا الإنسان مجنوناً حقاً أو عبقرياً، فإننا اتضح لهم أخيراً أن شذونه كان من النوع العلي، وإنه كان مبدعاً جبراً، تحولوا إلى تعظيمه بعدما كانوا يسخرون منه. والناس يفعلون ذلك مرة بعد مرة على توالي الأجيال دون حياء لو ندم.

### من هو العاقل؟

ناب الناس، كما قلنا، أن يطلقوا اسم "العاقل" على كل من يجاريهم في مالوفاتهم وقيمهم الاجتماعية. وقد اعتادت الأمهات منذ قديم الزمان أن يردعن أطفالهن عن كل عمل يخالف العادة الجارية، فإذا قام الطفل بعمل مخالف ضربت امه على يده وقالت له "عيب"، فما إذا قام بحمل ملابس ربت على كتفه ولبتسمت له ومنحته شيئاً من الحنوى أو النقود مكافأة له.

وعندما وكبر انطفل يلقي من مجتمعه الأكبر مثلما لقي من امه. فالناس يحترمونه على مبلغ ما يجيد من عمل مطابق للقيم السائدة وهم يحترقونه على ما يخالفها. على هنا تنشأ شخصية الانسان في الغالب، ومن هنا نجد الشخص العادي "عقللاً" ينظر في الأمور من خلال لتتظار الذي صنعه المجتمع له، ولا يحب أن يحيد عنه.

### الانسان والخلج:

مما يمتاز الانسان به عن ابناء عمه الحيوانات انه حيوان خجول. فهو يميل دوماً إلى مراعاة مالوفات الناس وقيمهم، ويستحي أن يخرج عليها لئلا يضحك عليه الناس. وهذا هو الذي جعل ظهور المجتمع بين بني الانسان امراً ممكناً.

الواقع ان كل انسان يملك في اعماق نفسه رغبات محرمة يجب لتتفيس عنها، وهو كذلك يجعل نزعة خفية للتجنيد والابتكار قليلاً أو كثيراً. وما نام الانسان يعيش في مجتمع ذي قيم معينة، فلا بد له من ان يجد في تلك القيم مانعاً يمنعه من تشياع بعض رغبته المحرمة وحوافزه للعارمة. وهو مضطرب ان يكتف تلك الرغبات والحوافز فلا يظهرها للناس مخافة ان يستهجنها الناس منه ويحتدروه عليها.

هنا يجب ان لا ننسى بان هذه القاعدة ليست عامة او خالية من استثناء. فقد يظهر في المجتمع احياناً افراد تضعف فيهم طبيعة الخجل. فهم يندفعون بما ينتفض في لعلى نفوسهم من حوافز لا شعورية. وهذه الحوافز قد تكون سخيطة او ضارة فيصبح صاحبها مجنوناً، او تكون ذات معنى وقائدة فيصبح صاحبها عبقرياً.

والسؤال الذي قد يرد في منا الجال هو، لانا هذا الفرق بين الناس؟ وكيف يتدفع بعضهم في طريق الجنون بينما يتدفع آخرون في طريق العبقرية؟

### نقطة البدء:

في صديق كان يزامنني في الدراسة الجامعية، وكان ضعيفاً في للدراسة جنأ. مما جعله يترك للجامعة ويرجع الى بغداد خاسراً كئيباً. ومضت مدة طويلة غاب فيها الصديق فلم اعلم منه شيئاً. وفي يوم من الأيام اخبراً فوجنت بحبيبه الى بيتي وهو يحمل في جيبه ورقة صغيرة قل عنها انها تحتوي على اكتشاف فلكي عظيم.

واخذ الصديق يشكو من محاربة الناس له ومن مقاومتهم لاكتشافه العظيم، قال انه ذهب الى بعض الجرائد للحلية يعرض عليها اكتشافه ويطلب منها ان تنشره على الناس، فرفضت الجرائد طلبه. وهو قد جاءني اذن يرجوني ان اساعده على نشر اكتشافه في للجرائد وغيرها لينتفع به الناس وتتعمق به المعرفة البشرية.

نظرت في الورقة فلم اجد فيها سوى بضعة سطور كلها لغو فارغ عن تقصير. وتبين لي ان صاحبي مجنون يظن ان هنا قلنو الفارغ لاكتشاف فلكي عظيم. فلقد سيطرت عليه عقدة نفسية قوية نتيجة فشله في للدراسة للجامعية، انه كان يأمل

أن يكون علماً مشهوراً يشار إليه بالبنان، فلم يوفق في أملة. ودفعه ذلك ثم لسعي وراء الشهرة العلمية عن طريق قمر.

إني لا زال احتفظ بالورقة التي سجل صاحبي فيها اكتشافه، وكلمة اعنت قراتها ارتكت كيف تختلط حوافر الجنون بحوافر العبقرية في لاندمان أحياناً، فصاحبي يشتهي أن يكون عبقرياً وتكن العنومات التي تمكنه من الإبداع غير موجودة لديه، فاستعاض عنها بمعلومات مزيفة اخترقها لنفسه واعتمد فيها على ما تروحي إليه رغبتة المكبوتة من خيال عريض.

وحين ندرس العباقرة المعروفين نجدهم يشبهون صاحبي في بناية أمرهم، فهم يحرصون على اكتشاف شيء جديد وبينهمكون فيه انهماكاً غريباً قد ينفع الناس إلى السخرية بهم، ولكنهم ينجحون نضراً فبعاً يبدخون قنبدل نظرة الناس إليهم، وينقلون بين عشية وضحاها من محائن إلى عداقرة، فيضحك الناس لهم بدلاً من أن يضحكوا عليهم.

### قصة اختراع المظلة:

إن المظلة التي نقي بها لاهسنا من المطر اختراع عظام من نابي تارك، وصاحب هذا الاختراع لا يد أن كان عبقرياً. عل الأقل في فترة قيامه بالاختراع، وحين ندرس تلك الفترة من حياته نستطيع أن نكتشف بها بعض أوجه الشبه والخلاف بين العبقرى والجنون.

يصح القول بأن مخترع المظلة لم ينتكر مطلقاً من لا شيء، فهو كأي مخترع آخر لا يد أن تلاخقت في عقله تباطن فكرتان قيمتان حيث نتجت عنهما فكرة الاختراع، والظاهر أنه كان يكثر من مشاهدة المارة في شوارع أثناء سقوط المطر، فلقت نظره امران، أحدهما أن المارة كانوا يرفعون فوق رؤوسهم أي غطاء يقع في يدهم بغية الوقاية من قطرات المطر. ولتاني أن بعضهم كانوا بعد انقطاع المطر يحملون بأيديهم العصي يتقون بها الرزق في اللوحول. فتموضت في رأسي صاحبنا فكرة هي أن يخرع شيئاً يجمع بين العصا والغطاء لواقتي، وربما جاءت هذه الفكرة من حيث لا يدري، بعد مشاهدته للمظلات المزخرفة التي كان سلاطين

الشرق يتخذونها في موكبهم لبادخة. ولكنه استبدل الغطاء الأزخرف بغطاء مشمع يمكن طيه وتشره حسب الإزفة.

لا شك ان كثيراً من الناس قد خطر ببالهم مثل هذه الفكرة لبديعة. ولكنهم كتبوها في اعمق انفسهم فلم يحققوها فعلاً مضافة ان يضحك عليهم الناس. اما صاحبنا فقد تجرأ على اخراج فكرته الى حيز العمل دون خوف لو خجل، وسار بها في الشارع بين ضحك الناس ولستهجانهم.

ليس غريباً ان يتهم للناس هنا المخترع العبقري في اول امره بالجنون، وان يركض الأطفال وراعه يرمونه بالحجارة. وقد قاموا بعمل هنا معه فعلاً. فهو قد خرج على مالوفاتهم، وربما كان النافع له في تلك هو رغبته المكبوتة في حب الشهرة. لكنه لم يطلب الشهرة عن طريق التحقيق في القمر كما فعل صديقي الجنون، بل طلبها عن طريق الابذخ الذي ينفع الناس. فكان بذلك عبقرياً!

#### ما هو السبب؟

نعود الى السؤال مرة اخرى، ما هو السبب الذي فرق بين شخصين فدفع أحدهما في طريق الجنون ودفع الآخر في طريق العبقرية؟

كان فرويد يعتقد ان الجنون والعبقرية كليهما ينتجان عن رغبة مكبوتة. ولكن الجنون يحاول التنفيس عن رغبته بالأوهام بينما العبقرية يحاول التنفيس عنها بالناب والابذخ الجدي.

ويذهب لير الى مثل هنا في تحليل الجنون والعبقرية، غير انه يضع عقدة النقص مكان الرغبة المكبوتة. ففي رايه ان الجنون والعبقري مصابان بهذه العقدة حيث يحاول كل منهما اشباعها بطريقته الخاصة.

مهما يكن الحال فإن هذا الرأي الذي جاء به فرويد أو ادلر لا يحل لنا المشكلة، على الرغم من وجاهته الظاهرة. فنحن لا نزال عاجزين عن إدراك السبب الذي جعل شخصاً ما يلجأ الى الأوهام في التنفيس عن عقده لو رغبته المكبوتة. وجعل شخصاً آخر يلجأ في اللب والابذخ. لقد ذكر فرويد وادلر اختلاف الطريقة عند

المجنون والعبقري للوصول إلى هدف واحد، لكنهما لم يفكرا السبب في هذا الاختلاف.

### النكاه والعبقرية:

يعمل بعض الباحثين إلى القول بأن العبقرى شخص له نصيب من النكاه عظيم، وهنا هو الذي جعله يمتاز عن المجنون في طريقة لتنفيس عن رغبته المكبوتة. إنه يدرك بتأقب نكاته أن الأوهام لا تجديه في الوصول إلى المد أو شهرة بين الناس. وهو فوق ذلك، قادر على القيام بالعمل التبديع الذي يساعده على نيل ذلك المد.

وتحن إذ تريد أن تأخذ بهذا الرأي يجب أن نسأل: هل العباقرة كلهم أنكاه كما يظن القائلون بهذا الرأي؟

لقد دلت الدراسات التي قام بها بعض علماء النفس أن الارتباط ضعيف سلباً بين حدة النكاه والعبقرية، وهذه حقيقة قد يعجب منها القارئ. فلشأن بين الناس أن كل عبقرى لا بد أن يكون مفرطاً في النكاه. وهنا رأي منطوط.

لا ننكر أن بعض العباقرة لنكاه جده، ولكن بعضهم الآخر ليسوا بأنكاه. على الأقل بالمقياس الذي يقاس به نكاه عامة الناس. فقد تبين من البحث الذي قامت به الدكتورة كوكس، الأستاذة في جامعة ستانفورد، أن كثيرين من العباقرة لم يخطوا بدرجات عالية في اختبار لنكاه<sup>12</sup>.

الواقع أننا حين نتصل ببعض العباقرة الكبار، ندرس حركاتهم وسكناتهم، قد نلاحظ عليهم شيئاً من الغناء على وجه من الوجوه، وكثيراً ما نراهم يجهلون أبسط الأمور أو يعجزون عن فهم بعض أسئلة العائبة التي يفهمها كل أحد، وكم حدثنا التاريخ عن عبقرى ينس أمه في بداية أمره واعتبروه دون أقرانه في نكاه.

والسؤال الذي يطرحنا في هذا الصدد، هل إن النقص الظاهر في نكاه بعض العباقرة هو نقص حقيقي، أم أنه الأخرى نقص في المقياس الذي اختبرنا به نكاههم؟

المعروف عن مقياس النكاه الذي يستخدمه علماء النفس عادةً له يظهر الفرق في النكاه الشائع بين عامة الناس، وهو يعتمد في اختباره على المعلومات التي يتناولها الناس في الحضرة التي يعيشون فيها. فهل يصلح هذا للمقياس لاختبار نكاه العباقرة الذي ربما كان من نوع خاص بهم؟

المشكلة في كل عبقري أنه يختص في ناحية واحدة من نواحي المعرفة أو الفن، وهو يهمل بها ويكاد يهمل كل شيء سواها. ولعل هذا هو السبب الذي يجعلهم اغبياء في نظر الناس. وعلى أي حال فنحن لا نستطيع أن نفهم علاقة النكاه بالعبقرية إلا بعد أن نفهم طبيعة الذكاء وهل هو ذو مقياس واحد في جميع الناس، أم أنه يختلف باختلاف الفن الذي يبرعون فيه.

### العبقرية والالتياث النفسي

لبعض علماء النفس رأي في العبقرية بلفت النظر. فهم يقولون أنها ليست حالة سليمة من حالات الشخصية، إنما هي مظهر من مظاهر الالتياث النفسي. وهذا هو سبب ما نلاحظه في أكثر العباقرة من سلوك شاذ يدفعهم إلى القيام بأفعال مضحكة تشبه أفعال الحمقى أو المجانين.

في رأي هؤلاء العلماء أن العبقري قد يكون نكياً من نوع خاص، ولكنه يملك بالإضافة إلى ذلك التياث نفسياً يبعث فيه القلق والتوتر العصبي ويجعله معذباً غير مرتاح من حياته الاجتماعية. يقول الأستاذ كرشمر: أننا لو جردنا العبقري من حمرة القلق الشيطاني والتوتر النفسي لما بقي فيه سوى شخصية علمية لها نصيب من الذكاء. إن الالتياث النفسي في نظر كرشمر يؤدي بصاحبه إلى العجز عن التكيف الاجتماعي، وهذا ما يدفعه إلى مقاومة للمجتمع والسعي نحو تغييره عن طريق الابتاع<sup>(13)</sup>.

إن هذا الرأي ليس من السهل علينا الأخذ به، فنحن نعرف عن كثير من العباقرة أن لهم شخصية متزنة وسلوكاً ملائماً، وإن ظهر على بعضهم شيء من الالتياث، والسلوك الشاذ إلا بعرضي ذلك منهم جميعاً من هنا الطراز. وربما كان الالتياث المعروف عن بعضهم مبالغاً فيه. فمن ملبوسة الناس أنهم يبالغون في رواية

كل خير يجدون فيه شيئاً من الغريبة لا سيما فيما يخص سلوك العظماء  
والعباقرة.

ونستطيع ان نقول ايضاً بان الحوافز للاشعورية المبدعة إذ تسيطر على العبقري  
قد تدفعه أحياناً الى انتهاج سلوك غير مفهوم من قبل الناس. ويميل الناس عندئذ  
الى تفسير ذلك السلوك حسب مفاهيمهم الساذجة، وقد يزوفون فيه وبيالغون كما  
يشتهون.

### استعراض واستقراء:

إننا إذ نستعرض هذه الآراء التي أسلفنا ذكرها نجد فيها عيباً لا يستهان به، هو  
عيب الاستقراء الناقص. مما نجد الإشارة إليه ان العبقرية ليست من نمط واحد،  
وقد يكون لها عوامل ومظاهر شتى. والباحث في العبقرية يجب ان لا يركز نظره  
على نمط واحد منها ثم يحجم لاستنتاجه على بقية الأنماط.

ليس من الصعب علينا ان نكتشف في فريق من العباقرة رغبات مكبوتة، وفي  
فريق ثان نكلماً حاداً، وفي فريق ثالث التهادن نفسياً، وفي آخرين عوامل أخرى قد  
نعجز عن استقصائها. ولكن للمشكلة تبقى لدينا من غير حل. فما هو العامل  
المشترك الذي يظهر في جميع العباقرة فيمكنهم من ابداع الأفكار الجديدة؟

حاول الأستاذ هيلبرونر الإجابة على هذا السؤال. وفي رأيه انه كان موفقاً في  
جوابه. فقد نشرت له مجلة "مايفير" مؤخراً مقالة جاء فيها ان للعباقرة صفتين  
اساسيتين تلاحظهما فيهم جميعاً،

اولاهما، قدرة العبقري الهائلة على تركيز الذهن. فالعبقرة بغير استثناء  
ينجحون في عملهم بكل جورحهم، وهم قادرون على ان يحملوا في انهمانهم  
مشروعاً معيناً سنوات طويلة دون ان يمتسوا. ولا شك ان هذا يدل على وجود  
تماسك نفسي عميق ومقدرة على حشد جميع الجهود الواعية وغير الواعية لخدمة  
غرض واحد.

والصفة الثانية البارزة في اعمال العبقرة هي قدرتهم على ملاحظة العلاقة  
المنطقية بين الأشياء. إنهم يستطيعون ان يخترقوا حجب الظاهر الخارجي الخامل

الحقائق وأن يعيدوا تصويرها في هيئة قشبية ناهرة، معنى هذا أنهم ينظرون إلى الكون بعين الطفل لفاحصة أكثر من النظر إليه بعين البالغ الموهقة.

بدا صبح هذا الرأي الذي جاء به هابلبرونر لمستطعنا ان نقول بان العبقري بجمع في نفسه للتقيضين. فهو طفل ورجل في آن واحد. إنه طفل في كثرة تساؤله وتعجبه من الظواهر المحيطة به والتي بحسبها الرجل العادي بسيطة لا داعي للاستفهام عنها، ولكن العبقري يختلف عن الطفل من ناحية أخرى هي أنه لا يمل بسرعة. إنه شديد الثباتة وللصبر، إذ هو لا يبدا بمشروع فكري معين حتى يولي البحث فيها، وهو قد "يفنى" في بحثه حتى يكل يتسى نفسه وشؤون رزقه وبيته.

### تساؤل العبقري:

إن الشخص العادي ميل إلى النظر في ظواهر الكون من غير عجب، أو تساؤل. فهو بمجرد أن يعتاد على لظاهرة يعدها بديهية ليس فيها سر غامض. وهو قد يسخر بكل من يسأل عن سرها أو يعجب منها، وقد يعتصره سخيفاً أو مجنوناً.

إنه مثلاً قد اعتاد على رؤية الغناطيس وهو يجنب إليه قطع الحديد، والواقع أن هذه الجانبية الغناطيسية ظاهرة عجيبة جداً إذ كيف يتالى لقطعة من المادة للجامة أن تجذب إليها قطعة أخرى من غير أن تكون بينهما أية واسطة موصوسة. ولكن الشخص العادي لا يبالي أن يسأل نفسه مثل هذا السؤال، وإن خطر السؤال ببلاه نات مرة اخذ يسأل عنه "العارفين" من بني قومه، فيكتفي بما يقولون له ثم ينصرف إلى حل سيبه...

لما العبقري فهو، على خلاف ذلك، لا يقتر عن السؤال ولا يكتفي بما يجيبه العارفون عنه. مزيته أنه لا يحب تقليد الناس فيما اعتادوا عليه من أعمال وتفكار. أبغض الأمور إليه أن يكون نسخة طبق الأصل عن غيره من الناس. وهذا هو الذي يجعل العبقري قادراً على اكتشاف حقائق جديدة من لبسط للظواهر المألوفة.

يقال عن نيوتن أنه اكتشف قانون الجانبية اثر سقوط تفاحة بالقرب منه. وهذا اود ان أسأل، كم من الناس شهدوا مراراً في حياتهم سقوط التفاح، فلماذا لم ينتفعوا من ذلك في اكتشاف حقائق جديدة كما انتفع منه نيوتن؟

ويقال كذلك عن غاليليو إن هو اكتشف قوانين الحركة وسقوط الأجسام بعد تامله في قنديل معلق من سقف كنيسة وهو يتأرجح بعمق وبسرعة، وأنا شخصياً طالما رايت القناديل تتأرجح من شتى السقوف فلم أجد فيها ظاهرة تستحق الملاحظة، وكنت كمثلني من عامة الناس اعتبر حركة القنديل أمراً طبيعياً لا داعي للتعجب منه.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن العباقرة الباحثين في الظواهر الاجتماعية والنفسية. فأحدهم دائم التظنر في كل ما يتفوه العوام به أو يفعلونه وهو يجد في ذلك منبهاً علمياً لا ينضب وقد يكتشف فيه حقائق جديدة حيناً بعد حين. أما الشخص العادي فهو ينظر إلى الظواهر الاجتماعية المحيطة به دون أن يكتثرت بها. إنه يراها تتكرر يوماً بعد يوم فيحسبها تافهة لا أهمية لها، بينما هي في نظر العبقري ذات أهمية قصوى.

### إنهماك العباقرة:

والعبقري لا يكتفي بهذه النظرات العميقة في ظواهر الكون، بل هو، كما أشرنا إليه، ينكب على البحث فيما يكمن وراء الظواهر من أسرار ويتعمق فيه إنهماكاً شديداً ينهل به عن نفسه.

إن العبقري يستطيع أحياناً أن يذهب ذاته أو يعتنقها في الشيء الذي يدرسه، ولعل للذمول المعروف عن العباقرة ليس سوى مطهر من مظاهر فناء الذات لديهم. وهم في ذلك يشبهون المتصوفة الذين يزعمون أنهم عند الوجد يفنون في ذات الله.

إن العبقري لا يفنى في ذات الله كما يفعل المتصوفة، إنما هو يفنى فيما خلق الله في كونه من أسرار. وربما كان في ذلك أقرب إلى الله من المتصوفة.

لست هنا بصدد البحث عن الفات للبشرية وكيف يمكن أن تفنى أحياناً في موضوع خارج عنها. فهنا بحث معقد لا مجال له هنا<sup>(4)</sup>، يكفينا منه الآن أن نقول بأن الإنسان العادي يصعب عليه أن ينسى ذاته أو يهمل مصالحه الخاصة في سبيل شيء خارجي. فهو دائم التفكير في نفسه يسعى لرفع شأنها المادي والمعنوي في كل حين. إنه قد يتمسك أحياناً فيبريء نفسه من هذه النزعة الفئوية، ولكنه في

حقيقة أمره على النقيض من ذلك، وقد يدوس على كل ما تمسق به، إذا وجده يقف عقبة في طريق مصالحه الخاصة.

وحين نقف على العبقري نجده يختلف في هذا عن الإنسان العادي قلباً لو كثيراً، لا شك أن العبقري هو إنسان عادي قبل أن يكون عبقرياً، وشخصيته إن لم يمكن أن تخلو من النزعة قذاتية على أي حال، إنما هو قد يمتاز عن الإنسان العادي عندما ينهك في عمله المبدع، ونراه حينئذ لا يبالي بالخسارة تقع عليه أو بالإهانة تلحقه، وقد يستقبل الموت والعذاب بصدر رحيب.

وهنا نلاحظ شيئاً من التناقض في سيرة العبقري مرة أخرى، فهو حين يرجع إلى شخصيته الاعتيادية قد يهتم بذاته كسائر الناس، ولكنه حين تستحوذ عليه نزعة الأبداع يمسى ذلك وما يفتضيه حب الذات من تكالب على متاع الحياة.

يتضح لنا هذا التناقض بوجه خاص إذا درسنا سيرة العبقرة الذين يتخذون سبيل الإصلاح الاجتماعي، فالرجل منهم قد يبقى بمبدأ جند في الإصلاح، ونراه يدوب في هذا اللبث وينسى كل شيء سواه، ويبقى مثبثاً عليه إلى أن يموت، سداً أنه قد تعثر به بعض الفترات أثناء ذلك حين تظهر عليه بعض نقائص النفس البشرية.

العبقري لا يتخلص من ذواته البشرية تخلصاً تاماً، ولهذا نجده ناتياً وموضوعياً في آن واحد، كما وجدناه من قبل، طفلاً ورجلاً، غيبياً وذكياً، محنوناً وعاقلاً.

إنه بعبارة أخرى مجموعة من التناقض والمعارقات، يعرض مع الناس وهو غريب عنهم، يمشي على الأرض وذهنه معلق في السماء!

### التناقض والعبقرية

يقول المنطق الحديث إن التناقض صفة أصيلة في طبيعة الأشياء كلها، فالتناقض سبب التغير في الكون ومبداً الفعرات المتتالية فيه نحو المجهول، والظنون أن الكائن كلما ارتفع في سلم التطور ازداد شدة التناقض فيه، إلى وجه من الوجوه، معنى هذا أن الحيوان أشد تناقضاً من الجماد، والإنسان أشد تناقضاً

من الحيوان. وأنا اعتبرنا العبقري ترقى في تكوين شخصيته من الإنسان العادي جاز لنا القول انه أشد تناقضاً منه طبعاً.

مما يجدر الإشارة إليه ان القدماء لم يكونوا يفهمون هذا الرأي أو يستسيغونه. وقد دفعهم ذلك الى الخطأ في تصوير عظماء التاريخ وعباقرة. إنهم يتخيلون العبقري مخلوقاً كاملاً لا يتطرق إليه النقص أبداً فلذا سمعوا عنه انه قام بعمل غير مستحسن في يوم من الأيام حيث انه اسرعوا الى تكذيب ذلك حالاً اعتقاداً منهم ان العبقري لا يمكن ان يقوم به.

وهنا الخطأ لا يزال شامعاً بين كثير من الناس. فهم يخيّلون العبقري بهالة من العصمة والكمال. وإذا قدر لأحد العباقرة ان يعيش بينهم توقعوا ان يسير في جميع اعماله واقواله طبق ما كانوا يتخيلون عنه. وهم لا يكتفون بل يحسون فيه شيئاً من التناقض للبشرية المعتادة حتى يتسرعوا في ثلثه، وربما جردوه من كل نبوغ. والويل للعبقري الذي يعيش بين هؤلاء الناس. إنه يعيش كغيره من الناس بكل الطعام ويعيش في الأسواق ولكن الناس ياملون منه غير ذلك باعتباره من العباقرة، ناسين انه بشر قبل ان يكون عبقرياً.

اعود فنقول ان العبقري لا يستطيع ان يتخلص من نقائصه البشرية، ولعل هذه النقائص تظهر عليه اكثر مما تظهر على الانسان العادي. فالانسان العادي ميل الى تقليد الناس في افعالهم وتفكيرهم، ولذا فهو يكتف بحوافره اللاشعورية، الصالحة والاطالحة معاً، خوفاً من احتقار الناس له. اما العبقري فهو يكره التقليد ويستهن بالآلوان الاجتماعية. وكثيراً ما يدفعه ذلك الى الانتفاع بحوافره اللاشعورية من غير حياء. كما اندفع لرخميدس حين خرج من الحمام وخذ يركض في الشارع عارياً "ربي كما خلقتني!".

إن الانسان العادي يخضع لعقله الواعي غالباً، وهذا العقل كما نسلطنا ليس سوى تصنيعة المجتمع وتناج ملوفاته وتعاليمه. اما العبقري فقد يصح وصفه بأنه ذو عقلين، إذ هو يخضع لعقله الواعي تارة فتتسببه من لكثير الناس حكمة وتبصراً، ويخضع لعقله الباطن تارة أخرى فتراه عند ذاك مذهولاً كالطفل لو سخطاً كالجنون.

ومن هنا جاز لنا تصنيف الناس على سبيل التبسيط والتوضيح، في ثلاثة أصناف:

- 1 - صنف يخضع لعقله قواعي وهو العاقل.
- 2 - صنف يخضع لعقله الباطن وهو المجنون.
- 3 - صنف يخضع لتعقلين معاً وهو العبقرى.

فإلى أي صنف من هذه الأصناف الثلاثة يود أن ينتمي القارئ الكريم؟ أرجح الظن أنه يود الانتماء إلى الصنف الثالث.

إنما يجب عليه قبل أن يقرر انتماءه إلى هذا الصنف أن يعلم بأنه صنف كثير المتاعب، فليس في الدنيا شيء من غير ثمن - ولا بد دون الشهد من أبر النحل - كما قيل في المثل القديم:

#### العبقرى والتأب:

يقول كارليل في تعريف العبقرية أنها مقدره غير محدوده على تحمل الألم<sup>151</sup>. وهو يقصد بهذا أن العبقرى يملك طاقة مثله في الحث وفي تصبر عليه. الواقع أنه كذلك، إذ هو شديد اليب في السعي وراء الحقيقة، يجمع المعلومات ويوازن بينها ويقلب أرجح المطر فيها، ولكنه لا يتخذها وسيلة للحذقة والتفاخر في المجالس، وهو بذلك يختلف عن أولئك الذين لا يفهمون من دنياهم سوى حفظا للعلومات والحجرات للنسفة يلتقطونها من هنا وهناك ثم يقيتونها على الناس دون أن يفهموا منها شيئاً.

كثير من الناس يشتهون أن يكونوا عباقرة، ولكنهم يريدونها لكي يتباهوا بها على الناس، فما العبقرى الحقيقي فهو مشغول بهمة عن الأسماع بالناس، وهو عند اهتمامه في عمله لا يفهم الناس ولا يفهمون - إنه يخرج أثناء ذلك من عالم لتجتمع ليبدل في عمله الخالص، ولهذا فهو يرى في التناقض الساقطة أو القنديل تتعلق محض لا يرك غير، إنه في ولد والناس في ولد آخر.

#### العبقرى والمجتمع:

وصف شوبنهاور العبقرى بأنه شخص يحاول أن يمحو شخصيته ويتكّر ذاته في

سبيل ان يرى الحقائق الخارجية كما هي . يقول شوبنهاور ، ان منا هو الذي يجعل العبقري تلياً في قومه لان هؤلاء ينظرون الى الاشياء من خلال نواتهم ، ولنا ترى العبقري قريباً بين الناس لا يلتقي معهم في وجهة النظر ، فهو لا يرى ما هو قريب منه بل يلقي بصره الى الأفق البعيد التالي . ومن ثم نشأ سخوف العبقري في المجتمع وعدم مخالطته للناس لانه يفكر في فصل الاشياء الشامل الخالد ، اما هم فيفكرون في الصور المؤقتة الغربية للباشرة فليس بين عقله وعقولهم قدر مشترك ثلثي عنده . ان العبقري يميل الى العزلة ، فليس هو في حاجة الى العشيبة والرفيق كعامة الناس الذين يحتمون في حياتهم على ما هو خارج عنهم . فاللذة التي يستمدونها من صور الجمال والسولة التي يلقاها في الفن يعكزانه من نسيان مشاغل الحياة ان مما يعرضانه عن الألم الذي يزداد في الانسان بنسبة وضوح ابراهيم (6) .

ان هذا الوصف الذي وصف شوبنهاور به العبقرية قد لا يخلو من مبالغة ، ولكنه مع ذلك ذو مغزى لا يستهان به ، وهو قد يوضح لنا شيئاً من علاقة العبقري بالمجتمع .

من الأقول المأثورة ان الرجل يكون اجتماعياً بمقدار ما هو ضحل في تفكيره ، وهذا لقول لا يخلو من صواب كبير . وقد يصح ان نقول أيضاً بان الانسان كلما كان كثير الانتماج في مجتمعه اشتد ابتعاده عن العبقرية . فالشخص الاجتماعي الليق الذي يعتاد على حسن العاشرة ويسعى نحو التحيب الى الناس وكسب رضاهم يصعب عليه ان يبدع الأفكار الجديدة التي هي من مستلزمات العبقرية . انه يستطيع ان يكون ناجحاً في حياته الاجتماعية ، ولكن النجاح الاجتماعي شيء والعبقرية شيء آخر .

لا نتكر ان بعض العباقرة قد نالوا نجاحاً غير قليل في حياتهم الاجتماعية ، ولكن هذا النجاح لم يكن غاية مقصودة منهم ، ولعله جاءهم عرضاً بعد ان ابرك للناس عظيمة ابداعهم فالتفتوا حولهم يحترمونهم ويغفرون لهم كل جفوة تظهر على سلوكهم .

## هوامش الملحق الخامس:

- (1) انظر: جريدة الشعب البغدادية، في عددها الصادر في 1958/4/30 .
- (1) انظر: Encyclopedia of Social Sciences, Art Genius .
- (2) انظر: مجلة المختار، بعهدها الصادر في كانون الثاني 1958 .
- (3) انظر: Encyclopedia of Social Sciences, Art Genius .
- (4) بحث هذه الناحية من أسرار الطبيعة البشرية بشيء من الإسهاب في أحد كتبي المصنف للطبع وهو كتاب "الغزائيلخصية البشرية". ولست أدري متى أستطيع نشره↑
- (5) انظر: Tyrrell, Personality of Man, p. 36 .
- (6) انظر: أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ج 2 ، ص 442 - 443 .

## الملحق السادس

### الجنون والمجتمع

#### تمهيد منطقي:

اعتاد المفكرون القدماء على تصنيف البشر إلى صنفين اثنين لا ثالث لهما، مجنون وعاقل. فالإنسان في نظرهم لما أن يكون عاقلاً أو مجنوناً، ولا يمكن أن يكون عاقلاً ومجنوناً في آن واحد.

وَجري القدماء على هذا التصنيف الثنائي في مختلف الصفات البشرية. فهم يقسمون الناس فيها إلى قسمين: خير وشرير، عادل وظالم، شجاع وجبان، صالح وفلسد، قبيح وجميل... إلى آخره. وهم يضعون بين كل صنف وتقيضه جنأ فاصلاً لا يجوز تعديه في الأحكام إذ هم يعتبرونه حدأ طبيعياً. فإذا كان الرجل عندهم عادلاً وجب أن يكون كذلك في جميع حركاته وسكناته، إذ لا يمكن أن تظهر عليه أية بادرة من الظلم مهما كانت ضئيلة.

وجدنا هنا واضحاً في كتب الطوائف الإسلامية. فهم إما تكبروا رجلاً من رجال التاريخ وتسبوا له صفة معينة تعذر عليهم بعد ذلك أن ينكروا عنه لية رواية تدل على خلاف تلك الصفة، وكان من نتيجة ذلك أنهم لجؤوا إلى التاويلات والتعليلات المتكلفة يستخدمونها في جملهم كل حين.

إن هذا هو ما يعرف في المنطق القديم بقانون "الوسط الرفع" أو "الثالث

أشرفوع" - وهو قانون كان القدماء يعتقدون انه من الضرورات العقلية التي لا يجوز الشك فيها. وقد تبين الآن خطأ هذا القانون وبعده عن واقع الحياة، فليس هناك صفة محضة في أي إنسان بحيث تخلو من نقيضها مهما كان ذلك الإنسان كاملاً في زعمنا، لا بد لكل إنسان من أن يجتمع فيه النقيضان من كل صفة، غير أن أحد النقيضين قد تزداد ثبوتها فيه من حيث تقل نسبة النقيض الأخر، فتطلق عليه لقباً معيناً. ونحن مع ذلك لا بد أن نتوقع منه صدور ما يتناقض ذلك اللقب في بعض الأحيان.

إن المنطق الحديث ترك قانون الوسط المرفوع، واتخذ بدلاً عنه قانون التدرج (Continuum). معنى هذا أن الناس في جميع صفاتهم يختلفون بالدرجة لا بالنوع. فإذا أردنا تصنيفهم يجب أن نضعهم على درجات متتابعة حسبما نكثر أو تقل نسبة إحدى الصفات فيهم.

لتوضيح هذا نأتي بمثال الطوال والقصار من الناس، فنحن حين نجمع عدداً كبيراً من الناس ونضعهم في صف واحد حسب طولهم، نجد رؤوسهم قد اتخذت شكل خط مائل أو درجات متقاربة وبهذا يصعب علينا أن نعين حداً فاصلاً يميز بين الطوال منهم والقصار. فإذا اضطررنا إلى تعيين هذا الحد لفرض من الأعراض العملية، كان ذلك حداً اعتبارياً ليس له أساس من الواقع، فالغرض الذي يقف بجانب هذا الحد الاعتيادي قد تحده قصيراً مثلاً بينما هو لا يختلف في طوله اختلافاً كبيراً عن صاحبه الذي يفصله الحد عنه.

### بين المجنون والعاقل

أخذ علماء النفس أخيراً ينظرون إلى المجانين والعقلاء بهذه النظرة التدرجية، فليس بين الناس مجنون محض أو عاقل محض، ومن الممكن وضع الناس من حيث الجنون والعقل في صف تدرجي على منوال ما وضعناهم من حيث الطول والقصر. أما الحد الذي اعتمده العامة عليه في التفريق بين المجنون والعاقل فليس إلا حداً اعتبارياً، وكثيراً ما شُبه القيم الاجتماعية دورها في تعيين هذا الحد فتحل أحد الناس مجنوناً بينما هو في ضوء قيم أخرى قد يكون سيد العقلاء.

وقد تسمع عن رجل من العقلاء انه قام يحمل جنوناً لا يقبفه العقل أحياناً، فإذا

كنا نصب الرجل اسرعنا على نفي هذا العمل عنه. فليس من الممكن في نظرنا ان يقوم الرجل به وهو العاقل المعروف، لئنا بهنا لا نختلف عن المناطقة القدماء في إيمانهم بقانون الوسط المرفوع حيث نظن بأن العاقل لا يمكن ان يقوم بعمل جنوني مطلقاً كما ان الجنون لا يمكن ان يقوم بعمل معقول، هذا مع العلم ان كلا الأمرين ممكن. إن الفرق بين الجنون والعاقل هو، كما اسلفنا، فرق بالدرجة لا بالذوق.

إن كل انسان يعيش على هذه الأرض لا بد ان يحمل في اعماق نفسه بذرة جنون قليلاً او كثيراً، ولكن اكثر الناس قلرون على مطراة هذه البذرة وعلى تغطيتها. وقد تساعدهم على هذه التغطية لموالهم او مناصبهم او جاههم اللوروث، والويل للفقير الذي لا يملك من هذه الأمور شيئاً، فهو يصبح عرضة للإصابة بالجنون المفضوح قبل غيره، ولنا جاز للفتنة ان يقولوا "كاد الفقر ان يكون كفرة"، جاز لنا ان نقول، "كاد الفقر ان يكون جنوناً".

### فتنة علمية

جاء شاب الى طبيب نفسي يشكو إليه من عقدة نفسية استحوذت عليه وهو يخشى ان يصاب من جرأها بالجنون، وعقدة الشلب انه يحب فتاة حباً جماً وهو يعتقد بان الفتاة تحبه كذلك. وقد ادعى به هذا الاعتقاد إلى أوهام سخيفة جداً. فقال له الطبيب، "... ما تمت تعتقد في باطن نفسك ان الفتاة تحبك وتكتفي بذلك فلا بأس عليك، لما انا اظهرت هذا الاعتقاد إظهاراً فعلياً واخذت تسلك في الحياة وفقاً له فانت مجنون" (1).

إن هذا القول الذي اتى به الطبيب يضع في يدا مفتاحاً نستطيع ان نفهم به طبيعة للعقل والجنون، فكل واحد منا قد يتخيل نفسه أحياناً كانه جميل تشغفه النساء، لو غيري يشار إليه بالبنان، لو بطل يخافه الناس، ولكنه يستحي ان يعلن ذلك للناس جهراً، ولعله يكتمه ويتظاهر بخلافه تواضعاً، إن رغبة العقل الواعي فيه قوية تمتعه من التظاهر بما لا يرضى عنه الناس. وقد تضعف فيه هذه الرقابة في بعض الفترات، حيث يشرب الخمر مثلاً او يصاب بالحمى الشبيهة، وعند ذلك نجده يعلن ما كان يفتيه. ولكن تلك الفترات مؤقتة تنتهي

بزوال سببها، فما إذا استمرت تلك الفترات ونصبح الإنسان فيها لا يبالي بما يقول الناس عنه، فإنه يبدأ بدخول فردوس الجنون شيئاً فشيئاً.

يقول الأستاذ كميل بانغ، إن الإنسان يواجه في حياته عالين، أحدهما داخل ثاني وهو مؤلف من الحوافز العارمة والشهوات والمطامع والأهداف الخاصة. والآخر موضوعي خارجي وهو مؤلف من القيم الاجتماعية وما يفرض الناس على الفرد من اعتبارات، فالإنسان ذو الشخصية السوية هو من يستطيع أن يوفق بين عائلته الداخلي وعائلته الخارجي. أما الشاذ من الناس فهو الذي يتدفق في رغباته الخاصة دون اهتمام بما يتوقع الناس منه<sup>(2)</sup>.

### سبب الجنون:

قد يسأل سائل، ما هو السبب الذي يجعل شخصاً معيناً يشد عن القرانه في الاندفاع مع رغباته الخاصة إلى الدرجة التي يصير بها مجنوناً؟

ارجو من القارئ ان لا ينتظر مني جواباً دقيقاً في هذا الشأن فطست من الأخصائيين في الطب النفسي حتى أستطيع أن أجد الجواب الوالي لهذا السؤال العويص. والظاهر ان الأخصائيين أنفسهم لم يتفقوا بعد على تعيين سبب الجنون تحميماً لا اختلاف فيه. ومهما يكن الحال فإني سأحاول في هذا الفصل ان اتحدث عن الجنون من حيث علاقته بالجمع الذي ينشأ فيه. فقد اتضح الآن ان كثيراً من الأفراد اصبحوا مجانين تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بهم. ولو أنهم كانوا يعمشون في ظروف أخرى لربما اتيح لهم ان يتخلصوا من مغية الجنون على وجه من الوجوه.

كان القدماء يعزون سبب الجنون إلى عوامل فردية خالصة وبذا اعملوا للعوامل الاجتماعية فيه، وكان ذلك منهم خطأ قضيماً أدى بهم إلى الاضرار بالجائنين والعقلاء في ان واحد. ومثل هذا كانت الشعوب القديمة تفعل، حيث كانت تعزو الجنون إلى الجنء فالجنون في نظرها شخص استحوذ عليه الجنء، ولهذا كانت تأتي له بالدرلوبش ليطردوا الجن من رأسه، وهم عند ذلك يقرؤون التعاليم عليه أو يضربونه ضرباً مبرحاً صارخين \* اخرج... اخرج\*، اعتقلاً منهم ان الجن

ستتركه من جراء ذلك. ولكن النتيجة قد تكون على العكس مما يفعلون، حيث تنصر الجن على البقاء في رأسه وتعاقد فيه عنقاً طويلاً.

إن الأبحاث الحديثة في موضوع الجنون أحدثت نتيجة اتجاهها مخالفاً لإتجاه القدماء فيه، حيث بدأت تركز اهتمامها على العوامل الاجتماعية في تكوين شخصية الجنون. إنها لا تنكر وجود عوامل نفسية وفلسفية تعمل عملها في الجنون، ولكن هذه العوامل الغربية لا تؤثر فيه إلا من خلال العوامل الاجتماعية.

لقد بطلت الفكرة القديمة التي كانت تعد العقل البشري جهازاً فطرياً فلنأخذ بذلك. إن العقل، كما اثبتنا اليه من قبل، صتيعة المجتمع. وسواء أكان العقل شللاً أو سوبياً فهو لا يعمد فن يكون نتاج التفاعل الاجتماعي المحيط به في أكثر الأحيان.

وفيما يلي سوف تأتي بأعنته واقعية من الشعوب والراحل التاريخية إذ يظهر فيها كيف فن الحد الفاصل بين الجنون والعقل ليس سوى حد اعتياري ينعث من مغلفات النفس وقيمهم الاجتماعية.

### في الشعوب البدائية

حين ندرس القيم الاجتماعية الموجودة في بعض الشعوب البدائية ينقلب لدينا مفهوم الجنون انقلاباً كبيراً. إن من النادر أن يظهر في هذه الشعوب شخص مجنون على النمط المعروف عند المتقدمين. ولو لعترضنا ذهاب أحد مجانيننا إلى قبيلة بدائية لربما أصبح فيها كاهناً أو ساحراً تأتي على يديه العجرات.

قد يصح القول بأن من مستلزمات شخصية الساحر أو الكاهن في بعض الشعوب البدائية أن يكون قتل كل شيء شائناً في سلوكه وأفكاره، ولا تزال بقية من هذا موجودة بين عوامنا حيث نجدهم يحترمون الجنين أحياناً ويتسبون إليهم شيئاً من الكرامة أو القدسية. شهدت في بغداد قبل سنوات رجلاً مجنوناً اعتاد أن يركب على مقدمة فية سيارة تمر به، وكان سواق السيارات لا يمتعون من هذا الفعل الشاذ مخالفة أن " يدعو " عليهم فتتعطل سياراتهم عن العمل بسبب دغله كما كانوا يظنون.

يقول الأستاذ سندرلند أن الشذوذ البدني أو العقلي من مستلزمات شخصية

الساحر في الشعوب البدائية، فالساحر لا يد أن يكون حصياً بهذا الشذوذ عن وجه من الوجوه، ويكثر في السحرة القشوة البدني أو البرص أو العمى أو الانحراف الجنسي أو القصر المرط أو التليث العصبي والهستيريا<sup>(3)</sup>

ويحدثنا الأستاذ باستيد عن إحدى القبائل البدائية وكيف يستطيع لرجل فيها أن يكون ساحراً إذ يجب عليه أولاً أن يقتل تخصصاً ثم يلقي بجثة القتل في حفرة ويربط نفسه بها حيث يلتصق الجسد بالجسد والدم بالدم، ويبقى على ذلك بضعة أيام من شهر أكل أو شرب، إن هذه الرياضة النفسية للبشعة تسبب فيه شيئاً من الالتفات لعصبي، وعند انتهائها يخرج إلى الناس ساحراً<sup>(4)</sup>

وتحدثنا الأستاذة بكت عن بعض قبائل الهنود الحمر إن الذي يريد أن يصير فيها ساحراً أو كاهناً يجب أن يتعد عن النسب ويتغزل في الغابات والأماكن الموحشة، وهناك يمتنع عن الأكل ويدخل في رياضة نفسية عنيفة يعذب نفسه بها ويبيكي ويرجو من الأرواح الخفية أن تمنحه الرؤيا انفسية، ويتأبر على ذلك أياماً حتى تفتيه الرؤيا فتصره بأن يرجع إلى فومه إذ هو قد منح الوعبة السحرية لشفاء المرضى أو النصر على العدو

### في القبائل البدوية:

كانت القبائل البدوية في أيام الجاهلية تنظر إلى الجنون بما يخالف، من بعض النواحي، نظرة للشعوب البدائية إليه. كان يظهر بينهم بعض المجانين فيلجؤون إلى معالجتهم بوساطة التعاويذ أو الضرب المبرح. وهؤلاء المجانين كانوا يتخذون لأنفسهم نمطاً من السلوك مخالفاً لنقيم البدوية مسلطة كان يهذون بلاقول الفارغة أو يقومون بحركات لا سبب لها ولا معنى فيها. في نظر أقرانهم من البدو طبعاً.

وقد ظهر في فهام الجاهلية نمط آخر من المجانين، لكن القبائل البدوية كانت تنظر إليهم نظرة تقدير ومهابة. وكان هؤلاء المجانين يعرفون في أيام الجاهلية باسم "فتاك العرب".

كان "لغلك" الجاهلي شذاً في سلوكه إذ كان يحمل في أعماق نفسه ميلاً شديداً نحو القتل وسفك الدماء. فهو لا يكاد يرى شخصاً ويشعر بالنفور منه حتى يسرع إلى قتله. يحدثنا التاريخ عن "فتاك العرب" إنهم هجروا قبائلهم واتخذوا

للقبائل لهم مقرّاء، وكانت قبائلهم لا تصير على وجودهم بينها لأنها لا تريد أن تتحمل مخيبة الثارات التي تنشأ عن فتكهم للتواصل، ولكن القبائل كانت على الرغم من ذلك تحترمهم وتعطيهم من التشجيع الأبطال. وقد اشتهر منهم شعراء كبار من أمثال الشنفرى، وتابط شراً اللذين خلدتهما كتب الألب العربي وأخذت تتداول قصائدهما العارمة بأعجاب؛

من طريف ما يحكى في هذا الصدد أن بنوياً سمع عن "فتك العرب" وولد أن يكون بطلاً مثلهم، فذهب إلى أحدهم يسأله أن يعلمه "الفتك"، فأجابته بالفتك بقوله، "إنا سمعت فافعل". والظاهر أن الرجل لم يفهم الجواب فأعاد السؤال مرة ثانية وثالثة. عند هذا رفع الفتك سيفه يريد قتل الرجل وقال، "هنا الفتك... جمعت بضربك" <sup>161</sup>

أرجح الظن أن هؤلاء "الفتك" لو كثروا يعيشون في مجتمع حضري لقيدهم الناس بالسلاسل وحجروهم في السرايب، ولربما جاؤوا لهم بالدرأويش يضربونهم بالعصا ليطردوا للجن من رؤوسهم.

### في التاريخ الإسلامي؛

يصح القول بأن الإسلام قضى على أمثال هؤلاء للجنين "الأبطال" فلم يبق لهم مجال يعيشون به في الأرض فسلاً. وظل الأمر كذلك في أيام الخلافة الراشدة، إذ هي امتداد لعهد النبوة. ولكنهم بدؤوا يظهرين من جديد عندما حاول معاوية أن يرجع بالعرب إلى سيرتهم الجاهلية الأولى. ويبدو أن معاوية استفاد منهم في بعض حروبه التي أراد أن يرهب بها الناس.

يحكى عن رجل منهم اسمه بسر بن أرطاة أن معاوية بعثه على رأس جيش إلى الحجاز واليمن، فافتقر هناك الجرائم المنكرة والسفك الفظيع، وكان يتلذذ بذلك، حتى قيل أنه كان يقتل الأطفال.

لقد كان للرجل في حقيقة أمره مجنوناً وقد وجد في تلك المرحلة الاجتماعية الصاخبة مجالاً يشبع به رغباته العارمة. ولم يظهر الجنون عليه إلا بعدما عجز عن العمل وتقاعد في بيته. يقول النورخون أنه كان أثناء تقاعده في البيت "بهني بالسيف"، فكان لا يطمئن إلا إذا لمسك بالسيف وأخذ يضرب به، حتى اضطر

اهله إلى أن يتخذوا له سيفاً من خشب ويضعوا بين يديه الوسند، فما يزال يضرب الوسند بالسيف حتى يبركه الأعياء فيقتشي عليه، فلنا اتفاق عاد إلى مثل ما كان فيه. وما زال هذا عليه حتى مات ولستراح<sup>(7)</sup>

### بين الشعوب المتمننة

لم يخل تاريخ الأمم المختلفة من أفراد يشبهون "فتك العرب" من بعض الوجوه، حيث وجدوا لأنفسهم أعمالاً تلائم جنونهم، ولولا ذلك لكانوا من المجانين المفضوحين. ويكثر هؤلاء في فترات الظلم والاستبداد، فيصيرون جلادين أو سجانين أو محققين، وعندئذ ينهالون على ضحاياهم بالتعذيب أو القتل، وهم يتلذذون بذلك، ثم يدعون لهم يقومون به طاعة لأمر السلطان الذي فرض الله طاعته على العباد.

وبكثر هؤلاء أيضاً في الفترات لصاحبة التي تضعف فيها سلطة القانون، فنراهم عندئذ يقومون لغوغاه يحرضونهم على الاعتداء والتعذيب والمثلة، وهم حين يفعلون ذلك يشعرون بالسعادة، لأن منظر الدماء وتبين الجرحى وعويل النساء تتجاوب مع ما في أعماق نفوسهم من الرغبات المكبوتة.

### جنون اللوك

طالما حدث في التاريخ أن يرتقي العرش، في أمة من الأمم، ملك مجنون، ولكن رعاياه المسكين لا يعرفون عن جنونه شيئاً، لأنه محاط بالخدم والمداشية والوزراء وهم يزينون له عمله وبتزلفون إليه ويمسحونه فيحسب نفسه سيد العقلاء. ولما خرج إلى الناس انحاط به الفرسان وتقدمت بين يديه الواكب وسار خلفه الوجهاء، وينظر للناس إليه فيظنون أن الحكمة قد تجسمت فيه، وهم لا يدرون أنه في حياته الخاصة يسلك سلوك الأطفال.

يحدثنا أيضاً خان في منكراته عن ملك ليرلان الأسبق مظفر الدين شاه، فقد قابله الأغا في باريس عام 1900 ثم وصفه بأنه كان جاهلاً إلى درجة هائلة، منقلب الأطوار شاذ المزاج بدد ثروة طائلة على الليهارج الزائفة حيث كان له ولع صديقي يدعو إلى الرداء يسخف الحرائيق وإغلاها ثمناً مثل الصناديق الموسيقية الطعمة بالجواهر والذهب والفضة، وكان رئيس وزركه في ذلك الوقت يستغل سلوكه الطفلي لأغراضه

لخاصة، فكان في جلسته لصباحية لا يقدم إليه أية تقارير جدية بل يقص عليه ذلك النوع من قصص الجنيات التخيلية التي يفصها المرء عادة على الطفل للصغير بغية تسليته وتخال لتسرور والتعة إلى قلبه .

وسمح الشاه ذات يوم فناء مكوثه بيليس بأعدوبة الراديوم الذي اكتشفته مدام كوري، فاحب أن يراه، فاستجلبت مدام كوري للمطلب وجاءت هي وزوجها بقطعة من الراديوم فعرضاه على الشاه في قبو مظلم، ولما رأى الشاه البريق الساحط ينبعث من الراديوم فبعم أرجله القبو، انزلته نوبة زعر شديد وأخذ يركض في القبو وهو يزعق ويهذي ويتهم مدام كوري وزوجها بمحاولة قتله<sup>191</sup>

يعلق آغا خان على هذه القصة فيشير إلى أنها لمست بالقصة النادرة في تاريخ الملوك الذين يربون العرش عن أبائهم - ففي جميع الأسر الحاكمة التي حدثنا عنها التاريخ نشهد في بنيتها مقاماً ذا شخصية قوية، وهو يؤسس الملك نكي يسلمه بعد موته إلى نربة ضعيفة عاجزة تصبغ نفسها بهالة مقدسة، وتطل الدرية تحكم الناس سساعاتها وحمقها حتى ينهار حكمها بعد زمن بطول ويقصر، فيظهر من بعد هذا رجل جديد ليؤسس أسرة حاكمة جديدة... وهكذا تتوالى الأسر الحاكمة على عروش الأمم مرة بعد مرة.

إن هذا الرأي الذي جاء به آغا خان لا يخلو من صواب كثير، والظاهر أنه لتبصر الرأي من ابن خلدون<sup>192</sup>، والغريب أن آغا خان، إذ يقول بهذا الرأي في تبين مناب الأسر الوراثية، ينسى أنه نعمة من أبناء أسرة ورثية، وقد اعترف في مكان آخر من مذكراته كيف أنه نصب إماماً على طائفته وعمره ثمان سنواً<sup>193</sup>، وكان أبوه من قبل إماماً كما كان اجده كلهم نعمة "سلام الله عليهم" .

ليس هناك فرق بين أن يكون الوارث ملكاً أو إماماً، فمما دام قد نشأ في بيت نبيه لتعرف وهو محاط بالخدم والمتزلفين يؤيدونه في كل ما يشتهي ويبدون إعجابهم بكل كلمة ينطق بها وبكل حركة يقوم بها، فإنه لا بد أن يتعاضد في غبه فيكون ظالماً أو مجنوناً وهو بحسب نفسه ظل الله على عباده!

إن هذا هو الذي جعل المسلمين الأولين يستعشعون عمل معاوية حين بدل الخلافة للرشدة إلى ملك وراثي، وقد وقع فعلاً ما كانوا يخافون منه حيث سعد إلى

عرش الخلافة عن طريق الورثة كثير من الظالمين والمجانين من امثال المتلذذ بأمر الله هارون الرشيد .

### هارون الرشيد

انخدع كثير من الناس بهذا الرجل وجعلوه من فكثر اللوك حكمة واعظمهم عدلاً، بينما كان في حقيقة امره ظالماً ومحنوناً في ان واحد .

يحدثنا التاريخ عنه فيقول انه كان في بعض الأحيان يضحك ويمزح، ويضطرب ويتلذذ، ثم يقلب فجأة، لا سيما إذا سمع موعظة أو شعراً في الزهد، فيأخذ بالبكاء والصراخ خوفاً من الله . لو فعل هذا رجل من أبناء الفقراء وكرره مرة بعد مرة، لضحك الناس عليه وقذفوه بالأحجار، ولربما صر من جراء ذلك مجنوناً مقيداً بالسلاسل .

قال صاحب الأغني، " كان الرشيد من اعز الناس دموماً في وقت الوعظة، ونسبهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة " . وقال غيره . " إن هارون الرشيد كان متديناً شديد التقوى يصل في اليوم مئة ركعة، غضوباً يسفك الدم لغير ما سبب، وطروباً يملك الطرب عليه نفسه ومشاعره، وهذه صفات ليس من السهل اجتماعها كلها في صعيد واحد وشخص واحد " (١١) .

يرى بعض المؤرخين ان اجتماع هذه الصفات المتناقضة في شخصية الرشيد من إشارات الغرورية وحدة العاطفة، ولكني أنسال هؤلاء المؤرخين . لو انهم شهدوا هذه الصفات في البغال المجاور لبيتهم أو في الحمل الذي يحمل أمعتهم، فهل يفسرونها على متوال ما فسروا صفات الرشيد؟

لواقع ان هذه الصفات المتناقضة قد توجد لدى كثير من الأفراد العاديين، انما هم يحاولون كبتها في أنفسهم والسمر عليها مخافة ان يستهجنها الناس فيهم، وانا عجزوا عن كبتها اصبحوا عرضة للسخرية والاضطهاد، وربما ادى ذلك بهم في نهاية المطاف إلى الجنون . هذا مصداق ما ذكرناه سابقاً وهو ان الظروف الاجتماعية الصعبة بالانسان لها دخل كبير في وضعه في قائمة المجانين او في قائمة العقلاء .

## التناقض والجنون:

إن التناقض، كما نكرنا في الفصل السابق، موجود في كل إنسان وهو في العبقري أكثر مما هو في الرجل العادي. وهذا يجب أن تذكر بأن الجنون كثير التناقض كالعقري لكن هناك فرقاً كبيراً بين تناقض العبقري وتناقض الجنون.

العقري يؤلف من صفاته المتناقضة جهازاً للإبداع. فهو يجمع في نفسه مزجاً للشعور والاشعور، أو مزجاً للوضوعية والذاتية، ويستخدمها معاً للتوصل إلى الفكرة الجديدة. أما الجنون فالوضوعية ضعيفة فيه كل الضعف، إذ هو لا يستطيع أن يفهم الواقع فهماً صادقاً، ولهذا نراه يتدفع بجوافزه اللاشعورية العارمة من غير رادع. ومن هنا يظهر التناقض عليه.

معنى هذا أن التناقض في الجنون ينبعث من نزعته الذاتية الشديدة، فهو يسير في سلوكه حسبما تعمل عليه عقده النفسية وشهواته الآتية وهو لا يبالي أن يفعل الآن عكس ما فعله قبل ساعة.

اكتشف العلماء مؤخراً نوعاً من الجنون أطلقوا عليه اسم "الجنون السيكوباتي". وصاحب هذا الجنون يمتاز عن غيره من الجنانين بكونه عاقلًا ونكياً فيما يتصل بمصلحته الخاصة، وكثيراً ما يكون مجاملاً بشوشاً حسن المعاشرة، وهو لا يختلف بهذا عن الذين نسميهم بالعقلاء، لكن فيه نقطة ضعف فظيعة هي قلة التعاسك في شخصيته من الناحية الزمنية. فهو قد يستقرض منك مبلغاً من المال على أن يرجعه إليك بعد ساعة، ثم تمضي الساعة والساعتان وعشرات الساعات دون أن يشعر بأهمية وعده. ولعله يقابلك بوقاحة عجيبة كأنه لم يستقرض منك شيئاً ولم يعدك بالوفاء. فلذا سألته عن سبب هذا العمل الشائن ليترجم لك ليحسامة بلهاء وقال: "لا بأس، ساعتك المبلغ بعد ساعة، انتظرنني حتى لتيك"، ثم ينهب من غير رجعة.

إن الشخص العادي لا يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل وهو مطمئن، فلذا عجز عن الوفاء بما وعد به مثلاً شعر بالخجل على الأقل. إنه قادر أن يفهم شعور الغير نحوه ونحو مواعده. أما الشخص السيكوباتي فهو لا يشعر بالخجل إلى درجة مذهلة<sup>(12)</sup>. إن ثنائيه قائمة بذاتها لا يهتماً بنظر الغير إليها.

يقول الأستاذ جرجيس: "إن حياة السيكوباتيين تدور في نطاق القيم القصيرة الأجل ووفقاً لها. فهم يجرون في حياتهم على مبدأ اللذة، لأنهم يشعرون دوماً بالحاجة الملحة إلى إرضاء إبتغائاتهم ورغبتهم على وجه عاجل، ويعجزون عن إبتغاع هذا الإرضاء العاجل للذات أكثر بقاءً. ومن المرجح أن ذلك يرجع إلى أن النضوج والبلوغ والذواق الاجتماعي تتوقف، إلى حد ما، على قدرة الفرد على تضحية لذاته المؤقتة في سبيل القيم البعيدة أو الباقية. والسيكوباتي يؤثر اللذة العاجلة على الرغم من أنه يعرف أنها تهدم القيم الباقية للصحة وقصبة الأسرة والعمل المهني..." (13)

ويصف الأستاذ سلامة موسى السيكوباتيين: "إنهم غارقون في نائية مسرفة. فشعارهم أنا، أنا، أنا. يبتغون النجاح وأحياناً يتفوقون. وليس للتغير أية مكانة في حسابهم وهم على استعداد لأن يبوسوه" (14)

يصح القول أن هذه التلتية المسرفة هي صفة جميع الجانبين، غير أن الشخص السيكوباتي يستطيع أن يقطي عليها أتياً ببشاشته ومجاملاته فيحسبه الناس علقلاً بينما هو مجنون. وقد يحاول بعض الناس إصلاح الشخص السيكوباتي عن طريق الموعظة فيقولون له مثلاً: "إن الوفاء من الخصال الحميدة التي أمر الله بها". والسيكوباتي يصفي إليهم بتدابير وبلواقهم على صحة ما يقولون له. وقد يأتي لهم بمواعظ معاللة وقرائن مؤيدة. والظالم أنه مخلص في قوله، لكن إخلاصه لا يمدى اللحظة التي يتحدث فيها. فلا تكاد تثني لحظة أخرى حتى يتقلب هو إلى شخص آخر تبعاً لرغبته الأنية الجيدة.

### انقلاب المقاييس:

مشكلة الشخص السيكوباتي هي كمشكلة غيره من الجانبين حيث يكون للظروف الاقتصادية والاجتماعية دخل كبير في تخفيفها أو في تضخمها. فالشخص السيكوباتي قد يكون غنياً أو فاقراً وسلطاناً وعند هذا يجد الناس له عذراً فيما يفعل، وقد يحدثون أفعاله لتتلفضه من علامات العبقرية والعظمة.

رايت أحد أولادي ذات يوم وهو يقرأ في كتاب للمطالعة اعطيت له في المدرسة وكان الكتاب يحتوي على فصل عنوانه "عظمة الرشيد" والأمر من ذلك أني

سمعتة بتخني بنشيد "بغداد يا بلد الرشيد"<sup>(13)</sup>، فدركت عنيدن كيف لن لتتروف ولتحرش الموروث والمظاهر البانخة تستطيع ان تجعل من المجنون عبقرياً ومن الشخص السيكوباثي عظيماً.

رفينا كيف كان الرشيد، رضي الله عنه، غريب، الاثوز، يشد، في الطرب حتى تحاله مستهتراً ثم بذهاب فجأة فيجهش في البكاء زهداً وتقوى، وهو يشتري بأموال الأمة ثلاثة آلاف جارية ثم يغمى عليه من خشية الله، وهو يصل في اليوم مئة ركعة ثم يذبح الدم لشيء لا يستحق سفك الدم<sup>(14)</sup>

إذا لم يكن الرشيد مصنوعاً فهو على الأقل كان شخصاً سيكوباثياً، ولكنه كان في الوقت ذاته امير المؤمنين وظل لله على العالمين!

### الوجاهات المزيفة:

لعلني لا اغالي إذا قلت ان كثيراً من الوجاه الذين يعيشون في العهود السلطانية هم من طراز الرشيد، هم يعملون في أعماق انفسهم بذرة جنون قوية وتكن وجاهتهم المزيفة تستر عليهم، إنهم قادرين على تخفية تناقضهم السافل بالفضيحة المصطنعة وشموع الأنف، وإذا تكلموا حاولوا ان يتحدوا لهم لهجة فخمة ذات رنين، فيستمع إليهم الناس ويحسبون أنهم من ارباب النداء والنظر البعيد.

عرفنا من امثال هؤلاء عدداً لا يستهان به في العهد البائد وفي العهود السلطانية مسابقة له، فقد اتاح لهم الوضع الشاذ ان يتسبموا الناصب العالية او المقامات الاجتماعية المحترمة، واعتاد الناس على مهلتهم ولقيام لهم في كل مجلس، وكانت نتيجة ذلك ان اصبحت أزمة الأمور أحياناً في ايدي مجننين.

من خصائص العهود السلطانية بوجه عام ان الناس فيها يتدرون عظمة الرجل بما يملك من مظاهر بانخة وميل للاستكثار والفضيحة، ولا تزال بقية من ذلك شائعة بين كثير من الناس حتى يومنا هذا، فهم لا يحترمون إلا من كان مصعر الخنين عظيم الكرش يخرج للكلام من انفه، فإنما رنوه مسكيناً متواضعاً احتقره وجرده من كل مزية، وهم بعينهم هنا يظلمون انفسهم من حيث لا يشعرون، فكم من عبقرى ضاعت عبقريته من جراء ذلك، وكم من مجنون اصبغ عندهم رين العارفين.

كان في العهد السابق شخص يعد من الأساتذة الكبار، وكانت الدولة كلها معجبة بعبقريته، توكل إليه المهام الجسام، فمحطة الإذاعة تكاد تدوب هياماً به وتقديراً لأحاديثه الرائعة، ووزارة المعارف الجليلة "تصوت" عليه، أما جو الكليات والمعاهد العالية فقد سادته الهدوء اصغافاً لما يخرج من بطن الأستاذ من أفكار جديدة، وقد أتيج لي أن أدرس هذا الرجل الجبار فلم أجد فيه من مزية سوى أنه اعتدل أن يخرج الكلام من أنفه، وقد كلن له لحن الحظ آتف عظيم!

### الجنون والرقاعة:

ما دمننا نتحدث عن الجنون وانواعه المختلفة فلا بد لنا من أن نتحدث عن الرقاعة، إذ هي في نظري ليست سوى نوع خفيف من الجنون، وهي قد تؤدي ببعض الناس أحياناً إلى جنون صارخ حين تقسو عليهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

الرقاعة تتمثل عادة بالأقوال والأفعال "الخطيرة" التي ينقرز منها الناس، ولكن صاحبها يظن أنها خير ما يمكن أن يفعله إنسان فهو يأتي مثلاً بالذكاة الخطيرة ويكون أول الضاحكين لها، وقد يشتد في الضحك حتى يخيّل إليه أن الضحك قد ساد الحاضرين بينما هم قد ضحكوا عليه بدلاً من الضحك معه.

من الممكن أن تقول مثل هذا عن مختلف الأقوال والأفعال التي يقوم بها الرقعاء، ويشند العلاء على الناس حين يكون هؤلاء الرقعاء من أصحاب العروش المورثة أو الثروات العريضة أو الوجاهات الزيفة.

ومن يلاها الرقاعة أنها قد تكون معدية. فإذا كان السلطان، وهو رأس المجتمع، رقياً، أخذ الوجاهاء والقواد والوزراء يحتذون به قليلاً أو كثيراً، إنهم قد وصلوا إلى مكانتهم "العالية" عن طريق التزلف للسلطان وتحميد أفعاله وأقواله الرفيعة، وهم لذلك يتوقعون من أصحابهم وحاشيتهم أن يعاملوهم على منوال ما عاملواهم به سيدهم السلطان "عز نصره". وتصبح عادة التزلف إلى تقليداً اجتماعياً عاماً يعامل به كل فرد من هو أعلى منه مقاماً. وبهذا تنتشر الرقاعة بين الناس لانتشاراً فطرياً، وتقع معرفة هذه الرقاعة العالمة على الطبقة السفلى من الفقراء والمساكين.

إنهم يجب أن يجدوا عنراً لكل عمل رفيع أو طالم يصدر من الطبقة العلاء، أما أعمالهم فيجب أن يتحملوا وريها كأملاً غير منقوص.

### أوزار الفقير:

الفقير في تعهود السلطانية يجب أن يتحمل أوزار الدنيا والأخرة معاً. إنه لا بد أن يدخل النار في الأخرة من جره نخوبه الكثيرة، وهو في نتياء مستقر محروم. وعادة للناس في العهود السلطانية أن يحاسبوا الفقير على جميع حركاته وسكناته، إنه مفضوح أمام فيصارهم بملابسه قرثة وشكله التميم، فلا يكونون يلحون فيه شيئاً قليلاً من الرقاعة أو التناقض حتى يتהלوا عليه بالتفريع والسخرية. إنهم يستنون بتصب "القايش" عليه وتديبر "القالب" حوله.

والناس إذ يفعلون ذلك مع الفقير، لا يجزؤون على فعله مع العني لا سيما إذا كان جميل الحيا انيق الظهر، فإذا تكلم هذا الغني قالوا له "أحسنست بارك الله فيك". ولا يكتفون بذلك بل نراهم يلتفتون إلى الفقير الجالس معهم فيويخونه قائلين له "لماذا لا تتكلم وبلك مثل هذا الرجل العظيم؟" والفقير ساكت لا يدري بماذا يجيب، إنه قد جاء بخير مما جاء به الغني المحترم، إنما هي ثروة قبحها الله، قد تخلق من العمق حكمة ومن الضلل أصالة.

إن للفقير الذي يعيش في مثل هذا المجتمع لا بد أن يكون عرضة للإصابة بالجنون قبل غيره. وهذا هو الذي جعل أكثر من في دور المجانين عندنا من الفقراء وأصحاب الوجوه الكالحة.

أعرف مجنوناً كان في بدء أمره شاباً سوياً ولكنه كان دميم الخلقه فقيراً، فهو يريد أن يكون محبوب النساء كئشان غيره من الشبان، وأخذ أصحابه يدبرون له "القالب" في هذا الشأن حيث يكتبون له الرسائل الغرامية على لسان الغيتات، وهو يصدق بها ويبنى عليها الآمال العراض.

إن أصحابه يحبون أن يرفهوا عن أنفسهم بالضحك عليه. وكلما اشتد الضحك عليه لزيد هو من جانبه تحليفاً في الأوامر وجميل الأمان. وانتهى اللطاف به أخيراً أن صار يتخيل نفسه ككاهن يوسف الصديق في الجمال وأن الغيتات يقتلن أنفسهن هياماً به. وعندما تصلى أصحابه في الضحك عليه وأخذوا يؤنونه ويعتدون عليه،

ظن أنهم يصدونه على جديبته الجنسية، ولم يجد علاجاً لمسدعهم إلا بن شهر عليهم الساطور يهدنهم به، واشتهر بينهم بأنه 'بطل الساطور'... إنه اليوم مفيد بالسلاسل في سرداب مخافة أن يقتل فحداً بساطوره 'ببتار'. وقد صدق من قال أن المجتمع قد صنع قتلته بيده!

لو كان هذا الشاب من أبناء الأغنياء لوجد في حياته ثوافعية ما يشبع رغباته الجنسية المكتومة، ولربما عثر بين الفتيات من ترضى به عشيقاً ثم يأتي إليه كئذلفون يزينون له جماله "اليوسفى"، ولعله عند ذلك سوف لا يجد سيباً كافياً لأن يكون مجنوناً.

### الجنون والظروف العائلية:

للظروف العائلية تأثير كبير في تكوين شخصية الجنون، وربما كانت هذه الظروف أقوى أثراً فيه من الظروف الاجتماعية العامة. وقد فطن إلى ذلك أرباب التربية الحديثة واهتموا به اهتماماً بالغا.

خذ على سبيل المثال طعلاً ينشأ في عائلة فقيرة، ويريد أمه منه أن يدخل لندسة وأن يصير كغيره من أبناء الناس موظفاً كبيراً أو طبيبياً مشهوراً أو مهندساً ناجحاً أو ما أشبهه. والطفل المسكين قد لا يجد في نفسه المؤهلات التي تجعل منه تلميذاً ناجحاً، وربما كان من الضمير له أن يكون عطراً أو تجاراً أو بائع احذية، ولكن أهله لا يقبلون منه ذلك أبداً، إنهم يريدون أن يكابدوا به الحسك وأن يرفعوا به رؤوسهم بين الناس على متوالي ما فعل أهل فلان أو فلانة.

مما يجدر ذكره أن الطفل الذي يولد في عائلة غنية قد يستطيع أن يصل إلى ما يطمح إليه من منصب رفيع أو مهنة محترمة. إن طرق الوساطة والرشوة وغيرهما مفتوحة بين يديه، والناس مستعدون لمساعدته في كل سبيل، وهو عندما يصغر خده ويستمع بأذنه اعتقائياً منه فته نجح بسعيه وإرادته، وقد لا يتريد أن يقامى على أقرانه بقوله 'من جد وجد' و"كل من سار على الدرب وصل"، وبسمع الفقراء هنا القول منه فيصدقون به، وتراحم بنهالون على أولادهم بالنصيحة الفارغة والتزوير المتواصل، صارخين فريهم: "من جد وجدا".

الفقير يريد من ولده أن ينجح في الحياة كما نجح فيها ابن الغني "المليل".

والولد السكين يحد، رأسه وربتل أقصى جهده بون جدوى. إن سيفه أمن جد  
وحد مسلط فوق رأسه دلعماً فهو لا يستطيع أن يجادل فيه أو ينكر صحته من  
نحية، وهو لا يستطيع من الناحية الأخرى أن يستفيد منه. وهذا قد يؤدي به إلى  
معلنة الصراع النفسي في نهاية الأمر، وربما أدى به أخيراً إلى الجنون.

### مجنون أعرفه:

أعرف شاباً هو الآن مجنون. وقد أتيج لي أن ادرس حياة هذا الشاب منذ بداية  
أمره فذكرت أن الجنون قد نشأ فيه من جراء صراع قوي حدث بين عالمه الداخلي  
وعالمه الخارجي ثم استفحل هنا الصراع النفسي فيه حتى أدى به إلى الانفصام. من  
اجتمع إلى العيش في عالم من الأوهام خاص به.

عاش هذا الشاب منذ طفولته في بيئة فقيرة جاهلة. وكانت له نم مغرورة جداً  
تنظر إلى الناس جميعاً بعين الاحتقار وكانت توحى له بهذا الغرور يوماً بعد يوم.  
ودخل الشاب المدرسة في طفولته كخيره من أبناء الجيران والأقارب فلم يوفق فيها.  
وتخذ يرسل في نروسه سنة بعد سنة فتالت أمه من ذلك فلأ شديداً. إنها كانت  
ثريد أن تتباهى بولدها وتفاخر به الجيران والأقارب ولكنها وجته دون غيره من  
أبناء الناس. وصارت تنهال عليه بالتهقير واللوم القذع قائلة له، "ليه يا حنظل.  
حظك مثل حظ أبيك الناس يصعدون وانت تنزل".

وأصبح قلبت على هذا الشاب للسكين جحيماً لا يطلق أنه يريد من ناحية أن  
يشبع غروره وغرور أمه، وهو من الناحية الأخرى يجد نفسه عاجزاً عن مجازاة  
أقرانه في الدراسة. وكان كل تفريح يتلقاه من أمه يزيد من له. فحل الصراع في  
نفسه.

وجاء زمن استطاع بعض أقرانه فيه أن يدخلوا في سلك الوظيفة للحكومية أو  
غيرها من شؤون الحياة وينجحوا فيها، بينما هو باق في مكانه يطلب الدرهم  
والدرهم من أبيه فلا يئلهما إلا بشق النفس. إن له شهوات ومطامح يجب  
التفيس عنها كما ينفس عنها أقرانه من شبان فلا يتمكن..

ومن هنا بدأ ينطوي للسكين على نفسه. وأخذ يشبع غروره من طريق الأكلام.

فأخذ يتخيل نفسه عبقرياً مظلوماً ومفكراً عظيماً لا يقدره الناس حق قدره. وكلما قل تفسير الناس له ازداد هو تحليقاً في أوهامه وأحلامه.

إنه اليوم سلكت يمشي وحده ولا يلتفت إلى أحد، ولكن في أعماق نفسه ثورة عارمة. التفتت به ذات مرة فسألته عن حاله، فأخذ يتحدث عن عظمته وتفكاره العبقري وكيف ان الاستعمار يخشى منه ويؤلب عليه الناس. وهو يزعم أن الجواسيس تطارده في كل مكان والخصوم يديرون له الدسائس والمؤامرات، وبني أخشى أن يتملكني الشاب في خياله "الرفيع" هنا فيشهر على خصومه السلطور كما فعل زميل له من قبل.

### العهد البائد:

حالة هذا الشاب ليست نادرة بين شباننا، وقد يصح القول بأن أمثال هذا الشاب كثروا في العهد البائد. وللظاهر أن ظروف ذلك العهد قد ساعدت على ازدياد عددهم قليلاً أو كثيراً.

بدا للعهد قبلك يعد الحرب العالمية الأولى حين جاءت الحضارة الغربية بمساوئها ومحاسنها. فقد أختت المدارس للحيثية فتفتح أبوابها يومذاك، وكان جو تلك المدارس مملوفاً بالنصح والمواظف الفارغة من طراز "من جد وجد"، وقد وقع الأطفال من جراء ذلك بين حجري الرحي.

كانت المدارس اجهزة لتخريج الموظفين، وكانت الوظيفة الحكومية مطمح أكثر الأباء والأمهات تقريباً، فأخذوا يدفعون أطفالهم إلى المدارس دافعاً بغية أن يروههم بعد ذلك "لفتية" يشار إليهم بالبنان. وكان التلميذ يجد في المدرسة أفكاراً تناقض ما يحدف في واقع الحياة. وإذا قدر له أن يتخرج من المدرسة وجد الدنيا تسير على خلاف ما كان يتخيل، فتروقة فدوائر مزدحمة بالرفحين والغائبين من أصحاب الوجامة والنغود يتوسطون لأبنائهم ومن يلود بهم. أما أبناء الفقراء فليأكلوا التراب!

أذكر أني عندما تخرجت من المدارس الثانوية عام 1937 أصبحت من رواد الدوائر الحكومية لا سيما دوائر وزارة المعارف "الجليلة". فكنت أتمشى في أروقتها أو أقف متكئاً على سياجها من الصباح إلى المساء، وحدث لي ذات مرة أن شهدت عجزاً ترتاد دوائر مثلي في سبيل ابنة لها معلمة، فسألته، أيتها الخلة، هل لديك

واسطة ٩: " . فأخذت تيكبي وتقول . " ولسطني هي له " . فلم تملك جواباً لها غير قولها " لبحني عن واسطة اخرى...ايتها الخالة العزيزة! " . ولست أدري هل انتفعت العجوز بتصيحتي أم رقيت معتمدة على واسطة الله في ذلك العهد الذي كان الشيطان يسيطر عليه .

وفي الوقت الذي شهدت فيه تلك العجوز كنت لشهد كذلك أبناء الترفين يلكون الدنيا وما فيها، يعثون على الناس وينتهكون الحرمات وينهبون الأموال، والحكومة تجد لهم عدراً فرعاً يفعلون . وكيف لا تجد لهم قعدراً وقد حقد بهم لوسطاه من كل جانب .

لتفرض ان أحد هؤلاء الغلمان " اللذلين " دهس رجلاً بسيارته عمداً فقتله، او أصك بتلابيب ضابط شرطة في الشارع وكال له الصفحات والشتم جزافاً، او ساعد على تهريب دهن باسم نيس، فعلمنا تفعل الحكومة معه؟ لرجح الظن انها ستعذره وتغفر عنه، ولكنه لو كل من أبناء الصعاليك واخذ ينتقد الحكومة على تساهلها مع أبناء الترفين، لقامت الدنيا عليه ولم تقعد ولجعلته عبرة لغيره من اولاد الخلبات والخلبين.

ولم تكف الحكومة العيلة بذلك بل جعلت اكثر مرافق الدولة ومناصبها ومعادنها احتكراً لأولئك الغلمان " اللذلين " . ولعلها كانت ترمي بفضلات تلك المراقق احياناً إلى بعض أبناء الصعاليك من امثالي سترراً للفضيحة.

اشيع في العهد البلد ذات سنة أن القبولين في إحدى الكليات في تلك السنة كانوا فريقين، فريق منهما دخل الكلية بواسطة اصحاب الثعالي والغمامة، والفريق الآخر دخل الكلية بواسطة السيدة عفيفة اسكندر. إن هذه حكاية اشيعت، وربما كانت إشاعة غير صحيحة، وما أكثر الإشاعات من هذا النوع في ذلك العهد. ولا يهمنا ان تكون تلك الحكاية صحيحة أو غير صحيحة، المهم انها راجت وصنق بها الكثيرون، إذ هم وجدوا في محيطهم ما يدل على صحتها قليلاً أو كثيراً، وهي على أي حال قد تعطينا صورة " كاريكاتورية " عما كان يجري في البلد يومذاك من دناءات. ونحن نقسو على أبناء الصعاليك إن حين نطلب منهم ان يكونوا كلهم " عقلاء " في مثل هذا الوضع العجيب!

## التربية العلمية:

إننا إذ تذكر مساوئ العهد الجند يجب أن لا ننسى كذلك مساوئ فقهم القديمة التي ورثناها من عهود سابقة وكان لها اثر في مسح تربية الكثيرين من اطفالنا.

من خصائص التربية السلمية انها لا تقسر الطفل على ما ليس له طاقة به. ثبت اليوم أن الذكاء والمواهب العقلية على انواع مختلفة، قرب طفل لا يصلح المهنة معينة إنما هو يصلح مهنة أخرى. أما قيم التربية القديمة فهي لا تعير لهذا الأمر عناية كافية. ومن هنا وجدنا امهاتنا يطلبين منا أن نتخذ المهنة التي يشتهيها لنا من غير نظر إلى نوع تكلتنا ومواهبنا العقلية.

رحم لحنه أمي وغفر لها، انها كانت تشتهي لي أن أكون عطّاراً وأن أفتح في مهنة العطارة حتى أصبح في النهاية شيخ للعطارين. لقد كنت معجبة بعطار غني من معارفها، وكانت تريد حتى أن أتبع سبيله حدو النعل للنعل. وهذا كان من أسباب انفصالي عن المدرسة في صبي: خمسة أعوام صرت في بدايتها صانع عطار. واخفقت في 'صناعتي' هذه اخفاقاً فظيماً.

كنت مولعاً منذ طفولتي بمطالعة الكتب، ولكن العطارة استاذي المحترم، كني يعتقد بأن الكتب هي شر ما يبتلي بها كاسب يجلس على باب الله. فالكتب في نظره لا تعطي خبيراً ولا تشبع جافاً. انه كان يريد مني أن انتصب في جاستي متيقظاً لتصيد المشتريين ولقائهم بترحاب ووجه بشوش، بينما كنت في قرارة نفسي لكره المشتريين جميعاً، ولا يكاد يقبل احدهم على الدكان حتى اتعمم باللعنة عليه وعلى استاذي معه. وكنت لمتهم فرصة غياب استاذي عن الدكان لانهمك في مطالعة الكتب، ولا ابالي انذاك بمن هاتيني او يذهب عني من المشتريين. وكانت الخاطبة لن طردني الاستاذ من دكانه شر طردة...

احمد الله على هذه الطردة فقد استطعت بها ان اتفرغ إلى كتبي الصبية إلى قلبي. ولظنون اني لو بقيت عطّاراً لكنت الآن في بئر المجانين - والعياذ بان!

## هوامش الملحق السادس:

- (1) انظر: Young, Personality p. 765 .
- (2) انظر: ent. Loe .
- (3) انظر: Sutherland. Introductory Sociology. p. 149 .
- (4) انظر: روجيه باسولد، ميادىء علم الاجتماع الاديبي: ص 39 - 40 .
- (5) انظر: Benedict, Patterns of Culture, P. 72 - 80 .
- (6) انظر: محمد بن حبيب، الجبرء ص 192 - .
- (7) انظر: طه حسين، الفتية الكبرى، ج 2 ص 151 .
- (8) انظر: آغا خان، مذكرات آغا خان. ص 121 - 12 .
- (9) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 136 - 137 .
- (10) انظر: آغا خان، مذكرات آغا خان، ص 60 .
- (11) انظر: عمر أبو النصر، هارون الرشيد، ص 11 .
- (12) انظر: Bowlby, Personality and Mental Illness, p. 179 .
- (13) انظر: صبري جرجيس، مشكلة السلوك السيكوباتي، ص 258 .
- (14) انظر: سلامة موسى، عقلي وعقلاء.. ص 175 .
- (15) يوسفني في هذه الأيام أن أسمع من عهد ينشد في مدارسنا وقد ينشد أحياناً في دار الإذاعة. ليس من العجيب أن ينشد هذا التمسيد في المعهد البائد. إذ أن ذلك المعهد لم يختلف كثيراً عن عهد الرشيد أو عهد غيره من السلاطين المترفين، إنما العجيب أن ينشد في عهد جمهوريتنا الشعبية!
- (16) انظر: أحمد أمين، ضحك الإسلام، ج 1، ص 117 .

## كلمة الوداع

لا بد لي من كلمة وداع اودع بها القاريء في خاتمة كتابي هذا الذي هو، بما اعتقد  
آخر كتاب فخرجه الى الناس، ويخيل لي ان الكثيرين من القراء سوف لا ينفسون  
لهنا الوداع، ولعل البعض منهم سيفرح به.

اصدرت في العهد البائد خمسة كتب وهذا هو كتابي السادس والاخير. وقد  
اخطقت آراء القراء في كتيبي السابقة، فعنهم من اعتبرها تمهيداً للثورة وتحبباً لها،  
ومنهم من جعلها على التقيض من تلك إذ هي في نظره ليست سوى اداة لتشويش  
الأذهان ونشر الأفكار المسوسة. وليس لي ما اقله لزاء هؤلاء وأولئك شيئاً، بل  
اترك، أمري وأمرهم إلى التاريخ ليحكم فيهما بما يشاء.

وعلى أي حال فلسنت ادعي بأنني كنت في العهد البائد من الكتاب المكافحين  
المناضلين. فذلك صفة يجمل لي ان لا انسبها لنفسي، فقد ظهر في العهد البائد  
كتاب كانوا لشد مني مؤسأً وأوضح هدفاً، وهم إذن أحق مني بتلك الصفة  
الجمودة.

لا انكر اني كنت احمل شيئاً من النزعة الشعبية لو قيسارية، وقد ظهرت هذه  
النزعة في بعض كتيبي السابقة بشيء من النضوح وتهمتني بها الحكومة أحياناً.  
وانني إذ اعترف اليوم بهذه النزعة لا اريد ان فخر بها لو اتبجح، ولعل وراء النزعة  
الشعبية في نفسي دافعاً تلقياً يحفزني تحوفاً هو اني كالثالين من ابناء الشعب

عانيت من مثلة الفقر والمحرمان ما عانيت، ولهذا فإني لا استسيغ أن أرى فنة صغيرة تستكبر على الناس وتحتكر الفضل لها من دونهم.

ولست أعاري حين أقول بأن للعالم الحديث كنه متجه نحو هذه النزعة على اختلاف مذاهبه وأمونه. إنها في الواقع هدف التاريخ، وقد تختلف الأمم الآن في تفاصيل هذا الهدف أو في طريقة الوصول إليه، إنما هي لا تستطيع أن تختلف في أن الشعب سيد أمره وأن الفقير أولى بالعناية من الغني.

### السم في العسل:

وصفني أحد انستوربين في العهد الجاند بني كنت في كتيبي السابقة "اسم السم في العسل"، ولست في حاجة إلى تفسير المقصود من هذا القول في عرف ذلك العهد. فالسم كان يعني يومذاك كل ما لا يرضي عنه الحكام من إراء- واعترف أني كنت لا اتوانى عن دس "السم" في جميع ما كنت لكتبه أو أحاضر فيه، ولكني اعترف كذلك بأن كنت ادس "السم" دساً خفياً يكاد لا يبين له طعم أو ينتج الأثر المنشود منه.

لقد كنت، بعبارة أخرى، اتبع سبيل الملوغة والمنازاة في مختلف كتاباتي ومحاضراتي، أي أني كنت اتبع طريقة "كليمة ورسنة" التي ألفه بهديا في قديم الزمان. وقد جابهني لبعض يالنفذ الشديد على هذه الطريقة "لبيدلية"، فكلنا يقولون عني: أني ادور حول الفكرة دون أن ادخل في صميمها، وأخرج منها شيئاً يغير النتيجة.

هنا كله صحيح أعترف به ولا أريد أن ابريء نفسي.

كنت في العهد الجاند مثيراً بين امرين: لما أن افصح عن رأيي بصراحة تلمة فذهب إلى السجن أو ارلوع فيه والاري فانشخلص من السجن ومن مغية قطع الأرزاق، وبعد تأمل وتمحيص وجدت الأمر الثاني اجدي واصح لي وللقراء.

مهما يكن الحال، فقد لقيت كتيبي السابقة من القراء رواجاً لا بأس به على كثرة ما طبعت منها، حيث نفدت من الأسواق بعد مدة قصيرة من صدورها، ولعل

القراء وجدوا فيها، على عيبتها، بعض ما يتحسسون به أو سألون عنه - وتغريب أن الكثيرين منهم كانوا يقرؤون كتبي ويستمتعون بها في آن واحد. ويصح أن يقال عن كتبي من هذه الناحية كما قيل عن لحم السمك: 'مكول مضموم' .

### ناحية أخرى:

وهناك في كتبي ناحية أخرى لم يرض عنها بعض القراء هي اتباع طريقة التشكيك، حيث كنت أكثر من فستعمل "لعل" و"ربما" وما أشبه عند إبداء رأي من الآراء. إن هذه طريقة مارستها في حياتي الجامعية واعتدت عليها طويلاً حتى صار من الصعب التخلص منها. وهي في الحقيقة مما يفرضها المنهج العلمي على كتب وباحث في العصر الحديث.

مشكلة بعض كتابنا أنهم اعتادوا على طريقة أخرى هي طريقة الحزم والتأكيد وإصدار الأحكام القاطعة التي لا يجوز الشك فيها، وهي طريقة ورثناها من عهود قديمة حين كان النهج "العقلي" يسيطر على الأذهان. ذم مفاهيم هذا النهج للقديم اعتبار العقل البشري قلعاً على اكتشاف الحقيقة المطلقة بتفكيره المجرد، ولهذا أصبح من حق الفكر عند اكتشافه للحقيقة المطلقة أن يصير حكمه للقاطع فيها وإن يعد جميع الآراء المخالفة لحكمه غير صحيحة. وقد نشرت في فصل سابق من هذا الكتاب إلى مبلغ الخطأ في هذا المفهوم "العقلي" للقديم.

يوسفني أن أرى بعض الناس في هذا العصر، وفي هذا الجند بالذات، يريدون من الكتاب أن يكتب لهم على طريقة 'مما لا شك فيه' و'مما لا يتلزع فيه' 'ثالثاً'، فهم يؤمنون ببعض الآراء إيماناً جازماً ثم يطلبون من الكتاب أن يجاريهم فيها، فإن امتنع الكاتب عن ذلك ارتابوا في نهته واشتموا منه.

مثلم في ذلك كمثل الرجل الريفي الذي يجد أخاه مقتولاً، فهو يسرع إلى خصوم أخيه يريد قتلهم حالاً وهو موقن بأنهم هم الذين قتلوا أخاه. فإن جاء محققون علمون يتعمون في التحري عن القاتل طريقة التشكيك والبحث الموضوعي، فإن الرجل الريفي سيرتلب منهم لو بغضب عليهم، ولعله سيتهجمهم بالتحيز نحو الخصوم.

## قراء عهد الثورة:

اشتمت في مقدمة الكتاب الى ان ذوق القراء قد تبديل في عهد الثورة عما كان عليها قبلها، فبعد ما كان القراء يقبلون على كتبي وكتب أمثلي إذا بهم اليوم يقبلون على مؤلفين من نوع جديد. وليس هنا لتبديل في ذوق القراء بالأمر لغريب، إذ هو يقع إبان كل ثورة تقريباً. وقد حشنا التاريخ عن كثير من المؤلفين الذين كان لهم رواج في الجهود السابقة للثورات، فلما قامت لثورة فحلاً قبعوا في بيوتهم لا يعرفون كيف يكتبون أو يفكرون.

من طبيعة كل ثورة أنها تنتج في أبناء الشعب حماسةً كبيرةً لتشيدها. وهذا الحماس يحتاج إلى مؤلفين من نوع جديد يجزون الناس في حماسهم ويتخذون لهم أساليباً مفعماً بالأحكام الفاتحة والتوجيه الصارم، أما المؤلف الذي اعتاد على أسلوب ما قبل الثورة من حيث اتباعه لطريقة التشكيك، أو الماراة فإنه يجب ان يرضخ للواقع ويتنازل عن مكانته السابقة يقدمها راضياً إلى اصحاب الأسلوب الجديد. أما إذا أصر على الاحتفاظ بمكانته فإن التيار سيسحقه، وأبرز في الدنيا كتير الزمن من ساحق جباراً.

قد يظهر في بعض فنرات التاريخ مؤلفون قادرين على تغيير أسلوبهم تبعاً لتغيير الأحوال، ولكن هؤلاء قليلون أو نادرون. عثرت مثلاً في الآونة الأخيرة على كتاب للأستاذ لينين كان قد كتبه في العهد القيصري ثم وضع له مقدمة جديدة بعد القضاء على ذلك العهد، وقد كتب لينين في مقدمته يقول انه أخذ بعين الاعتبار خطر الرقابة القيصرية حين لفت كتابه، وأنه التزم منتهى الحر عند صياغة الملاحظات السياسية حيث سلك فيها سبيل التلميح على طريقة "ليزوب"<sup>(1)</sup>. وقد يسأل القارئ عن "ليزوب" هذا الذي ذكره لينين. إن "ليزوب" شخص شبه خيالي نسب إليه التعريق القدماء حكايات رمزية من طراز حكايات كليلة ودمنة.

معنى هذا ان لينين استطاع ان يغير أسلوبه بعد لثورة عما كان عليه قبلها. وهذا يجب ان لا ننسى ان لينين كان زعيم حزب وصاحب مبدأ قبل ان يكون مؤلفاً. وهو بهذا يختلف عن المؤلفين المحترفين من أمثال كاتب هذه السطور. إننا نريد ان نكتب لكي نعيش، بينما هو يعيش من أجل حزبه ومبادئه. هو عبقري ونحن من سطر الناس حيث قد نخشى على أنفسنا وأولادنا حتى من عواء الكلاب.

## سوق الكتب:

اتفق لأحد المؤلفين ان اخرج كتاباً في فترة خاصة من الزمن ، فراج الكتاب رواجاً كبيرةً. وظن المؤلف ان الناس اقبلوا على كتابه عاجلاً بنسبته وتفكاره "العبقريّة" ، وأسرع بخروج كتاباً آخر فلم يلق من القراء سوى الصدود. عند هذا أخذ المؤلف بنمي على القراء فلة اكثرانهم بالعمفريات.

لا يصح لي ان اكون مثل هذا الرجل ، فالغرور ماه وبيل يؤذي صاحبه اكثر مما يؤذي غيره. وقد قلت في كتاب "لسطورة الأذب الرقيق" ان الناس يقبلون على شراء الكتب كما يقبلون على شراء حذاء لو آية بضاعة أخرى من بضائع السوق. فليس في الأمر تشجيع للعمفريات او تشييط لها. والمؤلف في هذا كصاحب الدكان إذ هو يخرج للناس ما يريدون منه لا ما يريد هو منهم. وقد يتحول القراء من كتاب إلى آخر تبعاً لتغير الظروف. وما على المؤلف إذن إلا ان يجاريهم في ذلك، أو يفتح في بيته نوح ويسترخ.

## الأدباء والتجارة:

لقد استهجن بعض الأدباء هنا القول مني حين قرؤوه في كتاب "لسطورة الأذب الرقيق" . فالكتب في نظرهم لا يجوز ان يكون تاجراً إذ ان التجارة عندهم مهنة شائنة وهي إذن غير لائقة بآرب الأذب الرقيق؛

ورث اخواننا الأدباء هنا الرأي من عهدهم لسلطانية البائدة كما لا يخفى. فقد كان الأدباء في تلك العهود يعيشون على فصلات موائد السلاطين وأعوانهم من المترفين، ويقلدونهم في أذلتهم ومغاهيمهم وكان السلاطين وأعوانهم يحتقرون التجارة ومختلف أنواع العمل الفتح باعتبارها من أعمال الأذلاء الخانعين<sup>(2)</sup>

ولهذا وجدنا الأدباء يفضلون ان يكون احدهم شحداً يستجدي للرزق في باب اسياده على ان يكون تاجراً يكسب للرزق بمرق جبينه. ولا تزال بقية من هذه الفكرة موجودة لدى بعض الأدباء حتى يوم الناس هذا، فهم يحترمون من يتزلف للمترفين بفصلته او كتبه بينما هم يحتقرون من يبيع تفكاره في سوق الكتب.

لقد تبدلت مفاهيم الناس في هذا الزمن، ولكن اخواننا الأدباء لا يزالون متمسكين بمغاهيمهم السلطانية القديمة. إنهم لا يزالون يحسون ان التجارة

معناها الغش والخداع. وما دروا أن هذه صفة التجار الذين يعتمدون في تجارتهم على رشوة الأمراء والمترفين وعلى التزلف إليهم<sup>(١)</sup>. أما التاجر الذي يعتمد في عمله على نفسه دون معونة من أرباب الجاه والسلطان فهو لا يستطيع أن ينجح في تجارته إلا إذا كان أميناً صادقاً. وهنا هو الذي يجعل الناس يقبلون عليه ويطلبون إلى معاملته.

### البضائع المادية والفكرية،

مما يجدر ذكره أن هناك فرقاً من هذه الناحية بين تجارة البضائع المادية وتجارة البضائع الفكرية. إن للبضائع المادية معاهير واضحة يستطيع المشترون أن يقيسوا بها جودة البضائع وبغضولوا بعضها على بعض فيها. أما البضائع الفكرية فليس لها مثل هذه العليير الواضحة، وكثيراً ما يختلف الناس عليها وينقسمون فيها إلى مدرج وذام تبعاً لما يخالج نفوسهم من اتجاهات اجتماعية ونفسية.

وهنا هو الذي اتاح لبعض الغشاشين من تجار الأفكار أن ينجحوا في بعض الأحيان، لكنهم مع ذلك لا يستطيعون أن يستمروا في نجاحهم زمناً طويلاً. فلا بد لغشهم من أن يتفصح في يوم ما بعد أن يتتقف للناس ويتمكنوا من التمييز بين الفصح والطلح من الأفكار.

إن التاجر الأمين من باعة الأفكار يعرف هنا كل المعرفة ويدرك بأن الغش في بيع الأفكار مضر بمصلحته الدائمة. وليس معنى هنا أنه يجب أن يكون مصيباً في جميع أفكاره. إنه على الأقل يجب أن يكون مؤمناً بصحة الفكرة عند تقييمها إلى الناس. إنه بعلمه أخرى يبيع الفكرة على نفسه قبل أن يبيعها على غيره. ولا بأس عليه أن يتحول عن تلك الفكرة بعد أن يتبين له وجه الخطأ فيها. حسب من ذلك له مقتنع بصحة رايه مرة بعد مرة. ولا يهمه أن يعترف بخطئه بعد كل مرة.

والتاجر الأمين قد يضطر إلى اتباع سبيل الداراة والمراوغة عند حدوث ما يخشى منه على نفسه أحياناً. إنما هو لا يندفع في هذا السبيل إلى حد الغش والخداع. ولعله عند ذلك يفضل أن يسد مكانه على أن يبيع للناس البضاعة الغشوشة.

ما أخشى منه:

لا ازعج نفسي اني كنت في كتيبي السليفة من حراز هذا للتاجر الأمين. ولكني

استطيع ان ادعي بانى حاولت ان اثنى به جهد امكافى. وقد فلتت منى. على الرغم من ذلك، فلتت غير مضمومة لا تزال نائماً عليها.

ومهما يكن الحال، فقد كتبت في العهد البئد كثيراً دون ان اخرجها الى الناس، ولو كنت قد اخرجتها فعلاً لكان مأوياً في عملاق السجون. واظن انى لا يستطيع ان اخرجها في هذا العهد الجديد ايضاً.

منا اود ان اصرح القارئ بقول قد لا يرتضيه منى، هو انى كنت في العهد البئد اخشى من غضب الحكام، وقد لصحت في العهد الجديد اخشى من غضب "الغوغاء". وارجو من القارئ ان لا يسيء فهم قولي هذا. فالغوغاء ظاهرة اجتماعية موجودة في كل مجتمع، شهدنا اثرها في العراق كما شهدناه في مختلف البلاد والجمعات. وكلما اشتد الجهل في بلد ازاد خطر الغوغاء فيه.

وقد نشر الى خطر الغوغاء مفكرون لا نشك في نزعتهم الشعبية والديمقراطية. نشر اليه ماركس وانجلز في "البيان الشيوعي"، واشار اليه علي بن ابي طالب قيل مئات السنين، حيث قال عن الغوغاء انهم همج رعلج يعفون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريع، وقال عنهم كذلك انهم الذين اذا اجتمعوا ضروا وانا تفرقوا نفعوا<sup>(4)</sup>

مما يلفت النظر ان بعض مفكرينا في عهد الثورة اخذوا بمنعوضون من الإشارة الى الغوغاء اعتقاداً منهم ان الغوغاء جزء من الشعب لو هم الشعب ناته. وهذا خطأ من شفه ان يؤدى احياناً الى عواقب اجتماعية ضارة.

لواقع ان الشعب غير الغوغاء، فإزادة للشعب تتمثل في القرارات لهائنة الرصينة التي تتبعث من مصلحة الاكثرية، اما الغوغاء فتكثيراً ما تظهر اصولتهم بشكل هياج مغموم لا رابع له ولا هدى فيه. لا ننكر ان الشعب والغوغاء قد يظهران في جبهة واحدة في بعض الأحيان، ولكن هذا لا يجيز لنا ان نخلط بينهما في جميع الأحيان.

سمعت عن بعض الفضائح التي اقترفها الغوغاء في بعض مناطق العراق، وقد رولها لي نقاة كانوا شهود عيان فيها، فكنت لا اصدق بها ليهول بشاعتها. فقد يهجم الغوغاء رجلاً وهو على مراى من اهله وزوجته واولاده فيقطعونه بالخناجر

وبفقوون عينه ويجرونه بالحبل بينما هو يستغيث بهم ويتضرع إليهم دون جدوى. وقد حصل احد الغوغاة بيده ساطوراً يهاجم به من يعرف او لا يعرف، وهو قد يهوي بالساطور على وجه المسكين وكففيه وصدره كانه يضرب وسادة من سن.

إن أكثرية الناس من أبناء الشعب لا يستطيعون هنا ولا يتحملون سماعه. وقد لا يتحمل بعضهم رؤية فلر يعذب امامه أو طير يذبح. وتلك لعمرى طبيعة كل انسان سوي يحمل في قلبه شيئاً من الرحمة. ومهما كلن الانسان شعيباً في نزاعه فإنه لا يستطيع أن يتطرف في نزعته الشعبية إلى هذه لدرجة قعجية.

### دناءة الغوغاء

جىء إلى الإمام علي بن ابي طالب في يوم من أيام خلافته، برجل اقترب نداءً. وكان الرجل محاطاً بجماعة من الغوغاء يهرجون حوله ويحاولون الاعتداء عليه. فصاح فيهم الإمام فلئلاً: "لا مرحباً بوجوه لا تتركى إلا عند كل سواة".

وحدث في شخصياً. ذات يوم، ان شهدت جماعة من الغوغاء يجرون بالحبل جثة شخص ويمثلون بها فلم ار فيهم رجلاً يحترم نفسه. عند هنا تذكرت قول الإمام الانف الذكر، فهؤلاء الذين يقومون بمثل هذا العمل القذبح لا يتوقع منهم عادة ان يكونوا مواطنين صالحين. انهم من سفلة الناس وحقالاتهم. وقد دلت الأبحاث الاجتماعية الحديثة ان الكثيرين منهم يندفعون في افعالهم الغوغالية تحت تأثير دوافع دنيئة كالمسة في اعماق نفوسهم<sup>(5)</sup> فهم لا يستطيعون أن يحققوا تلك الدوافع في اللوقات الاعتيادية، ولهذا نراهم يحتظرون الفرصة المؤاتية لهم، وقد نلتهم فرصة اثناء المظاهرات والانتفاضات الشعبية، فيدسون انفسهم بين صفوف تشعب ويستغلون فترة المجلس السائد فيتدفعون في القتال وانتلة وهم فرحون مستبشرون.

إن الشعب مؤلف من افراد طبيعين يعانون من شظف العيش أشد العباء. ويقضي قواجب علينا أن نرعى هؤلاء ونسعى جاهدين في رفع مستواهم المعلني والاجتماعي، ولكن هذا لا يجوز ان يحفرنا إلى رعاية كل لنيم سفك بحجة انه من ابناء الشعب.

## وجهة نظر:

اعتاد الحكام في العهود السلطانية اليلدة على احتقار لشعب واعتباره كله من الغوغاء، وكانوا يتهمون كل زعيم شعبي بأنه مهرج غوغائي، وقد نكرت هنا في أحد كتبي السابقة واطهرت جوانب الخطأ فيه<sup>(6)</sup>. إنه في الحقيقة رأي يمثل وجهة نظر الطبقة الظللة المستكبرة. وقد دأبت هذه الطبقة على نشر الرأي بين الناس لكي تدعم به امتيازاتها وشرفها. فلتشعب في نظرها جاهل اعتكسي وهو إذن لا يستحق أن يتسلم زمام الحكم بيده أو يناقسها عليه.

ونحن إذ نعترف اليوم بخطأ هذا الرأي لا يصح أن نتطرف في رد الفعل تجاهه بحيث نجعل كل تجمع غوغائي كله من صميم الشعب الذي يجب علينا احترامه.

كان حكام العهد البلد يصفون الشعب كله بأنه غوغاء وصار البعض منا في عهد الثورة يصف الغوغاء كلهم بأنهم يمثلون الشعب. وقد ضاعت الحقيقة الوسطى بين هؤلاء وأولئك!

اطلق ماركس على الغوغاء اسم "لومب بيروليتاريا" وقصد به تلك العناصر المتفسخة انهترنة التي تعيش على هامش الطبقة العاملة، وهو يصفهم بقوله: "هذه الحشرات الجامدة، خنالة بمنى جماعات الاجتماع القديم، فقد تجرهم ثورة البروليتاريا إلى الحركة، ولكن ظروف معيشتهم وأوضاع حياتهم تجعلهم أكثر استعداداً لبيع أنفسهم إلى الرجعية"<sup>(7)</sup>. إن هذا قول صحيح جداً. فالغوغاء الذين شهدهم متحمسين اليوم للثورة قد ينقلبون غداً إلى أعداء الباء لها إنا قدر للثورة أن تنتكس لا سمح الله.

## أنا والغوغاء:

لست أقول هنا جزئياً، فقد خيرت خطر الغوغاء وابتكرت مبلغ نفاقهم عندما أخرجت كتاب "وعاظ السلاطين" عام 1954.

كنت أبتغي من كتاب "وعاظ السلاطين" تنقية الدين مما لحق به من أدراك سلطانية أئمة، فالدين في أصل طبيعته حركة ثورية، ولكن السلاطين ووعاظهم وجلالوتهم حرفوه عن طبيعته الأولى فجعلوه وسيلة للتخدير والطاعة العمياء، ومهما يكن الحال فقد هاج الغوغاء على كاتب هذه السطور هياجاً عجبياً ومددوه

بالبقتل غير مرة وثليوث ثلياً قبيحاً. ولم يتردد بعضهم عن رؤيته في أحلامهم  
يسق إلى نار الجحيم مصحوباً بلعنة الله وملائكته اجمعين.

كانوا يقولون في: كيف يجوز لك أن تصف النبي واصحابه الميامين وأهل بيته  
الأطهار بقتلهم ثوار مع العلم أن الثورة مشتقة من "الثور" وأنها عصيان لأمر الله  
ودعوة إلى الفتنة والفوضى. وصرت تجاه قولهم هذا في موقف حرج، حيث لم  
أستطع من جهة أن أفصح لهم عن طبيعة الثورة بمعناها فعلمي الحديث قيودي  
ذلك إلى غضب الحكام، ولم أستطع من الجهة الأخرى أن أسكت فيتصالح الغوغاء  
في هياجهم، وأمسيت من جراء ذلك كمن بلغ للموسى إذ هو لا يقدر على إخراجه من  
بلعومه ولا على إدخاله فيه.

ومن العجيب حقاً أن زكى أفراداً من أولئك الغوغاء الذين كانوا يرومون قتلني في  
نلك الحين سترين الآن في الاتجاه المعاكس، إذ هم يرومون قتل خصومي، ولست  
أدري ماذا سوف يفعلون في الأيام المقبلة؟ لرجح لظن أنهم سيحاولون عسكراً قتلني  
وقتل خصومي في أن واحد.

### خطر الشبان المتحمسين:

هنا اناس آخرون أخشى من خطرهم مثلما أخشى من خطر الغوغاء، هم أولئك  
الشبان المتحمسون الذين تألوا من الثقافة الحديثة قسماً قليلاً أو كثيراً، وهؤلاء في  
تظري، أخطر من الغوغاء أحياناً، إذ هم يحاربون بسلاح البراهين العقلية والعلمية.  
وهذا السلاح، كما قلت، في فصل سابق، قد يكون لوخز عاقبة من السلاح المصنوع  
من الحديد.

مشكلتهم أنهم يدرسون قليلاً ويجهلون كثيراً، وهم إذا اعتنقوا فكرة معينة  
اكتفوا منها بحفظ نصها الشكلي وأخذوا يصولون به ويحولون، وربما هناجموا بها  
أي رأي لا بحجيجهم ولو كان من صلب الفكرة التي يزعمون الدعوة إليها.

وهم قد لا يففون عند هنا الصء، بل نراهم يتبعون سبيل الحدة والعبوس  
والظلمة في كل جدل يثار معهم، وقد يسرع أحدهم إلى للهمة المقلدة بغدفاً بها  
في وجه من لا يجاريه في رايه وربما عمد إلى إهانتة والاعتداء عليه. إنهم لا يدرون  
لنهم بعملهم هذا يتفرون للناس من الدنيا الذي يتحمسون في سبيله.

ان الإنسان بوجه عام ذو قلب وعاطفة أكثر مما هو ذو عقل ومنطق، وطالما وجدنا الناس يأخذون عن أي مبدأ الصورة التي يرون تبعاع عليها، إلا كل نوايا، لانتفاع غير صالحين في سلوكهم ضد الناس ان البناء نفسه غير صالح، وكثيراً ما تضع الحقيفة على يد اصحابها من جراء ذلك!

يقول القران ناصداً اتباعه الأولين: 'ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، إرفع بالتي هي احسن فإن الذي بيئك وبينه عداوة كانه وتي حميم' (١٨١) وما أخرى شبلنا ان ينتفعوا بهذه النصيحة التي جاء بها القران قبل مئات السنين.

### توضيح ضروري:

أرجو أن لا يفهم القارئ من هنا اني أقصد به شبان حزب معين من احزابنا للتصارع في هذه الأيام فالذي نكرته بصديق على كثير من شبان التحمسين من كل حزب وفي كل بلد، لا سيما في هذا البلد الأمين!

لو اتبع لأي حزب أن يتصر في فترة من فترات الزمن لعل شبانه مثلما فعل شبان حزب آخر، فقد مررت بنا نحارب متنوعة اختبرنا بها الشبان من شتى الأصناف والألوان فوجدناهم لا يختلفون في سلوكهم كثيراً عندما يشتد بهم حملهم. وما انا فانا الآن لسمع عن سلسلة من الاعتدات الصارخة يقوم بها عضلات من الشبان في بعض مناطق بغداد، ان هم يركبون الدراجات يبخنون بها عن صيد لهم في زوايا الشوارع لكي يشعوه ضرباً وتكديلاً، ولو اتحت لهؤلاء فرصة كافية لا تردوا عن القيام بأبشع الأعمال والمفطوح.

### قادة الأحزاب:

يعاني قادة الأحزاب في هذه المرحلة لصاخبة مشكلة طاحنة. ونحن نظلمهم حين نحملهم مسؤولية جميع الأعمال التي يقوم بها اتباعهم، إنما يجب ان نتكلم لهم أكثر مما بلوهم.

إنهم يحانون عين المشكلة التي علناهم قبلهم قادة الكيان والعتقاد والأحزاب في العصور المختلفة، فالرجل منهم يقع بين أمرين كلاهما مز. فهو إما ان يتساهل مع اتاعه فيندفعون في حملهم اندفاعاً طلقاً ضاراً، أو يتشد معهم فيقل حماسهم وتضعف قوتهم.

عما يحذر ذكره ان كل حزب من الأحزاب يكسب قوته من كثرة اتباعه. وتكثرت  
الاتباع حين يتكثرون فد ينسب إليهم الانتهازي والسفك والطمش. وقد لحزب  
يقع في خيرة مرصية من جراء ذلك. وهو لا يدري أي جانب يأخذ من دينك  
الجانبيين. ورب لتدفاع قابل منه في أحد الجانبين يؤذي إلى انتكاس الحزب وفشله.

فتيح لي أن اتحدث إلى بعض قادة الأحزاب عندنا فزيت فيهم كثيراً من اللطف  
والمروءة والجدل الهادئ الرصين. وقد قص لي احدهم كيف انه حاول في إحدى  
المرات ان يخفف من حماسة اتباعه وان يرشدهم إلى طريق الاعتدال، فلم يسمعوا  
له او يأنهوا. وهناك قصة أخرى يرويها الكثيرون عن رجل معروف من رجال حزب  
معين: انه كان بين حشد من اتباع حزبه، واخذ يصرخ فيهم ناصحاً مرشداً،  
فانهلوا عليه بالضرب المبرح وكانوا يقتلونه. فنقد رلوه سعيماً منتفخ الأوداج  
فحسبوه من ارباب الأقطاع او من وكلاء الاستعمار. ولو لم يتقنه بعض اصحابه  
من نهمهم الباطشة لكان اليوم مدفوناً تحت التراب يرحم الناس عليه ويتسفقون  
لموته.

### فذلكة اجتماعية:

حدثنا لتاريخ عن كثير من الحركات والانتفاضات الشعبية التي ظهرت في الأمم  
المختلفة قديماً وحديثاً. وقد وجدنا في معظم هذه الانتفاضات غوغالية مقيتة  
وحماساً طكشاً. ولكن الذي يجب ان لا ننساه في هنا للصد هو ان الغوغالية  
والحماس يختلفان في نتائجهما باختلاف طبيعة المجتمع الذي ينشأ فيه.

ففي الثورة الفرنسية شهدنا المفاضل تنصب ويساق إليها العمد الغفير من  
الآبرياء واللدنيين زرافات ووحداً، وكانت الجماهير تجلس حول المفاضل تضحك  
على ضحاياها وتتفرج على للطريقة التي يذبحون بها كانتها كانت تتفرج على  
مسرحية جعلية.

لم تنصب للمفاضل في ثورتنا كما نصبت في الثورة الفرنسية، إنما استخدمت  
فيها الجبال والضناجر والهاويات والقتلي. ولو استمرت فترة الحماس في ثورتنا مدة  
أطول لربما شهدنا فيها أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله.

ويحدثنا الرواة عما جرى في الصين إبان ثورتها لكبرى، ففي عام 1951 مثلاً

ظهرت في الصين حركة شعبية أطلق عليها في اللغة الصينية اسم "سن فن" وو غز' وكان القصد بها تطهير البلاد من الخونة ومفسدي جهاز الحكم. فقد كان الناس يتجمعون أحياناً أمام مخزن بعد ان تلصق لحكومة عل وأجهته اءلانا بتهمة معينة، ويشمر صاحب الخزن بالخزي للكبير فيركع على الأرض مطرق الرأس، وإذا سيق إلى المحكمة أحاط الناس به يهيمونه أو يقدفونه بالطماعة والبيض الفلسد.

ومهما فعل أهل الصين بعزل هنا المتهم فإنهم لا يجزؤون على مهاجمته بالسلطور أو على جره بالحبال، أقصى ما يقومون به نحوه أنهم ينتظرون أن تصدر المحكمة حكمها عليه، وقد يطالبون أثناء ذلك بتشديد العقوبة عليه أو إعنائه. وكثيراً ما يعترف المتهم بذنبه ويعلم التوبة فيطلق سراحه ويرجع إلى بيته آمناً.

لظاهر ان لأهل الصين تراثاً اجتماعياً يمنعهم من التطرف في حملتهم الثورية إلى الحد الذي شهدناه عندنا. وربما صح القول بأننا انفعنا في حملتنا إلى درجة ينذر أن نجد لها مثيلاً في بلد آخر.

سمعت احد شبابتنا يقول مفاخراً: "إن الشعب العراقي امتاز على الشعوب الأخرى بايتكاره لطريقة السحل". واست ادري: مبلغ هنا القول من الصحة، ولكنني اتحسى من صميم قلبي أن لا يكون صحيحاً، فالأمم اليوم تبتكر الوسائل للصعود إلى القمر والمريخ، بينما نحن نفتخر بابتكارنا وسائل المثلة والتعذيب.

### ما وراء الأحزاب:

اشتد الصراع الحزبي عندنا في هذه الأيام، ولخذ كل حزب يشتم خصومه وينسب إليهم للتطرف والطميش واقتراف الجرائم. وقد ضاعت للحقيقة لعلمية في هذا الصراع العنيف.

في رأيي أننا ينبغي ان لا نتمارى في شتلنا لحزبية بحيث نخفل عما يخفتي وراء الأحزاب من طبيعة اجتماعية. فالحزب الذي ينسب الأعمال الفظيعة إلى خصومه لا يدري أنه هو نفسه قد يقوم بها، أو يجزء منها على الأقل، لو سئحت له الفرصة اللانعة. فهو يعيش في نفس المجتمع الذي يهش فيه خصومه، وهو إن مصاب بعين العلل التي أصيب بها من يعيشون في مثل ظروفه.

خذ على سبيل المثال تلك الفضائح الشهيرة التي حدثت في كركوك. فهي قد صارت لدى الكثيرين منا كقميمص عنان، حيث أخذ البعض منا يقلل من شأنها أو يفض النظر عنها، بينما أخذ البعض الآخر يببالغ فيها ويزخرف في روايتها. وهم جميعاً ينظرون إليها من وجهة نظر حزبية ضيقة فيهملون ما فيها من ناحية اجتماعية عامة. ولعل البعض منهم اتخذ فيها موقف القداماء من قميمص عنان إذ هم يتباكون عليه "بغضاً لعل لا حياً بمعزوية".

لا يجوز لنا أن ننكر ما حدث في كركوك وفي غيرها من فضائح. وهي كانت، ولحق يقال، بشعة جداً لا يستطيع أن يتجاهل أمرها إنسان يشعر بكرامته. ولكننا مع ذلك لا يجوز أن نعزوها كلها إلى هذا الحزب أو ذلك. فالأفراد الذين قاموا بها كانوا من لغوغاء والشعياں التحمسين. وهم كانوا قبل كل شيء عراقيين، ولا استبعد منهم أن يقوموا بها مرة أخرى بتثيرة أي ناعق ينعق أو ديج تعيل.

إنها ليست مشكلة احزاب يعقدار ما هي مشكلة مجتمع مريض تلودت عليه الأدواء والمصائب على مدى تجيال متعاقبة. ونحن إذ نهمل النظر إليها من هذه الناحية قد نساعد على تكررها في بلدنا مرة بعد مرة، وفي ذلك من الضرر يثورنا ما فيه.

يقوئون أن وراء مجازر كركوك بياً اجنبية. وهذا قول صحيح تدعمه قرائن لا يستهان بها. ونحن إذ نعترف بصحة هذا القول يجب أن نعترف كذلك بأن تيد الأجنبية لا تؤثر في مجتمع ما لم تجد فيه مجالاً لتأثيرها. فهي تلقي الشرارة الخبيثة على الناس، وما لم يكن في الناس مجال لاندلاع النار انطفأت الشرارة حال انطلاقها.

### طبيعة الشعوب:

إذا كان لكل فرد من الناس شخصية خاصة به يتميز بها عن غيره، فإن لكل شعب من شعوب العالم كذلك طبيعته الخاصة أو ملبعه الذي يختلف به عن بقية الشعوب. ومثلما يكون للشعب، أي شعب، طبيياً في بعض صفاته قد يكون رديناً في صفاته الأخرى. فليس في الدنيا شعب كامل كما ليس فيها بشر معصوم.

قد لا يستسيغ هذا القول بعض شبابنا التحمسين. فقد تكونت لديهم في هذه

الأيام " حساسية " شديدة نحو لشعوب. وهم يريدون مناه حين نذكر الشعب العراقي بصفة خاصة، ان معجده تمجيداً ناعماً ونعزوه له فضل البشر كلها.

اتفق لي في عام 1951 ان اخرجت كتاباً صغيراً بعنوان " شخصية الفرد العراقي " قلت فيه ان الشعب العراقي ذو شخصية مزدوجة. ومن طريف ما اذكره في هذا الصدد اني لغيت بعد قيام الثورة بيوم واحد شيئاً متحمساً كان في الماضي من اصحابي القريين، ولكنني وجدته في ذلك اليوم غائباً لا يحب ان يكافئني. وقد تحقق لي انه صار يكرهني بعد قيام الثورة مباشرة. لاحظت ذلك عيه حين اخذ يوبختي ويسأل: " كيف يجوز ان يكون هذا الشعب اعظم مزبوج لشخصية يا ترى؟ " - علم احد له جواباً إلا بان اعترض اليه قائلاً: " اني قد لانت في حق هذا الشعب العظيم، واستعطف الله واتوب اليه " .

لا انكر ان هذا الشعب وامثله مخلصون فيما يقولون ويفعلون، انهم متحمسون في تنفيذ الثورة، وهي ثورة عزيزة علينا جميعاً إذ يجب ان نعمل في سبيلها ما نستطيع. ونحن وان كنا نؤيد الشبان في حملتهم تلك ولكننا لا نستطيع ان نجاريهم فيها إلى الدرجة التي نهمل واجبا العلمي فيها.

ان الثورة تحتاج إلى البحوث العلمية كما تحتاج إلى التنفيذ الحملي. والواقع ان الشبان المتحمسين لهم وظيفة غير قليلة في كل ثورة، انهم وقود الحركة فيها ومبعث لهيبتها المتوقد، ولا يد لكل حركة من ان يكون لها وقود لكي تستطيع السير به على منوال ما تفعل السفينة البخارية، ولكن السفينة تحتاج في الوقت ذاته إلى ربابنة حكماء يضعون الوقود في محله منها ثم يوجهونها نحو الهدف المنشود، والا فهي قد تدفع في حركتها المثلثة نحو شهلاك<sup>(9)</sup>

### الشعب العراقي:

نرجو من شباننا ان يدرسوا طبيعة شعبهم قبل ان يتحمسوا في سبيله، فربما كان الحماس الشديد ضاراً بهذا الشعب اكثر مما هو ضار بكل شعب آخر.

عاش الشعب العراقي زمناً طويلاً تحت وطأة ظروف اقتصادية وسياسية جائرة، وتحمل سياط الجلاوزة فيها بصبر عجيب، ومما يجدر ذكره ان الشعب العراقي لم يتحمل الظلم خلال اربعين عاماً فقط، كما يحلو لبعض كتابنا ان

يقولوا. الواقع أنه تحمّل الظلم على مدى مئات السنين، ولم يكن العهد العثماني، لو عهد المغولي والتتري، خيراً من العهد الملكي لثباته على أي حال. صحتي هنا أن لشعب العراقي قد اعتاد خلال هذيك العهود للبغيضة على اخلاق ليس من السهل عليه التخلص منها فور قيام الثورة فيه.

والشعب العراقي من الناحية لثنية قد اعتاد على فظاق اخرى جاءت من لصحراء، وهذه الاخلاق، كما لا يخفى، تختلف من حيث اسبابها ونتائجها الاجتماعية عن تلك التي نشأت تحت سياط الجلوزة.

لعلني لا اغالي انا استنتجت من ذلك ان القوم العراقي بوجه عام اصبح ذا شخصيتين مختلفتين. فهو في احدى شخصيته بدوي شديد الالباء سريع الغضب، وهو في شخصيته الثانية حضري خانع يكثر من الشكوى ولعقب على الزمان، وهو يتخذ لية واحدة من هاتين الشخصيتين تبعاً للظروف الصالحة به.

نجد هنا واضحاً في الشخص الامي الجاهل، خصوصاً حين يتناول الخمرة وتخرج بها طبيعته لكلمة من اعماقه. فتراه عندئذ يتغنى بتغاني العويل والشكوى ولعله يبكي تائراً بها، إنما هو لا يكاد يسمع في من حوله بادرة احتقار له حتى يتقلب دفعة واحدة الى اسد مصور فيشهر خنجره ويريد ان يسقط به "قبول السبع".

وهذا للشخص قد لا يتردد ان يفعل مثل ذلك في حياته الاعتيادية احياناً. إنه قد يواجه سياط الجلوزة بالشكوى الى ربه من ظم لظالمين، حتى انا مشي خطوات ورك من هو لضعف منه صار يدور "جلوازاً" ونسي «تعتذ ربه لالكريم.

إنه بعبارة مختصرة يسلك سلوك البدوي لغالب قارة وسلك الحضري المغلوب تارة اخرى، والظاهر انه اعتاد على هذا الازدواج في شخصيته منذ زمان بعيد حتى صار لديه تقليباً اجتماعياً لا داعي لعجب منه<sup>(10)</sup>

### استدراك

لم يكن قصدي من هذا القول ان للشعب العراقي كله من طراز ذلك الامي الجاهل، ان للشعب العراقي فضائل ليس من السهل علينا انكارها، وهو في ذلك لا

يختلف عن بقية الشعوب من حيث احتوائه على المحاسن والسلوك معاً. ولكن الذي أريد أن ألفت النظر إليه هو وجود أفراد بيننا يتوضح في سلوكهم تراثنا الزرديج وضوحاً شديداً، إذ هم يجعلون في أعماق أنفسهم عتجية البدوي، وختوع الحضري في أن واحد. وهؤلاء هم الذين يلفون جمهور "الغرغاء" عندنا، لا سيما بعد قيام الثورة. فقد وجدناهم من أكثر الناس فسوة وتمثيلاً بالأموات. بينما كانوا قبيل ذلك من أكثر الناس ختوعاً وبكائاً على الأموات.

شهدت ذات يوم جماعير غفيرة تملأ شوارع يخاد وهي تهتف بالسلام وتكاد تذوب هيماً به، ولكنها كانت في الوقت ذاته تحمل الحبال تهدد بها من لا يؤيدها في دعوتها السلمية. إن دعوة السلام جذيرة بأن يدعو بها كل إنسان يحمل في قلبه شيئاً من الرحمة، فهي تتبعث من لزكى عواطف الإنسان ومثله العليا. والمفروض في دعائها أن يلتزموا فيها سيميل الحسنى واللين، ولكننا وجدناهم في العراق يغالون فيها إلى الحد الذي يخال للناظر إليهم فيه كذهم من دعاة الحروب.

هناك وقطع أخرى عديدة استطعت جمعها بعد قيام الثورة، وهي تدل على مبلغ الأزدواج للتغلغل في نفوس البعض منا. ولست ادعي بأن الرأي الذي جنت به في تفسير هذا الأزدواج هو الصواب بعينه. فربما كنت مخطئاً فيه. فنه على أي حال محاولة ببلانية قد تخطئه أو تصيب. والخطأ في هذا الشأن طريق الصواب!

### اعتراض وجيه:

رب قلل يقول لي، إن هذا المنهج الذي تتبعه في التحري عن عيوب شعبنا قد يضر بنا في هذه المرحلة الاجتماعية التي نمر بها، فالشعب الذي يركز نظره على عيوبه قد يصبح ضعيف الثقة بنفسه، وفي ذلك توهين لقوة الشعب تجاه أعدائه الواقفين له بالمرصاد.

إن هذا القول صحيح، وهو الذي جعلني أحجم عن التلification والكتابة في عهد جمهوريتنا الزاهر. ولكني مع ذلك أستطيع أن أقول بأن التطرف في اتباع هذا القول قد لا يخلو من ضرر بالشعب كذلك. فلنا كان البحث في العيوب الشعبية يضعف ثقة الشعب بنفسه فقد يكون فتكتم عن تلك العيوب والستر عليها مضعفاً للشعب من جهة أخرى، إذ هو يؤدي به إلى الطيش والحماس الزائد.

إن الشعب الذي لا يعرف تقاضيه ولا يدرك مكان الضعف في نفسه لا يسهل عليه أن يكون قوياً إزاء أعدائه. وتدعو الكامن في داخل النفس ربما كان نشأ خطراً من العدو التربص لها في الخارج.

إننا إذا ألفينا في روح الشعب بلته شعب كامل ثم صدق الشعب بما نقول أنه كان تلك من أسباب الغرور فيه. ولعله سيندفع بنوره بما ينفع الأعداء ويفتح لهم في صفوفه ثغرة ينفذون منها إلى الاعتداء عليه مرة أخرى.

لقد ذهب زمان الغرور الشعبي كما ذهب زمان الغرور القومي قبله. ويؤسفنا أن نرى الناس يلامسون يتهموننا بـ "الشعوبية" لأننا لا نجاريهم في غرورهم القومي، واحسبهم اليوم يتهموننا بـ "الرجعية" لأننا لا نجاريهم في غرورهم الشعبي.

### خطأ شائع:

يزعم بعض المفكرين منا أن لا حاجة لنا بلبحث عن عيوب شعبنا إذ هي في نظرهم عيوب نشأت عن ظروف اقتصادية بلتده، ونحن نتبدل تلك الظروف فنفتش معها عيوب للشعوب حالاً، فلا مشكلة تبقى إذن، ولاهم يحزنون!

إن هذا رأي كان له أتباع كثيرون في السنوات الماضية يتعصبون له ويدافعون عنه بحماس شديد. ولكن هؤلاء الأتباع أخذوا يقلون تدريجاً في الآونة الأخيرة بعدما أظهرت الأبحاث الاجتماعية للصحة خطأ رأيهم<sup>(11)</sup>

هناك رواسب فكرية واجتماعية ترسبت في أعماق نفوسنا على مدى أجيال عديدة. وليس من الممكن زوالها حالاً بمجرد تغيير نظامنا الاقتصادي والسياسي. إنها ليست طفحاً طارئاً نشأ في يوم واحد حتى يمكن إزالته في اليوم الثاني. أرجح الظن أنها ستبقى فعالة تؤثر في سلوكنا مدة طويلة. ولعلها ستصبح ركيزة لكل من يبتغي الكيد بنظامنا الجديد مرة بعد مرة.

نحن نحتاج إلى ثورة فكرية واجتماعية مثلما نحتاج إلى ثورة سياسية واقتصادية. ونحن لا ننتظر من ثورتنا أن توصل السير في طريقها المنشود ما لم

نرث الشعب إلى ما يكمن في عقولهم الباطنة من رانسب قديمة تنخر في كيانهم لاجتماعي وتعرقل عليهم سبيل الحياة.

### وزير ثوري:

بعا احد وزراء المعارف في عهد الثورة جماعة من الاساتذة إلى الاجتماع به في مكتبة بديوان الوزارة. وكان غرضه من هنا الاجتماع هو ان تكون ثورتنا فكرية واجتماعية مثلما هي ثورة سبلسية واقتصادية. وقد طلب الوزير من الحاضرين ان يقوموا بواجبهم نحو هذه الثورة.

لقد كانت من الوزير فكرة عظيمة اعجب بها الحاضرون ووعده بالتبهد. وكنت لنا من بين الحاضرين، وقد وعدت للوزير بمثل ما وعده به زملائي الاخرون، ولكنني نكنت بوعدتي اخيراً. مع الأسف الشديد!

اعود فاقول ما قلته سابقاً، هو اننا اليوم في حاجة إلى كتاب من نوع اخر غير هذا لنوع الذي يتفهد سيادة الوزير. فهذا اولن كاتب يندفع في صيانة الجمهورية بلسلوبه الصارم البليغ، وليس هو اولن كاتب "بارد" يقف على قتل متفجعاً يتحرى عن العيوب فيصيب فيها مرة ويخطيء مرات.

### عبد الكريم قاسم:

يجدر لي قبل ان انتهي من كلعة الوداع هذه ان اشير إلى موقف الزعيم عبد الكريم قاسم في هذه الرحلة الاجتماعية الهامة من تاريخنا. فلقد اعلن الرجل غير مرة انه فوق الميول والاتجاهات، ولعتقد انه صادق فيما قال. ولكنني مع ذلك لا استطيع ان اعد موقفه هنا خالياً من القنعة والحراجة.

انه ليس قائد حزب إنما هو قائد بلد تنصارع فيه الأحزاب، وهو إن معرض للصيرة أكثر من تعرض أي قائد حزبي لها. وكلما تأملت في حراجة موقفه هنا شعرت بالثقل للهلل الموضوع على عاتقه. ساعده لهذا

انه لا يستطيع ان يتجاهل اهمية الحماس الشعبي في تنفيذ الثورة التي تكاد عليها الأعداء، وهو لا يستطيع كذلك ان يجاري هذا الحماس إلى الدرجة التي اندفع بها المتعصبون المتسرعون. بين يديه من جهة بلد يحتاج إلى استقراره وبين يديه

من الجهة الأخرى ثورة تحتاج إلى تأييد، ولا بد للرجل من أن ينظر في هذه الجهة تارة وفي تلك الجهة تارة أخرى.

إني لشعر بالحجز في سياسة صف واحد من الطلاب حين يشتد الجدل بينهم، فكيف بالرجل وهو يقود ثورة كبرى كثورة 14 تموز وفي مجتمع كالمجتمع العراقي، ومهما يكن للحال فإننا يجب أن نحضي رؤوسنا اعترافاً بما وهب للرجل من مهارة في قيادة سفينة البلد بين هاتيك الأمواج المتلاطمة.

## هوامش كلمة الوداع:

- (1) انظر: ليتين، الاستثمار اعلى مراحل الرأسمالية، ص 5 - 6 .
- (2) انظر: Veblen, Theory of Leisure Class .
- (3) اصرف من التجار "بعوانا" لهم مخزن كبير في شارع الرشيد وهم من اكبر الناس عشاً ودناءة في تجارهم ولكنهم نجحوا في العهد البائد نجاحاً كبيراً. إنهم قد اعتمدوا في نجاحهم على التزلف إلى وجهاء الدولة ووزرائها برشونهم ويقدمون لهم البضاعة الغالية بالتمن البهس. ونحن نأمل أن يفتتح هؤلاء وامثالهم بعد انقشاع غمة ذلك العهد الظالم البيض.
- (4) انظر: محمد عبد، نهج البلاغة، ج 3 ، ص 198 .
- (5) انظر: Young, Social Psychology, p. 397 .
- (6) انظر: علي الوردى، حوارق اللاشعور، ج 1 ، ص 272 - 273 .
- (7) انظر: ماركس وانجلز، البيان الشيوعي، ص 28 .
- (8) انظر: القرآن، سورة السجدة، آية 34 .
- (9) أود أن انتهز هذه الفرصة لكي أبدي شكري نحو طلابي في الكليات المختلفة. لقد وجدت في أكبر هؤلاء الطلاب روحاً علمية ومهلاً إلى الجدل العلمي الرصين، ولولا ذلك لاضطرت إلى ترك التدريس كما اضطرت إلى ترك التأليف والكتابة.
- (10) انتقد بعض الأمانة اصطلاح "الشخصية المزدوجة" الذي جئت به في وصف القرود العرفي، إذ هو في نظرهم اصطلاح غير علمي. إنني أرجو من هؤلاء الأمانة الفضلاء أن ينظروا في الاصطلاح من حيث تصويره لواقع الحال لا من حيث صحته اللفظية. فإنهم عندي هو صحة المعنى لا صحة اللفظ.
- (11) انظر: ابراهيم كبة، نظرة سريعة في تطور النظام الاقتصادي، ص 19 وانظر: عاونسي توتغ، حول الثامن، ص 45 - 46 .

## الفهرست

5	..... مقدمة
29	..... القسم الأول: الاحلام والعقيدة
31	..... الفصل الأول ، آراء القنماء في الاحلام
37	..... الفصل الثاني ، آراء المسلمون في الاحلام
43	..... الفصل الثالث ، اثر الاحلام في المجتمع الاسلامي
53	..... الفصل الرابع ، تأثير الاحلام في العقائد الاسلامية
65	..... القسم الثاني : الآراء الحديثة في الاحلام:
67	..... الفصل خامس ، رد العقل
71	..... الفصل السادس ، عقلمة فرويد
76	..... الفصل السابع ، الاحلام والطبيعة البشرية
82	..... الفصل الثامن ، العقل لباطن
92	..... الفصل فتاسع ، فرويد والرغبات البشرية
100	..... الفصل العاشر ، فرويد والاحلام المؤلمة
110	..... الفصل الحادي عشر ، التنويم الاجتماعي
121	..... الفصل الثاني عشر : الاحلام فكيشوتيه
141	..... القسم الثالث : العلم وخوارق الاحلام
143	..... الفصل الثالث عشر ، تنبؤات الاحلام
155	..... الفصل الرابع عشر ، تنبؤات الاحلام ( تابع )
167	..... الفصل الخامس عشر ، احلام التنويم المغناطيسي
182	..... الفصل السادس عشر ، عبقرية الاحلام

201	..... الملاحق :
203	..... انلحق الاول ، مهزلة فلعقل لبشرى
219	..... انلحق الثاني ، بين الممكن والمستحيل
235	..... انلحق الثالث ، الخلية الساسة
254	..... انلحق الرابع ، ماهو اللاشعور؟
275	..... انلحق الخامس : بين الجنون والعبقرية
282	..... انلحق السادس ، الجنون والمجتمع
313	..... كلمة الونداع

 المكتبة الألكترونية الشاملة pdf  
لرفع ونشر الكتب  
يوسف الرميض



 المكتبة الألكترونية الشاملة pdf

لرفع ونشر الكتب

يوسف الرميض

## هذا الكتاب

ان الموضوع الذي يتناوله الكاتب ويبحث فيه بشكل علمي وتاريخي جميل هو الاحلام .  
موضوع مثير بمادته ومحتواه لانه يمس جميع الناس على كافة مستوياتهم .

يبحث الكاتب الاحلام من الناحية الاجتماعية واثرها على المجتمع ، ويستعرض بعض آراء القدماء في الاحلام وكذلك آراء المسلمين واثرا الاحلام في المجتمع الاسلامي وتأثيره في بعض العقائد الاسلامية الى درجة يصيح العلم مسلماً به لا امتراض عليه .

ثم يتناول الكاتب الآراء الحديثة في الاحلام واهم النظريات التي تعالج الموضوع في ضوء علم التحليل النفسي وعلم الباراسكولوجي . وكذلك النظريات الجارثية "الغيبية" لذا فان القارئ سوف يجد متعة وفائدة جمّة في هذا الكتاب .

الناشر

التوزيع



بيروت

صمم الغلاف: محمد نقي مرتضى  
لوحة الغلاف: بديع محمد

هاتف 865126 - ص. ب 135261 - بيروت .